

مختارات

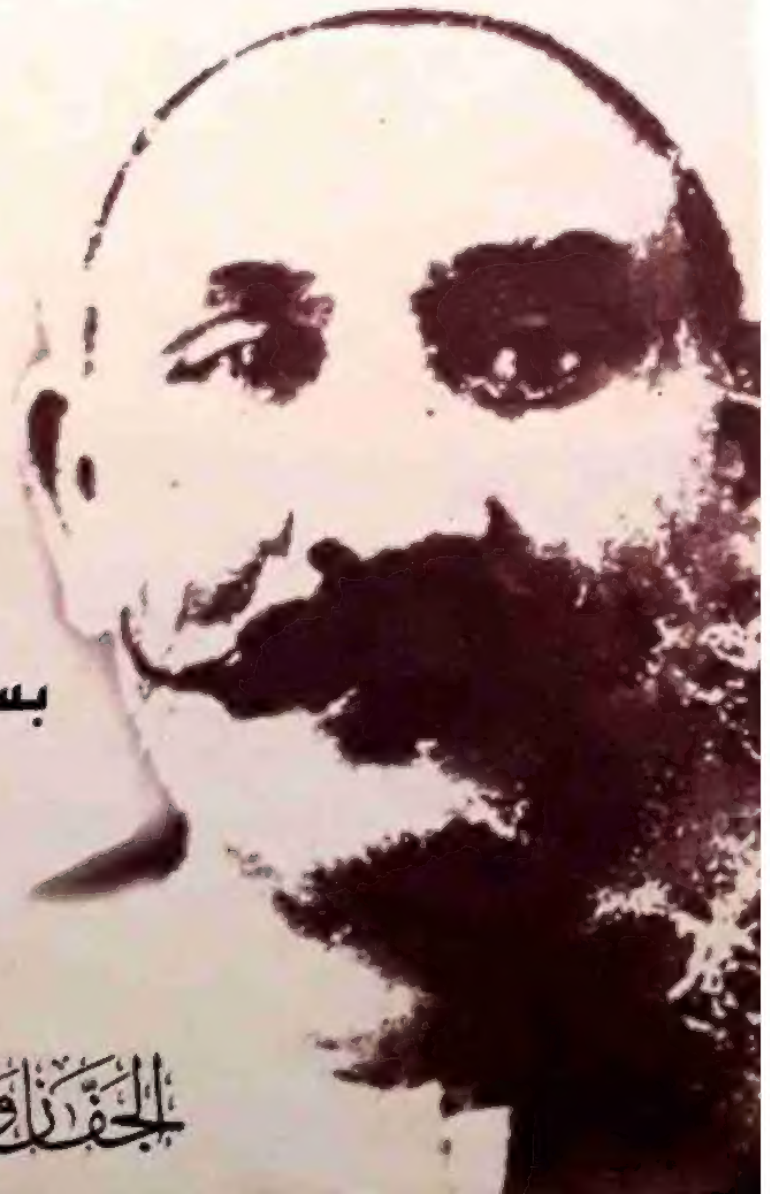
المنفلوطي

جمعه

مصطفى لطفي المنفلوطي

بعناية

بسام عبد الوهّاب الجابي



دار ابن حزم

الجفّة ذوالجنيّة

مختارات
المنفلوطي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مختارات المنفلوطي

جمعة
مصطفى لطفي المنفلوطي

بناية
بسام عبد الوهاب الجابي

دار ابن حزم

الجفرا في الجفرا
للطباعة والنشر

حُقوقُ الطَّبعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبعةُ الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

الجفان والجبي
للطباعة والنشر

AL-JAFFAN & AL-JABI

Printers - publishers

JAFFAN TRADERS P.O.Box: 54170 - 3721 Limassol - CYPRUS

Fax: 357 - 5 - 591160 Phone: (05) 583345

<http://www.jaffan.cqm/> - E-mail: hj@jaffan.com

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص ١٤/٦٣٦٦ - تلفون : ٧٠١٩٧٤

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ترجمة المؤلف:

مصطفى لطفي المنفلوطي

(١٢٨٩ - ١٣٤٣ هـ = ١٨٧٢ - ١٩٢٤ م)

مصطفى لطفي، هو ابن محمد لطفي بن محمد حسن المنفلوطي.

نابغة في الإنشاء والأدب، انفرد بأسلوب نقي في مقالاته وكتبه.

له شعر جيد فيه رقة وعذوبة.

ولد في مَنفَلُوط من مدن الوجه القبلي بصعيد مصر، غلب عليه النسبة إليها، فعُرِفَ واشتهر بها؛ من أسرة حسينية النسب؛ مشهورة بالتقوى والعلم، نبغ فيها من نحو مثني سنة قضاة شرعيون ونقباء أشرف.

حفظ القرآن وهو في الحادية عشرة من عمره، ثم دخل الأزهر، فبقي فيه عشر سنوات يدرس علوم الدين واللغة.

واتصل بالشيخ محمد عبده اتصالاً وثيقاً، وسجن بسببه ستة أشهر لقصيدة قالها تعريضاً بالخدوي عباس حلمي سنة ١٨٩٧م، وقد عاد من سفر، وكان على خلاف مع محمد عبده، وهي [من الطويل]:

قُدُومٌ وَلَكِنْ لَا أَقُولُ سَعِيدُ
وَمُلْكٌ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى سَيَبِيدُ
رَحَلْتَ وَوَجْهُ النَّاسِ بِالْبِشْرِ بِاسْمٍ
وَعُدْتَ وَحُزْنٌ فِي الْقُلُوبِ شَدِيدُ
عَلَامَ التَّهَانِي هَلْ هُنَاكَ مَائِرُ
فَتُحَمَّدُ أَمْ سَغِي لَدَيْكَ حَمِيدُ
تُذَكِّرُنَا رُؤْيَاكَ أَيَّامَ أَنْزَلْتَ
عَلَيْنَا خُطُوبَ مَنْ جُدُودِكَ سُودُ
رَمَثْنَا بِكُمْ مَقْدُونِيَا فَأَصَابَنَا
مُصَوِّبُ سَهْمٍ بِالْبِلَادِ شَدِيدُ
فَلَمَّا تَوَلَّيْتُمْ طَغَيْتُمْ وَهَكَذَا
إِذَا أَضْبَحَ التُّرْكِيُّ وَهُوَ عَمِيدُ

فَمَا قَامَ مِنْكُمْ بِالْعَدَالَةِ طَارِفٌ
وَلَا سَارَ مِنْكُمْ بِالسُّدَادِ تَلِيدُ
كَأَنِّي بِقَضْرِ الْمُلْكِ أَضْبَحَ بَائِداً
مِنَ الظُّلَمِ وَالظُّلْمِ الْمُبِينُ يَبِيدُ
وَيَنْدُبُ فِي أَظْلَالِهِ الْبُومُ نَاعِباً
لَهُ عِنْدَ تَرْدَادِ الرُّثَاءِ نَشِيدُ
أَعْبَاسُ تَرْجُو أَنْ تَكُونَ خَلِيفَةً
كَمَا وَدَّ آبَاءُ وَرَامَ جُدُودُ
فَيَا لَيْتَ دُنْيَانَا تَزُولُ وَلَيْتَنَا
نَكُونُ بِبَطْنِ الْأَرْضِ حِينَ تَعُودُ

وابتدأت شهرته تعلقو منذ سنة ١٩٠٧ كما يقول
الزركلي، وذلك بما كان ينشره في جريدة «المؤيد» من
المقالات الأسبوعية تحت عنوان «النظرات».

وولي أعمالاً كتابية في وزارة المعارف (سنة
١٩٠٩م)، ووزارة الحقانية = العدل (سنة ١٩١٠م)،
وسكرتارية = أمانة سر الجمعية التشريعية (سنة ١٩١٣م)،
وأخيراً في سكرتارية = أمانة سر مجلس النواب، واستمر
إلى أن توفي يوم الخميس في ١٢ يونيو/ حزيران
١٩٢٤م = ١٠ ذي الحجة ١٣٤٢هـ.

كان له زوج، أصابها رَمَدٌ أضعف بصرها، فلم يذخر وسعاً في تسليتها والحدب عليها، حتى إنه كان يكلفها أعمالاً لا يقوم بها إلا المبصرون ليوهمها أنه لا ينكر عليها من نظرها شيئاً، وإن أرذت أن تعرف خلقه معها وكيف كان يتعامل معها راجع آخر مقال «الوفاء» في «النظرات» ١٤٠/٢ حيث تستشف منه ذلك.

وإذا كنت تريد التعرف على المَنفَلُوطِي أكثر، فراجع آخر مقال «السياسة» في كتاب «النظرات» ٨٦/٢ حيث عَرَفَ بنفسه.

ترجماته:

كان يجهل اللغة الفرنسية التي ترجم منها، فكانت تترجم له أصول مترجماته بلغة غير مهذبة، فيلخصها ويتصرف فيها ويُعيد بناءها، بل بعضها كان مسرحية فجعلها رواية! كما فعل في «الشاعر» و«في سبيل التاج»، ومن الذين كانوا يترجمون له الدكتور محمد عبد السلام الجندي الذي ورد اسمه في أول «الشاعر» أنه هو الذي قام بالترجمة. كما أن الأستاذ محمود خيرت المحامي ترجم لبرناردِين دي سان بِيير Bernardin de St. PIERRE مؤلف «الفضيلة أو پول وفيرجيني» Paul et Verginie، ولعله هو الذي ترجم الأصل للمَنفَلُوطِي. لكن هذا لا ينقص من قيمة ما كتبه، ولعل قراءة ما كتبه الدكتور عبد الرحمن بدوي في مذكراته: «سيرة حياتي» يعطي القارئ صورة أوضح عما أريد بيانه عن طريقته في

الترجمة وقيمة عمله بالنسبة للمقارئ العربي؛ قال في الجزء الأول الصفحة: ٢٧ و ٢٨:

«وَأَبَانَ السَّنَةَ الثَّانِيَةَ فِي مَدْرَسَةِ فَارِسْكُورِ الْإِبْتِدَائِيَّةِ
 انْبَعَثْتُ فِي نَفْسِي نَزْعَةً حَادَّةً إِلَى الْأَدَبِ، بَلْ وَإِلَى
 التَّأْلِيفِ! فَأَرْسَلْتُ إِلَى شَقِيقِي الْأَكْبَرِ الَّذِي كَانَ طَالِباً فِي
 السَّنَةِ النَّهَائِيَةِ بِالمَدْرَسَةِ الشَّعْبِيَّةِ الثَّانَوِيَّةِ فِي الْقَاهِرَةِ (الْجِزَةِ)
 كِي يُوَافِينِي بِكِتَابِ «مَاجْدُولِينَ» لِلْمَنْفِلُوطِيِّ؛ لِأَنِّي كُنْتُ
 مُعْجَباً بِأُسْلُوبِهِ. فَوَافَانِي بِهِ، وَرَخْتُ أَلْتِهْمُهُ التَّهَامَا،
 وَأَسْتَظْهَرُ الْكَثِيرَ مِنْ صَفَحَاتِهِ ذَاتِ النَّفْحَةِ الشُّعْرِيَّةِ،
 وَاسْتَعَدْتُ قِرَاءَتَهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ خِلَالَ ذَلِكَ الْعَامِ (سَنَةِ
 ١٩٢٧م) وَأَنَا فِي سِنِّ الْعَاشِرَةِ. وَكَانَ لَهُ تَأْثِيرٌ بَالِغٌ فِي
 أُسْلُوبِي وَفِي مَشَاعِرِي. وَظَلَّ هَذَا التَّأْثِيرُ مَدَى طَوِيلًا، حَتَّى
 بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ أُسَالِيبَ أُخْرَى وَأَطْلَعْتُ عَلَى رَوَائِعِ الْأَدَبِ
 الْعَالَمِيِّ. وَلَا أَزَالُ أَحِنُّ، حَتَّى الْيَوْمِ، إِلَى مَعَاوِدَةِ قِرَاءَةِ هَذَا
 الْكِتَابِ. وَلَمْ تُنْقِصْ قِرَاءَتِي لِأَضْلِيلِ الْفَرَنْسِيِّ مِنْ إِعْجَابِي
 بِتَلْخِيصِ الْمَنْفِلُوطِيِّ هَذَا لِرِوَايَةِ «تَحْتَ ظِلَالِ الزِّيْزَفُونِ»
 (سَنَةِ ١٩٣٢) تَأْلِيفِ أَلْفُونْسِ كَارِ (١٨٠٨ - ١٨٩٠).
 صَحِيحٌ أَنَّ الْفَارَقَ كَبِيرٌ بَيْنَ الْأَصْلِ وَالتَّلْخِيصِ، وَأَنَّ الْعَدِيدَ
 مِنَ الصَّفَحَاتِ الْمَوْجُودَةِ فِي تَلْخِيصِ الْمَنْفِلُوطِيِّ لَا مُنَاطِرَ

لها في الأصلِ الفرنسي، والعكس بالعكس. ولكن المنفلوطي بنزعته الرومنكية [الشاعرية] المثالية لم يشأ أن يَبْقِيَ على ما في الأصلِ الفرنسي من أعمالٍ شائنةٍ منسوبةٍ إلى بطلِ الرواية: استيفن، حتَّى تَظَلَّ صورتهُ مثاليةً رفيعةً، زاهيةً الألوان، جامعةً لأجملِ الشَّمائلِ، إنَّ المنفلوطي لم يَكُنْ يُترجمُ - وما كانَ له أن يفعلَ ذلكَ، لأنَّهُ لم يَكُنْ يَعْرِفُ آيَةَ لُغَةٍ أجنبيَّةٍ - وإنَّما كانَ يشاركُ المؤلِّفَ الأجنبيَّ الَّذي يُلَخِّصُ له كتابه، في التَّأليفِ والصِّياغةِ...
 إنَّ لأسلوبِ المنفلوطي سِحْراً لا يَعْرِفُهُ إِلَّا الشُّبابُ المُرَهَّفُ الحَسَّاسَةُ» ا هـ.

وإن أردنا أن نعرف رأي المنفلوطي في الترجمة فلنرجع إلى نهاية مقال «البيان» من «النظرات» أول الجزء الثالث، حيث يقول: إنني لا ألوم العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغات الأعجمية على أمرهم، فأصبحوا إذا ترجموا تَرْجَمُوا ترجمة حرفية ليس فيها ممِّيز واحد من مميزات العربية، ولا خاصة من خواصها؛ وإذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربيٍّ الحروف أعجميٍّ كل شيء بعد ذلك!

مؤلفاته:

- «الشاعر أو سيرانو دي برجرارك» Cyrano de Bergerac
تأليف: إدمون روستان Edm. Rostand.
- «العبرات» هي قصص بين مترجمة ومؤلفة، طبعت
مجموعة لأول مرة سنة ١٩١٥م.
- «الفضيلة أو پول وفيرجيني» Paul et Verginie تأليف:
بُرناردِين دي سان بِيير Bernardin de St. pierre.
- «في سبيل التاج» Pour la couronne تأليف: فرانسوا
كوبيه François Coppee.
- «مجدولين أو تحت ظلال الزيزفون» Sous le tilleul
تأليف: ألفونس كار Alfons KARR.
- «مختارات المَنفَلُوطِي» طبع الجزء الأول فقط سنة
١٩١٢م، بمطبعة المعارف بمصر القاهرة. قال عنها
بطرس البستاني في «أدباء العرب» ٢٦٨/٣: مجموعة
شعرية اختارها لطلاب المدارس، ولم يطبع منها إلا
جزء واحد، مع أنها تبلغ ثلاثة أجزاء. اهـ. بل هي،
إضافة لما سبق، مجموعة نصوص شعرية ونثرية تفيد
الطالب الإعدادي والثانوي، وكذلك الجامعي في
تعريفه بالشعر واللغة والبيان والأدب عامة، جمع فيه
جَيِّد المنظوم والمنثور، منذ القديم إلى الحديث، في
كل فن من فنون العرب وأغراضها، تفيد الطالب في
تهذيب بيانه وتقويم لسانه وصقل عقله، وتعريفه بفضل
لغته وقيمتها.

وهو يختلف عما أصدره أحد الناشرين باسم «مختارات المنفلوطي» إذ اختار من كتب المنفلوطي بعض الاختيارات، ومن بعده تداول الناشرون طباعته.

— «النظرات» وهي أسبوعياته التي كانت يكتبها في «المؤيد» وفيها ما هو مترجم ليس من تأليفه. وقد أعيدَ طباعة «النظرات» لدى الجفان والجابي للطباعة والنشر، ليماسول، قبرص؛ بثلاثة مجلدات، تَضُمَّتْ كاملَ النصِّ المتداول والذي يعيد الناشرون طباعته، مضافاً إليه نصوصاً كانت بالأصل ضمن «النظرات» ثم حُذِفَتْ، فأعيدت في هذه الطبعة؛ مع زيادة ضَبْطٍ وتَصْحيح. واستكمالاً لترجمة المنفلوطي، فإنِّي أوردُ ما نشره المنفلوطي نفسه في مقدِّمة «النظرات» كترجمة له بقلم أحمد بك حافظ عوض.

ترجمة الكاتب

بقلم حضرة الكاتب المشهور
أحمد بك حافظ عوض
[١٢٩٤ - ١٣٧٠ هـ - ١٨٧٧ - ١٩٥٠ م]

نسبه:

وُلِدَ السَّيِّدُ مصطفى بن محمد بن محمد بن حسن بن محمد بن لطفي في مدينة منفلوط من مُدُنِ الْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ فِي جَنُوبِ مِصْرَ سَنَةِ ١٨٧٦ مِيلَادِيَّةَ الْمَوَافِقَةِ لِسَنَةِ ١٢٩٣ هِجْرِيَّةَ، مِنْ أَبَوَيْنِ كَرِيمَيْنِ، يَنْتَهِي نَسَبُ أَوْلِيَاهُمَا إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَثَانِيَهُمَا إِلَى أُسْرَةِ چورنجي التركية المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤمل، وَأُسْرَتُهُ لِأَبِيهِ فِي مَدِينَةِ مَنْفَلُوطِ أُسْرَةٌ مَشْهُورَةٌ بِالشَّرَفِ وَالتَّقْوَى وَالْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، وَأَكْثَرُ أَفْرَادِهَا مِنْ نَحْوِ مِثْنِي سَنَةِ قِضَاءِ شَرْعِيَّوْنَ وَنُقَبَاءِ أَشْرَافٍ، وَوَالِدُهُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ لُطْفِي قَاضِي مَنْفَلُوطِ الشَّرْعِيِّ الْيَوْمَ وَعَيْنَ أَغْيَانِهَا.

دراسته:

خَرَجَ مِنَ الْمَكْتَبِ حَافِظًا لِلْكِتَابِ الْكَرِيمِ فِي سَنَةِ

١٨٨٨ ميلادية، فأدخله والده مدرّسة الأزهر الشريف كجميع أفراد أسرته، فما مرّت به سنوات قلائل حتى عُرِفَ بَيْنَ أقرانه بالذكاء والفطنة وسلامة الذوق في الفهم. ثُمَّ نَزَعَتْ به نَفْسُهُ إِلَى مَذْهَبٍ فِي التَّعْلِيمِ غَيْرِ الْمَذْهَبِ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْأَزْهَرِيُّونَ فِي دِرَاسَتِهِمْ. فَكَانَ لَا يُطَالِعُ دُرُوسَهُ فِي الْكُتُبِ الْأَزْهَرِيَّةِ إِلَّا عَلَى صُورَةٍ تَكْفُلُ لَهُ فَهْمَ جَوَاهِرِ الْمَوَاضِيْعِ وَالتَّثَبُّتَ مِنْ حَقَائِقِهَا، غَيْرَ حَافِلٍ بِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ عَادَةً مِنَ الْمُنَاقَشَاتِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْمِنَازَعَاتِ الْقِشْرِيَّةِ، فَكَانَ لِهَذِهِ الْخُطَّةِ فِي التَّعْلِيمِ أَغْظَمُ تَأْثِيرٍ فِي سَلَامَةِ ذَوْقِهِ وَصِفَاءِ ذِهْنِهِ، وَأَصْبَحَ لَهُ مُتَسَّعٌ مِنَ الْوَقْتِ يُنْفِقُهُ فِي دِرَاسَةٍ مَا يَتَيَسَّرُ لَدَيْهِ دِرَاسَتُهُ فِي كُتُبِ الطَّبِيعَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَدَبِ وَالْحِكْمَةِ حَتَّى غَلَبَتْ عَلَيْهِ الْعِلُومُ، خُصُوصاً الْأَدَبَ مِنْهَا، وَشَغِفَ بِهَا عَمَّا سِوَاهَا شَغْفاً مَلَكَ هَوَاهُ وَأَسْتَأَثَرَ بِلَبِّهِ، فَعَلَتْ مَدَارِكُهُ، وَصُقِلَتْ مِرَاةُ ذِهْنِهِ، وَهَتَفَ بِنَظْمِ الْقِطْعِ الشُّعْرِيَّةِ وَالْجُمَلِ النَّثْرِيَّةِ، وَضَمَّنَهَا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُضَمِّنَهَا إِيَّاهُ مِنْ فُنُونِ الشُّعْرِ وَأَفَانِينِ الْقَوْلِ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْأَدَابِ وَالْإِنْتِقَادِ وَالْوَصْفِ.

وَلَكِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي بَادِيِ الْأَمْرِ كَمَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ، لَا كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ.

ثم لحق بعد ذلك بالمرحوم الشيخ محمد عبده،

وَلَصِقَ بِهِ لُصُوقَ الْوَلَدِ بِأَبِيهِ، وَأَكْثَرَ مِنْ مُصَاحَبَتِهِ فِي دَرْسِهِ
وَمَنْزِلِهِ وَمَقْدَمِهِ وَمُنْصَرِفِهِ عَشْرَ سِنِينَ كَامِلَةً، فَكَمُلَ مِنْ
عِلْمِهِ مَا كَانَ نَاقِصًا، وَنَضَجَ مِنْ أَدَبِهِ مَا كَانَ غَيْرَ نَاضِجٍ.
وكَانَ الْأُسْتَاذُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَعْجَبُ بِهِ كُلُّ الْإِعْجَابِ،
وَيُثْنِي عَلَى ذِكَاثِهِ وَفِطْنَتِهِ الثَّنَاءَ الْجَمِيلَ، وَيُعَلِّلُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ
سَيَكُونُ مِنْ أَفْضَلِ الْمُتَنَفِّعِينَ بِعِلْمِهِ وَالنَّاشِرِينَ لِمَبَادِيهِ
وَتَعَالِيمِهِ. وَمَا زَالَ هَذَا شَأْنُهُ مَعَهُ حَتَّى لَحِقَ الشَّيْخُ رَحْمَةُ
اللَّهِ عَلَيْهِ بِرَبِّهِ، فَحَزِنَ عَلَيْهِ الْمُتَرْجِمُ حُزْنًا شَدِيدًا حَمَلَهُ
عَلَى هَجْرِ الْأَزْهَرِ وَسَفَرِهِ مِنَ الْقَاهِرَةِ وَأَنْزَوَائِهِ فِي بَلَدِهِ
مَنْفَلُوطَ بُرْهَةِ مِنَ الزَّمَانِ كَادَ يَنْسَاهُ النَّاسُ فِيهَا، حَتَّى
طَلَعَتْ طَلَانِعُ رَسَائِلِهِ الْمَشْهُورَةِ فِي جَرِيدَةِ «الْمُؤَيَّدِ» سَنَةِ
١٩٠٨م، فَالْتَفَتَ الْقَارِءُونَ لَهَا، ثُمَّ زَحَفُوا إِلَيْهَا، ثُمَّ
تَزَاخَمُوا عَلَيْهَا تَزَاخُمَ الْإِبِلِ الْهَيْمِ عَلَى وَرْدِهَا، فَكَانُوا
يَعُدُّونَ لَهَا أَيَّامَ الْأُسْبُوعِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَيَتَرَقَّبُونَ لِرُؤُوسِهَا مَا
يَتَرَقَّبُ الضَّالُّ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ مِنَ الْفَجْرِ الطَّالِعِ،
وَالظَّامِئِ فِي الْمَهْمَةِ الْقَفْرِ مِنَ الْغَيْثِ الْهَامِيعِ؛ فَكَانَتْ تَرْدُ
عَلَيْهِ الرِّسَالُ الْعَدِيدَةُ عَشْرَاتٍ وَمِثَالٍ مِنْ أَدْنَى مِضَرٍ إِلَى
أَقْصَاهَا، وَمِنْ كَافَّةِ الْأَقْطَارِ الْعَرَبِيَّةِ، مُتَضَمِّنَةً الْأَسْئَلَةَ
الْمُخْتَلِفَةَ فِي الْحَوَادِثِ وَالْوَقَائِعِ وَالْمَسَائِلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ

وَالْأَخْلَاقِيَّةَ. فَأَضْبَحَتِ الْأُمَّةُ تَعُدُّهُ مَنَارَهَا الَّذِي تَهْتَدِي بِهِ
 فِي ظُلُمَاتِ الشُّبُهَاتِ، وَمَوَازِلِهَا الَّذِي تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي حَلِّ
 الْمُسْكَلاتِ؛ وَلَا أَظُنُّ أَنَّ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ لَهَجَتْ بِبَيَانِ كَاتِبِ
 وَجَمَالِ أَسْلُوبِهِ وَدِقَّةِ مَسْلِكِهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْآخِرِ شَغَفَهَا
 بِرَسَائِلِ الْمُتَرْجِمِ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ
 فَاجَأَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْأُسْلُوبِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ بِمَا لَا عَهْدَ
 لَهُمْ بِمِثْلِهِ إِلَّا فِي رَسَائِلِ بُلْغَاءِ الْكُتَّابِ الْأَدَبِيَّةِ،
 وَمُرَاسِلَاتِهِمُ الْخُصُوصِيَّةِ؛ بَعْدَمَا تَلَوَّثَتْ أَقْلَامُ أَكْثَرِ الْكَاتِبِينَ
 فِي الصُّحُفِ بِاللَّهْجَةِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ تَارَةً، وَالصَّحَافِيَّةِ تَارَةً
 أُخْرَى.

أَخْلَاقُهُ:

أَمَّا أَخْلَاقُهُ، فَانْقِبَاضٌ عَنِ النَّاسِ، وَوَحْشَةٌ يَحْسَبُهَا
 الرَّائِي صَلَفًا وَكِبَرًا، وَمَا هِيَ إِلَّا بِالصَّلَفِ وَلَا الْكِبَرِ، وَلَكِنَّهَا
 الرِّزَانَةُ وَالْوَقَارُ وَالْأَنَفَةُ وَالْعِزَّةُ، وَالْبُعْدُ عَنِ سَفَاسِفِ الْأُمُورِ
 وَصَغَائِرِهَا، وَالتَّرَفُّعُ عَنْ مَخَالَطَةِ كُلِّ مَنْ لَا تُعْجِبُهُ أَخْلَاقُهُ،
 وَلَا تَجْمُلُ فِي نَظَرِهِ أَطْوَارُهُ، وَعِقْفَةٌ حَتَّى عَنْ مَدِّ يَدِهِ إِلَى
 أَبْوَيْهِ، لِأَنَّهُ قَدْ قَنَعَ بِمَا فِي يَدِهِ مِنَ الْمَالِ الْقَلِيلِ، فَزَهَدَ
 فِي مَا سِوَاهُ؛ وَأَحْسَنُ مَا يَعْرِفُهُ لَهُ النَّاسُ فِي بَابِ الْعِفَّةِ
 وَالشَّهَامَةِ أَنَّهُ مَا أَخَذَ فِي حَيَاتِهِ أَجْرًا عَلَى أَدَبِهِ وَلَا انْتَفَعَ

مِنْ وَرَاءِ قَصَائِدِهِ أَوْ رَسَائِلِهِ بِدَانِقٍ أَوْ سُخْتَوٍ؛ وَكَرَّمَ فِي
 الْخُلُقِ طَالَمَا كَانَ سَبًّا فِي وُصُولِ الْأَذَى إِلَيْهِ، وَكَانَ آخِرُ
 عَهْدِهِ بِذَلِكَ الْأَذَى تِلْكَ الْقَضِيَّةُ الَّتِي رَفَعَتْهَا عَلَيْهِ النِّيَابَةُ
 الْعُمُومِيَّةُ مِنْ نَحْوِ خَمْسَةِ عَشَرَ عَامًا مِنْ أَجْلِ قَصِيدَةٍ رَأَتْ
 أَنَّهُ مَسَّ فِيهَا كَرَامَةَ الْجَنَابِ الْخَدِيوِ، ثُمَّ دَارَتْ الْأَيَّامُ فَأَظْهَرَ
 مَوْلَانَا الْكَرِيمُ تَعَطُّفَهُ بِالرُّضَى عَنْهُ عِنْدَمَا تَبَيَّنَ لَهُ حُسْنُ
 قَضْدِهِ وَسَلَامَةُ ضَمِيرِهِ؛ وَسَخَاءُ وَجُودٍ بِكُلِّ مَا تَمْلِكُ يَمِينُهُ،
 وَأَدَبٌ وَحَيَاءٌ وَحِلْمٌ يَظُنُّهُ الظَّانُّ عَجْزًا وَضَعْفًا، فَإِذَا غَضِبَ،
 وَقَلِيلًا مَا يَفْعَلُ، فَهُوَ اللَّيْثُ قُوَّةً وَشَجَاعَةً، وَصَمْتُ طَوِيلٍ
 يَخْسَبُهُ النَّاطِرُ عَيًّا، فَإِذَا تَكَلَّمَ بَدَّ الْقَائِلِينَ؛ وَإِيمَانٌ قَوِيٌّ
 كَالطُّودِ الرَّاسِخِ، لَا تَذْهَبُ بِهِ الْعَوَاصِفُ وَلَا تَلْوِي بِهِ
 حَوَادِثُ الدَّهْرِ وَفَوَاجِعُهُ، فَمَا رُئِيَ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ مُلِمًّا
 بِمَا يُفْسِدُ عَلَيْهِ دِينَهُ أَوْ مُرَوِّعَةً؛ وَلَا ضَعِيفَ الثِّقَةِ بِاللَّهِ فِي
 حَالَتِي عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ، وَشِدَّتِهِ وَرَخَائِهِ؛ وَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَلَى مَا
 يَذْهَبُ بِلُبِّ الْحَكِيمِ، وَيَطِيرُ بِرُشْدِ الْحَلِيمِ مِنْ حَوَادِثِ
 الْأَيَّامِ وَرَزَايَاهَا؛ فَقَدْ مَاتَ لَهُ طِفْلَانِ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ،
 فَسَكَنَ لِهَذَا الْحَادِثِ الْمُلِمِّ سُكُونًا لَا تَخَالِطُهُ زَفَرَةٌ، وَلَا
 تَمَارِجُهُ دَمْعَةٌ عَلَى شِدَّةِ شَغْفِهِ بِهِمَا، ثُمَّ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ بَعْدَ
 ذَلِكَ، وَكَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَجَلَسَ إِلَى أَصْدِقَائِهِ

يُحَادِثُهُمْ لَيْلَةً وَفَاتِهَا كَأَنَّمَا الْمَرْزُوءُ بِذَلِكَ الْحَادِثِ سِوَاهُ! وَلَقَدْ لَقِيَ فِي حَيَاتِهِ كَثِيرًا مِنْ غَدْرِ أَصْدِقَائِهِ وَعُشْرَائِهِ الَّذِينَ أَوْقَعَهُ فِي شَرِّكَ صِدَاقَتِهِمْ طَهَارَةً قَلْبِهِ وَبَيَاضُ سَرِيرَتِهِ، وَالَّذِينَ طَالَمَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، وَكَانَتْ لَهُ الْيَدُ الطُّوْلَى فِي تَعْلِيمِهِمْ أَوْ تَقْوِيمِ أَوْدِ عَيْشِهِمْ، فَمَا حَفَلَ بِذَلِكَ، وَلَا بِالْإِلَهَةِ تِلْكَ الْعَقَارِبُ: «إِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغَيِّرَ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ».

وَأَجْمَلُ مَا يَعْرِفُ لَهُ أَحْصَاؤُهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ النَّادِرَةِ أَنَّهُ يَخِيَا حَيَاةً ذَاتِيَّةً غَيْرَ حَافِلٍ بِتِلْكَ الْحَيَاةِ الْإِضَافِيَّةِ الَّتِي يَخِيَاهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ لَهُمْ حَيَاةً إِلَّا فِي أَفْوَاهِ النَّاطِقِينَ، وَأَذَانِ السَّامِعِينَ؛ فَلَيْسَ أَحَقَّرَ فِي نَظَرِهِ مِنْ مَذْحِ الْمَادِحِينَ لَهُ، وَلَا أَضْعَفَ فِي نَفْسِهِ مِنْ انتِقَادِ الْمُتَقِدِّينَ عَلَيْهِ، فَلَوْ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا أَجْمَعُوا عَلَى انتِقَادِ خَلَّةٍ مِنْ خِلَالِهِ لَمَا ثَنَاهُ ذَلِكَ عَنْهَا، وَلَوْ أَنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى رَأْيٍ مُنَاقِضٍ لِرَأْيِهِ لَمَا نَالَ ذَلِكَ مِنْ عَقِيدَتِهِ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ لَهُ الْعَالِمُ الْفَاضِلُ سَعْدُ زُغْلُولُ بَاشَا: إِنِّي لَأَرَى فِي كِتَابَتِكَ شَخْصِيَّةً أَتَمَنَّى أَنْ أَجِدَهَا كَثِيرًا فِي أَقْلَامِ الْكَاتِبِينَ. وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَقُولُ: «لَا طَلَعَتْ عَلَيَّ شَمْسٌ ذَلِكَ

اليوم الذي يَرْضَى فيه عَنِّي الجاهِلُ أو يَعْجَبُ بِرَأْيِي فيه
البليدُ».

وَلَيْسَ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنَ الْكَذِبِ، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ
الصُّدُقِ، فَيُبْغِضُ حَتَّى الْمُبَالَغَةِ فِي الْبَشَاشَةِ وَالْإِغْرَاقِ فِي
الْحَفَاوَةِ، وَيُحِبُّ حَتَّى الْعِتَابَ الْمُرَّ وَالتَّقْرِيعَ الْمُؤْلِمَ مَا دَامَ
الْمُتَكَلِّمُ صَادِقًا فِي قَوْلِهِ مُخْلِصًا فِي مَذْهَبِهِ. وَلَقَدْ كَانَ هَذَا
سَبَبًا فِي حُبِّهِ لِلْعُزْلَةِ وَمَيْلِهِ إِلَى اجْتِنَابِ الْمُعَاشَرَةِ
وَالْمُخَالَطَةِ، كَأَنَّهُ يَطْلُبُ مِنَ النَّاسِ غَيْرَ مَا يَطْلُبُ النَّاسُ
بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

وَبِالْجُمْلَةِ، فَإِنْ كَانَ فِي أَخْلَاقِ الْمُتَرْجِمِ مَا خَذَ، فَفِي
هَذَا الْخُلُقِ خُلُقُ النَّفَرَةِ مِنَ النَّاسِ، وَالْعَجْزِ عَنْ اخْتِمَالِهِمْ
عَلَى عِلَاتِهِمْ، وَلُبْسِهِمْ عَلَى سُوءَاتِهِمْ.

سِيَّاسَتُهُ:

سِيَّاسَتُهُ سِيَّاسَةُ كُلِّ وَطَنِي يَتَهَالَكُ وَجَدًا عَلَى حُبِّ
وَطَنِهِ وَيُذْهِبُ الدَّمْعَ حُزْنًا عَلَيْهِ وَعَلَى مَا حَلَّ بِهِ مِنْ ضَعْفِ
الْحَالِ، وَفَقْدَانِ الْاسْتِقْلَالِ. وَمِنْ كَلِمَاتِهِ الْمَأْثُورَةِ عَنْهُ فِي
هَذَا الْمَوْضُوعِ قَوْلُهُ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ حَيَاةَ مِصْرَ لَا تَتِمُّ لَهَا
إِلَّا بِفَقْدَانِ حَيَاتِي، لَكَانَ سَبِيلُ الْمَوْتِ أَشْهَى إِلَيَّ مِنْ سَبِيلِ
الْحَيَاةِ.

وَلَيْسَ لَهُ حِزْبٌ خَاصٌّ يَنْتَمِي إِلَيْهِ، وَلَا جَرِيدَةٌ
خَاصَّةٌ يَتَعَصَّبُ لَهَا.

أَمَّا الْأَحْزَابُ، فَرَأْيُهُ فِيهَا أَنَّ تَعَدُّدَهَا مُضِرٌّ بِمُضْلَحَةِ
الْوَطَنِ، وَأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ كُلُّهَا حِزْبًا وَاحِدًا، لِأَنَّ
أَقْلَ ضَعِيفَةٍ سِيَاسِيَّةٍ تَقَعُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ تَنْتَقِصُ مِنْ
اسْتِقْلَالِهَا بِمَقْدَارِهَا.

وَأَمَّا الْجَرَائِدُ، فَرَأْيُهُ فِيهَا أَنَّهَا بَيْنَ جَرِيدَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا
تُبَالِغُ فِي إِرْضَاءِ الْأُمَّةِ وَمُمَالَاتِهَا عَلَى كُلِّ نَافِعٍ وَضَارٍّ مِنْ
شُؤُونِهَا، وَهَذِهِ تُشَبَّهُ أَنْ تَكُونَ مَتَاجِرَةً بِالْعُقُولِ. وَالْأُخْرَى
تَقْسُو فِي إِرْشَادِهَا، وَهَذِهِ لَا تَسْتَفِيدُ مِنْهَا الْأُمَّةُ كَمَا يَجِبُ
أَنْ يَكُونَ. فَهُوَ يَرَى أَنَّ الْأُمَّةَ لَا تَزَالُ حَتَّى الْيَوْمِ فِي أَشَدِّ
الْحَاجَةِ إِلَى قَائِدٍ شَدِيدِ الْإِخْلَاصِ فِي عَمَلِهِ، جَمُّ الْحِكْمَةِ
فِي قَوْلِهِ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَرِيدَةٍ مِنَ الْجَرَائِدِ عِلَاقَةٌ خَاصَّةٌ
حَتَّى الْجَرَائِدِ الَّتِي كَانَ يَكْتُبُ فِيهَا رِسَائِلَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ
وَبَيْنَهَا أَكْثَرُ مِمَّا يَكُونُ بَيْنَ أَيِّ كَاتِبٍ يَكْتُبُ رِسَائِلَهُ مُطْلَقَ
الْحُرِّيَّةِ فِي آيَةِ صَحِيفَةٍ يَتَوَسَّلُ بِانْتِشَارِهَا إِلَى نَشْرِ آرَائِهِ
وَأَفْكَارِهِ، فَإِنْ لَاقَاهَا فِي شَيْءٍ مِنْ مَبَادِئِهَا وَمَذَاهِبِهَا لَاقَاهَا
مُصَادَفَةً وَاتِّفَاقًا، وَإِنْ فَارَقَهَا فِي ذَلِكَ فَارَقَهَا طَوْعًا
وَأَخْتِيَارًا.

أَدَبُهُ:

قُلُّ أَنْ يُوجَدَ بَيْنَ الْكُتَّابِ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ مَذْهَبَ
 كُتَّابِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُولَى فِي عُلُوِّ تَرَائِكِهِمْ وَبِلَاغَةِ أَسَالِيهِمْ مَنْ
 يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخُوضَ بِقَلَمِهِ غِمَارَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْحَدِيثَةِ وَأَنْ
 يَتَنَاوَلَ بِهِ هَذِهِ الْمَعَانِي الْعَصْرِيَّةَ وَالْآرَاءَ الْجَدِيدَةَ الَّتِي
 حَدَّثَتْ بَعْدَ وَقُوفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عِنْدَ الْمَوْقِفِ الَّذِي وَقَفَتْ
 عِنْدَهُ، مَحْتَفِظاً بِخُطَّتِهِ فِي الْكِتَابَةِ وَدَرَجَتِهِ فِي الْأُسْلُوبِ.
 وَقُلُّ أَنْ تَجِدَ بَيْنَهُمْ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُرْضِيَ الْخَاصَّةَ بِقَلَمِهِ
 وَيُخَسِّنَ إِلَى الْعَامَّةِ بَيَانَهُ وَإِفْصَاحَهُ. فَهُوَ إِنْ عَلَا غَمٌّ عَلَى
 الْعَامَّةِ أَمْرُهُ، وَإِنْ نَزَلَ أَغْضَبَ الْخَاصَّةَ قَلَمُهُ. أَمَّا الْمُتَرْجِمُ،
 فَهُوَ عَلَى مَا أَرَى الْكَاتِبُ الْفَرِيدُ الَّذِي يُحَافِظُ عَلَى أُسْلُوبِهِ
 الْبَلِيغِ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ وَشُؤُونِهِ، سَوَاءً فِي ذَلِكَ الْمَعَانِي
 الْمَطْرُوقَةِ لِكُتَّابِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُولَى أَوِ الَّتِي لَمْ يَكْتُبُوا عَنْهَا
 شَيْئاً وَلَمْ يَرْسِمُوا لَهَا أُسْلُوباً. مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّلِيلَةَ
 الْعَرَبِيَّةَ مَلَكَتْهُ مِنْ مَلَكَاتِهِ، لَا عَارِيَّةً مِنْ عَوَارِيهِ. كَمَا أَنَّهُ
 الْكَاتِبُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَسْتَوِي فِي فَهْمِ مَعَانِيهِ وَأَغْرَاضِهِ،
 وَفِي الْإِعْجَابِ بِفَصَاحَتِهِ وَبَيَانِهِ، فَطَاحِلُ الْأَدْبَاءِ، وَأَصَاغِرُ
 الْبُسْطَاءِ. مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَكْتُبُ بِقَلْبِهِ لَا بِقَلَمِهِ، وَأَنَّهُ
 يُحَادِثُ الْأَفْنِدَةَ وَالصُّدُورَ، لَا الصَّحَافَةَ وَالسُّطُورَ.

فَإِنْ كَانَ صَحِيحاً مَا يَقُولُونَ مِنْ أَنَّ الْكُتَّابَ

المُجِيدِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِنَّمَا يَسْتَمِدُّونَ رُوحَ كِتَابَاتِهِمْ مِنَ
اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَيَسْتَنْزِلُونَ مِنْ سَمَاءِ قَرَائِحِ شُعْرَاءِ الْإِفْرَنْجِ
وَحَيَّ خَيَالَاتِهِمُ الشُّعْرِيَّةَ. فَالسَّيِّدُ الْمَنْفَلُوطِي الَّذِي لَا يَعْرِفُ
لُغَةً غَيْرَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَا يَلْجَأُ إِلَى وَحْيٍ غَيْرِ وَحْيِ
الْخَوَاطِرِ النَّفْسِيَّةِ، نَادِرَةٌ كُتَابِ الْعَرَبِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

أَمَّا نَثْرُهُ، فَقَدْ عَرَفَهُ النَّاسُ فِي «نَظَرَاتِهِ»، وَأَمَّا نَظْمُهُ
فَسَأُورِدُ مِنْهُ مَا عَثَرْتُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلاً مِنْ كَثِيرٍ،
وَقَطْرَةً وَاحِدَةً مِنْ بَحْرِ غَزِيرٍ.

قال في وصفِ القَلَمِ [من الخفيف]:

يَا يَرَاعِي لَوْلَا يَدُكَ عِنْدِي

عَفْتُ نَظْمِي فِي وَصْفِكَ الْأَشْعَارَا

يَا يَرَاعِ الْأَدِيبُ لَوْلَاكَ مَا أَضْ

بَحَ حَظُّ الْأَدِيبِ يَشْكُو الْعِثَارَا

غَيْرَ أَنِّي أَخْنُو عَلَيْكَ وَإِنْ لَمْ

تَكُ عَوْناً فِي النَّائِبَاتِ وَجَارَا

أَنْتَ نِعَمَ الْمُعِينُ فِي الدَّهْرِ لَوْلَا

أَنَّ لِلدَّهْرِ هِمَّةً لَا تُجَارَى

يَتَجَلَّى فِي النَّفْسِ^(١) شَمْسُ نَهَارٍ
فِي دُجَى اللَّيْلِ تَبْعَثُ الْأَنْوَارَ
جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَ نَقِضَيْنِ
بِإِذَا كَانَ الظَّلَامُ مِنْهُ نَهَارًا
فَهُوَ حِينًا نَارٌ تَلْظِي وَحِينًا
جَنَّةُ الْخُلْدِ تَنْثُرُ الْأَزْهَارَ
وَتَرَاهُ وَرَقَاءً^(٢) تَنْدُبُ شَجَوًا
وَتَرَاهُ رَقَطَاءً^(٣) تَنْفُثُ نَارًا
وَتَرَاهُ مُغْنِيًا إِنْ شَدَا حَا
رَّكَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ الْأَوْتَارِ
وَتَرَاهُ مُصَوِّرًا يَرْسِمُ الْحُسْنَ
بِإِذَا وَيُغْرِى بِرَسْمِهِ الْأَبْصَارَ
فَتَخَالُ الْقِرْطَاسَ صَفْحَةً خَدُّ
وَتَخَالُ الْمِدَادَ عِذَارًا

(١) النفس: المداد الذي يُكْتَبُ بِهِ.

(٢) الورقاء: الحمامة.

(٣) الرقطاء: حية خبيثة.

هُوَ جِسْرٌ تَمْشِي الْقُلُوبُ عَلَيْهِ
لِتُلاقِي بَيْنَ الْقُلُوبِ قَرَارًا
صَامِتٌ تَسْمَعُ الْعَوَالِمُ مِنْهُ
أَيَّ صَوْتٍ يُنَاهِضُ الْأَقْدَارَا
فَهُوَ كَالْكَهْرَبَاءِ غَامِضَةُ الْكُنْ
بِهِ وَتَبْدُو بَيْنَ الْوَرَى أثارَا
كَمْ أَثَارَ الْيِرَاعُ خَظْبًا كَمِينًا
وَأَمَاتَ الْيِرَاعُ خَظْبًا مُثَارَا
قَطَرَاتٌ مِنْ بَيْنِ شِقْقِيهِ سَالَتْ
فَأَسَالَتْ مِنَ الدِّمَا أَنَّهُارَا
كَانَ غُضْنًا فَصَارَ عُودًا وَلَكِنْ
لَمْ يَزَلْ بَعْدُ يَحْمِلُ الْأَثْمَارَا
كَانَ يَسْتَمْطِرُ السَّمَاءَ فَحَالَ الـ
أَمْرُ فَاسْتَمْطَرَ الْعُقُوقَ الْغِزَارَا



يَسْعَدُ النَّاسُ بِالْيِرَاعِ وَيَلْقَى
رَبَّهُ ذَلَّةً بِهِ وَصَغَارَا

وَاشْقَاءَ الْأَدِيبِ هَلْ وَتَرَ^(١) الدَّهْرَ
 رَفَلَا زَالَ طَالِباً مِنْهُ ثَارَا
 أَرْفِيقُ الْمَخْرَاطِ يَخِيَا سَعِيداً
 وَرَفِيقُ الْيَرَاعِ يَقْضِي أَفْتِقَارَا
 مَا جَنَى ذَلِكَ الشَّقَاءَ وَلَكِنْ
 قَدْ أَرَادَ الْقَضَاءُ أَمْراً فَصَارَا
 لَيْسَ لِلنَّسْرِ مِنْ جَنَاحٍ إِذَا لَمْ
 يَجِدِ النَّسْرُ فِي الْقَضَاءِ مَطَارَا
 حَاسِبُوهُ عَلَى الذِّكَاءِ وَقَالُوا
 حَسْبُهُ صَيْتُهُ الْبَعِيدُ فَخَارَا
 أَوْهَمُوهُ أَنَّ الذِّكَاءَ ثَرَاءُ
 فَمَضَى يَسْحَبُ الذُّيُولَ اغْتِرَارَا
 يَخْسَبُ النَّقْدَ لِلْقَصِيدَةِ نَقْداً
 وَيَرَى الْبَيْتَ فِي الْقَصِيدَةِ دَارَا

(١) وَتَرَهُ: أصابه بئار، يقول: كأنَّ الدهرَ مَوْتورٌ لِذَلِكَ الْأَدِيبِ، فَهُوَ
 يَطَالِبُهُ بِالنَّارِ.

لَيْسَ بِدَعَا مِنْ هَائِمٍ فِي خِيَالٍ
 أَنْ يَرَى أَضْفَرَ دِينَارَا
 إِنَّ بَيْنَ الْمِدَادِ وَالْحَظِّ عَهْدًا
 وَذِمَامًا لَا يَلْتَوِي وَجُورَا
 فَالْلَّيْبُ اللَّيْبُ مَنْ وَدَّعَ الطَّرْ
 سَ وَوَلَّى مِنَ الْيَرَاعِ فَرَارَا
 وقال على لسان عاملٍ فقيرٍ [من السريع]:
 زَاخَفْتُ أَيَّامِي وَزَاخَفَنَنِي
 دَهْرًا فَلَمْ تَنْكُلْ وَلَمْ أَنْكُلْ^(١)
 لَا عَزْمُهَا وَاهٍ وَلَا عَزَمَتِي
 تَصَادُمُ الْجَنْدَلِ بِالْجَنْدَلِ
 رَمَتْ فَلَمْ تُبْقِ عَلَى مَفْصِلِ
 لَكِنَّهَا طَاشَتْ عَنِ الْمَقْتَلِ
 وَلَيْتَهَا أَضَمْتُ^(٢) فَمَا أَبْتَغِي
 مِنْ عَيْشِهَا إِنَّ أَنَا لَمْ أَقْتَلِ

(١) نكل: نكص وجبن.

(٢) أضمت الصيد: رماه فقتله.

لا خَيْرَ في الصَّبْرِ عَلَى غَمْرَةٍ
 لا يَأْمُلُ الصَّابِرُ أَنْ تَنْجَلِي
 صَبَرْتُ في البَأْسَاءِ صَبْرَ الَّذِي
 قِيدَ إِلَى الْقَتْلِ فَلَمْ يَخْفِلِ
 لا فَضْلَ في الصَّبْرِ لِمُسْتَسْلِمٍ
 عَيَّ عَنِ الْفِعْلِ فَلَمْ يَفْعَلِ

* * *

عِشْرُونَ عَاماً لَمْ تَحُلْ حَالَتِي
 مَا إِشْبَبَهُ الْآخِرَ بِالْأَوَّلِ
 أَغْدُو إِلَى الْمَعْمَلِ فِي شَمْلَةٍ^(١)
 خَرَقَاءَ لَمْ تَكُحْسُ وَلَمْ تَشْمَلِ
 كَأَنَّهَا بُرْقُعُ مِضْرِيَّةٍ
 لا يَخْجُبُ الْوَجْهَ عَنِ الْمُجْتَلِي
 تَنِمُّ عَنْ جِسْمِي كَمَا نَمَّ عَنْ
 نَفْسِي غَزِيرُ الْمَذْمَعِ الْمُرْسَلِ

(١) الشُّمْلَةُ: نوع من الأكسية.

يَمِيلُ بِي الْهَمُّ مَمِيلَ النَّقَا
بَيْنَ جَنُوبِ الرِّيحِ وَالشُّمَالِ

فَمَنْ رَأَى ظَنُّ بِي نَشْوَةً
أَجَلَ بِكَاسِ الْحُزَنِ لَا السَّلْسَلِ

أَقْضِي نَهَارِي مُقْبِلاً مُذْبِراً
كَأَنَّيَ الْآلَةَ فِي الْمَعْمَلِ

وَصَاحِبُ الْمَعْمَلِ لَا يَرْتَضِي
مَنْنِي بِغَيْرِ الْفَادِحِ الْمُثْقَلِ

فَإِنْ شَكَّوْتُ النَّزْرَ^(١) مِنْ أَجْرِهِ
بَرَّحَ بِي شَتْمًا وَلَمْ يُجْمَلِ

حَتَّى إِذَا عُدْتُ إِلَى مَنْزِلِي
وَجَدْتُ سُوءَ الْعَيْشِ فِي الْمَنْزِلِ

أَرَى أَيَّامِي يَشْتَكِينِ الطَّوَى
إِلَى يَتَامَى جُوعٍ نُحْلِ

(١) النَّزْر: القليل.

أبيت والأجفان في سُهدها
 كأنما شُدَّتْ إلى يذُبُل^(١)
 بين صغار سُهْدٍ في الدُّجَا
 يُذْرُونَ دَمْعَ الثَّائِلِ المُرْمِلِ
 بين ضِعِيفِ الخَطْوِ لَمْ يَغْتَمِذْ
 وشاخِصٍ في المَهْدِ لَمْ يُحَوِل^(٢)
 يذْعُونَ أُمًّا تَتَلَطَّيْ أَسَى
 حِذَارَ يَوْمِ الحَادِثِ المُثْكِـلِ
 ووالِدَا عَيٍّ بِإِسْعَافِهِمْ
 فِي العَيْشِ عَيٍّ الفَارِسِ الأَغْزَلِ
 مَا زَالَ رَبُّ الدَّهْرِ يَنْتَابُنِي
 بِالمُغْضِلِ الفَاحِ فَالمُغْضِلِ
 حَتَّى رَمَانِي بِأَلْتِي لَمْ تَدَغْ
 إِلَّا بَقَايَا الرُّوحِ فِي هَيْكَلِ^(٣)

(١) جَبَلٌ معروف.

(٢) لم يعتمد، أي: لم يتكل في مشيه على نفسه؛ والمحول: الذي بَلَغَ حَوْلًا.

(٣) يريد بها الحمى.

فَهَا أَنَا الْيَوْمَ طَرِيحُ الضَّنَى
وَلَيْسَ غَيْرَ الصَّبْرِ مِنْ مَعْقِلِ
فِي لَفْحَةِ الرَّمْضَاءِ لَا أَتْقِي
وَهَبَّةَ النَّكْبَاءِ لَا أَضْطَلِي^(١)

هَذَا هُوَ الْبُؤْسُ، فَهَلْ مِنْ فَتَى
تَمَّ لَهُ الْبُؤْسُ مَا تَمَّ لِي

وقال ينعى على جماعة القوضويين مذهبهم في قتل
الملوك، ويشير إلى حادثة القوضوي الذي وضع منذ
سنوات قنبلة في طريق الفونس الثالث عشر ملك إسبانيا
وهو عائد من الكنيسة مع عروسه في يوم حفلة قرانه،
فأصاب القنبلة خيل المركبة، وقتلت بعض الحاشية، ونجا
المليك وعروسه، وقبض على القوضوي فقتل [من
الخفيف]:

أَيُّهَا الْفَاتِكُ الْأَيْمُ رُوَيْدَا
كُلَّ يَوْمٍ تَكِيدُ لِلتَّاجِ كَيْدَا

(١) الرمضاء: شدة الحر؛ والنكباء: الريح الباردة.

لَا أَرَى النَّجَاجَ فِي الْبَرِّيَّةِ إِلَّا
 فَلَكَا دَائِرًا وَأَخْذًا وَرَدًا
 يَتَخَطَّى الرُّؤُوسَ رَأْسًا فَرَأْسًا
 مَاشِيًا فِي الْعُصُورِ عَهْدًا فَعَهْدًا
 فَمُحَالٌ أَنْ يَهْدِمَ الْمَرْءُ صَرْحًا
 أَغْجَرَ الدَّفَرِ بِأُسُهُ أَنْ يُهْدَا
 عَبَثًا تَقْتُلُ الْمُلُوكَ وَعُذْرًا
 لَكَ فِيهِمْ لَوْ كُنْتَ تَحْمِلُ حَقْدًا
 آفَةُ الْعَقْلِ أَنْ يَرَى الْحَمْدَ ذَمًّا
 وَيَرَى الْخُطَّةَ الدَّنِيئَةَ حَمْدًا
 لَا يُبَالِي بِالْمَوْتِ مَنْ عَرَفَ الْمَوْتَ
 تَ وَمَنْ لَا يَرَى مِنَ الْمَوْتِ بُدًّا
 غَيْرَ أَنَّ الْأَجَالَ فِينَا حُدُودُ
 كُلُّ حَيٍّ تَرَاهُ يَظْلُبُ حَدًّا
 أَيُّ جَفْنٍ أَجْرَيْتَ مِنْهُ دُمُوعًا
 كَانَ لَوْلَاكَ فِي السَّمَائِكُنِ بُغْدًا

أَيُّ رَوْعٍ أَسْكَنْتَهُ فِي فُؤَادٍ
 كَانَ فِي فَادِحِ الْحَوَادِثِ جَلْدًا
 مَا بَكَى الْفُونْسُ خَشْيَةً بَلْ غَرَامًا
 وَدُمُوعُ الْغَرَامِ أَشْرَفُ قَضَا
 إِنَّ قَلْبَ الْجَبَانِ يَخْفُقُ رُغْبًا
 غَيْرُ قَلْبِ الْمُحِبِّ يَخْفُقُ وَجْدًا
 كَانَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ شِبْرٌ
 بُدِّلَ النَّخْسُ فِي مَجَارِيهِ سَعْدًا
 فَرَأَيْنَا الْقَتِيلَ يَغْمُرُ قَضْرًا
 وَغَرِيمَ الْقَتِيلِ يَغْمُرُ لَحْدًا
 أَنْتَ تَقْضِي وَاللَّهُ يَقْضِي بِعَدْلٍ
 فِي الْبَرَآيَا وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَيْدَا^(١)
 جَمْرَةٌ أَظْفَأَ الْقَضَاءُ لَظَاهَا
 فَعَدَا جَمْرُهَا سَلَامًا وَبَرْدًا
 إِنَّ لِمَالِكَ الْكَرِيمِ قُلُوبًا
 وَقَفَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ سَبْدًا

(١) الأيد: القوة.

فَافْتَدَتْهُ فَكُنَّ خَيْرَ فِدَاءٍ
لِمَلِيكَ وَكَانَ نِعَمَ الْمُفْدَى

وقال في الوجديّات [من الطويل]:
سَقَاهَا وَحْيًا تُرْبِيهَا وَابِلُ الْقَطْرِ
وَإِنْ أَضْبَحَتْ قَفْرَاءَ فِي مَهْمِهِ قَفْرٍ
طَوَّاهَا الْبَلَى طَيِّ الشَّحِيحِ رِدَاءُهُ
وَلَيْسَ لِمَا يَطْوِي الْجَدِيدَانِ^(١) مِنْ نَشْرِ
مَرَابِضِ آسَادٍ وَمَأْوَى أَرَاقِمِ
تَجَاوَزَ فِي قِيَعَانِهَا الْغِيلُ بِالْجُحْرِ^(٢)
يَكَادُ يَضِلُّ النَّجْمُ فِي عَرَصَاتِهَا^(٣)
وَيَزُورُ عَنْ ظَلَمَائِهَا الْبَدْرُ مِنْ دُغْرِ
لَقَدْ فَعَلْتَ أَيْدِي السَّوَافِي بِنُؤْيِهَا^(٤)
وَأَخْجَارِهَا مَا يَفْعَلُ الدَّهْرُ بِالْحُرِّ

(١) الجَدِيدَانِ: الليل والنهار.

(٢) الأَرَاقِمِ: الحيات، والغِيلُ: موضع الأسد.

(٣) العَرَصَاتِ، جمع عَرَصَةٍ، وهي: ساحة الدار.

(٤) السَّوَافِي: الرياح. والنُّؤْيُ: الحفير حول الخباء أو الخيمة يمنع

وَقَفْتُ بِهَا فِي وَخْشَةِ اللَّيْلِ وَقَفَّةً
أَثَارَ شَجَاهَا كَامِنَ الْوَجْدِ فِي صَدْرِي

ذَكَرْتُ بِهَا الْعَهْدَ الْقَدِيمَ الَّذِي مَضَى
وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ بَالٍ مِنَ الذِّكْرِ

وَعَيْشاً حَسِبْنَاهُ مِنَ الْحُسْنِ رَوْضَةً
كَسَاهَا الْحَيَا مِنْهُ أَفَانِينَ مِنْ زَهْرِ

فَأَنْشَأْتُ أَبْكِي وَالْأَسَى يَتَّبِعُ الْأَسَى
إِلَى أَنْ رَأَيْتُ الصَّخْرَ يَبْكِي إِلَى الصَّخْرِ

وَمَا حِيلَةُ الْمَحْزُونِ إِلَّا لَوَاعِجُ
تَفِيضُ بِهَا الْأَخْشَاءُ أَوْ عَبْرَةٌ تَجْرِي

* * *

وَمَا أَنْسَ مِ الْأَشْيَاءِ لَا أَنْسَ لَيْلَةً
جَلَاها الدُّجَى قَمَرَاءَ فِي سَاخَةِ الْقَصْرِ

كَأَنَّ النُّجُومَ فِي أَدِيمِ سَمَائِهَا
سَفَائِنُ فَوْضَى سَابِحَاتٍ عَلَى نَهْرِ

كَانَ الثُّرَيَّا فِي الدُّجْنَةِ طُرَّةً^(١)
 مُرَصَّعَةً الْأَطْرَافِ بِاللُّؤْلُؤِ النَّشْرِ
 كَانَ سُهَيْلاً حَاسِداً كُلَّمَا رَأَى
 أَخَا نِعْمَةٍ يَرْمِيهِ بِالنَّظَرِ الشَّرِّ^(٢)
 كَانَ السُّهَى^(٣) حَقٌّ تَعَرَّضَ بَاطِلٌ
 إِلَيْهِ فَأَلْقَى دُونَهُ مُسْبَلَ السُّتْرِ
 كَانَ الدَّجَى فَحْمٌ سَرَى فِي سَوَادِهِ
 مِنَ الْفَجْرِ نَارٌ فَأَسْتَحَالَ إِلَى جَمْرٍ
 كَانَ نَسِيمَ الْفَجْرِ فِي الْجَوِّ خَاطِرٌ
 مِنَ الشَّعْرِ يَجْرِي فِي فُضَاءٍ مِنَ الْفِكْرِ
 وَفِي الْقَضْرِ بَيْنَ الظِّلِّ وَالْمَاءِ غَاذَةٌ
 تَمِيسُ بِلا سُكْرِ وَتَنَأَى بِلا كِبَرٍ
 تُرِيكَ عُيُوناً نَاطِقَاتٍ صَوَامِتَا
 فَمَا شِثَّتْ مِنْ خَمَرٍ وَمَا شِثَّتْ مِنْ سِحْرِ

(١) الطُّرَّة: الشَّعْرُ الْمَقْدَّمُ فِي الْجَبْهَةِ.

(٢) سُهَيْل: نَجْمٌ مَعْرُوفٌ بِشِدَّةِ الْاُخْمَرِ وَالْخَفَقَانِ.

(٣) السُّهَى: نَجْمٌ ضَعِيفٌ.

لَهَوْتُ بِهَا حَتَّى قَضَى اللَّيْلُ نَحْبَهُ
وَأَذْرَجَهُ الْمِقْدَارُ فِي كَفَنِ الْفَجْرِ

* * *

لَعَمْرُكَ مَا رَاحَتْ بِلُبِّي صَبَابَةٌ
وَلَا نَارَعَتْنِي مُهَجَّتِي سَوْرَةٌ^(١) الْخَمْرِ
وَلَا هَاجَنِي وَجْدٌ وَلَا رَسْمٌ مَنَزِلٍ
عَفَاءٍ وَلَكِنْ هَكَذَا سُنَّةُ الشُّغْرِ
وَمَنْ كَانَ ذَا نَفْسٍ كَنَفْسِي قَرِيحَةً
مِنْ الْهَمِّ لَا يُغْنِي بِوَضَلٍ وَلَا هَجْرٍ
كَأَنِّي وَلَمْ أَسْلَخْ^(٢) ثَلَاثِينَ حِجَّةً
وَلَمْ يَجْرِ يَوْمًا خَاطِرُ الشَّيْبِ فِي شُعْرِي
أَخُو مِثَّةٍ يَمْشِي الْهُوَيْنَى كَأَنَّهُ
إِذَا مَا مَشَى فِي السَّهْلِ فِي جَبَلٍ وَغَرٍ
إِذَا شَابَ قَلْبُ الْمَرْءِ شَابَ رَجَاؤُهُ
وَشَابَ هَوَاهُ وَهُوَ فِي ضَخْوَةِ الْعُمُرِ

(١) سَوْرَةُ الْخَمْرِ: حِدَّتْهَا.

(٢) سَلَخَ عَامَهُ: أَمَضَاهُ.

حَيْثُ بِأَمَالِي فَلَمَّا كَذَّبَنِي
قَنَّعْتُ فَلَمْ أَخْفِلْ بِقُلٍّ وَلَا كُثْرٍ

وَأَضْبَحْتُ لَا أَرْجُو سِوَى الْجَرْعَةِ الَّتِي
أَذُوقُ إِذَا مَا ذُقْتُهَا رَاحَةَ الْقَبْرِ

وَلَيْسَتْ حَيَاةُ الْمَرْءِ إِلَّا أَمَانِيًّا
إِذَا هِيَ ضَاعَتْ فَالْحَيَاةُ عَلَى الْإِثْرِ

جَزَى اللَّهُ عَنِّي الْيَأْسَ خَيْرًا فَإِنَّهُ
كَفَانِي مَا أَلْقَى مِنَ الْأَمَلِ الْمُرِّ

وَرَاضَ جِمَاحِي لِلزَّمَانِ وَحُكْمِهِ
بِمَا شَاءَ مِنْ عَذْلِ وَمَا شَاءَ مِنْ جَوْرِ

فَمَا أَنَا إِنْ سَاءَ الزَّمَانُ بِسَاحِطِ
وَلَا أَنَا إِنْ سَرَّ الزَّمَانُ بِمُغْتَرٍّ

وقال في شَأْنِ غَنِيِّي مِنَ الْأَغْنِيَاءِ غَلَبَتْهُ الْمَدَنِيَّةُ
الْحَدِيثَةُ عَلَى بَسَاطَتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ، فَلَبَّتْنِي قَضْرًا فَخْمًا كَانَ سَبَبًا
فِي فسادِ حالِهِ وَسُوءِ مَصِيرِهِ [من السريع]:

يَا صَاحِبَ الْقَصْرِ الَّذِي شَادَهُ
 فَاسْتَنْفَذَ الْمَذْخُورَ مِنْ وَجْدِهِ^(١)
 أَقْمَتَهُ كَالطَّوْدِ فِي هَضْبَةٍ
 تَرُدُّ عَادِي الدَّهْرِ عَنْ قَصْدِهِ
 أَرْزَتْهُ الْأَبْرَاجُ فِي جَوْهَا
 فَأَنْتَظَمَ الْأَنْجُمَ فِي عِقْدِهِ
 أَظْلَعْتَ فِيهِ كَوْكَبًا دَانِيًا
 أَغْنَى عَنِ الشَّاسِعِ فِي بُغْدِهِ
 قَلَّضْتَ ظِلَّ اللَّيْلِ عَنْهُ وَمَا
 رَعَيْتَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَدِّهِ
 أَنْشَأْتَ رَوْضًا زَاهِرًا حَوْلَهُ
 يُعَظِّرُ الْكَوْنَ شَذَا نَدِّهِ
 وَرُخْتَ بِالرُّتْبَةِ فِي صَدْرِهِ
 تَدُلُّ دَلَّ الْمَلِكِ فِي جُنْدِهِ
 كَأَنَّمَا الرُّتْبَةُ كُلُّ الَّذِي
 يُنِيلُهُ الْكَوْكَبُ مِنْ سَعْدِهِ

(١) الوجد: الغنى والسعة.

هَبْ أَنَّهُ اللُّوْفَرُ^(١) فِي حُسْنِهِ
أَوْ قَضَرُ بُوْكِنْهَام^(٢) فِي جَدِّهِ
وَهَبْكَ رُوْكْفِيلَر^(٣) تَخْوِي الَّذِي
يُضَلِّلُ الْحَاسِبَ فِي عَدِّهِ
فَالْمَالُ إِنْ أَجْهَدَهُ رَبُّهُ
فَالْفَقْرُ وَالْعُدْمُ مَدَى جَهْدِهِ
وَالْمَالُ كَالطَّائِرِ إِنْ هَوَّمَتْ
حُرَّاسُهُ طَارَ إِلَى فِنْدِهِ^(٤)
وَالْمَجْدُ لِلْمَالِ وَكُلُّ الَّذِي
تَرَاهُ مِنْ مَجْدٍ فَمِنْ مَجْدِهِ
هَذَا شِهَابٌ سَاطِعٌ مُشْرِقٌ
وَاللَّيْلَةُ اللَّيْلَةُ مِنَ بَعْدِهِ
بَنَيْتَ لِلْبَنكِ فَأَغْنَيْتَهُ
بِجِدِّكَ الْمَبْدُولِ عَنْ جَدِّهِ

(١) اللوفر: قصر بباريس.

(٢) قصر في لندن.

(٣) أحد الأغنياء في أمريكا.

(٤) هوم: هز رأسه من النعاس؛ والفند: الجبل.

بَنَيْتَ مَا لَوْ قَدَرُوا قَدْرَهُ
 لَقِيلَ هَذَا الْمَيْتُ فِي لَحْدِهِ
 وَأَذَتْ فِيهِ الْأَمَلَ الْمُرْتَجَى
 حَيًّا وَلَمْ تَأْسَ عَلَى وَادِهِ
 أَغَمَذَتْ فِيهِ صَارِمًا طَالَمَا
 تَثَلَّمَ الدَّهْرُ عَلَى حَدِّهِ
 وَارَيْتَ فِيهِ وَلَدًا لَيْتَهُ
 قَضَى قَرِيرَ الْعَيْنِ فِي مَهْدِهِ
 وَلَيْتَهُ مَا شَبَّ فِي زُخْرُفٍ
 يَبْكِي يَدَ الدَّهْرِ عَلَى رَغْدِهِ
 فَلَيْسَ مَنْ يَأْسَى عَلَى مَظْلَبٍ
 نَاءٍ كَمَنْ يَأْسَى عَلَى فَقْدِهِ
 عَذَرْتَ بِالْبَيْتِ الَّذِي بَثَّكَ الـ
 وَدَّ فَلَمْ تُبْقِ عَلَى وَدِّهِ
 هَدَمْتَهُ وَالْمَجْدُ ظِلٌّ لَهُ
 فَمَا بَقَاءُ الظِّلِّ مِنْ بَعْدِهِ

لَكُنْتَ مِنْ كُؤُخِكَ فِي نِعْمَةٍ
تُذِيبُ قَلْبَ الدَّهْرِ مِنْ حَقْدِهِ
وَكَانَ يَنْتَابُكَ مُسْتَرْفِداً
مَنْ بِتَّ مُخْتاجاً إِلَى رِفْدِهِ
فَالْيَوْمَ لَا الْقَضْرُ كَمَا تَرْتَجِي
مِنْهُ وَلَا الْكُؤُخُ عَلَى عَهْدِهِ
وَالْيَوْمَ رَبُّ الْقَضْرِ يُذْري دَمًا
مِنْ جَفْنِهِ أَنَا وَمَنْ كَبْدِهِ
يَدْعُو إِلَيْهِ الْمَوْتُ مِنْ بَعْدِ مَا
نَأَلْتَ يَدُ الْإِيَّامِ مِنْ أَيْدِهِ
وَأَسْوَدَ ذَاكَ الْجَوْنُ مِنْ جِلْدِهِ
وَأَبْيَضَ ذَاكَ الْجَوْنُ مِنْ قُودِهِ^(١)
هَلْ يَغْلَمُ الشَّرْقِيُّ أَنَّ الرُّدَى
سِرٌّ بِصَدْرِ الدَّهْرِ لَمْ يُبْدِهِ
وَأَنَّهُ يَفْجَأُنَا بِالْأَسَى
يَوْمًا خُرُوجَ السَّيْفِ مِنْ غَمْدِهِ

(١) الجون: وصف للأبيض والأسود، والقود: ناحية الرأس.

وَأَنَّ هَذَا الدَّهْرَ فِي هَزْلِهِ
يُغَرُّ بِالكَاذِبِ مِنْ وَغْدِهِ
فَهَزْلُهُ أَتَقْدُ مِنْ جِدِّهِ
وَرَهْوُهُ أَسْرَعُ مِنْ وَخْدِهِ^(١)
وَنَحْ لِمِضَرٍ وَلَأَبْنَائِهَا
مِمَّا يَرِيغُ^(٢) الدَّهْرُ مِنْ كَيْدِهِ
نَعِيشُ بِالْهَمِّ وَنَرْضَى بِهِ
عَيْشاً وَنَقْضِي الْعُمْرَ فِي نَقْدِهِ
كَشَارِبِ الْكَأْسِ يُرَى عَابِساً
مِنْهُ وَلَا يَقْوَى عَلَى رَدِّهِ
فَإِنْ لَمْ حَنَّا بَارِقاً خَاطِفاً
لَا نَسْمَعُ الْقَاصِفَ مِنْ رَغْدِهِ
نُسْرِعُ خَوْضَ الْبَحْرِ فِي جَزْرِهِ
وَجَزْرُهُ يُنْبِئُ عَنْ مَدِّهِ

(١) التَّهْوُ: السير السهل؛ والوَخْدُ: السير السريع.

(٢) يَرِيغُ: يريد.

وَالْكُلُّ ظَمَانٌ يُرَى صَادِرًا
وَمَا قَضَى الْإِزِيَّةَ مِنْ وَرْدِهِ

وقال في الحِكم [من الطويل]:
إِذَا مَا سَفِيهٌ نَالَنِي مِنْهُ نَائِلٌ
مِنَ الدَّمِّ لَمْ يُخْرِجْ بِمَوْقِفِهِ صَدْرِي
أَعُودُ إِلَى نَفْسِي فَإِنْ كَانَ صَادِقًا
عَتَبْتُ عَلَى نَفْسِي وَأَضْلَحْتُ مِنْ أَمْرِي
وإِلَّا فَمَا ذَنْبِي إِلَى النَّاسِ إِنْ طَغَى
هَوَاهَا فَمَا تَرْضَى بِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ

وقال يَهْنَىءُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ بِعَوْدَتِهِ مِنْ إِخْدَى
رِخْلَاتِهِ فِي أَوْرِبَا [من السريع]:

رَاحَ يُبَارِي النَّجْمَ فِي جَدِّهِ
وَعَادَ كَالسَّيْفِ إِلَى غَمْدِهِ

رَأَى الشَّرَى وَالشُّهْدَ مَهْرَ الْعُلَا
فَجَدَّ وَارْتَاخَ إِلَى سُهْدِهِ

لَا يُبْصِرُ الْخَطْبَ جَلِيلًا وَلَا
تَلْوِي بِهِ الْأَهْوَالُ عَنْ قَضْدِهِ

مُسَدَّدُ الْعَزْمِ إِذَا مَا مَضَى
 يَحَارُ صَرْفُ الدَّهْرِ فِي رَدِّهِ
 كَالسَّيْفِ يَجْلُوهُ الْقِرَاعُ^(١) وَلَا
 يَأْخُذُ ضَرْبُ الْهَامِ مِنْ حَدِّهِ
 كَانَ لِمِضَرٍ بَغْدَ تَوْدِيْعِهِ
 صَبَابَةُ الصَّادِي إِلَى وَرْدِهِ
 وَالْيَوْمَ قَدْ عَادَ لَهَا كُلُّ مَا
 تَرْجُو مِنَ النُّعْمَةِ فِي عَوْدِهِ
 وَأَفْتَرَّ عَنْهُ ثَغْرُهَا مِثْلَمَا
 يَفْتَرُّ ثَغْرُ الرُّوضِ عَنْ وَرْدِهِ
 بَدَا وَقَدْ حَفَّتْ بِهِ هَيْبَةُ
 كَأَنَّمَا عُثْمَانُ فِي بُرْدِهِ
 مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سِوَى أَنَّهُ
 يَخْسُدُهُ النَّاسُ عَلَى مَجْدِهِ
 مَا حِيلَةَ الْحُسَّادِ فِي نِعْمَةٍ
 أَشْبَغَهَا اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ

(١) القِرَاع: الضُّراب.

وقال في قِصَّة عَرَبِيَّةٍ وَقَعَتْ بَيْنَ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ
الصَّدِّيقِ وَوَلَدِهَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ حِينَمَا
حَاصِرُهُ الْحَجَّاجُ فِي مَكَّةَ حَتَّى أَخْرَجَهُ، ثُمَّ عَرَضَ عَلَيْهِ
التَّسْلِيمَ، فَاسْتَشَارَ أُمَّهُ، فَأَشَارَتْ عَلَيْهِ بِالْإِسْتِغْثَالِ، فَقَاتَلَ
حَتَّى قُتِلَ [من الخفيف]:

إِنَّ أَسْمَاءَ فِي الْوَرَى خَيْرُ أَنْثَى
صَنَعَتْ فِي الْوَدَاعِ خَيْرَ صَنِيعِ

جَاءَهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ يَسْحَبُ دِرْعاً
تَحْتَ دِرْعٍ مَنْسُوجَةٍ مِنْ نَجِيعٍ^(١)

قَالَ يَا أُمُّ قَدْ عَيِيتُ بِأَمْرِي
بَيْنَ أَسْرِ مُرٍّ وَقَتْلِ فُظِيعِ

خَانَنِي الصَّخْبُ وَالزَّمَانُ فَمَا لِي
صَاحِبٌ غَيْرَ سَيْفِي الْمَظْبُوعِ

وَأَرَى نَجْمِي الَّذِي لَاحَ قَبْلًا
غَابَ عَنِّي وَلَمْ يَعُدْ لِطُلُوعِ

(١) النجيع: الدم.

بَذَلَ الْقَوْمُ لِي الْأَمَانَ فَمَا لِي
غَيْرُهُ إِنْ قَبِلْتُهُ مِنْ شَفِيعِ
فَأَجَابَتْ وَالْجَفْنُ قَفْرٌ كَأَنَّ لَمْ
يَكُ مِنْ قَبْلِ مَوْطِنَا لِلدُّمُوعِ
وَأَسْتَحَالَتِ تِلْكَ الدُّمُوعُ بُخَاراً
صَاعِداً مِنْ فُؤَادِهَا الْمَضْدُوعِ
لَا تُسَلِّمُ إِلَّا الْحَيَاةَ وَإِلَّا
هَيْكَلًا شَأْنُهُ وَشَأْنُ الْجَذُوعِ
إِنَّ مَوْتاً فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ خَيْرٌ
لَكَ مِنْ عَيْشٍ ذِلَّةٍ وَخُضُوعِ
إِنْ يَكُنْ قَدْ أَضَاعَكَ النَّاسُ فَأَضِيزِ
وَتَثَبَّتْ فَالِلَّهِ غَيْرُ مُضِيعِ
مُتْ هُمَاماً كَمَا حَيَّيْتَ هُمَاماً
وَأَخِي فِي ذِكْرِكَ الْمَجِيدِ الرَّفِيعِ
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا
كَرَّةٌ فِي سَوَادِ تِلْكَ الْجُمُوعِ

ثُمَّ قَامَتْ تَضُمُّهُ لِدَوَاعٍ
 هَائِلٍ لَيْسَ بَعْدَهُ مِنْ رُجُوعٍ
 لَمَسَتْ دِرْعَهُ فَقَالَتْ لَعَهْدِي
 بِكَ يَا بَنَ الزُّبَيْرِ غَيْرَ جَزُوعٍ
 إِنَّ بَأْسَ الْقَضَاءِ فِي النَّاسِ بَأْسٌ
 لَا يُبَالِي بِبَأْسٍ تِلْكَ الدُّزُوعُ
 فَنَضَاهَا عَنْهُ وَفَرَّ إِلَى الْمَوْتِ
 بِدِرْعٍ مِنَ الْفَخَّارِ مَنِيعٍ
 وَأَتَى أُمَّهُ النَّعْيُ فَجَادَتْ
 بَعْدَ لَأْيٍ بِدَمْعِهَا الْمَمْنُوعِ
 وقال في الشَّيْبِ [من المديد]:
 ضَحِكَاتُ الشَّيْبِ فِي الشَّعْرِ
 لَمْ تَدْعُ فِي الْعَيْشِ مِنْ وَطَرٍ
 هُنَّ رُسُلُ الْمَوْتِ سَانِحَةٌ
 قَبْلَهُ وَالْمَوْتُ فِي الْأَثَرِ
 يَا بَيَاضَ الشَّيْبِ مَا صَنَعَتْ
 بِدُكِّ الْعَشْرَاءِ بِالْظَّرَرِ

أَنْتَ لَيْلُ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ
 كُنْتَ نُورَ الصُّبْحِ فِي النَّظَرِ
 لَيْتَ سَوْدَاءَ الشُّبَابِ مَضَتْ
 بِسَوَادِ الْقَلْبِ وَالْبَصْرِ
 فَالضُّبَا كُلُّ الْحَيَاةِ فَإِنْ
 مَرَّ مَرَّتْ غِبْطَةُ الْعُمُرِ
 وَقَالَ عَلَى سَبِيلِ الْفُكَاهَةِ فِي شَأْنِ كَلْبٍ اسْمُهُ «بِيلٍ»
 وَفِي لِسَيْدِهِ، فَطَوَّقَهُ طَوْقًا مِنَ الذَّهَبِ، وَأَوْصَى لَهُ بِخَمْسَةِ
 آلَافٍ دِينَارٍ [من الطويل]:
 لِيَهْنَكَ يَا «بِيلُ» الْجَلَالُ وَعِزَّةُ
 يَكَادُ لَهَا الْقَلْبُ الْكَسِيرُ يَطِيرُ
 مَلَكْتَ عَلَى الزُّهْدِ الْأُلُوفَ وَكُلُّنَا
 إِلَى قَطْرَةٍ مِمَّا مَلَكْتَ فَقِيرُ
 إِذَا كَانَ هَذَا الطَّوْقُ كَالْتَّاجِ قِيمَةً
 فَأَنْتَ بِأَلْقَابِ الْمُلُوكِ جَدِيرُ
 وَمَا الْمَالُ إِلَّا آيَةُ الْجَاهِ الْوَرَى
 فَحَيْثُ تَرَاهُ فَالْمَقَامُ خَطِيرُ

وَلَوْ كَانَ بَيْنَ الْفَضْلِ وَالْجَاهِ نِسْبَةٌ
 لَزَالَتْ عُرُوشُ جَمَّةٍ وَقُضُورُ
 فَيَا بَيْلُ لَا تَجْزَعِ فَرْبٌ مُتَوَجِّجٌ
 شَبِيهُكَ إِلَّا مِنْبَرٌ وَسَرِيرٌ
 وَمَا أَنْتَ فِي جَهْلِ الْمَقَادِيرِ آيَةٌ
 فَمِثْلُكَ بَيْنَ النَّاطِقِينَ كَثِيرٌ
 لَيْزُنْ قَاتَكَ النُّطْقُ الْفَصِيحُ كَمَا تَرَى
 فَسَهْمُكَ مِنْ نُطْقِ الْفُؤَادِ وَفِيرٌ
 وَفَيْتَ بِعَهْدِ لِلصَّدِيقِ وَمَا وَفَى
 بِعَهْدِ صَدِيقٍ جَزُولٌ وَجَرِيرٌ^(١)
 فِعِشْ صَامِتاً وَأَقْنَعِ بِحَظِّكَ وَأَغْتَبِظْ
 فَمَا النُّطْقُ إِلَّا آفَةٌ وَشُرُورٌ
 ضَلَالٌ يَرَى الْإِنْسَانُ فَضْلاً لِنَفْسِهِ
 وَسَاعِدُهُ فِي الْمَكْرُمَاتِ قَصِيرٌ
 وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا صِدْقُهُ وَوَفَاؤُهُ
 وَكُلُّ كَبِيرٍ بَعْدَ ذَاكَ صَغِيرٌ

(١) جَزُولٌ: لقب الحُطَيْنَةِ الشاعر؛ وجَرِيرٌ: شاعرٌ معروفٌ.

وَمَاذَا يُفِيدُ الْمَرْءُ حُسْنَ بَيَانِهِ
 إِذَا عَيَّ بِالنُّطْقِ الْفَصِيحِ ضَمِيرُ
 مَدْحُكَ يَا بَيْلٌ لَأَنْتِي شَاعِرُ
 وَأَنْتَ عَلَى حُسْنِ الْجَزَاءِ قَدِيرُ
 وَلَوْ كُنْتَ تَذَرِي مَا أَقُولُ لَقُمْتَ لِي
 بِمَا لَمْ يَقُمْ لِلْمَادِحِينَ أَمِيرُ



هذه ترجمة ذلك الكاتب الكبير، والشاعر الجليل؛
 مَنْ قَرَأَهَا وَرَأَى أَنَّهَا تَرْجَمَةٌ غَيْرُ حَافِلَةٍ بِالْأَلْقَابِ الْعِلْمِيَّةِ،
 وَالشَّهَادَاتِ الْمَدْرَسِيَّةِ، الَّتِي تَمْتَلَأُ بِهَا عَادَةً تَرَاجِمُ كِبَارِ
 الْكُتَّابِ، وَفَطَا حِلِ الشُّعْرَاءِ؛ عَلِمَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
 مَنْ يَشَاءُ.

أ. حافظ عوض
 مصر، في أول ديسمبر / كانون الأول
 سنة ١٩٠٩م

من مصادر ترجمة المنفلوطي

- «الأعلام» خير الدين الزركلي.
- «الأعلام الشرقية» زكي محمد مجاهد.
- «أشهر مشاهير أدباء الشرق» محمد محمد عبد الفتاح
١٧٧/٢، الناشر حسين حسنين صاحب المكتبة
المصرية بمصر، دون ذكر تاريخ الطبع.
- «الشعر الباسم في مناقب أبي القاسم» صفحة ٢٩.
- «جامع التصانيف الحديثة» ١٣/٢.
- «كلمات المنفلوطي ملخصة من كتبه ومصدرة بصورته
وخطه وترجمته ومذيلة بخلاصة ما قيل فيه من
الوصف والتأبين والثناء» لأحمد عبيد، دمشق،
١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م؛ وهو مختارات من أقوال
المنفلوطي مذيلة بخلاصة ما قاله الأدباء في مصر
وسورية والعراق في حياته ومماته، في وصفه وتأبينه،
نظماً ونثراً، ١٨٠ صفحة.
- «الكنز الثمين» صفحة: ٢٧٨.
- مجلة «الرسالة» أحمد حسن الزيات السنة الخامسة
الصفحة ٧٥٧ و ١٠٣٧ و ١١٢١ و ١١٢٢ و ١٢٧٠

- و١٢٧١ و١٢٨١ و١٢٨٢ القاهرة سنة ١٩٣٧م؛ والسنة الثامنة الصفحة ٢٧٦ و٢٧٧ القاهرة سنة ١٩٤٠م.
- مجلة «كل شيء والعالم» لعباس محمود العقاد العدد الصادر بتاريخ ١٧/١/١٩٣١م.
- «معجم المطبوعات» صفحة ١٨٠٥.
- «مشاهير شعراء العصر» لأحمد عبيد، الطبعة الثانية؛ مكتبة صادر، بيروت، ١٩٩٤م؛ ٣٢٩/١ - ٣٤١.
- «مشاهير القرن العشرين» محمد بوذينة، الصفحة ٨٨٩، تونس ١٩٩٤م.
- «مصادر الدراسة الأدبية» يوسف أسعد داغر، الجزء ٢ الصفحة ٧٠٢ - ٧٠٥، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٣م.
- «معجم المؤلفين» عمر رضا كحالة، الجزء ١٢ الصفحة ٢٧٢ - ٢٧٤، مطبعة الترقى بدمشق، ١٩٦٠م.
- «المنفلوطي، حياته، أقوال الكتاب والشعراء فيه، المختار من نثره، المختار من شعره» لمحمد محمد زكي الدين، مصر، دون تاريخ [١٩٤٢م؟]، ١٦٠ صفحة.
- «النظرات» المقدمة، لمصطفى لطفى المنفلوطي.

هذا الكتاب

لم يطبع من «مختارات المنفلوطي» سوى الجزء الأول فقط. كما سبق أن ذكرت عند تعداد مؤلفاته. وإضافة لما أوردته هناك أورد ما قاله هو عن كتابه في مقدمته مخاطباً طالب المدرسة الإعدادية والثانوية وكذلك الجامعي:

كتاب يَجْمَعُ لك من جيّد منظوم العرب ومنشورها،
في حاضرها وماضيها، وفي كل فنٍّ وعَرَضٍ من فنونها
وأغراضها، ما تستعين باستظهاره أو ترديد النّظَرِ فيه، على
تهذيب بيانك وتقويم لسانك.

هذه الطبعة:

هي إعادة طبع لما ورد في الطبعة الأولى مع زيادة
ضبطٍ وتصحيحٍ وتعليقٍ، وتعيينٍ لتاريخ الولادة والوفاة
للأعلام المترجمين.

وفي الختام، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ييسرنا
 للخير، ويستعملنا صالحاً، ويرحمنا، ويغفر لنا، ولوالدينا،
 ولكل مَنْ له حقّ علينا، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ
 العالمين.

دمشق

بشام عبد الوهاب الجابي

في ٢٥/١١/٢٠٠١

هدية الكتاب

إلى سعادة الأستاذ السيد علي يوسف^(١):

كَانَ لِلإِنشَاءِ فِي مِصْرٍ دِيوانٌ أَنْتَ رَئِيسُهُ، وَالْكِتَابُ

(١) الشيخ علي يوسف (١٢٨٠ - ١٣٣١ هـ = ١٨٦٣ - ١٩١٣ م)

علي بن أحمد بن يوسف البلصفوري الحسيني: كاتب، من أكابر رجال الصحافة في الديار المصرية. ولد في بلصفورة (من نواحي جرجا بمصر) ونشأ يتيماً، خلفه والده في السنة الأولى من عمره. وانتقل إلى القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ، فتعلم في الأزهر. ونظم الشعر، ونشر ديواناً صغيراً سماه «نسمة السحر - ط» وأنشأ مجلة أسبوعية سماها «الآداب» عاشت ثلاث سنوات. ثم أصدر جريدة «المؤيد» يومية سنة ١٣٠٧ هـ، فكان لها شأن في سياسة مصر والشرق والإسلام، واستمر صدورها إلى أواخر أيامه. [وفي هذه الجريدة كان ينشر المنفلوطي «نظراته»] وولي مشيخة السجادة الوفائية. وتوفي في القاهرة، فرثاه كثيرون من الشعراء والكتاب. وكان سريع الخاطر، قوي الحجة، واسع الرواية، مقداماً جريئاً، عرّفه بعض الكتاب بشيخ الصحافة الإسلامية في عصره، وهو تعريف صحيح. [مرآة العصر ٥٣٧ والهلal ٢٢: ١٤٨ ومجلة المقتطف. وانظر مجلة الكتاب: ٦: ٢٣٢-٢٤٩ وهدية ١: ٧٧٧] نقلاً عن «الأعلام» للزركلي.

جميعاً عُمَّالُهُ. فَأَمَّا وَقَدْ أَعْتَزَلْتَهُ، فَأَثَدَنْ لِأَحَدِ عُمَّالِ دِيَوَانِكَ
أَنْ يُقَدِّمَ إِلَيْكَ كِتَابَهُ هَذَا تَذْكَارَ وَدَاعٍ تَحْفَظُ لَهُ فِيهِ مَاضِي
إِخْلَاصِهِ لَكَ، وَيَحْفَظُ لَكَ فِيهِ سَالِفَ أَيَادِيكَ عِنْدَهُ؛ وَسَلَامٌ
عَلَى عَهْدِكَ الزَّاهِرِ وَتَارِيخِكَ الطَّاهِرِ.

مصطفى لطفى المنفلوطي

تحريراً في ١٥ مارس/آذار سنة ١٩١٢م.

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى آلَائِهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ وَصَحْبِهِ وَآلِهِ.

وَبَعْدُ؛ فَقَدْ عَرَفْتُ حَاجَتَكَ يَا بُنَيَّ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - إِلَى
كِتَابٍ يَجْمَعُ لَكَ مِنْ جَيِّدِ مَنَظُومِ الْعَرَبِ وَمَنْثُورِهَا، فِي
حَاضِرِهَا وَمَاضِيهَا، وَفِي كُلِّ فَنٍّ وَغَرَضٍ مِنْ فُنُونِهَا
وَأَغْرَاضِهَا مَا تَسْتَعِينُ بِاسْتِظْهَارِهِ، أَوْ تَرْدِيدِ النَّظَرِ فِيهِ، عَلَى
تَهْذِيبِ بَيَانِكَ وَتَقْوِيمِ لِسَانِكَ؛ وَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ
تَجِدَ طَلِبَتَكَ هَذِهِ فِي مُخْتَارٍ مِنْ مُخْتَارَاتِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَلَا
فِي مَجْمُوعَةٍ مِنْ مَجْمُوعَاتِ الْمُعَاصِرِينَ.

أَمَّا الْمُتَقَدِّمُونَ، فَهُمْ بَيْنَ نَحْوِي لَا يُعْجِبُهُ مِنَ الْكَلَامِ
إِلَّا مَا يَجِدُ فِيهِ مَذَاقَ شَوَاهِدِ الْعِلْمِ الَّذِي يُعَالِجُهُ، وَلَا
تَسْكُنُ نَفْسُهُ إِلَّا إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي يَرَى فِيهِ عُقْدَةً يَتَفَضَّلُ

بِحَلِّهَا، أَوْ خِطَاءَةً يَتَفَكَّهُ بِتَأْوِيلِهَا، أَوْ نَادِرَةً مِنْ نَوَادِرِ
 الْإِغْرَابِ وَالْبِنَاءِ يُؤَيَّدُ بِهَا رَأْيًا أَوْ يُسَاجِلُ بِهَا خَصْمًا؛
 وَلُغَوِيٌّ مُوَلِّعٌ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَى الْغَرِيبِ النَّادِرِ مِنْ مُفْرَدَاتِ
 اللُّغَةِ وَتَرَائِكِهَا، فَلَا يَكَادُ يَغْدِلُ بِشِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَا جَرَى
 مَجْرَاهُ شِعْرَ طَبَقَةٍ مِنَ الطَّبَقَاتِ، وَلَا يَرَى غَيْرَ كَلَامِهِمْ
 كَلَامًا وَلَا مَذْهَبِهِمْ مَذْهَبًا.

وَعَضْرُ الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى مَا أَعْتَقِدُ هُوَ عَضْرُ الطُّفُولَةِ
 الشُّعْرِيَّةِ، أَي: أَنَّ الشُّعْرَ كَانَ فِيهِ بَسِيطًا سَادَجًا، لَمْ يُهَذِّبْهُ
 الْعِلْمُ، وَلَمْ تَضُقْلُهُ الْحَضَارَةُ، وَلَمْ تَتَّصِلْ بِهِ أَشِعَّةُ الْخِيَالِ
 فَتُثِيرَ ظُلُمَتُهُ.

فَهُوَ وَإِنْ كَانَ أَصْدَقَ الشُّعْرِ وَأَجْدَرَهُ أَنْ يَكُونَ
 صَفْحَةً صَحِيحَةً لِتَارِيخِ عَصْرِهِ، وَلَكِنْ قَلَّمَا يَسْتَفِيدُ شَاعِرُ
 الْحَضَارَةِ مِنْ أَكْثَرِهِ أَكْثَرَ مِنَ الْمَادَّةِ اللَّغَوِيَّةِ. وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ
 شِعْرِ الْجَاهِلِيَّةِ وَشِعْرِ طَبَقَةِ الْمُحَدِّثِينَ وَالْمَوْلُودِينَ مِنْ بَعْدِهِ
 إِلَّا كَالْفَرْقِ فِي الْمَوْسِيقَى بَيْنَ نَغَمَاتِ الْحُدَاةِ فِي أَغْقَابِ
 الْإِبِلِ وَنَغَمَاتِ الضَّارِبِينَ عَلَى أَوْتَارِ الْأَعْوَادِ وَالْبَرَابِطِ فِي
 عَصْرِ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَعِنْدِي أَنَّ لِلنَّزْعَةِ التَّارِيخِيَّةِ سُلْطَانًا عَلَى نُفُوسِ
 الْمَوْلَعِينَ بِالشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ أَكْثَرَ مِنَ النَّزْعَةِ الْفَنِّيَّةِ، فَمَثَلُهُمْ

كَمَثَلِ الْمُؤَلَّعِينَ بِالْعَادِيَاتِ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ حَجَرَ الْغَرَانِيتِ
عَلَى حَجَرِ الْمَاسِ، وَيُعْجِبُهُمْ مَنْظَرُ هَرَمٍ خُوفُوا أَكْثَرَ مِمَّا
يُعْجِبُهُمْ مَنْظَرُ بُرْجٍ إِيفُلٍ.

وَرِاوِيَةٌ هُمُّهُ فِي حَيَاتِهِ أَنْ يَدُورَ بِيَدِهِ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ فِي
زَوَايَا رَأْسِهِ عَلَيْهِ يَغْثُرُ بَيْتٌ لَا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ مَنْسُوباً إِلَى قَائِلٍ
لَا يَعْرِفُ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِ سِوَاهُ، ثُمَّ لَا يُبَالِي بَعْدَ ذَلِكَ أَحْسَنَ أَمْ
أَسَاءَ.

فَهُوَ بِالْمُؤَرِّخِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْأَدِيبِ.

وَأَدِيبٌ جَمَعَ مَا جَمَعَهُ لِعَضْرِ غَيْرِ عَضْرِكَ وَقَوْمٍ غَيْرِ
قَوْمِكَ وَحَالٍ وَمُجْتَمَعٍ غَيْرِ حَالِكَ وَمُجْتَمَعِكَ، فَإِنْ أَفَادَكَ
قَلِيلُهُ لَا يَنْفَعُكَ كَثِيرُهُ.

وَأَخْسَبُ أَنَّ مَا يَتَعَلَّقُ مِنَ الشَّعْرِ بِالْحِمَاسَةِ وَوَصْفِ
الْحُرُوبِ وَأَسْلِحَتِهَا وَدِمَائِهَا وَغُبَارِهَا وَأَشْلَائِهَا وَوَصْفِ
الْإِبِلِ فِي مَبَارِكِهَا وَالشَّاءِ فِي حَظَائِرِهَا وَالْأَبْقَارِ فِي مَرَاتِعِهَا،
هُوَ آخِرُ مَا يَخْتَاجُ الْمُتَأَدِّبُ إِلَى النَّظَرِ فِيهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

وَبَيْنَ مُطِيلٍ قَدْ خَلَطَ جَيِّدَهُ بِرَدِيئِهِ وَغَثُّهُ بِسَمِينِهِ، فَلَا
تَصِلُ يَدُكَ إِلَى مَا فِي مَنْجَمِهِ مِنْ ذَرَاتِ التُّبْرِ حَتَّى تَنْبُشَ
عَنْهَا مَا لَا قَبْلَ لَكَ بِإِحْتِمَالِهِ مِنْ حَقَائِبِ الرَّمْلِ.

وَمُقَصِّرٍ يَخْتَصِرُ بِالِاخْتِيَارِ عَضْرًا دُونَ عَضْرِ أَوْ فَرْدًا
دُونَ فَرْدٍ أَوْ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ أَوْ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْبَيَانِ دُونَ
بَابٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُتَأَدِّبَ شَاعِرًا كَانَ أَوْ كَاتِبًا لَا يَكْمُلُ
أَدَبُهُ وَلَا تَصْفُو قَرِيحَتُهُ وَلَا تَلْمَعُ صَفْحَةُ بَيَانِهِ وَلَا تَنْحَلَّ
عُقْدَةُ لِسَانِهِ إِلَّا إِذَا تَمَهَّلَ فِي رَوْضِ الْبَيَانِ فَأَقْتَطَفَ أُلْوَانَ
زَهْرَاتِهِ مِنْ أَنْوَاعِ شَجَرَاتِهِ، وَأَنَّ الشَّاعِرَ لَا يُغْنِيهِ الْمَذْحُ
وَالِهَجَاءُ عَنِ الْبُكَاءِ وَالرِّثَاءِ، وَلَا الْعِتَابُ وَالْوِدُّ عَنِ التَّشْبِيهِ
وَالْوَصْفِ، وَلَا الْبُكَاءُ عَلَى الْمَنَازِلِ وَالذِّيارِ وَفِرَاقِ الْأَحِبَّةِ
وَمَوْتِ الْمَوْتَى عَنِ الْبُكَاءِ عَلَى الْمَجْدِ الضَّائِعِ وَالْمُلْكِ
السَّاقِطِ وَالْعِرْضِ الْمَغْلُوبِ وَالشَّرَفِ الْمَسْلُوبِ، كَمَا لَا
يُغْنِيهِ وَصْفُ السَّيْفِ فِي رَوْنَقِهِ وَبَهَائِهِ عَنْ وَصْفِهِ فِي حَدِّهِ
وَمُضَائِهِ، وَلَا وَصْفُ الْبَذْرِ فِي جَمَالِهِ وَرُؤَايِهِ عَنْ وَصْفِهِ
فِي عِزَّتِهِ وَخِيَلَاتِهِ، وَلَا تَشْبِيهُ قَوَادِمِ الْحَمَامَةِ عَنْ تَشْبِيهِ
ذَنْبِ الْقَطَاةِ، وَلَا تَصْوِيرُ ذَكَاءِ الْفِيلِ عَنْ تَمْثِيلِ إِخْسَاسِ
النَّمْلَةِ. وَأَنَّ الْكَاتِبَ لَا يَبْلُغُ مَرْتَبَةَ الْبَيَانِ، وَلَا يَصِلُ إِلَى
مَنْزِلَةِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِنْفِصَاحِ عَنْ أَغْرَاضِهِ وَمَرَامِيهِ فِي جَمِيعِ
مَوَاقِفِهِ وَمَذَاهِبِهِ حَتَّى يَأْخُذَ بِأَزِمَةِ الْقَوْلِ جَمِيعِهَا وَيَشْتَمِلَ
عَلَى أَسَالِيِبِ الْكَلَامِ بِأَنْوَاعِهِ وَيَعْلَمَ أَنَّ الْكِتَابَةَ فِي الْعِلْمِ
غَيْرُ الْكِتَابَةِ فِي الْأَدَبِ وَأَنَّ لِلْخُطْبِ أُسْلُوبًا غَيْرَ أُسْلُوبِ

الْكُتُبِ، وَأَنَّ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ طَرِيقًا فِي الْكِتَابَةِ خَاصًّا بِهِ لَا يُفَارِقُهُ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا يَشْرُكُهُ فِيهِ سِوَاهُ، وَأَنَّ الْإِنْتِقَادَ غَيْرَ الْهَجَاءِ وَالْهَجَاءَ غَيْرَ التَّهْكُمِ وَالتَّهْكُمَ غَيْرَ التَّأْنِيبِ وَالتَّأْنِيبَ غَيْرَ الْإِنْذَارِ وَالتَّهْدِيدِ.

وَأَمَّا الْمُعَاصِرُونَ، فَهُمْ إِمَّا تَابِعٌ مُتَأَثِّرٌ يَغْتَمِدُ فِي اخْتِيَارِ مَا يَخْتَارُ عَلَى نَبَاهَةِ النَّابِهِ وَفِي اطِّرَاحِ مَا يَطْرَحُ عَلَى خُمُولِ الْخَامِلِ، وَيَعْتَبِرُ التَّقَدُّمَ فِي الزَّمَنِ شَافِعًا يَشْفَعُ فِي إِسَاءَةِ الْمُسِيءِ وَالتَّأَخَّرَ فِيهِ ذَنْبًا يَذْهَبُ بِإِحْسَانِ الْمُحْسِنِ. وَإِمَّا خَاطِبٌ مُتَقَمِّمٌ يَغْتَمِدُ فِي الْاِخْتِيَارِ عَلَى يَدِهِ لَا عَلَى بَصَرِهِ، فَيَأْخُذُ مِنْ كُلِّ كِتَابٍ صَفْحَةً، وَمِنْ كُلِّ دِيْوَانٍ وَرَقَةً، ثُمَّ يَغْرِضُ عَلَى الْأَنْظَارِ كِتَابًا غَرِيبًا فِي اخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ وَتَزَايُلِ أَوْصَالِهِ، جَامِعًا بَيْنَ مُعَلِّقَةِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ وَالْفِيَّةِ ابْنِ مَالِكٍ فِي مَكَانٍ وَبَيْنَ مَقَامَاتِ الْبَدِيعِ وَمَقَالَاتِ صَبِيَّانِ الْمَكَاتِبِ فِي مَكَانٍ آخَرَ.

وَإِمَّا عَالِمٌ أَدِيبٌ قَدْ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ انْتِفَاعِ الْمُتَأَدِّبِينَ بِعِلْمِهِ وَفَضْلِهِ وَسَلَامَةِ ذَوْقِهِ وَصَفَاءِ قَرِيحَتِهِ، إِنَّهُ يُبَالِغُ فِي سُوءِ الظَّنِّ بِأَفْهَامِهِمْ، وَيَذْهَبُ فِي تَقْدِيرِ مَدَارِكِهِمْ مَذَاهِبَ مَا كَانَ لِمِثْلِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى مِثْلِهَا، فَتَرَاهُ يَغْمَدُ فِي اخْتِيَارِ مَا يَخْتَارُ إِلَى مَا يَزْعُمُ أَنَّهُ هُوَ الْقَرِيبُ إِلَى أَذْهَانِهِمُ اللَّاصِقُ

بِعُقُولِهِمْ غَيْرِ الْمُلتَوِي عَلَيْهِمْ وَلَا الْمُتَعَثِّرِ بِهِمْ، فَيَتَبَدَّلُ كُلُّ
التَّبَدُّلِ وَيُسِفُ كُلُّ الإِسْفَافِ، وَيُورَدُ فِي كِتَابِهِ مِنْ قِطْعِ
الشَّعْرِ وَجُمَلِ النَّثْرِ مَا يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مَادَّةً لِلطُّفْلِ فِي
هَجَائِهِ، لَا مَادَّةً لِلأَدِيبِ فِي بَيَانِهِ.

وَسَبِيلُ كُتُبِ الْمُخْتَارَاتِ الَّتِي يُرَادُ مِنْهَا غَرْسَ مَلَكَهَ
البَيَانِ فِي نَفْسِ الْمُتَأَدِّبِ غَيْرِ سَبِيلِ كُتُبِ الْعِلْمِ الَّتِي لَا يُرَادُ
مِنْهَا غَيْرَ حُصُولِ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ قَوَاعِدِ الْعُلُومِ
وَمَسَائِلِهَا فِي ذِهْنِ الْمُتَعَلِّمِ.

وَلَنْ تَسْتَقِرَّ مَلَكَهَ البَيَانِ فِي النَّفْسِ حَتَّى يَقِفَ
الْمُتَأَدِّبُ بِطَائِفَةٍ مِنْ شَرِيفِ الْقَوْلِ، مَنْظُومَةٍ وَمَشُورَةٍ، وَقُوفِ
الْمُسْتَشَبِّهِ الْمُسْتَبْصِرِ الَّذِي يَرَى الْمَعْنَى بَعِيداً، فَيَمْشِي إِلَيْهِ،
أَوْ نَازِحاً فَيَسْتَدْنِيهِ، أَوْ مُحَلِّقاً فَيَضَعُدُ إِلَيْهِ، أَوْ مُتَغَلِّغِلاً
فَيَتَمَشَّى فِي أَحْشَائِهِ حَتَّى يُصِيبَ لُبَّهُ، وَلَا يَزَالُ يُعَالِجُ ذَلِكَ
عِلَاجاً شَدِيداً يَنْضَحُ لَهُ جَبِينُهُ، وَتَنْبَهَرُ لَهُ أَنْفَاسُهُ، حَتَّى
تَتَكَيَّفَ مَلَكَتُهُ بِالكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُرِيدُهَا.

وَمَا أَرَى هَذِهِ النُّكْبَةَ الْعَامَّةَ الَّتِي أَصَابَتْ النَّاشِئِينَ فِي
مَلَكَاتِهِمُ الْكِتَابِيَّةِ وَمَا رُزِنُوا بِهِ مِنْ نُضُوبِ مَادَّتِهِمُ اللُّغَوِيَّةِ
وَالنُّزُوعِ إِلَى تِلْكَ الْمَنَازِعِ الْأَعْجَمِيَّةِ فِي التَّصَوُّرِ وَالتَّخِيلِ
إِلَّا أَثَرًا مِنْ آثَارِ تِلْكَ الْمُخْتَارَاتِ الَّتِي يَجْمَعُهَا لَهُمْ

الْجَامِعُونَ جَمْعاً مَخْفُوفاً بِالْحَذَرِ، وَالْأَخْتِيَاظِ، بَلْ بِمَا هُوَ
فَوْقَ ذَلِكَ مِنَ الْخَوْفِ وَالْوَسْوَاسِ، فَيَسْتَكْثِرُونَ لَهُمْ مِنْ
أَبْوَابِ الْحِكْمِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْمَوَاعِظِ وَالزُّهْدِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ
مِمَّا لَا يَكَادُ يَتَرَاءَى فِيهِ قَلْبُ الشَّاعِرِ وَلَا تَتَجَلَّى فِيهِ نَفْسُ
الْكَاتِبِ، وَيَفِرُّونَ الْفِرَارَ كُلَّهُ مِنْ كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِوَصْفِ
جَمَالِ الطَّبِيعَةِ أَوْ جَمَالِ الصَّنَاعَةِ، أَوْ تَصْوِيرِ عَوَاطِفِ
النُّفُوسِ وَوِجْدَانَاتِهَا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْعُزْفِ وَالنُّكْرِ، كَأَنَّمَا
يَخْسَبُونَ أَنَّ كُلَّ بَيْتٍ غَزَلَ بَيْتُ رَيْبَةٍ، وَكُلُّ وَصْفٍ خَمِرِ
حَانَةِ شَرَابٍ.

وَمَا سَمِعْنَا مِنْ قَبْلُ، وَلَا نَحْسَبُ أَنْ سَيَسْمَعُ
السَّامِعُونَ مِنْ بَعْدُ أَنَّ مُتَأَدِّباً أَفْسَدَهُ دِيْوَانُ غَزَلٍ أَوْ أَغْرَاهُ
بِالشَّرَابِ وَصَفُ خَمِرٍ، لَا بَلْ إِنَّمَا يَرُدُّ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَرُدُّ
عَلَيْهِ مِنْهُمْ مِنْ فَسَادِ الْخُلَطَاءِ أَوْ ضَلَالِ الْمُؤَدِّينَ.

أَمَّا الشَّعْرُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى وَصْفِ الْجَمَالِ وَالنُّثْرِ
الْمُتَضَمِّنُ تَصْوِيرَ دَقَائِقِ الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةِ وَالْخَوَاطِرِ الْقَلْبِيَّةِ مَا
دَامَ بَعِيداً عَنِ فَاحِشِ الْقَوْلِ وَهَجَرِهِ، فَهُوَ أَغْوَى الذَّرَائِعِ
عَلَى تَنْمِيَةِ مَلَكَهَ الْفَصَاحَةِ وَالْبَيَانِ فِي نَفْسِ النَّاشِءِ.

لِذَلِكَ لَمْ أَرِ بُدّاً مِنْ أَنْ أَسْتَخِيرَ اللَّهَ تَعَالَى فِي أَنْ
أَجْمَعَ لَكَ يَا بُنَيَّ فِي هَذَا السَّفَرِ مِنْ جَيِّدِ الْمَنْظُومِ وَالْمَثُورِ

ما أَعْلَمُ أَنَّهُ أَلَصَقُ بِكَ وَأَذْنَى إِلَيْكَ وَأَنْفَعُ لَكَ فِي تَثْقِيفِ
عَقْلِكَ وَتَقْوِيمِ لِسَانِكَ وَتَحْلِيلِ مَا أَسَارَتْهُ الْآيَامُ مِنَ الْعُجْمَةِ
فِي قَلَمِكَ وَلِسَانِكَ، فَهَزَزْتُ لَكَ دَوْحَةَ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ هَزَّةً
تَنَائَرَتْ فِيهَا هَذِهِ الثَّمَرَاتُ النَّاضِجَةُ الَّتِي تَرَاهَا بَيْنَ يَدَيْكَ،
وَلَمْ أَتْرُكْ مِنْ وَرَائِي فِي جَمِيعِ مَا تَصَفَّخْتُهُ مِنْ دَوَائِبِ
الشُّعْرِ وَمَجَامِيعِ الْأَدَبِ وَكُتُبِ الْمُخْتَارَاتِ إِلَّا مَا كَانَ رَدِيئاً
أَوْ مَشُوباً بِشَيْءٍ مِنْ هُجْرِ الْقَوْلِ وَمَعِيبَةٍ، أَوْ بَالِغاً مِنَ
الشُّهْرَةِ وَالسَّيْرُورَةِ مَنْزِلَةً لَا يُخْطِئُهَا نَظَرُ النَّاطِرِ، أَوْ وَاقِعاً
فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْجُودَةِ وَالرَّدَاءَةِ.

وَقَدْ جَعَلْتُ قَاعِدَتِي فِي الْاِخْتِيَارِ جَمَالَ الْأُسْلُوبِ
أَوَّلًا، وَجَمَالَ الْمَعْنَى ثَانِيًا، فَرُبَّمَا اخْتَارَ مَا حَسَنَ لَفْظُهُ
وَتَوَسَّطَ مَعْنَاهُ، وَقَدْ اخْتَارَ مَا تَوَسَّطَ لَفْظُهُ وَسَمَا مَعْنَاهُ، كَمَا
صَنَعْتُ فِي بَعْضِ مُخْتَارَاتِ قِسْمِ الْمَثُورِ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ،
وَهُوَ بَابُ الْفَصَاحَةِ وَالْبَيَانِ؛ وَلَكِنِّي لَا اخْتَارُ بِحَالٍ مَا كَانَ
مَعْنَاهُ سَامِيًا وَنَظْمُهُ فَاسِدًا.

أَمَّا الْجَيِّدُ فَقَاعِدَتُهُ عِنْدِي مَا يَأْتِي: «كُلُّ كَلَامٍ صَحِيحُ
النَّظْمِ وَالنَّسْقِ، إِذَا قَرَأَهُ الْقَارِئُ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ الْأَثَرَ الَّذِي
أَرَادَهُ الْكَاتِبُ مِنْهُ عَلَى شَرْطِ الْأَلَّا يَجِدَ فِيهِ مَسْحَةً تَدُلُّ عَلَى
أَنَّ صَاحِبَهُ يُحَاوِلُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ بَلِيغًا فَهُوَ بَلِيغٌ».

وَلَا أَكْتُمُكَ أَنِّي قَدْ اسْتَجَزْتُ لِنَفْسِي مَا اسْتَجَازَهُ
لِأَنْفُسِهِمُ الْمُخْتَارُونَ قَبْلِي، فَتَصَرَّفْتُ فِي قَلِيلٍ مِنْ
الْمُخْتَارَاتِ بَعْضَ التَّصَرُّفِ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَالْإِبْدَالِ وَالْحَذْفِ.

وَلَقَدْ لَقِيتُ فِي هَذَا السَّبِيلِ وَفِي كُلِّ سَبِيلٍ سَلَكْتُهُ
إِلَى جَمْعِ هَذِهِ الْمُخْتَارَاتِ عَنَاءً كَثِيراً لَا أَسْأَلُكَ يَا بُنَيَّ
عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا أَنْ تَنْتَصِحَ بِمَا أَنْصَحُكَ بِهِ فِي كَلِمَتِي هَذِهِ،
وَهِيَ أَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِهَذِهِ الْمُخْتَارَاتِ إِلَّا
بِشُرُوطٍ ثَلَاثَةٍ:

أَوَّلُهَا: أَنْ تَمْلَأَ قَلْبَكَ مِنَ الثِّقَةِ بِهَا وَالسُّكُونِ إِلَيْهَا
حَتَّى لَا يَضْرِبَكَ عَنْهَا صَارِفٌ وَلَا يَخْدَعُكَ عَنْهَا خَادِعٌ.

وِثَانِيهَا: أَنْ تَقِفَ بِهَا وَقُوفَ الدَّارِسِ الْمُتَعَلِّمِ لَا
وُقُوفَ الْمُتَنَزِّهِ الْمُتَفَرِّجِ، فَلَا يَمْنَعُكَ فَهْمُ مَا فَهِمْتَهُ مِنْ
مُعَاوَدَتِهِ وَتَرْدِيدِ النَّظَرِ فِيهِ حَتَّى تَرُشِفَ مِنَ الْكَأْسِ ثَمَالَتَهَا،
وَلَا تُصَعَّبُ مَا يَتَصَعَّبُ عَلَيْكَ مِنْ مُرَاجَعَتِهِ وَالْإِخْتِلَافِ إِلَيْهِ
وَالْتَّغْلُغِ فِي أَحْشَائِهِ، فَإِنَّكَ لَا بُدَّ مَا خَضَّ زُبْدَتُهُ وَمُصِيبُ
لُبِّهِ.

وِثَالِثُهَا: أَنْ تَخِمِيَ نَفْسَكَ النَّظَرَ فِي هَذِهِ
الْمَخْطُوطَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي تَتَجَدَّدُ كُلُّ يَوْمٍ أَمَامَ عَيْنَيْكَ فِي

أَسْفَارِ هَذَا الْعَصْرِ وَصُحُفِهِ، فَإِنَّ التَّزْيِيَةَ الْكِتَابِيَّةَ مِثْلُ التَّزْيِيَةِ
الْأَخْلَاقِيَّةِ، يَسْرِي فِيهَا الدَّاءُ ثُمَّ يُعَوِّزُ مِنْهَا الدَّوَاءُ، اللَّهُمَّ إِلَّا
مَا كَانَ مِنْ أَمْثَالِ مَا يَكْتُبُهُ الْكُتَّابُ الَّذِينَ أَخْتَرْتُ لَهُمْ فِي
هَذَا الْكِتَابِ فِي الْمَعَانِي الَّتِي عُرِفُوا بِهَا وَبَرَّزُوا فِيهَا.

فَإِنَّ أَنْتَ أَخَذْتَ بِنَصِيحَتِي وَعُنَيْتَ بِهَا الْعِنَايَةَ كُلَّهَا،
وَكُنْتَ مِمَّنْ رَزَقَهُمُ اللَّهُ قَرِيحَةً خِصْبَةً صَالِحَةً لِنَمَاءِ مَا
يُغْرَسُ فِيهَا مِنَ الْبُذُورِ الصَّالِحَةِ بَلَغْتَ مَا أَرَدْتَ لِنَفْسِكَ
وَمَا أَرَدْتَ لَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

مضطفي لطفی المنفلوطي

باب الفَصَالَةِ وَالْيَتَامَى

قِسْمُ الْمَنْظُومِ

قُوَّةُ الْحُجَّةِ

«لأعرابي»

[الطويل]

وَدَاهِيَّةٌ دَاهِيٌ بِهَا الْقَوْمَ مُفْلِقٌ

(١) شَدِيدٌ بَعُورَاءِ الْكَلَامِ أَزُومُهَا

أَصْحَتْ لَهَا حَتَّى إِذَا مَا وَعَيْتُهَا

(٢) رَمَيْتُ بِأُخْرَى يَسْتَدِيرُ أَمِيمُهَا

تَرَى الْقَوْمَ مِنْهَا مُطْرِقِينَ كَأَنَّمَا

(٣) تَسَاقَوْا بِكَاسٍ مَا يَبِلُ سَلِيمُهَا

(١) عَوْرَاءُ الكلام: مَعِيْبُهُ، وَالْأَزُومُ: الْعَضْرُ * وَلَقَدْ أَنْصَفَ هَذَا
الْأَعْرَابِيُّ خَصْمَهُ، فَوَصَفَ حُجَّتَهُ بِالْقُوَّةِ، إِلَّا أَنَّهُ شَكَاهُ مِنْهُ مَا لَا
يَزَالُ يَشْكُو مِنْهُ النَّاسُ حَتَّى الْيَوْمِ، وَهُوَ اسْتِعَانَةُ الْخَصْمِ عَلَى
خَصْمِهِ فِي الْمُنَاطَرَةِ بِالْهَجْرِ وَالْعَيْبِ.

(٢) الْأَمِيمُ: الْمَضْرُوبُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ * فِي هَذَا الْبَيْتِ أَدَبٌ جَمِيلٌ
مِنْ آدَابِ الْمُنَاطَرَةِ، وَهُوَ أَنْ يُضْغِي الْمُنَاطِرُ لَأَقْوَالِ مُنَاطِرِهِ حَتَّى
يَسْتَوْعِبَهَا، ثُمَّ يُذْلِي بِحُجَّتِهِ.

(٣) بَلْ: بَرِيءٌ، وَالسَّلِيمُ: اللَّدِيغُ.

فَلَمْ تَرِنِي فَهَآ وَلَمْ تَرَ حُجَّتِي
مُلْجَلَجَةً أَبْغِي لَهَا مَنْ يُقِيمُهَا^(١)

تَهْذِيبُ الشَّعْرِ

«لَعْدِي أَبْنُ الرُّقَاعِ»^(٢)

[الكامل]

وَقَصِيدَةٌ قَدْ بَتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا
حَتَّى أَقْوَمَ مَيْلَهَا وَسِنَادَهَا^(٣)
نَظَرَ الْمُثَقَّفِ فِي كُغُوبِ قَنَاتِهِ
حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مُنَادَهَا^(٤)

[راجع ديوانه، طبعة المجمع العراقي، ١٩٨٧م، الصفحات: ٨٨ - ٩٠].

(١) الفَهْ والفَهِيَّةُ: العَيِي.

(٢) «لَعْدِي أَبْنُ الرُّقَاعِ» [...] نحو ٩٥هـ = ... - نحو ٧١٤م] [هو

عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرُّقَاعِ العاملي]. من أهل دمشق، يكنى: أبا داود]. أَحَدُ شُعْرَاءِ الْعَصْرِ الْأُمَوِيِّ، مَعْدُودٌ فِي الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ، وَإِحْسَانُهُ قَلِيلٌ، وَنَسِيبُهُ الْغَايَةُ فِي الْإِحْسَانِ.

(٣) السِّنَادُ: كُلُّ عَيْبٍ فِي الْقَافِيَةِ قَبْلَ الرَّوِيِّ.

(٤) ثَقَّفَ الرُّمَحَ: قَوَّمَهُ، وَكُغُوبُ الرُّمَحِ: عُقْدُهُ، وَالْمُنَادُ: الْمُنْحَنِي.

وصف القلم

«لأبي تمام»^(١)

[الطويل]

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِشَبَابِهِ
 تُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكُلِّي وَالْمَفَاصِلُ^(٢)
 لَهُ الْخُلُواتُ اللَّائِي لَوْلَا نَجِيُّهَا
 لَمَا اخْتَفَلَتْ لِلْمُلْكِ تِلْكَ الْمَحَافِلُ^(٣)
 لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ
 وَأَزْيُ الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدِ عَوَاسِلُ^(٤)
 لَهُ رِيقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنَّ وَقْعُهَا
 بِأَثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَابِلُ

(١) «أبو تمام» [١٨٨ - ٢٣١هـ = ٨٠٤ - ٨٤٦م] هو حبيب بن أوس الطائي، أحد شعراء الطبقة الأولى، معروف بحسن مراثيه وبديع وصفه وابتكار معانيه، وعينه التكلف والافتتان بالصناعة اللفظية في أكثر شعره.

(٢) الشبابة: حد السيف. يريد أن قلمه يصيب الغرض، ويصادف المحز.

(٣) النجى: المسارر، والاحتفال: حسن القيام بالأمر.

(٤) الأري: العسل، واشتارته: استخرجته، والعواسل: التي تستخرج العسل.

فَصِيحٌ إِذَا اسْتَنْطَقْتُهُ وَهُوَ رَاكِبٌ
 وَأَعْجَمٌ إِنْ خَاطَبْتُهُ وَهُوَ رَاجِلٌ
 إِذَا مَا أَمْتَطَى الْخُمْسَ اللَّطَافَ وَأَفْرِغْتَ
 عَلَيْهِ شِعَابُ الْفِكْرِ وَهِيَ حَوَافِلُ^(١)
 أَطَاعَتُهُ أَظْرَافُ الْقَنَا وَتَقَوَّضَتْ
 لِنَجْوَاهُ تَقْوِيضُ الْخِيَامِ الْجَحَافِلُ^(٢)
 إِذَا اسْتَغْزَرَ الذُّهْنَ الذَّكِيَّ وَأَقْبَلَتْ
 أَعَالِيهِ فِي الْقِرْطَاسِ وَهِيَ أَسَافِلُ^(٣)
 وَقَدْ رَفَدَتْهُ الْخِنْصِرَانِ وَسَدَّدَتْ
 ثَلَاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلَاثُ الْأَنَامِلُ^(٤)
 رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنُهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ
 ضَنْئِي وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاجِلٌ

[راجع «شرح الصولي لديوان أبي تمام» ٢/ ٣٣٢ - ٣٣٥].

(١) الحوافِلُ: المُتَلَبِّثَةُ.

(٢) تَقَوَّضَتْ: انْتَقَضَتْ، وَتَقْوِيضُ الْخِيَامِ، أَي: كَتَقْوِيضِ الْخِيَامِ؛
 وَالْجَحَافِلُ: فَاعِلُ تَقَوَّضَتْ.

(٣) اسْتَغْزَرَهُ: وَجَدَهُ غَزِيرًا.

(٤) رَفَدَتْهُ: أَعَانَتْهُ، وَسَدَّدَتْ: قَوَّمَتْ.

تَهْذِيبُ الشُّعْرِ

«البُخْتَرِيُّ»^(١)

[الخفيف]

حُجَجٌ تُخْرِسُ الْأَلَدَ بِأَلْفَا
ظُ فُرَادَى كَالْجَوْهَرِ الْمَعْدُودِ
وَمَعَانٍ لَوْ فَصَّلَتْهَا الْقَوَافِي
هَجَّجْتَ شِعْرَ جَرْوَلٍ وَلَبِيدِ
حُزْنَ مُسْتَعْمَلِ الْكَلَامِ اخْتِيَاراً
وَتَجَنَّبْنَ ظُلْمَةَ التَّغْقِيدِ
وَرَكِبْنَ اللَّفْظَ الْقَرِيبَ فَأَذْرَكُ
نَ بِهِ غَايَةَ الْمُرَادِ الْبَعِيدِ
كَالْعَذَارَى عَدَوْنَ فِي الْحُلَلِ الْبِي
ضِ إِذَا رُخْنَ فِي الْخُطُوطِ السُّودِ

[راجع «ديوان البختري» بتحقيق حسن كامل الصيرفي، ٢/٦٣٧].

(١) «البُخْتَرِيُّ» [٢٠٦ - ٢٨٣ هـ = ٨٢١ - ٨٩٧ م].

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي، أفضل الشعراء حُسنَ
ديباجةً وجمالَ أسلوبٍ. وأحسن ما يُجيدُ فيه الوصفُ،
والوصفُ لبُّ الشاعريةِ وجوهرُها.

سِحْرُ الْبَيَانِ

«لَأَبِي تَمَامٍ»

[الطويل]

كَشَفْتُ قِنَاعَ الشُّعْرِ عَنْ حُرٍّ وَجْهِهِ
 وَطَيَّرْتُهُ عَنْ وَكْرِهِ وَهُوَ وَاقِعٌ
 بِغُرٍّ يَرَاهَا مَنْ يَرَاهَا بِسَمْعِهِ
 وَيَذْنُو إِلَيْهَا ذُو الْحِجَا وَهُوَ شَاسِعٌ
 يَوَدُّ وَدَاداً أَنْ أَغْضَاءَ جِسْمِهِ
 إِذَا أَنْشِدَتْ شَوْقاً إِلَيْهَا مَسَامِعُ

[راجع «شرح الصولي لديوان أبي تمام» ٦٣٧/٣].

وَصْفُ قَصِيدَةٍ

«لأبي الرومي»^(١)

[الخفيف]

نَظَمَ الْفِكْرُ دُرَّهَا غَيْرَ مَشْقُو
 بِ إِذَا الدُّرُّ شَيْنَ بِالتَّثْقِيبِ

(١) «ابن الرومي» [٢٢١ - ٢٨٣ هـ = ٨٣٦ - ٨٩٦ م].

هُوَ عَلِيُّ بْنُ الْعَبَّاسِ، أَقْدَرُ الشُّعْرَاءِ عَلَى اخْتِرَاعِ الْمَعَانِي الْغَرِيبَةِ
 وَالْأَفْتِنَانِ فِيهَا، وَلَهُ فِي بَابِ الْهَجَاءِ قَذْعٌ وَإِيلَامٌ، وَتَنْزَلُ إِلَى =

لَمْ يَعْبَهَا سِوَى قَوَافٍ تَشَاغَلُ
 عَنْ عَنِ الْمَدْحِ فِيكَ بِالتَّشْبِيبِ
 يُظْرِبُ السَّامِعِينَ أَيْسَرُ مَا فِيهِ
 هَهَا وَإِنْ أَنْشِدْتَ بِلا تَظْرِبِ
 سَوَدَتْ فِيكَ كُلَّ بَيْضَاءٍ تَسْوِيهِ
 لَدَا تَرَاهُ أَلْعُيُونُ كَالْتَّذْهِيبِ
 لَوْ يُنَاغِي بَيَانُهَا أَلْعُجْمَ يَوْمًا
 عَرَبَ أَلْعُجْمَ أَيَّمَا تَغْرِبِ

[راجع «ديوان ابن الرومي» بتحقيق حسين نصار، الصفحة ١/١٤٥].

سَيُرْوَرَةُ الشَّعْرِ

«للمتنبي»^(١)

[الطويل]

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُوَاةٍ قَصَائِدِي
 إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَضْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدًا

= هُجِرَ الْقَوْلُ أَخِيَانًا وَعَيْنِيهِ. إِنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ رِكََّةٌ وَتَكَلُّفًا،
 وَإِنَّ فِي بَعْضِ قَوَائِيهِ قَلَقًا وَاضْطِرَابًا.

(١) «المتنبي» [٣٠٣ - ٣٥٤ هـ = ٩١٥ - ٩٦٥ م]. =

فَسَارَ بِهِ مَنْ لَا يَسِيرُ مُشْمَرًا
وَعَنَى بِهِ مَنْ لَا يُغْنِي مُغَرَّدًا
أَجْرَنِي إِذَا أَنْشِدْتَ شِعْرًا فَإِنَّمَا
بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدَّدًا

[راجع «البيان شرح ديوان أبي الطيب المتنبي» طبعة السقا، ٢٩٠/١ و٢٩١].

سُهُولَةُ الشَّعْرِ

«بِشَارِ بْنِ بُزْدٍ»^(١)

[الطويل]

عَمِيْتُ جَنِينًا وَالذِّكَاءُ مِنَ الْعَمَى
فَجِئْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْثِلًا

= هُوَ أَبُو الطَّيِّبِ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ، يَغْلُو فَلَا
يَجَارِيهِ مُجَارٍ، ثُمَّ يَنْحَطُّ أَحْيَانًا فَلَا يُسَاوِي أَصْفَرَ شَاعِرٍ، فَإِذَا
أَسْقَطْنَا رَدِيئَهُ رَأَيْنَا أَنَّهُ أَشْعَرُ الشُّعْرَاءِ أَوَّلًا وَأَخِيرًا. وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى
إِلْبَاسِ أَدَقِّ الْمَعَانِي وَأَثْمَنِهَا أَجْمَلَ الْأَثْوَابِ وَأَبْدَعَهَا.

(١) «بشار بن برد» [٩٥ - ١٦٢ هـ = ٧١٤ - ٧٧٩ م].

شاعر جَزَلٌ فَخْمٌ، مُحْكَمُ الْأَسْلُوبِ، بَدِيعُ الْاِفْتِتَانِ، يُجِيدُ فِي
كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ؛ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَقَلَ الشُّعْرَ مِنَ الْبَدَاوَةِ
إِلَى الْحَضَارَةِ.

وَعَاظَ ضِيَاءَ الْعَيْنِ لِلْعِلْمِ رَافِداً
 لِقَلْبٍ إِذَا مَا ضَيَّعَ النَّاسَ حَصَلاً
 وَشَعْرِ كَزْهَرِ الرُّوضِ لَأَمْتُ بَيْنَهُ
 بِقَوْلٍ إِذَا مَا أَحْزَنَ الشَّعْرُ أَشْهلاً
 [راجع «ديوان بشار» بتحقيق محمد الطاهر بن عاشور، ١٣٦/٤ و ١٣٧].

شَعْرُ فَيَكْتُورُ هِيغُو

«حافظ إبراهيم»^(١)

[الرمل]

مَا تُغُورُ الزَّهْرُ فِي أَكْمامِهَا
 ضَاحِكَاتٍ مِنْ بُكَاءِ الشَّحْبِ

(١) «حافظ إبراهيم» [وهو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس (١٢٨٧ - ١٣٥١ هـ = ١٨٧١ - ١٩٣٢ م)].

شاعراً من شعراء الطبقة الأولى، وكاتب من أوائل الكتاب، وله في باب الاجتماع ما لا يلحقه فيه لاحق، وشعره سائر في جميع الأقطار العربية، ويمتاز باقتداره على الجمع بين السلاسة والرقّة والجزالة والفخامة، وهو أحد الذين أخذوا موات اللغة العربية باستعمال غرائب مفرداتها ونادر تراكيبها في شعره ونثره، ولا أعرف بين أدباء العصر أصح منه ذوقاً في التمييز بين جيد الكلام ورديته.

نَظَمَ الْوَسْمِيَّ فِيهَا لَوْلُؤَا
 كَثَنَايَا الْغَيْدِ أَوْ كَالْحَبَبِ
 عِنْدَ مَنْ يَقْضِي بِأَبْهَى مَنَظَرًا
 مِنْ مَعَانِيهِ الَّتِي تَلْعَبُ بِي
 بَسَمَتْ لِلذَّهْنِ فَاسْتَهْوَتْ نُهَى
 مُغْرَمِ الْفَضْلِ وَصَبِّ الْأَدَبِ
 [راجع «ديوانه» صفحة: ٣٢].

ديوانُ ألفريد دي موسيه

«لخيل مطران»^(١)

وهي أبياتٌ كتَبَهَا إِلَى فتاةٍ مُتَأَدِّبَةٍ أَهْدَى إِلَيْهَا هَذَا
 الدِّيوَانَ.

(١) «لخيل [بن عبده] مُطْرَان» [١٢٨٨ - ١٣٦٨ هـ = ١٨٧١ - ١٩٤٩ م].

شاعِرٌ رَاقِي الخِيَالِ، بَدِيعُ التَّصَوُّرِ، يُجِيدُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي
 الْمَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَبْعَدُ الْمَعَانِي عَنْ ذَهْنِهِ؛ وَكَاتِبٌ لَا
 أَغْرِفُ لَهُ شَبِيهَاً فِي الْقُدْرَةِ عَلَى تَصْوِيرِ جُزْئِيَّاتِ الْمَعَانِي وَأَدَقِّ
 مَا فِي أَعْمَاقِ الْقُلُوبِ، إِلَّا أَنَّ اضْطِلَاعَهُ بِبَعْضِ اللُّغَاتِ
 الْإِفْرَنْجِيَّةِ وَحِرْصَهُ عَلَى الْمَعْنَى قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ يُزَخِّرُهُ دِيبَاجَتَهُ
 أَخْيَانًا عَنِ الْأَسْلُوبِ الْعَرَبِيِّ وَالْمَنْهَجِ الْمَطْبُوعِ، فَهُوَ فِي
 الْمُتَأَخِّرِينَ أَشْبَهَ بَابِنِ الرُّومِيِّ فِي الْمُتَقَدِّمِينَ.

[الخفيف]

عَاشَ هَذَا الْفَتَى مُحِبًّا شَقِيًّا
 وَقَضَى عُمُرَهُ مُحِبًّا شَقِيًّا
 وَيَكِي دَمْعُ عَيْنِهِ فِي سَطُورِ
 جَعَلَتْهُ عَلَى الْمَدَى مَبْكِيًّا
 مُنْشِدٌ لِلْغَرَامِ لَمْ يَشُدْ إِلَّا
 كَانَ إِنْشَادُهُ نُوحًا شَجِيًّا
 شَاعِرٌ كَانَ عُمُرُهُ بَيْتَ تَشْبِيهِ
 بِ وَكَانَ الْأَنِينُ فِيهِ الرَوِيَّا

قِسْمُ الْمَنْثُورِ

صِنَاعَةُ الْإِنْشَاءِ

«لَا تَبِ الْمُعْتَمِر»^(١)

خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةً نَشَاطِكَ وَفَرَاغَ بَالِكَ وَإِجَابَتَهَا
 إِيَّاكَ؛ فَإِنَّ قَلِيلَ تِلْكَ السَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا، وَأَشْرَفُ حَسَبًا،
 وَأَحْسَنُ فِي الْأَسْمَاعِ، وَأَخْلَى فِي الصُّدُورِ، وَأَسْلَمُ مِنْ
 فَاحِشِ الْخَطَا، وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ
 وَمَعْنَى بَدِيعٍ. وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ
 يَوْمُكَ الْأَطْوَلُ بِالْكَدِّ وَالْمُطَاوَلَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَبِالتَّكْلُفِ
 وَالْمُعَاوَدَةِ، وَمَهُمَا أَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِثْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا
 قَصْدًا^(٢) وَخَفِيفًا عَلَى اللُّسَانِ سَهْلًا، وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ
 وَنَجَمَ مِنْ مَعْدَنِهِ، وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ، فَإِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى
 التَّعْقِيدِ، وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيكَ وَيَشِينُ
 أَلْفَاظَكَ، وَمَنْ أَرَاغَ^(٣) مَعْنَى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَهُ لَفْظًا كَرِيمًا،
 فَإِنَّ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ، وَمِنْ حَقِّهِمَا أَنْ

(١) «ابنُ الْمُعْتَمِر» ت ١٨٣ هـ [أو ٢١٠ هـ = ٧٩٩، أو ٨٢٥ م].

هُوَ بَشَرٌ بَنُ الْمُعْتَمِر، أَحَدُ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ وَرَئِيسُ فِرْقَةٍ مِنَ
 الْمُتَنَزِّلَةِ. تُسَمَّى بِاسْمِهِ، وَكَانَ خَطِيبًا مَفْهُومًا وَعَالِمًا جَلِيلًا.

(٢) القصد: الْمُعْتَدِل.

(٣) أَرَاغَ: طَلَبَ.

تَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُهْجِنُهُمَا وَعَمَّا تَعُودُ مِنْ أَجْلِهِ إِلَى
 أَنْ تَكُونَ أَسْوَأَ حَالاً مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَمِسَ إِظْهَارَهُمَا
 وَتَرْتَهِنَ نَفْسَكَ بِمُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا. وَكُنْ فِي إِحْدَى
 ثَلَاثِ مَنَازِلَ، أَوَّلَاهُمَا: أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ رَشِيقاً عَذْباً وَفَحْماً
 سَهْلاً، وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِراً مَكْشُوفاً وَقَرِيباً مَعْرُوفاً، إِمَّا
 عِنْدَ الْخَاصَّةِ إِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ، وَإِمَّا عِنْدَ الْعَامَّةِ إِنْ
 كُنْتَ لِلْعَامَّةِ أَرَدْتَ؛ وَالْمَعْنَى لَيْسَ يَشْرَفُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ
 مَعَانِي الْخَاصَّةِ، وَكَذَلِكَ لَيْسَ يَتَضَعُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي
 الْعَامَّةِ؛ وَإِنَّمَا مَدَارُ الشَّرَفِ عَلَى الصَّوَابِ وَإِخْرَازِ الْمَنْفَعَةِ
 مَعَ مُوَافَقَةِ الْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ الْمَقَالِ؛ فَإِنْ
 أَمَكَّنَكَ أَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبِلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ
 مَدَاخِلِكَ وَاقْتِدَارِكَ عَلَى نَفْسِكَ أَنْ تُفْهِمَ الْعَامَّةَ مَعَانِي
 الْخَاصَّةِ، وَتَكْسُوَهَا الْأَلْفَاظَ الْوَاسِطَةَ الَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ
 الذَّهْمَاءِ وَلَا تَخْشَوْنَ عَنِ الْأَكْفَاءِ، فَأَنْتَ الْبَلِیْغُ التَّامُّ. فَإِنْ
 كَانَتِ الْمَنْزِلَةُ الْأُولَى لَا تَوَاتِيكَ وَلَا تَغْتَرِيكَ وَلَا تَسْنَحُ لَكَ
 عِنْدَ أَوَّلِ نَظَرِكَ وَفِي أَوَّلِ تَكَلُّفِكَ، وَتَجِدُ اللَّفْظَةَ لَمْ تُوقِعْ
 مَوْقِعَهَا، وَلَمْ تَصِرْ إِلَى قَرَارِهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا الْمَقْسُومَةِ لَهَا،
 وَالْقَافِيَةُ لَمْ تَحُلْ فِي مَرْكَزِهَا وَفِي نِصَابِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ
 بِشَكْلِهَا، وَكَانَتْ قَلِيقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً مِنْ مَوْضِعِهَا، فَلَا

تُكْرِهَهَا عَلَى اغْتِصَابِ الْأَمَاكِنِ، وَالتُّزُولِ فِي غَيْرِ أَوْطَانِهَا،
فَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تَتَعَاطَ قَرِيضَ الشَّعْرِ الْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ
اخْتِيَارَ الْكَلَامِ الْمُنْشُورِ لَمْ يَعْْبِكَ بِتَرْكِ ذَلِكَ أَحَدٌ، وَإِنْ أَنْتَ
تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَازِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِسَانِكَ
بَصِيرًا بِمَا عَلَيْكَ وَمَا لَكَ، عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقْلُ عَيْبًا مِنْهُ،
وَرَأَى مَنْ هُوَ دُونَكَ أَنَّهُ فَوْقَكَ. فَإِنْ أَبْطَلَيْتَ بِأَنْ تَتَكَلَّفَ
الْقَوْلَ وَتَتَعَاطَى الصَّنْعَةَ، وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ الطَّبَاعُ فِي أَوَّلِ
وَهْلَةٍ، وَتَعْصِيْ عَلَيْكَ الْبَيَانُ بَعْدَ إِجَالَةِ الْفِكْرَةِ، فَلَا تَعْجَلْ
وَلَا تَضْجِرْ، وَدَعُهُ بِيَاضَ يَوْمِكَ أَوْ سَوَادَ لَيْلِكَ، وَعَاوِذُهُ
عِنْدَ نَشَاطِكَ وَفِرَاقِ بَالِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَعْدُمُ الْإِجَابَةَ وَالْمَوَاتَاةَ
إِنْ كَانَتْ هُنَالِكَ طَبِيعَةً أَوْ كُنْتَ جَرَيْتَ مِنَ الصَّنَاعَةِ عَلَى
عِزِّ، فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَالْمَنْزِلَةُ الثَّالِثَةُ أَنْ
تَتَحَوَّلَ مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ إِلَى أَشْهَى الصَّنَاعَاتِ إِلَيْكَ
وَأَخْفَى عَلَيْكَ، لِأَنَّ النُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكُونِهَا مَعَ الرَّغْبَةِ
وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا مَعَ الرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ بِهِ مَعَ الْمَحَبَّةِ
وَالشَّهْوَةِ.

الإزجاج

«لأحد أمراء العباسيين»

وَقَدْ صَعِدَ الْمِنْبَرَ لِيَخْطُبَ فَأُزِجَ عَلَيْهِ، فَقَالَ:

أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ يَجْدُ الْمُغْسِرُ، وَيُغْسِرُ الْمُوسِرُ، وَيُقَلُّ
 الْحَدِيدُ، وَيَقْطَعُ الْكَلِيلُ؛ وَإِنَّمَا الْكَلَامُ بَعْدَ الْإِفْحَامِ،
 كَالْإِشْرَاقِ بَعْدَ الْإِظْلَامِ؛ وَقَدْ يَغْزُبُ الْبَيَانُ، وَيَعْتَقِمُ
 الصَّوَابُ، وَإِنَّمَا اللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ، يَفْتَرُّ بِفَتْوَرِهِ إِذَا
 نَكَلَ، وَيَثُوبُ بِانْبِسَاطِهِ إِذَا أُرْتَجَلَ؛ أَلَا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بِطَرَأٍ،
 وَلَا نَسْكُتُ حَصْرًا؛ بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ، وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ؛
 وَنَحْنُ بَعْدُ أُمَرَاءُ الْكَلَامِ، فِينَا وَشَجَتْ عُرُوقُهُ، وَعَلَيْنَا
 عَطَفَتْ أَغْصَانُهُ، وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَاتُهُ؛ فَتَخَيَّرَ مِنْهُ مَا اخْتَلَوَى
 وَعَذَّبَ، وَنَظَرَ مِنْهُ مَا اْمَلَوَّلَحَ وَخَبُثَ، وَمِنْ بَعْدِ مَقَامِنَا
 مَقَامٌ، وَبَعْدِ أَيَّامِنَا أَيَّامٌ، يُعْرَفُ فِيهَا فَضْلُ الْبَيَانِ، وَفَضْلُ
 الْخِطَابِ، وَاللَّهُ أَفْضَلُ مُسْتَعَانٍ.

فَصَاحَةُ رَسُولِ اللَّهِ

«للجاحظ»^(١)

عَابَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّشْدِيقَ، وَجَانَبَ أَصْحَابَ التَّفْعِيرِ، وَاسْتَعْمَلَ الْمَبْسُوطَ فِي مَوْضِعِ الْبَسْطِ، وَالْمَقْصُورَ فِي مَوْضِعِ الْقَصْرِ، وَهَجَرَ الْغَرِيبَ الْوَحْشِيَّ، وَرَغِبَ عَنِ الْهَجِينِ السُّوقِيِّ، فَلَمْ يَنْطِقْ إِلَّا عَنْ مِيرَاثِ حِكْمَةٍ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ إِلَّا بِكَلَامٍ قَدْ حُفَّ بِالْعِصْمَةِ، وَشِيدَ بِالتَّأْيِيدِ، وَيَسَّرَ بِالتَّوْفِيقِ؛ وَأَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَحَبَّةِ، وَغَشَّاهُ بِالْقَبُولِ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ الْمَهَابَةِ وَالْحَلَاوَةِ، وَبَيَّنَ حُسْنَ الْإِفْهَامِ وَالْإِيجَازِ؛ وَمَعَ اسْتِغْنَائِهِ عَنْ إِعَادَتِهِ وَقِلَّةِ حَاجَةِ السَّامِعِ إِلَى مُعَاوَدَتِهِ لَمْ تَسْقُطْ لَهُ كَلِمَةٌ، وَلَا زَلَّتْ بِهِ قَدَمٌ، بَلْ يَبْذُ الْخُطْبَ الطُّوَالَ بِالْكَلَامِ الْقَصِيرِ، وَلَا يَلْتَمِسُ

(١) «الجاحظ» [١٦٣ - ٢٢٥ هـ = ٧٨٠ - ٨٦٩ م].

هو أبو عثمان عمرو بن بحر، العالم المشهور، والكاتب القدير؛ وله على جميع الكتاب قاطبة مزية الإحسان والعلو في كل موضوع يطرأ، حتى في المواضع التي لم يألَف أدباء الكتاب الكتابة فيها، ورُبَّما كَانَ كِتَابُهُ «الحيوان» أَبْلَغَ كُتُبِهِ، وَكَانَ فِي كِتَابَتِهِ كَثِيرَ التَّوَسُّعِ وَالاسْتِطْرَادِ وَالخُرُوجِ مِنْ غَرَضٍ إِلَى غَرَضٍ، حَتَّى يَكَادُ يَقَعُ أَخْيَانًا فِي الْغُمُوضِ وَالْإِبْهَامِ.

إِسْكَاتِ الْخَضَمِ إِلَّا بِمَا يَعْرِفُهُ الْخَضَمُ، وَلَا يَخْتَجُّ إِلَّا
بِالصَّدَقِ، وَلَا يَطْلُبُ الْفَلَجَ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَسْتَعِينُ
بِالْخَلَابَةِ، وَلَا يَسْتَعْمِلُ الْمُوَارِبَةَ، وَلَا يَهْمِزُ وَلَا يَلْمُزُ وَلَا
يُبْطِئُ وَلَا يَعْجَلُ وَلَا يُسَهِّبُ وَلَا يَخْصُرُ، وَمَا سُمِعَ كَلَامٌ
قَطُّ أَعَمُّ نَفْعًا، وَلَا أَصْدَقُ لَفْظًا، وَلَا أَغْدَلُ وَزْنًا، وَلَا
أَجْمَلُ مَذْهَبًا، وَلَا أَكْرَمُ مَطْلَبًا، وَلَا أَحْسَنُ مَوْقِعًا، وَلَا
أَسْهَلُ مَخْرَجًا؛ مِنْ كَلَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَضْلُ الْبَيَانِ

«لِلْجَاحِظِ أَيْضًا»

أَحْسَنُ الْكَلَامِ مَا كَانَ قَلِيلُهُ يُغْنِيكَ عَنْ كَثِيرِهِ، وَكَانَ
مَعْنَاهُ فِي ظَاهِرِ لَفْظِهِ، حَتَّى يُخَيَّلَ لَكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
أَلْبَسَهُ مِنَ الْجَلَالَةِ، وَغَشَّاهُ مِنْ نُورِ الْحِكْمَةِ عَلَى حَسَبِ نِيَّةِ
صَاحِبِهِ وَتَقْوَى قَائِلِهِ. فَإِذَا كَانَ الْمَعْنَى شَرِيفًا، وَاللَّفْظُ بَلِيغًا،
وَكَانَ صَحِيحَ الطَّبَعِ، بَعِيدًا مِنَ الْإِسْتِكْرَاهِ، مُنَزَّهًا عَنْ
الْإِخْتِلَالِ، مَصُونًا عَنِ التَّكْلُفِ؛ صَنَعَ فِي الْقَلْبِ صَنِيعَ
الْغَيْثِ فِي التُّرْبَةِ الْكَرِيمَةِ. وَمَتَى فَصَلَتِ الْكَلِمَةُ عَلَى هَذِهِ
الشَّرِيطَةِ، وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هَذِهِ الصُّفَةِ أَضْحَبَهَا اللَّهُ
مِنَ التَّوْفِيقِ، وَمَنَحَهَا مِنَ التَّأْيِيدِ، مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا

بِهِ صُدُورُ الْجَبَابِرَةِ، وَلَا يَذْهَلُ عَنْ فَهْمِهَا عُقُولُ الْجَهْلَةِ.

مقامات الكلام

«لبعض الكتاب المتقدمين»

أَوَّلُ الْبَلَاغَةِ اجْتِمَاعُ آلَتِهَا، وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْخَطِيبُ رَاطِبَ الْجَاشِ، سَاكِنَ الْجَوَارِحِ، قَلِيلَ اللَّحْظِ، مُتَخَيِّرَ اللَّفْظِ، لَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ الْأَمَّةِ بِكَلَامِ الْأَمَّةِ، وَلَا الْمَلُوكَ بِكَلَامِ السُّوْقَةِ، وَيَكُونُ فِي قَوَاهِ فَضْلٌ لِلتَّصَرُّفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ، وَلَا يُدَقِّقُ الْمَعَانِي كُلَّ التَّدْقِيقِ، وَلَا يُنْقَحُ الْأَلْفَاظَ كُلَّ التَّنْقِيحِ، وَلَا يُصَفِّيْهَا كُلَّ التَّصْفِيَةِ، وَلَا يُهَذِّبُهَا غَايَةَ التَّهْذِيبِ؛ وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى يَصَادِفَ حَكِيمًا، أَوْ فَيَلْسُوفًا عَلِيمًا؛ وَمَدَارُ الْأَمْرِ عَلَى إِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ، وَالْحَمْلُ عَلَيْهِمْ عَلَى أَقْدَارِ مَنَازِلِهِمْ وَأَنْ تَوَاتِيَهُ آلَتُهُ، وَتَتَصَرَّفَ مَعَهُ أَدَاتُهُ، وَيَكُونُ فِي التُّهْمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا، وَفِي حُسْنِ الظَّنِّ بِهَا مُقْتَصِدًا، فَإِنَّهُ إِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ الْحَقِّ فِي التُّهْمَةِ لِنَفْسِهِ ظَلَمَهَا، فَأَوْدَعَهَا ذِلَّةَ الْمَظْلُومِينَ؛ وَإِنْ تَجَاوَزَ الْحَقَّ فِي مِقْدَارِ حُسْنِ الظَّنِّ بِهَا أَمَّنَهَا، فَأَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ الْآمِنِينَ.

الأديبُ غيرُ الكاتبِ

«المُبَرَّد»^(١)

لا أحتاجُ إلى وَصْفِ نَفْسِي لِعِلْمِ النَّاسِ بِي أَنَّهُ لَيْسَ
أَحَدٌ مِنَ الْخَافِقِينَ تَخْتَلِجُ فِي نَفْسِهِ مَسْأَلَةً مُشْكِلَةً إِلَّا لَقِينِي
بِهَا وَأَعِدَّنِي لَهَا، فَأَنَا عَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ وَحَافِظٌ وَدَارِسٌ، لَا
يَخْفَى عَلَيَّ مُشْتَبَهُ مِنَ الشَّعْرِ وَالنَّخْوِ وَالْكَلَامِ الْمَنْشُورِ
وَالْخُطْبِ وَالرَّسَائِلِ، وَلَرُبَّمَا اخْتَجْتُ إِلَى اعْتِذَارٍ مِنْ فُلْتَةٍ أَوْ
الْتِمَاسِ حَاجَةٍ، فَأَجْعَلُ الْمَعْنَى الَّذِي أَقْصِدُهُ نُصْبَ عَيْنِي، ثُمَّ
لَا أَجِدُ سَبِيلًا إِلَى التَّغْيِيرِ عَنْهُ بِيَدٍ وَلَا لِسَانٍ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ
عُبَيْدَ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ ذَكَرَنِي بِجَمِيلٍ، فَحَاوَلْتُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْهِ
رُقْعَةً أَشْكُرُهُ فِيهَا، وَأَعْرِضُ بِبَعْضِ أُمُورِي، فَأَتَعَبْتُ نَفْسِي
يَوْمًا فِي ذَلِكَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى مَا أَرْتَضِيهِ مِنْهَا، وَكُنْتُ أُحَاوِلُ
الْإِفْصَاحَ عَمَّا فِي ضَمِيرِي فَيَنْصَرِفُ لِسَانِي إِلَى غَيْرِهِ، فزِيَادَةُ

(١) «المُبَرَّد» [٢١٠ - ٢٨٥ هـ = ٨٢٦ - ٨٩٨ م].

هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد، أحد أشياخ اللغة العربيّة
في عصره، وكتابه «الكامل» أحد الكتب الأربعة التي عُدَّت
أمهات الأدب. وكتابته في تأليفه في الطبقة الأولى من البلاغة
إلا أنه كان لا يُحْسِنُ اخْتِيَارَ الشَّعْرِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ لِغَلَبَةِ نَزْعَةِ
اللُّغَةِ وَالرُّوَايَةِ عَلَيْهِ.

الْمَنْطِقِ عَلَى الْأَدَبِ خِدْعَةً، وَزِيَادَةُ الْأَدَبِ عَلَى الْمَنْطِقِ هُجْنَةٌ.

الفصاحة في الأسلوب

«لأبي هلال العسكري»^(١)

إِنَّمَا يَخْسُنُ الْكَلَامُ بِسَلَّاسَتِهِ، وَسُهُولَتِهِ، وَفَصَاحَتِهِ، وَتَخْيِيرِ لَفْظِهِ، وَإِصَابَةِ مَعْنَاهُ، وَجُودَةِ مَطَالِعِهِ، وَلِينِ مَقَاطِعِهِ، وَأَسْتَوَاءِ تَقَاسِيمِهِ، وَتَعَادُلِ أَطْرَافِهِ، وَتَشَبُّهِ أَعْجَازِهِ بِهَوَادِيهِ، وَمُوَافَقَةِ مَاخِرِهِ لِمَبَادِيهِ؛ فَتَجِدُ الْمَنْظُومَ مِثْلَ الْمَثُورِ فِي سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ، وَجُودَةِ مَقْطَعِهِ، وَحُسْنِ رَضْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ، وَكَمَالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ. وَمَتَى جَمَعَ الْكَلَامُ بَيْنَ الْعَذُوبَةِ وَالْجَزَالَةِ وَالسُّهُولَةِ وَالرِّصَانَةِ وَالرَّوْنَقِ وَالطَّلَاوَةِ، وَسَلِمَ مِنْ حَيْفِ التَّأْلِيفِ، وَبَعُدَ مِنْ سَمَاجَةِ التَّرْكِيبِ، وَرَدَّ عَلَى الْفَهْمِ الثَّاقِبِ فَقَبْلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ، وَعَلَى السَّمْعِ الْمُصِيبِ فَاسْتَوْعَبَهُ

(١) «أبو هلال [الحسن بن عبد الله] العسكري» [...] - بعد ٣٩٥ هـ

= - بعد ١٠٠٥ م.]

هو أحد كبار علماء الأدب، وصاحب كتاب «الصناعتين» الذي لم يؤلف في بابيه مثله، وأسلوبه في كتابه هذا فصيح، يدل على أدب جم وذوق سليم.

وَلَمْ يَمُجَّهْ؛ وَالنَّفْسُ تَقْبَلُ اللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ الْغَلِيظِ، وَالْفَهْمُ
يَأْنَسُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ إِلَى الْمَأْلُوفِ، وَيُضْغِي إِلَى
الصَّوَابِ، وَيَهْرُبُ مِنَ الْمُحَالِ، وَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي إِيرَادِ
الْمَعَانِي، فَالْمَعَانِي يَعْرِفُهَا الْعَرَبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ وَالْقَرَوِيُّ
وَالْبَدَوِيُّ، وَإِنَّمَا هُوَ جُودَةُ اللَّفْظِ وَصَفَاؤُهُ، وَحُسْنُهُ وَبَهَاؤُهُ،
وَنَزَاهَتُهُ وَنَقَاؤُهُ؛ وَلَيْسَ يَطْلُبُ مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ
صَوَاباً مُسْتَقِيماً؛ أَمَّا اللَّفْظُ، فَلَا يَقْنَعُ بِهِ قَانِعٌ حَتَّى يَكُونَ
عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ.

دَعْوَى الْأَدَبِ

«الْأَمْدِي»^(١)

يَظْهَرُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَغْتَقِدُونَ أَنَّ الشَّعْرَ مُنْفَرِدٌ
مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ بِجَوَازِ الْعِلْمِ بِهِ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَالْحُكْمُ
عَلَيْهِ لِكُلِّ نَاطِرٍ، لِأَنَّا نَرَى أَنَّ الَّذِي يَعْلَمُ مِنْهُمْ مِنَ الْعَيْنِ

(١) «الْأَمْدِي» [.... - ٣٧٠ هـ = - ٩٨٠ م].

هو أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي، أحد نَقَدَةِ الْكَلَامِ
الْمَشْهُورِينَ، وَكُتَابُهُ «الْمَوَازَنَةُ بَيْنَ أَبِي تَمَامٍ وَالْبُخْتَرِيِّ» مِنْ
أَفْضَلِ الْكُتُبِ الْأَدَبِيَّةِ فِي دِقَّةِ النَّظَرِ وَعُلُوِّ الْأَسْلُوبِ وَحُسْنِ
الِاعْتِدَالِ.

وَالْوَرِقِ وَالرَّقِيقِ وَالْخَيْلِ وَالسَّلَاحِ وَالْبَزِّ وَالطُّيْبِ أَكْثَرَ مِمَّا
يَعْلَمُ مِنَ الشَّعْرِ، لَا يَتَّهِمُ نَفْسَهُ فِي الْمَعْرِفَةِ بِالشَّعْرِ تَهْمَتَهُ
إِيَّاهَا فِي الْمَعْرِفَةِ بِتِلْكَ الْأَشْيَاءِ، لِأَنَّهُ يَرَى الْفَرَسَ فَيُعْجِبُهُ
مَلَاخَةُ سَبَبِيهِ، وَاسْتِدَارَةُ كَفَلِهِ، وَبَرِيقُ شَعْرِهِ، وَحُسْنُ
أَشْرَافِهِ، وَصِحَّةُ قَوَائِمِهِ، وَسَلَامَةُ أَعْضَائِهِ، وَبِرَاءَتُهُ مِنْ
الْعُيُوبِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ؛ وَلَكِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ عَلَى ابْتِيَاعِهِ حَتَّى
يُشَاوِرَ فِي أَمْرِهِ أَصْحَابَ الْبَصَرِ بِهِ؛ وَيَرَى السَّيْفَ فَيُبْهِرُهُ
مِنْهُ جَلَاؤُهُ وَصِقَالُهُ وَصَفَاءُ حَدِيدِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُمْضِي فِيهِ
اخْتِيَارُهُ حَتَّى يَعْتَمِدَ عَلَى مَنْ يَعْرِفُ حُسْنَهُ وَطَبْعَهُ وَجَوْهَرَهُ
وَفِرْنَدَهُ وَمَضَاءَهُ؛ وَيُرِيدُ ابْتِيَاعَ ثَوْبِ الْوَشْيِ، فَيَرُوقُهُ مِنْهُ
حُسْنُ طَرِيزِهِ وَكَثْرَةُ صُورِهِ وَبَدِيعُ نُقُوشِهِ وَاخْتِلَاطُ أَلْوَانِهِ، فَلَا
يَبَادِرُ إِلَى إعْطَاءِ ثَمَنِهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِ الْعِلْمِ بِجَوْهَرِهِ،
وَجُودَةِ رُقْعَتِهِ، وَصِحَّةِ نَسْجِهِ، وَخِلَاصِ إِبْرَيْسَمِهِ^(١)؛ وَلَكِنَّهُ
لَا يَجْزِي عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ فِي الشَّعْرِ، لِأَنَّهُ رُبَّمَا سَمِعَ
الْقَصِيدَةَ، فَأَعْجَبَهُ مِنْهَا حُسْنُ وَزْنِهَا، أَوْ دِقَّةُ مَعَانِيهَا، أَوْ
مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ مَوَاعِظَ وَآدَابٍ وَحِكَمٍ وَأَمْثَالٍ،
فَيَتَعَجَّلُ بِالْحُكْمِ لَهَا عَلَى سِوَاهَا قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَنْ
هُوَ أَغْلَمُ مِنْهُ بِالشَّعْرِ، وَاسْتِوَاءِ نَظْمِهِ، وَوَضْعِ أَلْفَاظِهِ فِي

(١) الإِبْرَيْسَمُ: كلمة معربة، تعني: الحرير، أو أحسنه.

مواضعها، وغير ذلك من الانتظار الدقيق التي لا يُدرِكها إلا
أرباب الصناعة.

وكما أنه قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب
موجود فيهما سائر علامات العثي والجودة والنجابة،
ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل
الخبرة والدراية الطويلة؛ وتكون الجاريتان بارعتين في
الجمال، سليمتين من كل عيب، فيفرق بينهما العالم بأمر
الرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلاً كبيراً بدون أن
يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق، وإنما يعرفه
بطبعه وكثرة ذريته وطول ملابسته؛ فكذلك الشجر، قد
يتقارب البيتان الجيدان النادران، فيعلم أهل العلم بصناعة
الشجر أيهما أجود إن كان معناهما واحداً، وأيهما أجود
في معناه إن كان معناهما مختلفاً.

وقد ذكر هذا المعنى بعينه محمد بن سلام الجمحي
وأبو علي دغبل بن علي الخزاعي في كتابيهما.

وحكى إسحاق الموصلي قال: قال لي المعتصم:
أخبرني عن معرفة النعم وبينها لي؟ فقلت: إن من الأشياء
أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤذيها الصفة.

قال: وسألني مُحَمَّدُ الأَمِينُ عن شِغَرَيْنِ مُتَقَارِبَيْنِ،
وقال: أَخْتَرُ أَحَدَهُمَا! فَأَخْتَرْتُ، فقال: مِنْ أَيْنَ فَضَّلْتَ هَذَا
عَلَى هَذَا، وَهُمَا مُتَقَارِبَانِ؟ فَقُلْتُ: لَوْ تَفَاوَتَا لَأَمَكَّنِي
التَّبَيِّنُ، وَلَكِنَّهُمَا تَقَارِبَا، فَفَاضَلْتُ بَيْنَهُمَا بِشَيْءٍ تَشْهَدُ بِهِ
الطَّبِيعَةُ وَلَا يُعْبَرُ عَنْهُ اللُّسَانُ.

وَقِيلَ لِخَلْفِ الأَحْمَرِ: إِنَّكَ لَا تَزَالُ تَرُدُّ الشَّيْءَ مِنَ
الشَّغَرِ، وَتَقُولُ: هُوَ رَدِيءٌ! وَالنَّاسُ يَسْتَحْسِنُونَهُ؟ فقال: إِذَا
قَالَ لَكَ الصَّيْرَفِيُّ: إِنَّ هَذَا الدُّرَّهَمَ زَائِفٌ، فَلَيْسَ بِنَافِعِكَ
قَوْلُ غَيْرِهِ: إِنَّهُ جَيِّدٌ.

فَمِنْ سَبِيلِ مَنْ عُرِفَ بِكَثْرَةِ النَّظَرِ فِي الشَّغَرِ
وَالْأَرْتِيَاضِ فِيهِ وَطُولِ الْمَلَابَسَةِ لَهُ أَنْ يُفَضِّلَ لَهُ الْعِلْمُ
بِالشَّغَرِ وَالْمَعْرِفَةِ بِأَغْرَاضِهِ، وَأَنْ يُسَلَّمَ لَهُ الْحُكْمُ فِيهِ، وَيُقْبَلَ
مِنْهُ مَا يَقُولُهُ، وَيَعْمَلَ عَلَى تِمَثَالِهِ، وَلَا يُنَازِعُ فِي شَيْءٍ مِنْ
ذَلِكَ، إِذْ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يُسَلَّمَ لِأَهْلِ كُلِّ صِنَاعَةٍ
صِنَاعَتُهُمْ، وَلَا يَخَاصِمُهُمْ فِيهَا، وَلَا يَنَازِعُهُمْ إِلَّا مَنْ كَانَ
مِثْلُهُمْ نَظَرًا فِي الْخَبْرَةِ وَطُولِ الدُّرْبَةِ وَالْمَلَابَسَةِ.

وَأَعْلَمَ أَيُّهَا السَّائِلُ الْمُتَعَنِّتُ أَنَّ هَذَا الَّذِي تَسْأَلُهُ
وَتَلَاخُهُ لَيْسَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَجْعَلَكَ فِي الْعِلْمِ بِالصَّنَاعَةِ

كَتَفْسِهِ، وَلَا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى قَذْفِ ذَلِكَ فِي نَفْسِكَ، وَلَا فِي
نَفْسِ وَلَدِهِ، وَمَنْ هُوَ أَخَصُّ النَّاسِ بِهِ؛ وَلَا أَنْ يَأْتِيكَ فِي
ذَلِكَ بِعِلَّةٍ قَاطِعَةٍ، وَلَا حُجَّةٍ بَاهِرَةٍ، وَإِنْ كَانَ مَا اعْتَرَضَتْ
فِيهِ اعْتِرَاضًا صَحِيحًا، وَمَا سَأَلْتَ عَنْهُ سُؤلاً مُسْتَقِيماً.

عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي لَا يَسْتَقِرُّ فِي الذَّهْنِ إِلَّا بِالرُّؤْيَةِ
وَالْمُشَاهَدَةِ وَطُولِ الْمَلَابَسَةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى ذَهْنٍ
آخَرَ بِمُجَرَّدِ الْقَوْلِ وَالصَّفَةِ إِلَّا إِذَا اسْتَطَاعَ صَاحِبُ الْبَصَرِ
بِالسُّيُوفِ أَنْ يَصِفَ لَكَ عَشْرَةَ آلَافِ سَيْفٍ مُخْتَلِفَاتِ
الْأَجْنَاسِ وَالْجَوَاهِرِ، بِحَيْثُ يَجْعَلُكَ مُشَاهِداً لَهَا كُلِّهَا فِي
لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، عَالِماً بِكُلِّ عِلَّةٍ، مُحِيطاً بِكُلِّ حُجَّةٍ، وَهَذَا
مُحَالٌ غَيْرُ مُمَكِّنٍ لِأَحَدٍ وَلَا مُسْتَطَاعٌ إِلَّا لِخَالِقِ الْخَلْقِ
وَبَارِيءِ الْبَشَرِ.

وَبَعْدُ، فَلَعَلَّ الَّذِي غَرَّكَ فِي دَعْوَاكَ الْمَعْرِفَةَ بِالشُّعْرِ
وَالْقُدْرَةَ عَلَى الْحُكْمِ فِيهِ، أَنَّ عِنْدَكَ خِزَانَةً كُتِبَ تَشْمِلُ
عَلَى عِدَّةٍ مِنْ دَوَائِنِ الشُّعْرَاءِ، تَتَصَفَّحُهَا أَحْيَاناً، وَتَحْفَظُ
مِنْهَا الْقَصِيدَةَ أَوْ الْقَصَائِدَ، وَفَاتَكَ أَنَّكَ لَمْ تَغْتَرَّ هَذَا
الْاِغْتِرَارَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِثِيَابِ بَدَنِكَ وَأَثَاثِ بَيْتِكَ وَطُرُقِ
نَفَقَتِكَ، لِأَنَّا نَرَاكَ لَا تَبْتَاغُ وَشِياً وَلَا آلَةً، وَلَا تَصْرِفُ دِينَاراً
بِدِرْهَمٍ وَلَا دِرْهَمًا بِدِينَارٍ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ

دُونَكَ، فَتَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى حَاجَتِكَ مَخَافَةً أَنْ تُفْجَعَ فِي مَالِكَ، فَكَانَ خَلِيقاً بِكَ أَنْ تُسَلِّمَ أَمْرَ الشُّعْرِ إِلَى أَهْلِهِ مَخَافَةً أَنْ تُفْجَعَ فِي عَقْلِكَ، وَمُصِيبَةُ الْغُبْنِ فِي الْعَقْلِ أَكْبَرُ مِنْ مُصِيبَةِ الْغُبْنِ فِي الْمَالِ.

أَوْ لَعَلَّ الَّذِي غَرَّكَ فِي ذَلِكَ أَنَّكَ شَارَفْتَ شَيْئاً مِنْ تَقْسِيمَاتِ الْمَنْطِقِ وَجُمَلاً مِنَ الْكَلَامِ وَالْجَدَلِ، أَوْ عَلِمْتَ أَبْوَاباً مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، أَوْ حَفِظْتَ صَدَراً مِنَ اللُّغَةِ، أَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَى بَعْضِ مَقَايِسِ الْعَرَبِيَّةِ، فَظَنَنْتَ أَنَّ كُلَّ مَا لَمْ تَلَابِسْهُ مِنَ الْعُلُومِ، وَلَمْ تُزَاوِلْهُ، يَجْرِي ذَلِكَ الْمَجْرَى، وَإِنَّكَ مَتَى تَعَرَّضْتَ لَهُ، وَأَمَرَزْتَ قَرِيبَتَكَ عَلَيْهِ، نَفَذْتَ فِيهِ، وَكَشَفْتَ عَنْ مَعَانِيهِ؛ وَفَاتَكَ أَنَّ الْعِلْمَ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِهِ لَا يُدْرِكُهُ طَالِبُهُ إِلَّا بِالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهِ، وَالْإِكْتِبَابِ عَلَيْهِ، وَالْجِدِّ فِيهِ، وَالْجِرْصِ عَلَى مَعْرِفَةِ أَسْرَارِهِ وَغَوَامِضِهِ؛ وَقَدْ يَتَأَتَّى جِنْسٌ مِنَ الْعُلُومِ لَطَالِبِيهِ، وَيَسْهُلُ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ جِنْسٌ آخَرُ، وَيَتَعَذَّرُ، لِأَنَّ كُلَّ أَمْرٍ إِنَّمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ مَا فِي طَبْعِهِ قَبُولُهُ وَمَا فِي طَاقَتِهِ تَعَلُّمُهُ؛ فَيَنْبَغِي - أَضْلَحَكَ اللَّهُ - أَنْ تَقِفَ حَيْثُ وَقِفَ بِكَ، وَتَقْنَعَ بِمَا قُسِمَ لَكَ، وَلَا تَتَعَدَّى إِلَى مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِكَ، وَلَا مِنْ صِنَاعَتِكَ.

مُناظرة

(يُتَن صَاحِبُ أَبِي تَمَّامٍ وَصَاحِبُ الْبُخْتَرِيِّ)^(١)
«لَلْأَمْدِيِّ أَيْضاً»

صَاحِبُ أَبِي تَمَّامٍ: كَيْفَ يَجُوزُ لِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ
الْبُخْتَرِيَّ أَشْعَرُ مِنْ أَبِي تَمَّامٍ؛ وَعَنْ أَبِي تَمَّامٍ أَخَذَ، وَعَلَى
حَذْوِهِ اخْتَذَى، وَمِنْ مَعَانِيهِ اسْتَقَى، حَتَّى قِيلَ: الطَّائِيُّ
الْأَكْبَرُ وَالطَّائِيُّ الْأَصْغَرُ.

صَاحِبُ الْبُخْتَرِيَّ: أَمَّا الصُّخْبَةُ لَهُ، فَمَا صَحِبَهُ، وَلَا
تَتَلَمَّذَ لَهُ، وَلَا رَوَى ذَلِكَ أَحَدٌ عَنْهُ، وَلَا نَقَلَهُ، وَلَا رَأَى
قَطُّ أَنَّهُ مُخْتَاجٌ إِلَيْهِ! وَدَلِيلُ ذَلِكَ الْخَبَرُ الْمُسْتَفِيزُ مِنْ
اجْتِمَاعِهِمَا وَتَعَارُفِهِمَا عِنْدَ أَبِي سَعِيدٍ مُحَمَّدَ بْنَ يَوْسُفَ
الثَّغْرِيِّ، وَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ الْبُخْتَرِيُّ بِقَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوَّلُهَا:

[الكامل]

أَفَاقَ صَبٍّ مِنْ هَوَى فَأَفِيقَا

وَأَبُو تَمَّامٍ حَاضِرٌ، فَلَمَّا أَنْشَدَهَا عَلِقَ أَبُو تَمَّامٍ مِنْهَا
أَبْيَاتاً كَثِيرَةً، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْإِنْشَادِ أَقْبَلَ أَبُو تَمَّامٍ عَلَى

(١) الظاهر أن الأمدِيَّ قرَضَ هذه المناظرة قرَضاً لِيُمَثِّلَ فِيهَا رَأْيَ
الْمُتَشَبِّهِينَ لِذَيْنِكَ الشَّاعِرَيْنِ.

محمّد بن يوسف، فقال: أيّها الأمير! ما ظننت أنّ أحداً
يُقدِّم على أن يسرق شِعْري ويُشِده بِحَضْرَتي حتّى اليوم؛
ثمّ اندفع يُشِده ما حفظه حتّى أتى على أبيات كثيرة من
القَصيدة، فبهت البُخْريّ، ورأى أبو تمام الإنكار في وجه
أبي سعيد، فحينئذ قال له أبو تمام: أيّها الأمير! واللّه ما
الشُّعر إلاّ له، وإنّه أحسن فيه الإحسان كلّهُ؛ وأقبل يُقرّظه
ويصف معانيه، ويذكر محاسنه، ولم يقنع من محمد بن
يوسف حتّى أضعف له الجائزة، فمَنْ كان يقول مثل هذه
القَصيدة التي هي من عَيْنِ شِعْره وفاخر كلامه قبل أن
يعرف أبا تمام؛ جدير به أن يستغني عن أن يضحبه أو
يتلّمذ له أو لغيره من الشعراء. على أنّي لا أنكر أنّه
استعار بغض معاني أبي تمام لقرب البلدَيْن وكثرة ما كان
يطرق سمع البُخْريّ من شِعْره، وليس ذلك بمقتض أن
يكون أبو تمام أستاذ البُخْريّ، ولا يمانع أن يكون
البُخْريّ أشعر من أبي تمام، فهذا كثير قد أخذ من جميل
وأستقى من معانيه، فما رأينا أنّ أحداً قال: إنّ جميلاً
أشعر منه، بل هو عند أهل العلم بالشُّعر والرواية أشعر
من جميل.

صاحب أبي تمام: إنّ البُخْريّ نفسه يعترف أن أبا

تَمَّامُ أَشْعَرُ مِنْهُ، فَقَدْ سُئِلَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ، فَقَالَ: إِنَّ جَيْدَهُ خَيْرٌ مِنْ جَيْدِي، وَجَيْدُ أَبِي تَمَّامٍ كَثِيرٌ.

صَاحِبُ الْبُخْتَرِيِّ: إِنْ كَانَ هَذَا الْخَبَرُ صَحِيحًا، فَهُوَ لِلْبُخْتَرِيِّ لَا عَلَيْهِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ شِعْرَ أَبِي تَمَّامٍ كَثِيرٌ الْاِخْتِلَافِ، وَشِعْرُهُ شَدِيدُ الْاِسْتِوَاءِ، وَالْمُسْتَوِي الشُّعْرُ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمَةِ مِنَ الْمُخْتَلِفِ الشُّعْرِ، وَقَدْ اجْتَمَعْنَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ يَغْلُو غُلُوءًا حَسَنًا وَيَنْحَطُّ أَنْحِطَاطًا قَبِيحًا، وَأَنَّ الْبُخْتَرِيَّ يَغْلُو بِتَوْسِطٍ وَلَا يَسْقُطُ، وَمَنْ لَا يَسْقُطُ وَلَا يُسِفُ^(١) أَفْضَلُ مِمَّنْ يَسْقُطُ وَيُسِفُ.

صَاحِبُ أَبِي تَمَّامٍ: إِنَّ أَبَا تَمَّامٍ انْفَرَدَ بِمَذْهَبٍ اخْتَرَعَهُ وَصَارَ فِيهِ أَوَّلًا وَإِمَامًا مَتَّبِعًا، وَشُهِرَ بِهِ حَتَّى قِيلَ: هَذَا مَذْهَبُ أَبِي تَمَّامٍ وَطَرِيقَةُ أَبِي تَمَّامٍ؛ وَسَلَكَ النَّاسُ نَهْجَهُ، وَاقْتَفَوْا أَثَرَهُ، وَهِيَ فَضِيلَةٌ عَرِي عَنْ مِثْلِهَا الْبُخْتَرِيُّ.

صَاحِبُ الْبُخْتَرِيِّ: لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا وَصَفْتَ، وَلَيْسَ أَبُو تَمَّامٍ صَاحِبَ هَذَا الْمَذْهَبِ، وَلَا بِأَوَّلٍ فِيهِ، وَلَا سَابِقٍ إِلَيْهِ؛ بَلْ سَلَكَ فِيهِ سَبِيلَ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَأَخْتَذَى حَذْوَهُ، وَأَفْرَطَ فِي ذَلِكَ وَأَسْرَفَ حَتَّى زَالَ عَنِ النَّهْجِ الْمَعْرُوفِ

(١) أَسَفٌ: انْحَطَّ.

وَالسَّنَنِ الْمَأْلُوفِ، بَلْ إِنَّ مُسْلِمًا غَيْرَ مُبْتَدِعٍ لَهُ، وَلَكِنَّهُ رَأَى
هَذِهِ الْأَنْوَاعَ الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا أَسْمُ الْبَدِيعِ مُتَفَرِّقَةً فِي أَشْعَارِ
الْمُتَقَدِّمِينَ، فَقَصَّدَهَا، وَأَكْثَرَ فِي شِعْرِهِ مِنْهَا، وَلَكِنَّهُ حَرَصَ
عَلَى أَنْ يَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا، وَلَمْ يَسْلَمْ مَعَ ذَلِكَ مِنَ
الطَّغْنِ عَلَيْهِ، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَفْسَدَ الشُّعْرَ! فَجَاءَ أَبُو
تَمَّامٍ عَلَى إِثْرِهِ، وَاسْتَحْسَنَ مَذْهَبَهُ، وَأَحَبَّ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ
بَيْتٍ مِنْ شِعْرِهِ غَيْرَ خَالٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ، فَسَلَكَ طَرِيقًا
وَعِرَاءً، وَاسْتَكْرَهَ الْأَلْفَاظَ وَالْمَعَانِي اسْتِكْرَاهًا، فَفَسَدَ شِعْرُهُ،
وَذَهَبَتْ طَلَاوُتُهُ، وَنَشَفَ مَاوُهُ؛ فَقَدْ سَقَطَ الْآنَ اخْتِجَاجُكُمْ
بِاخْتِرَاعِ أَبِي تَمَّامٍ لِهَذَا الْمَذْهَبِ وَسَبْقِهِ إِلَيْهِ، وَكُلُّ مَا فِي
الْمَسْأَلَةِ أَنَّهُ اسْتَكْرَهَ مِنْهُ وَأَفْرَطَ، فَكَانَ إِفْرَاطُهُ فِيهِ مِنْ أَعْظَمِ
ذُنُوبِهِ، وَأَكْبَرِ عُيُوبِهِ. أَمَّا الْبُخْتَرِيُّ، فَإِنَّهُ مَا فَارَقَ عُمُودَ الشُّعْرِ
وَطَرِيقَتَهُ الْمَعْرُوفَةَ عَلَى كَثَرَةِ مَا جَاءَ فِي شِعْرِهِ مِنَ الِاسْتِعَارَةِ
وَالْتَّجْنِيسِ وَالْمُطَابَقَةِ، فَكَانَ انْفِرَادُهُ بِحُسْنِ الْعِبَارَةِ، وَحِلَاوَةِ
اللَّفْظِ، وَصِحَّةِ الْمَعْنَى، وَالْبُعْدِ عَنِ التَّكْلُفِ وَالتَّعَمُّلِ سَبَبًا
فِي إِجْمَاعِ النَّاسِ عَلَى اسْتِحْسَانِ شِعْرِهِ وَاسْتِجَادَتِهِ وَتَدَاوُلِهِ.
وَنَفَاقُ شِعْرِ الشَّاعِرِ دَلِيلٌ عَلَى عُلوِّ مَكَانَتِهِ وَاضْطِلَاعِهِ بِمَا
يَلَائِمُ الْأَذْوَاقَ وَيَلَامِسُ الْقُلُوبَ مِنْ أَسَالِيْبِ الْكَلَامِ
وَمَنَاهِجِهِ.

صاحبُ أبي تَمَّام: إِنَّمَا أَغْرَضَ عَنْ شِغْرِ أَبِي تَمَّامٍ
مَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ، لِدِقَّةِ مَعَانِيهِ، وَقُصُورِ فَهْمِهِ عَنْهُ؛ أَمَّا النُّقَادُ
وَالْعُلَمَاءُ، فَقَدْ فَهِمُوهُ وَعَرَفُوا قَدْرَهُ، وَإِذَا عَرَفْتَ هَذِهِ الطَّبَقَةَ
فَضِيلَتُهُ لَمْ يَضُرَّهُ طَعْنُ مَنْ طَعَنَ بَعْدَهَا عَلَيْهِ.

صاحبُ البُخْتَرِيِّ: لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُنْكِرَ مَنَزِلَةَ ابْنِ
الْأَعْرَابِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى الشَّيْبَانِيِّ وَدُعْبِلَ ابْنِ الْخَزَاعِيِّ
مِنَ الشُّعْرِ وَمَنَزِلَتَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِكَلَامِ الْعَرَبِ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ
مَذْهَبَهُمْ فِي أَبِي تَمَّامٍ وَازْدِرَاءَهُمْ بِشِغْرِهِ، حَتَّى قَالَ دُعْبِلُ:
إِنَّ ثُلُثَ شِغْرِهِ مُحَالٌ^(١)، وَثُلُثُهُ مَسْرُوقٌ. وَثُلُثُهُ صَالِحٌ!
وَقَالَ: مَا جَعَلَ اللَّهُ أَبَا تَمَّامٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ، بَلْ شِغْرُهُ
بِالْخُطْبِ وَالْكَلَامِ الْمَنْشُورِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالشُّغْرِ. وَقَالَ ابْنُ
الْأَعْرَابِيِّ فِي شِغْرِ أَبِي تَمَّامٍ: إِنَّ كَانَ هَذَا شِغْرًا، فَكَلَامُ
الْعَرَبِ بَاطِلٌ! وَهَذَا مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْمُبَرَّدُ: مَا عَلِمْنَاهُ دُونَ
لَهُ كَبِيرُ شَيْءٍ.

صاحبُ أبي تَمَّامٍ: إِنَّ دُعْبِلًا كَانَ يَشْنَأُ أَبَا تَمَّامٍ،
وَيَخْسُدُهُ، عَلَى مَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ، فَلَا يُقْبَلُ قَوْلُ
شَاعِرٍ فِي شَاعِرٍ؛ وَأَمَّا ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ، فَكَانَ شَدِيدَ التَّعَصُّبِ

(١) المُحَالُّ: الفاسدُ.

عَلَيْهِ لِعَرَابَةِ مَذْهَبِهِ، وَلَآئِنَّهُ كَانَ يَرُدُّ عَلَيْهِ مِنْ مَعَانِيهِ مَا لَا يَفْهَمُهُ وَلَا يَعْلَمُهُ، فَكَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا يَأْتِفُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَذْرِي! فَيَعْدِلُ إِلَى الطَّغْنِ عَلَيْهِ؛ وَلَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَنْ تَذَكَّرُونَهُ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ.

صَاحِبُ الْبُخْتَرِيِّ: لَا عَيْبَ عَلَى ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ فِي طَغْنِهِ عَلَى شَاعِرٍ عَدَلَ فِي شِعْرِهِ عَنْ مَذَاهِبِ الْعَرَبِ إِلَى الْاِسْتِعَارَاتِ الْبَعِيدَةِ الْمُخْرِجَةِ لِلْكَلامِ إِلَى الْخَطَا وَالْإِحَالَةِ، وَالْعَيْبُ فِي ذَلِكَ يَلْحَقُ أَبَا تَمَّامٍ، إِذْ عَدَلَ عَنِ الْمَحَجَّةِ إِلَى طَرِيقَةٍ يَجْهَلُهَا ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْمُضْطَلَعِينَ بِالسَّلِيلَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

صَاحِبُ أَبِي تَمَّامٍ: إِنَّ الْعِلْمَ فِي شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ أَظْهَرَ مِنْهُ فِي شِعْرِ الْبُخْتَرِيِّ، وَالشَّاعِرُ الْعَالِمُ أَفْضَلُ مِنَ الشَّاعِرِ غَيْرِ الْعَالِمِ.

صَاحِبُ الْبُخْتَرِيِّ: كَانَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ عَالِمًا شَاعِرًا، وَكَانَ الْأَضْمَعِيُّ شَاعِرًا عَالِمًا، وَكَانَ الْكِسَائِيُّ كَذَلِكَ، وَكَانَ خَلْفُ بْنُ حَيَّانٍ الْأَحْمَرُ أَشْعَرَ الْعُلَمَاءِ، وَمَا بَلَغَ بِهِمُ الْعِلْمُ طَبَقَةً مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ مِنَ الشُّعْرَاءِ غَيْرِ الْعُلَمَاءِ، وَالتَّجْوِيدُ فِي الشُّعْرِ لَيْسَتْ عَلْتُهُ الْعِلْمُ، وَالشَّائِعُ الْمَشْهُورُ أَنَّ شِعْرَ الْعُلَمَاءِ دُونَ شِعْرِ الشُّعْرَاءِ، وَقَدْ كَانَ أَبُو

تَمَامٌ يَعْمَلُ عَلَى أَنْ يَدُلَّ فِي شِعْرِهِ عَلَى عِلْمِهِ بِاللُّغَةِ وَكَلَامِ
العَرَبِ.

أما البُخْتَرِيُّ، فَلَمْ يَقْصِدْ هَذَا وَلَا اعْتَمَدَهُ، وَلَا كَانَ
يَعُدُّهُ فَضِيلَةً، وَلَا يَرَاهُ عِلْمًا، بَلْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ شَاعِرٌ لَا بُدَّ
لَهُ أَنْ يُقَرِّبَ شِعْرَهُ مِنْ فَهْمِ سَامِعِهِ، فَلَا يَأْتِي بِالْغَرِيبِ إِلَّا
أَنْ يَتَّفِقَ لَهُ فِي اللَّفْظَةِ بَعْدَ اللَّفْظَةِ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ غَيْرِ
طَلَبٍ لَهُ وَلَا حِرْصٍ عَلَيْهِ. عَلَى أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ الَّذِي
تُؤَثِّرُونَ بِهِ أَبَا تَمَامٍ لَمْ يَنْفَعُهُ فَقَدْ كَانَ يُلْحَنُ فِي شِعْرِهِ لِحْنًا
يَضِيقُ الْعَذْرُ فِيهِ وَلَا يَجِدُ الْمُتَأَوَّلُ لَهُ مَخْرَجًا مِنْهُ إِلَّا
بِالْحِيلَةِ وَالتَّمَحُّلِ الشَّدِيدِ.

صَاحِبُ أَبِي تَمَامٍ: لَسْنَا نَنْكِرُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُنَا قَدْ
وَهِمَ فِي بَعْضِ شِعْرِهِ وَعَدَلَ عَنِ الْوَجْهِ الْأَوْضَحِ فِي كَثِيرٍ
مِنْ مَعَانِيهِ، وَغَيْرُ غَرِيبٍ عَلَى فِكْرِ نَتَجَ مِنَ الْمَحَاسِنِ مَا
نَتَجَ، وَوَلَدَ مِنَ الْبَدَائِعِ مَا وَلَدَ، أَنَّ يَلْحَقَهُ الْكِلَالُ فِي
الْأَوْقَاتِ وَالزَّلَلُ فِي الْأَحْيَانِ، بَلْ مِنَ الْوَاجِبِ لِمَنْ أَحْسَنَ
إِحْسَانَهُ أَنْ يُسَامَحَ فِي سَهْوِهِ وَيُتَجَاوَزَ لَهُ عَنْ خَطِيئِهِ، وَمَا
رَأَيْنَا أَحَدًا مِنْ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ سَلِمَ مِنَ الطَّغْنِ، وَلَا مِنْ
أَخْذِ الرُّوَاةِ عَلَيْهِ الْغَلَطَ وَالْعَيْبَ، وَكَذَلِكَ مَا أَخَذَتْهُ الرُّوَاةُ
عَلَى الْمُخْذَثِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْغَلَطِ وَالْخَطَا وَاللَّحْنِ أَشْهَرُ

مِنْ أَنْ يَخْتَجَّ إِلَى أَنْ نُبْرِهِنَهُ أَوْ نَدْلَّ عَلَيْهِ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ
مِنْ أَوْلِيكَ وَلَا هَؤُلَاءِ مَجْهُولَ الْحَقِّ وَلَا مَجْهُودَ الْفَضْلِ،
بَلْ عَفَا إِحْسَانُهُمْ عَلَى إِسَاءَتِهِمْ وَتَجَوَّدَ عَنْهُمْ عَلَى تَقْصِيرِهِمْ.

صاحبُ البُخْتَرِيِّ: أَمَّا أَخْذُ السَّهْوِ وَالْغَلْطِ عَلَى مَنْ
أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ، فَفِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ
وَالْبَيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ، أَمَّا أَبُو تَمَّامٍ، فَلَا تَكَادُ تَخْلُو لَهُ قَصِيدَةً
وَاحِدَةً مِنْ عِدَّةِ أَبِياتٍ يَكُونُ فِيهَا مُفْسِدًا أَوْ مُحِيلًا أَوْ
عَادِلًا عَنِ السَّنَنِ، أَوْ مُسْتَعِيرًا اسْتِعَارَةً قَبِيحَةً، أَوْ مُخْطِئًا
الْمَعْنَى بِطَلَبِ الطَّبَاقِ وَالتَّجْنِيسِ، أَوْ مُبْهِمًا بِسُوءِ الْعِبَارَةِ
وَالْتَّعْقِيدِ، حَتَّى لَا يُفْهَمَ وَلَا يُوجَدَ لَهُ مَخْرَجٌ.

صاحبُ أَبِي تَمَّامٍ: إِنَّكُمْ تُنْكِرُونَ عَلَى أَبِي تَمَّامٍ مِنَ
الْفَضْلِ مَا يَعْتَرِفُ بِهِ الْبُخْتَرِيُّ نَفْسُهُ، فَقَدْ رثاهُ بَعْدَ مَوْتِهِ
رثَاءً اعْتَرَفَ فِيهِ لَهُ بِالسَّبْقِ وَفَضْلِهِ عَلَى شُعْرَاءِ عَصْرِهِ.

صاحبُ البُخْتَرِيِّ: لِمَ لَا يَفْعَلُ الْبُخْتَرِيُّ ذَلِكَ وَقَدْ
كَانَ هُوَ وَأَبُو تَمَّامٍ صَدِيقَيْنِ مُتَحَابِّينِ، وَأَخَوَيْنِ مُتَصَافِيَيْنِ،
يَجْمَعُهُمَا الطَّلَبُ وَالنَّسَبُ وَالْمُكْتَسَبُ، فَلَيْسَ بِمُنْكَرٍ وَلَا
غَرِيبٍ أَنْ يَشْهَدَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ بِالْفَضْلِ وَيَصِفَهُ بِأَحْسَنِ
مَا فِيهِ، وَيَنْحَلَّهُ مَا لَيْسَ فِيهِ، عَلَى أَنَّ الْمِثْلَ خَاصَّةٌ يُعْطَى

فِي تَأْيِينِهِ مِنَ التَّقْرِيبِ وَالْوَصْفِ وَجَمِيلِ الذِّكْرِ أضعافَ ما
كَانَ يَسْتَحِقُّهُ.

صاحبُ أبي تمام: كَيْفَما كانَ الأمرُ لا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ
تَدْفَعُوا ما أَجْمَعَ عَلَيْهِ الرُّوَاةُ وَالْعُلَمَاءُ أَنَّ جَيْدَ أَبِي تَمَّامٍ لا
يَتَعَلَّقُ بِهِ جَيْدٌ أَمْثالِهِ، وَإِذا كانَ جَيْدُهُ بِهذهِ المَكَانَةِ، وَكانَ
مِنَ المُمْكِنِ إغْفالُ رَدِيئِهِ وَاطِّراحُهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ، فلا يَبْقَى
رَيْبٌ فِي أَنَّهُ أَشْعَرُ شُعراءِ عَصْرِهِ، والبُخْتَرِيُّ واحدٌ مِنْهُمْ.

صاحبُ البُخْتَرِيِّ: إِنَّمَا صارَ جَيْدُ أَبِي تَمَّامٍ مَوْصُوفاً
وَمَذْكُوراً لِذَرَّتِهِ وَوُقُوعِهِ فِي تَضاعِيفِ الرَّدِيِّ، فَيَكُونُ لَهُ
رَوْنَقٌ وَماءٌ عِنْدَ المُقَابَلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ما يَلِيهِ، وَجَيْدُ البُخْتَرِيِّ
كَجَيْدِ أَبِي تَمَّامٍ، إِلَّا أَنَّهُ يَقَعُ فِي جَيْدٍ مِثْلِهِ أَوْ مُتَوَسِّطٍ، فلا
يُفاجِئُ النَّفْسَ مِنْهُ ما يُفاجِئُها مِنْ جَيْدٍ صاحِبِهِ.

فِتْنَةُ الْقَوْلِ

«لِلْجَاحِظِ»

قالَ بَعْضُ الرِّبَّانِيِّينَ ^(١) مِنَ الأُدبَاءِ، وَأَهْلِ المَعْرِفَةِ مِنَ
البُلْغَاءِ؛ مِمَّنْ يَكْرَهُ التَّشادُقَ وَالتَّعَمُّقَ، وَيُبْغِضُ الإِغْراقَ فِي
الْقَوْلِ وَالتَّكْلُفِ وَالاجْتِلابِ، وَيَعْرِفُ أَكْثَرَ أَذْواءِ الكلامِ

(١) الرِّبَّانِيُّ: العارف بالله، ويُطْلَقُ على الحَبْر.

وَدَوَائِهِ، وَمَا يَغْتَرِي الْمُتَكَلِّمَ مِنَ الْفِتْنَةِ بِحُسْنِ مَا يَقُولُ، وَمَا يَغْرِضُ لِلْسَّامِعِ مِنَ الْاِفْتِتَانِ بِحُسْنِ مَا يَسْمَعُ: أَنْذَرُكُمْ حُسْنَ الْأَلْفَاظِ وَحَلَاوَةِ مَخَارِجِ الْكَلَامِ، فَإِنَّ الْمَعْنَى إِذَا اكْتَسَى لَفْظًا حَسَنًا، وَأَعَارَهُ الْبَلِغُ مَخْرَجًا سَهْلًا، وَمَنَحَهُ الْمُتَكَلِّمُ قَوْلًا مُتَعَشِّقًا، صَارَ فِي الْقَلْبِ أَهْلَى، وَلِلصَّدْرِ أَمْلَأُ؛ وَالْمَعَانِي إِذَا كُسِيتِ الْأَلْفَاظَ الْكَرِيمَةَ، وَأَلْبِسَتْ الْأَوْصَافَ الرَّفِيعَةَ، تَحَوَّلَتْ فِي الْعُيُونِ عَنْ مَقَادِيرِ صُورِهَا، وَأُزْبِتْ عَلَى حَقَائِقِ أَقْدَارِهَا بِقَدْرِ مَا زُيِّنَتْ، وَعَلَى حَسْبِ مَا زُخْرِفَتْ، وَالْقَلْبُ ضَعِيفٌ، وَسُلْطَانُ الْهَوَى قَوِيٌّ، وَمَذْخَلُ خِدَعِ الشَّيْطَانِ خَفِيٌّ.

فصاحة جعفر بن يحيى

«لبعض الكتاب المتقدمين»

كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى أَنْطَقَ النَّاسَ، قَدْ جَمَعَ الْهُدُوءَ وَالتَّمَهُّلَ وَالْجَزَالََّةَ وَالْحَلَاوَةَ وَالْإِفْهَامَ الَّذِي يُغْنِي عَنِ الْإِعَادَةِ، وَلَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ نَاطِقٌ يُسْتَعْنَى بِمَنْطِقِهِ عَنِ الْإِشَارَةِ لَاسْتَعْنَى جَعْفَرُ عَنْهَا، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا لَا يَتَحَبَّسُ وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَلَجَّلَجُ وَلَا يَتَنَحْنَحُ، وَلَا يَتَرَقَّبُ لَفْظًا قَدْ اسْتَدْعَاهُ مِنْ بُعْدٍ، وَلَا يَلْتَمِسُ التَّخْلُصَ إِلَى مَعْنَى قَدْ

تَعَصَّى عَلَيْهِ طَلَبُهُ، وَلَا أَشَدَّ اقْتِدَارًا، وَلَا أَقَلَّ تَكَلُّفًا مِنْ
جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى.

حَقِيقَةُ الْبَيَانِ

«لِبَعْضِ الْكُتَّابِ الْمُتَقَدِّمِينَ»

إِنَّ الْمَعَانِي الْقَائِمَةَ فِي صُدُورِ الْعِبَادِ، الْمُتَصَوِّرَةَ فِي
أَذْهَانِهِمْ، وَالْمُخْتَلِجَةَ فِي صُدُورِهِمْ، وَالْمُتَّصِلَةَ بِخَوَاطِرِهِمْ،
وَالْحَادِثَةَ عَنْ فِكْرِهِمْ مَسْتُورَةَ خَفِيَّةً، وَبَعِيدَةَ وَخْشِيَّةً،
وَمَخْجُوبَةَ مَكْنُونَةً، وَمَوْجُودَةً فِي مَعْنَى مَعْدُومَةٍ. لَا يَعْرِفُ
الْإِنْسَانُ ضَمِيرَ صَاحِبِهِ، وَلَا حَاجَةَ أَخِيهِ وَخَلِيطِهِ، وَلَا
مَعْنَى شَرِيكِهِ وَالْمُعَاوِنِ لَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَعَلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ
مِنْ حَاجَاتِ نَفْسِهِ إِلَّا بِغَيْرِهِ. وَإِنَّمَا تَحْيَا تِلْكَ الْمَعَانِي فِي
ذِكْرِهِمْ لَهَا، وَإِخْبَارِهِمْ عَنْهَا، وَاسْتِغْمَالِهِمْ إِيَّاهَا؛ وَهَذِهِ
الْخِصَالُ هِيَ الَّتِي تَقَرِّبُهَا مِنَ الْفَهْمِ، وَتُجَلِّيْهَا لِلْعَقْلِ،
وَتَجْعَلُ الْخَفِيَّ مِنْهَا ظَاهِرًا، وَالْغَائِبَ شَاهِدًا، وَالْبَعِيدَ قَرِيبًا؛
وَهِيَ الَّتِي تُلَخِّصُ الْمُلتَبَسَّ، وَتُحِلُّ الْمُتَعَقِّدَ، وَتَجْعَلُ
الْمُهْمَلَ مُقَيَّدًا، وَالْمُقَيَّدَ مُطْلَقًا، وَالْمَجْهُولَ مَعْرُوفًا،
وَالْوَحْشِيَّ مَأْلُوفًا، وَالْغُفْلَ^(١) مَوْسُومًا.

(١) الْغُفْلُ: مَا لَا عِلَامَةَ فِيهِ.

وَعَلَى قَدْرِ وُضُوحِ الدَّلَالَةِ، وَصَوَابِ الإِشَارَةِ،
وَحُسْنِ الاختِصَارِ، وَدِقَّةِ المَذْخَلِ يَكُونُ ظُهُورُ المَعْنَى؛
وَكُلَّمَا كَانَتِ الدَّلَالَةُ أَوْضَحَ وَأَفْصَحَ، وَكَانَتِ الإِشَارَةُ أَبْيَنَ
وَأَنُورَ، كَانَ أَفْعَ وَأَنْجَعَ.

وَالْبَيَانُ اسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ قِنَاعَ المَعْنَى،
وَهَتَكَ الحُجُبَ دُونَ الضَّمِيرِ حَتَّى يُفْضِيَ السَّامِعُ إِلَى
حَقِيقَتِهِ، وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ كَائِنًا مَا كَانَ ذَلِكَ الْبَيَانُ،
وَمِنْ أَيْ جِنْسٍ كَانَ ذَلِكَ الدَّلِيلُ، لِأَنَّ مَدَارَ الأَمْرِ وَالْغَايَةَ
الَّتِي إِلَيْهَا يَجْرِي الْقَائِلُ وَالسَّامِعُ إِنَّمَا هُوَ الْفَهْمُ وَالْإِفْهَامُ،
فَبِأَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ ذَلِكَ فَذَلِكَ هُوَ الْبَيَانُ.

فصاحة القرآن

«للباقلائي»^(١)

إِنَّ نَظْمَ الْقُرْآنِ عَلَى تَصَرُّفِ وُجُوهِهِ، وَاخْتِلَافِ
مَذَاهِبِهِ، خَارِجٌ عَنِ الْمَعْهُودِ مِنْ نِظَامِ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَمُبَايِنٌ

(١) «الباقلائي» [٣٣٨ - ٤٠٣ هـ = ٩٥٠ - ١٠١٣ م].

هو القاضي أبو بكر محمد بن الطيّب، كان معروفاً بالجدلِ
وقوة الحجة ورسوخ القدم في علم الكلام، والبراعة والتفوق
في الفصاحة والبيان؛ ومن قرأ كتابه: «إعجاز القرآن» ظنَّ أنه
يقرأ أسلوبَ الأدباءِ المُعَرِّبين لا المتكلمين المُعْجَمين.

لِلْمَأْلُوفِ مِنْ تَرْتِيبِ خِطَابِهِمْ، وَلَهُ أُسْلُوبٌ يَخْتَصُّ بِهِ
وَيَتَمَيَّزُ فِي تَصَرُّفِهِ عَنِ أُسَالِيبِ الْكَلَامِ الْمُعْتَادِ، وَذَلِكَ أَنَّ
الطَّرْقَ الَّتِي يَتَقَيَّدُ بِهَا الْكَلَامُ الْبَدِيعُ الْمَنْظُومُ تَنْقَسِمُ إِلَى
أَعَارِضِ الشُّعْرِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ، ثُمَّ إِلَى أَنْوَاعِ الْكَلَامِ
الْمَوْزُونِ غَيْرِ الْمُقَفَّى، ثُمَّ إِلَى أَصْنَافِ الْكَلَامِ الْمُعَدَّلِ غَيْرِ
الْمُسَجَّعِ، ثُمَّ إِلَى مُعَدَّلِ مَوْزُونٍ غَيْرِ مُسَجَّعٍ، ثُمَّ إِلَى مَا
يُرْسَلُ إِزْسَالاً، فَيُطَلَّبُ فِيهِ الْإِصَابَةُ وَالْإِفَادَةُ وَافْهَامُ الْمَعْنَى
الْمُغْتَرِضَةِ عَلَى وَجْهِ بَدِيعٍ وَتَرْتِيبٍ لَطِيفٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ
مُعْتَدِلاً فِي وَزْنِهِ، وَذَلِكَ شَبِيهٌ بِجُمْلَةِ الْكَلَامِ الَّذِي لَا
يَتَعَمَّلُ وَلَا يُتَصَنَّعُ لَهُ.

وَالْقِرَاءَانُ خَارِجٌ عَنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ، وَمُبَايِنٌ لِهَذِهِ
الطَّرْقِ، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ كَلَامٌ مُشْتَمِلٌ عَلَى هَذِهِ
الْفَصَاحَةِ وَالْغَرَابَةِ وَالتَّصَرُّفِ الْبَدِيعِ وَالْمَعْنَى اللَّطِيفَةِ
وَالْفَوَائِدِ الْغَزِيرَةِ وَالْحِكْمَةِ الْكَثِيرَةِ وَالتَّنَاسُبِ فِي الْبَلَاغَةِ
وَالتَّشَابُهِ فِي الْبَرَاعَةِ عَلَى هَذَا الطُّولِ وَعَلَى هَذَا الْقَدْرِ،
وَإِنَّمَا تُنْسَبُ إِلَى حَكِيمِهِمْ كَلِمَاتٌ مَعْدُودَةٌ وَالْفَاطَةُ قَلِيلَةٌ،
وَإِلَى شَاعِرِهِمْ قَصَائِدُ مَخْصُورَةٌ يَقَعُ فِيهَا أحياناً الْاِخْتِلَالُ
وَالْاِخْتِلَافُ وَالتَّعَمُّلُ وَالتَّكْلُفُ وَالتَّجَوُّزُ وَالتَّعَسُّفُ.

وَقَدْ حَصَلَ الْقِرَاءَانُ عَلَى كَثَرَتِهِ وَطُولِهِ مُتَنَاسِباً فِي

الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به، فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ نَقْشَعُرٌ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [٣٩] سورة الزمر/ الآية: ٢٣، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [٤ سورة النساء/ الآية: ٨٢].

ذلك إلى ما تراه من أن عجيب نظميه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف إليها من ذكر قصص ومواظ واحتجاج وحكم وأحكام وإعذار وإنذار ووعد ووعد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها.

ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المقلق والخطيب المضيق يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور. فمن الشعراء من يجود في المدح، ومنهم من يسبق في التقريض دون التأبين، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريض، ومنهم من يغرب في وصف الإبل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحزب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب،

وَالنَّابِغَةُ إِذَا رَهَبَ، وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ، وَهُمْ قَوْمٌ لَا خِلَافَ
فِي تَقْدِيمِهِمْ فِي صِنْعَةِ الشُّعْرِ، وَلَا شَكَّ فِي تَبْرِيْزِهِمْ فِي
مَذْهَبِ النَّظْمِ.

وَمَتَى تَأَمَّلْتَ شِعْرَ الشَّاعِرِ الْبَلِغِ رَأَيْتَ التَّفَاوُتَ فِي
شِعْرِهِ عَلَى حَسَبِ الْأَحْوَالِ الَّتِي يَتَصَرَّفُ فِيهَا، فَيَأْتِي
بِالْغَايَةِ فِي الْبَرَاغَةِ فِي مَعْنَى، فَإِذَا جَاءَ إِلَى غَيْرِهِ قَصَرَ عَنْهُ
وَوَقَفَ دُونَهُ وَبَانَ الْاِخْتِلَافُ فِي شِعْرِهِ، ثُمَّ نَجِدُ فِي
الشُّعْرَاءِ مَنْ يَجُودُ فِي الرَّجَزِ وَلَا يُمَكِّنُهُ نَظْمُ الْقَصِيدِ
أَصْلًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُمُ الْقَصِيدَ، وَلَكِنَّهُ يُقْصِرُ فِيهِ مَهْمَا
تَكَلَّفَهُ أَوْ تَعَمَّلَهُ، وَنَجِدُ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجُودُ فِي الْكَلَامِ
الْمُرْسَلِ، فَإِذَا أَتَى بِالْمَوْزُونِ قَصَرَ وَنَقَصَ نُقْصَانًا عَجِيبًا،
وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ عَلَى الضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ.

وَقَدْ تَأَمَّلْنَا نَظْمَ الْقُرْآنِ، فَوَجَدْنَا جَمِيعَ مَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ
مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي ذَكَّرْنَاهَا عَلَى حَدِّ وَاحِدٍ فِي حُسْنِ النَّظْمِ
وَبَدِيعِ التَّأْلِيفِ، لَا تَفَاوُتَ فِيهِ وَلَا انْحِطَاطَ عَنِ الْمَنْزِلَةِ
الْعُلْيَا، وَلَا إِسْفَالَ فِيهِ إِلَى الرُّتْبَةِ الدُّنْيَا.

وَكَذَلِكَ قَدْ تَأَمَّلْنَا مَا تَتَصَرَّفُ إِلَيْهِ وَجُوهُ الْخِطَابِ مِنْ
الْآيَاتِ الطَّوِيلَةِ وَالْقَصِيرَةِ، قَرَأْنَا الْإِعْجَازَ فِي جَمِيعِهَا عَلَى
حَدِّ وَاحِدٍ لَا يَخْتَلِفُ.

وَهُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ هُوَ خَيْرٌ مَا يُؤْتَى بِهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى بُلُوغِ
 الْفَصَاحَةِ فِي الْقُرْآنِ مَنْزِلَةَ الْإِعْجَازِ، وَهُوَ أَنَّ وَرُودَ تِلْكَ الْمَعَانِي
 الْغَرِيبَةِ الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا فِي أَصْلِ الشَّرِيعَةِ وَالْأَحْكَامِ،
 وَالْإِخْتِجَاجَاتِ فِي أَصْلِ الدِّينِ، وَالرَّدُّ عَلَى الْمُلْحِدِينَ بِهَذِهِ
 الْأَسَالِيبِ الْبَدِيعَةِ وَمُوَافَقَةِ بَعْضِهَا بَعْضاً فِي اللَّطْفِ وَالْبَرَاعَةِ
 مِمَّا يَتَعَدَّرُ عَلَى الْعَرَبِ مَجَارَاتُهُ فِيهِ، لِأَنَّهَا مَعَانٍ غَرِيبَةٌ غَيْرُ
 مُطْرُوقَةٍ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ تَخْيِيرَ الْأَلْفَافِ لِلْمَعَانِي الْمُتَدَاوِلَةِ الْمَأْلُوفَةِ
 وَالْأَسْبَابِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ النَّاسِ أَسْهَلُ وَأَقْرَبُ مِنْ تَخْيِيرِ الْأَلْفَافِ
 لِمَعَانٍ مُبْتَكِرَةٍ وَأَسْبَابِ مُؤَسَّسَةٍ مُسْتَحْدَثَةٍ، وَبَرَاعَةُ اللَّفْظِ فِي
 الْمَعْنَى الْبَارِعِ أَغْجَبُ مِنْ بَرَاعَتِهِ فِي الْمَعْنَى الْمُتَدَاوِلِ الْمُتَكَرِّرِ.

وَلِلْقُرْآنِ مَزِيَّةٌ أُخْرَى غَيْرُ مَا تَقَدَّمَ، وَهِيَ أَنَّهُ مِنْ
 الْمُقَرَّرِ الْمَعْرُوفِ أَنَّ الْكَلَامَ يَبِينُ فَضْلُهُ وَرَجَحَانُ فَصَاحَتِهِ
 بِأَنْ تُذَكَّرَ مِنْهُ الْكَلِمَةُ فِي تَضَاعِيفِ كَلَامٍ أَوْ تُقَدَّفَ مَا بَيْنَ
 شِعْرِ فَتَأْخُذُهُ الْأَسْمَاعُ، وَتَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ، وَيُرَى وَجْهُ
 رَوْنَقِهِ بَادِئاً غَامِراً سَائِراً مَا يُقَرَّنُ بِهِ، كَالدُّرَّةِ الَّتِي تُرَى فِي
 سِلْكٍ مِنْ خَزَرٍ، وَكَالْيَاقُوتَةِ وَسَطَ الْعِقْدِ، وَأَنْتَ تَرَى الْكَلِمَةَ
 مِنَ الْقُرْآنِ يُتِمِّلُ بِهَا فِي تَضَاعِيفِ كَلَامٍ كَثِيرٍ، فَإِذَا هِيَ
 غُرَّةٌ جَمِيعَةٍ وَوَاسِطَةٌ عِقْدِهِ، وَالْمُنَادَى عَلَى نَفْسِهِ بِتَمْيِيزِهِ
 وَتَخْصُصِهِ بِرَوْنَقِهِ وَجَمَالِهِ وَانْفِرَادِهِ.

وَبَعْدُ، فَإِنَّكَ تَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الْحِكْمَةَ وَفَضْلَ
الْخِطَابِ مَجْلُوءَةً عَلَيْكَ فِي مَنْظَرٍ بِهِيجٍ، وَمَعْرِضٍ رَشِيقٍ،
وَنَظْمٍ أُنِيقٍ، غَيْرِ مُتَعَاصٍ عَلَى الْأَسْمَاعِ، وَلَا مُلْتَوٍ عَلَى
الْأَفْهَامِ، وَلَا مُسْتَكْرَهٍ فِي اللَّفْظِ، يَمُرُّ كَمَا يَمُرُّ السَّهْمُ،
وَيُضِيءُ كَمَا يُضِيءُ الْفَجْرُ، وَيَزْخَرُ كَمَا يَزْخَرُ الْبَحْرُ،
طَمُوحُ الْعُبَابِ، جَمُوحُ عَلَى الطَّارِقِ الْمُثَابِ، كَالرُّوحِ فِي
الْبَدَنِ، وَالنُّورِ الْمُسَبِّطِ^(١) فِي الْأَفْقِ، وَالْغَيْثِ الشَّامِلِ،
وَالضِّيَاءِ الْبَاهِرِ، ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [٤١ سورة فصلت/ الآية: ٤٢].

إعجاز القرآن

«للقاضي عياض»^(٢)

إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ الْعَزِيزِ مُنْطَوٍ عَلَى وُجُوهِ مِنَ الْإِعْجَازِ
كَثِيرَةٍ، وَتَخْصِيلُهَا مِنْ جِهَةٍ ضَبْطِ أَنْوَاعِهَا فِي أَرْبَعَةِ وُجُوهِ:

(١) الْمُسَبِّطُ: الْمُمْتَدُّ.

(٢) «القاضي عياض» [٤٧٦ - ٥٤٤ هـ = ١٠٨٣ - ١١٤٩ م].

هو القاضي أَبُو الْفَضْلِ عِيَاضُ بْنُ مُوسَى السَّبْتِيُّ، نَسَبُهُ إِلَى
مَدِينَةِ سَبْتَةَ، كَانَ إِمَامًا فِي الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ، وَكَاتِبًا مِنْ أَوَائِلِ
الْكُتُبِ، وَكِتَابُهُ «الشُّفَا» فِي السِّيَرَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ لَمْ يُوَلَّفْ مِثْلُهُ فِي
مَوْضِعِهِ مِنْ حَيْثُ بَلَاغَةُ عِبَارَتِهِ وَجَمَالِ أَسْلُوبِهِ.

أولها حسن تأليفه، والتثام كليمه، وفصاحته، ووجوه
إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب. وذلك أنهم كانوا
أرباب هذا الشأن وفُرسان الكلام، قد خُصّوا من البلاغة
والحكم بما لم يُخصَّ به غيرهم من الأمم، وأوتوا من
ذراية اللسان ما لم يؤت إنسان؛ ومن فضل الخطاب، ما
يُقَيِّدُ الألباب؛ جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقاً، وفيهم
غريزة وقوة؛ يأتون منه على البديهة بالعجب، ويذللون به
إلى كل سبب؛ فيخطبون بديهاً في المقامات والخطب،
ويترتجزون بين الطغن والضرب؛ ويمدحون ويمدحون،
ويتوسّلون ويتوصّلون، ويرفعون ويضعون؛ فيأتون من ذلك
بالسحر الحلال، ويطوّقون من أوصافهم أجمل من سبط
اللال؛ فيخدعون الألباب، ويذللون الصعاب؛ ويذهبون
الإحن، ويهيّجون الدمن؛ ويجرّؤون الجبان، ويُبسطون يد
الجعد البنان؛ ويصيّرون الناقص كاملاً، ويتركون النبية
خاملاً؛ منهم البدوي ذو اللفظ الجزل، والقول الفضل؛
والكلام الفخم، والطبع الجوهري، والمترع القوي؛ ومنهم
الحضري ذو البلاغة البارعة، والألفاظ الناصعة، والكلمات
الجامعة؛ والطبع السهل، والتصرّف في القول القليل
الكلفة، الكثير الرؤنق، الرقيق الحاشية، لا يشكون أن

الكلام طَوْعُ مُرَادِهِمْ، وَالبَلَاغَةُ مِلْكُ قِيَادِهِمْ؛ قَدْ حَوَّاهَا
فُنُونُهَا، وَأَسْتَبْطَوْا عِيُونُهَا؛ وَدَخَلُوا مِنْ كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا،
وَعَلَّوْا صَرْحًا لِبُلُوغِ أَسْبَابِهَا؛ فَقَالُوا فِي الْخَطِيرِ وَالْمَهِينِ،
وَتَفَنَّنُوا فِي الْغَثِّ وَالسَّمِينِ؛ وَتَقَاوَلُوا فِي الْقُلِّ وَالْكُفْرِ،
وَتَسَاجَلُوا فِي النَّظْمِ وَالنَّثْرِ؛ فَمَا رَاعَهُمْ إِلَّا رَسُولٌ كَرِيمٌ
بِكِتَابٍ عَزِيزٍ ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾
تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿[٤١ سورة فصلت / الآية: ٤٢]؛ أُحْكِمَتْ
آيَاتُهُ، وَفُصِّلَتْ كَلِمَاتُهُ؛ وَبَهَّرَتْ بِلَاغَتُهُ الْعُقُولَ، وَظَهَّرَتْ
فَصَاحَتُهُ عَلَى كُلِّ مَقُولٍ؛ وَتَضَافَرَتْ إِيجَارُهُ وَإِعْجَازُهُ،
وَتَظَاهَرَتْ حَقِيقَتُهُ وَمَجَازُهُ؛ وَتَبَارَتْ فِي الْحُسْنِ مَطَالِعُهُ
وَمَقَاطِعُهُ، وَحَوَتْ كُلَّ الْبَيَانِ مَجَامِعُهُ وَبِدَائِعُهُ؛ وَأَعْتَدَلَ مَعَ
إِيجَازِهِ حُسْنَ نَظْمِهِ، وَأَنْطَبَقَ عَلَى كَثْرَةِ فَوَائِدِهِ مُخْتَارُ لَفْظِهِ؛
وَهُمْ أَفْسَحُ مَا كَانُوا فِي هَذَا الْبَابِ مَجَالًا، وَأَشْهَرُ فِي
الْخَطَابَةِ رِجَالًا؛ وَأَكْثَرُ فِي الشُّعْرِ وَالسَّجْعِ ارْتِجَالًا، وَأَوْسَعُ
فِي الْغَرِيبِ وَاللُّغَةِ مَقَالًا؛ بَلَّغَتْهُمْ الَّتِي بِهَا يَتَحَاوَرُونَ،
وَمَنَازِعِهِمُ الَّتِي عَنْهَا يُنَاضِلُونَ؛ فَمَا زَالَ صَارِخًا بِهِمْ فِي
كُلِّ حِينٍ، وَمُقَرِّعًا لَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْمَلَأِ أَجْمَعِينَ؛ ﴿أَمْ
يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلٌّ فَأَتُونَا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٠ سورة يونس / الآية: ٣٨].

الشُعراءُ المُخَدَّثُونَ

قال ابنُ دُرَيْدٍ: سَأَلْتُ أبا حَاتِمٍ عَنِ أَبِي نُوَاسٍ، فَقَالَ:
 إِنَّ جَدَّ أَحْسَنَ، وَإِنْ هَزَلَ ظَرْفٌ، وَإِنْ وَصَفَ بِالْغِ، يُلْقَى
 الْكَلَامَ عَلَى عَوَاهِيهِ لَا يُيَالِي مِنْ أَيْنَ أَخَذَهُ. قُلْتُ: فَبَشَارُ بْنُ
 بُرْدٍ؟ قَالَ: نَظَّارٌ غَوَاصٌ مُطِيلٌ مُجِيدٌ، يَصِفُ مَا لَمْ يَرَ كَأَنَّهُ
 رَأَاهُ، عَلَى أَنَّ فِي شِعْرِهِ خَللاً كَثِيراً. قُلْتُ: فَمِرْوَانُ ابْنُ أَبِي
 حَفْصَةَ؟ قَالَ: شَاعِرٌ رَاضٍ عَنْ نَفْسِهِ يَسْتَحْسِنُ كُلَّ مَا جَاءَ
 مِنْهُ مُعْجَبٌ، لَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا يَتَقَدَّمُهُ، كَثِيرُ الصَّوَابِ، كَثِيرُ
 الْخَطَأِ، لَيْسَ لِشِعْرِهِ صَنْعَةٌ. قُلْتُ: فَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ؟ قَالَ:
 خَلِيجٌ صَافٍ يَنْزِعُ مِنْ بَحْرِ كَدِرٍ، كَالزَّيْدِ يُورِي تَارَةً وَيَضِلُّدُ
 أُخْرَى. قُلْتُ: فَأَبُو الْعَتَاهِيَةِ؟ قَالَ: غُثَاءٌ^(١) جَمٌّ وَاقْتِدَارُ
 سَهْلٍ، وَشِعْرٌ كَخَرَزِ الزُّجَاجِ، وَرُبَّمَا أَشْبَهَ الْيَاقُوتَ
 وَالزَّبَرْجَدَ. قُلْتُ: فَعَبَّاسُ بْنُ الْأَخْنَفِ؟ قَالَ: يُلْقَى دَلْوُهُ فِي
 الدَّلَاءِ، فَيَغْتَرِفُ الصَّفْوَ أَخِيَانًا وَالْحَمَاءَ^(٢) أَخِيَانًا، عَلَى أَنَّ
 كَدَرَهُ أَكْثَرُ مِنْ صَفْوِهِ. قُلْتُ: فَسَلْمُ الْخَاسِرُ؟ قَالَ: مُقِلُّ
 مَدَاحٍ، شِعْرُهُ دِيْبَاجٌ وَعِهْنٌ، يَمُوهُ الرَّدِيءُ حَتَّى يُشْبِهَ الْجَيِّدَ.

(١) الغُثَاءُ: الزَّبْدُ.

(٢) الحمَاءُ: الطَّيْنُ الْأَسْوَدُ.

قُلْتُ: فَأَبُو الشَّيْصِرِ؟ قَالَ: جَدُّهُ كُلُّهُ فِيهِ حِلَاوَةٌ وَبِشَاعَةٌ،
كَالسُّدْرَةِ الَّتِي نَفَضْتُ، فَفِيهَا الْمُسْتَعَذِبُ وَالْمُسْتَبْشِعُ. قُلْتُ:
فَعَلِيُّ بْنُ جَبَلَةَ؟ قَالَ: بَحَاثٌ عَنِ الْكَلَامِ الْفَخْمِ وَالْمَعْنَى
الرَّائِعِ، لَا يَنَالُ مَرْتَبَةَ الْقُدَمَاءِ، وَيَجِلُّ عَنْ مَنَزِلَةِ النُّظَرَاءِ.
قُلْتُ: فَأَبُو تَمَّامٍ؟ قَالَ: سَيْلٌ كَثِيرُ الْغَثَاءِ، غَزِيرُ الْغِمَارِ، جَمُّ
النُّطَافِ^(١)؛ فَإِذَا صَفَا فَهُوَ السُّلَافُ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ. قُلْتُ:
فَعَبْدُ الصَّمَدِ بْنُ الْمُعَذَّلِ؟ قَالَ: خَرَّاجٌ وَلَاجٌّ، يَغْتَسِفُ تَارَةً،
وَيَهْتَدِي أُخْرَى. قُلْتُ: فَعَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ؟ قَالَ: كَلَامٌ رَصِينٌ
وَمَسْلَكٌ وَغَرٌّ، عَقْلُهُ أَغْلَبُ عَلَى شِعْرِهِ مِنْ طَبِيعِهِ. قُلْتُ:
فَبَكْرُ بْنُ النَّطَّاحِ؟ قَالَ: تَشَبَّهَ بِالْأَغْرَابِ فَأَقْرَطَ، وَتَجَاوَزَ حَدَّ
الْمَوْلَدِينَ فَأَسْهَبَ، فَهُوَ السَّاقِطُ بَيْنَ الْقَرِيَتَيْنِ.

(١) النُّطَافُ: الْمَاءُ الصَّافِي.

نظرات المنفلوطي

«أحمد لطفي بك السيد»^(١)

يَكْتُبُ الْكَاتِبُونَ عِنْدَنَا فِي الْبِلَادِ الْأُخْرَى، فَيَقَعُ
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي كَيْفِيَّةِ اسْتِخْصَارِ الْأَفْكَارِ وَصَوْنِ
الْعِبَارَاتِ وَفِي الْأُسْلُوبِ الْكِتَابِيِّ إِلَى حَدٍّ يَخْتَلِطُ فِيهِ
أَمْرُهُمْ، وَتَفْنَى بِهِ شَخْصِيَّتُهُمْ، فَلَا تَكَادُ تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدِهِمْ
وَبَيْنَ الْآخَرِ إِلَّا بِاخْتِلَافِ الْأَسْمِ. وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْكُتَابِ
فِي كُلِّ أُمَّةٍ كَثِيرٌ، وَكُتَابَاتُهُمْ أَكْثَرُ، وَلَكِنَّ الزَّمَانَ نَقَادُ عَيْرٍ
مُتَسَامِحٌ، لَا يُبْقِي فِي كَفِّهِ مِنْ تِلْكَ الْأَسْفَارِ الْكَثِيرَةِ إِلَّا
الْقَلِيلَ.

وَمِنَ الْكُتَابِ مَنْ هُوَ ضَمِينٌ بِشَخْصِيَّتِهِ، لَا يَدْعُهَا

(١) «أحمد لطفي بك السيد» [١٢٨٨ - ١٣٨٢ هـ = ١٨٧٠ -

[١٩٦٣ م]

هُوَ مِنْ أَعْلَمِ الْكُتَابِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِالْأَخْلَاقِ وَالْاجْتِمَاعِ
وَالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَقْدَرِهِمْ عَلَى الْحُجَّةِ الَّتِي لَا يَشُوبُهَا كَذِبٌ وَلَا
تَخْيِيلٌ؛ وَلَهُ فِي كِتَابَتِهِ صِفَةٌ خَاصَّةٌ بِهِ، مَنَشُؤُهَا أَنَّهُ يَصْدُرُ فِيمَا
يَكْتُبُ عَنْ رَأْيِ نَفْسِهِ، وَقَلَمُهُ أَطْهَرُ الْأَقْلَامِ وَأَبْعَدُهَا عَنِ الْهَجْرِ
وَالْعَيْبِ، وَلَوْ أَمَكَنَّ أَنْ يَخْلُقَ قَلَمٌ كَاتِبٌ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ لَخَلَا قَلَمُ
لَطْفِي السَّيِّدِ مِنَ الْأَسَالِيبِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا أَحْيَانًا.

تتلاشى في بيئة الكتاب، لا يتكلف تقليد شيخ من أشياخ الكتابة، ولا يكتب للكتابة، بل لا يكتب إلا إذا قامت بنفسه أغراض واضحة يجب أن يبرزها للناس في الثوب الذي يناسبها على تفصيل مودة الأذواق الحاضرة، وحسبما يقتضيه الفضل الزمني للأفكار. وكتاب هذا الصنف قليلون عادة في كل أمة وفي كل جيل، إلا أن كتاباتهم على قلبها هي المرئي الوحيد للأمم، والعلة الأولى التي تدفعها إلى الأخذ بكل نوع من أنواع الرقي والنجاح، وهي خير اللغات وأبقاها.

من أشياخ البيان عندنا السيد مصطفى المنفلوطي. أكاد لا أجد له في طريقته مثيلاً بين كتابنا، فإنه يمتاز بالمساواة، وقل من يعرف المساواة. يمتاز باستعمال ألفاظ الخصوص، فلا يلبس معنى إلا لفظة الذي يكاد لا يشاركه فيه معنى آخر. يطرق الموضوعات الصعبة البعيدة، فيقربها من القارئ، ويجعله يظن أنها من مألوفاته ولم تكن كذلك من قبل.

أقول من غير محاباة، وفي يدي «نظرات المنفلوطي»: إن السيد مصطفى هو الثمرة الناضجة للعصر الكتابي الحاضر، جمع بين أفكار التمدن وأسلوب العرب

الأصيل، فكان كتابه «النظرات» بذلك إحدى المعجزات
عند من يظنون أن الغرب غرب والشرق شرق، وأنهما لا
يزالان كذلك ما بقي البعد بين مطلع الشمس وبين
مغربها.

أنصح للشبيبة أن تجعل «نظرات» السيد المنفلوطي
كتاب مطالعتهم، وأنصح للناشئة أن يحفظوا منه ما
استطاعوا، فإن هذا الكتاب خير مرب لمملكة الإنشاء.

الشعر

«لأخذ الأدياء المعاصرين»^(١)

كتب إلي كاتب يقول: عرفناك قبل اليوم شاعراً ما
تكتب فقرة، ثم رأيناك بعد ذلك كاتباً ما تنظم شطرة، فلم
لم تكتب في عهدك الأول، ولم لم تشعر في عهدك
الثاني؟

كأنما ظن عافاه الله أني أكتب اليوم بقلم غير قلم
الأمس، أو أهيئ في واد غير ذلك الوادي، وهل الشعر

(١) [هو مصطفى لطفى المنفلوطي نفسه، راجع كتابه «النظرات»،

الجزء الثاني، الصفحة: ٢٩٤].

إِلَّا نُثَارَةٌ^(١) مِنَ الدَّرِّ يَنْظُمُهَا النَّاطِمُ إِنْ شَاءَ شِعْرًا، وَيَنْثُرُهَا
الكَاتِبُ إِنْ شَاءَ نَثْرًا، أَوْ نَعْمَةً مِنْ نَعِمَاتِ الْمَوْسِقَى
يَسْمَعُهَا السَّامِعُ مَرَّةً مِنْ أَفْوَاهِ الْبَلَابِلِ وَالْحَمَائِمِ، وَأُخْرَى
مِنْ أَوْتَارِ الْعِيدَانِ وَالْمَزَاهِرِ، أَوْ عَالَمٍ مِنْ عَوَالِمِ الْخِيَالِ
يَطِيرُ فِيهِ الطَّائِرُ بِقَادِمَتَيْنِ^(٢) مِنْ عَرُوضٍ وَقَافِيَةٍ، أَوْ
خَافِيَتَيْنِ^(٣) مِنْ فَقْرٍ وَأَسْجَاعٍ.

الكَاتِبُ الْخَيَالِيُّ شَاعِرٌ بِلَا قَافِيَةٍ وَلَا بَحْرِ، وَمَا الْقَافِيَةُ
وَالْبَحْرُ إِلَّا أَلْوَانٌ وَأَصْبَاغٌ تَغْرِضُ لِلْكَلامِ فِيمَا يَغْرِضُ لَهُ
مِنْ شُؤْنِهِ وَأَطْوَارِهِ وَلَا عِلَاقَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جَوْهَرِهِ وَحَقِيقَتِهِ؛
وَلَوْلَا أَنَّ غَرِيزَةً فِي النَّفْسِ أَنْ يُرَدِّدَ الْقَائِلُ مَا يَقُولُ،
وَيَتَغَنَّى بِمَا يُرَدِّدُ تَرْوِيحًا عَنْ نَفْسِهِ وَتَطْرِيبًا لِعَاطِفَتِهِ مَا نَظَّمَ
نَاطِمٌ شِعْرًا، وَلَا رَوَى عَرُوضِيٌّ بَحْرًا.

مَا كَانَ الْعَرَبِيُّ فِي مَبْدَأِ عَهْدِهِ يَنْظُمُ الشَّعْرَ وَلَا
يَغْرِفُ مَا قَوَافِيهِ وَأَعَارِضُهُ، وَمَا عَلَّلَهُ وَزِحَافَاتُهُ، وَلَكِنَّهُ
سَمِعَ أَصْوَاتَ النَّوَاعِيرِ، وَخَفِيفَ أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ، وَخَرِيرَ

(١) النُّثَارَةُ: مَا تَنَاطَرَ مِنَ الشَّيْءِ.

(٢) الْقَادِمَةُ، مُفْرَدُ قَوَادِمٍ، وَهِيَ: عَشْرُ رِيشَاتٍ فِي مَقْدَمِ جَنَاحِ الطَّائِرِ.

(٣) الْخَوَافِي: رِيشَاتٌ، إِذَا ضَمَّ الطَّائِرُ جَنَاحِيهِ اخْتَفَتْ.

الماء، وبُكَاءِ الحَمَائِمِ، فَلَدَّ لَهُ صَوْتُ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ
 الْمُتَرَنِّمَةِ، وَلَدَّ لَهُ أَنْ يَبْكِيَ لِبُكَائِهَا، وَيَنْشِجَ لِنَشِيجِهَا، وَأَنْ
 يَكُونَ صَدَاها الحَاكِي لِرَنَاتِها وَنَغَمَاتِها، فَإِذَا هُوَ يَنْظُمُ
 الشُّعْرَ مِنْ حَيْثُ لَا يَفْهَمُ مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ ذَلِكَ الْخَيَالُ السَّارِي
 الْمُتَمَثِّلُ فِي قَرِيحَتِهِ الْمُتَرَدِّدُ بَيْنَ شِدْقَيْهِ. وَلَا مِنْ أَوْزَانِهِ
 وَضُرُوبِهِ إِلَّا أَنَّهَا صُورَةٌ مِنْ صُورِهِ، وَلَوْنٌ مِنْ أَلْوَانِهِ.

ذَلِكَ مُنْتَهَى نَظَرِ الْعَرَبِيِّ إِلَى الشُّعْرِ، وَذَلِكَ مَا دَعَاهُ
 إِلَى أَنْ يُسَمِّيَ النَّبِيَّ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ شَاعِرًا، وَهُوَ يَعْلَمُ
 كَمَا يَعْلَمُ غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ مَا قَصَدَ فِي حَيَاتِهِ قَصِيدَةً،
 وَلَا رَجَزَ أَرْجُوزَةً، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ
 الْمُفَصَّلَاتِ أَبْلَغَ الْكَلَامِ وَأَفْصَحَهُ، وَأَعْلَقَهُ بِالتَّقْوَسِ، وَأَخَذَهُ
 بِالْأَلْبَابِ، وَأَمْلَكَهُ لِلْعَوَاطِفِ وَالْوِجْدَانَاتِ، وَأَجْمَعَهُ لِصُنُوفِ
 التَّشْبِيهَاتِ الْبَدِيعَةِ، وَالِاسْتِعَارَاتِ الدَّقِيقَةِ، وَالْمَجَازَاتِ
 الرَّائِعَةِ، وَالْكُنَايَاتِ الْمُسْتَطَرَفَةِ، وَأَمْثَالِ تِيكَ مِمَّا لَا يَنْطِقُ بِهِ
 النَّاطِقُ فِي أَكْثَرِ مَنَازِعِهِ وَمَنَاجِيهِ إِلَّا عِنْدَ ذَهَابِهِ مَذْهَبَ
 الْخَيَالِ الشُّعْرِيِّ، فَشُبِّهَ لَهُ، فَسُمِّيَ مَا سَمِعَهُ شِعْرًا، وَسُمِّيَ
 النَّاطِقُ بِهِ شَاعِرًا، وَمَا هُوَ بِشَاعِرٍ وَلَا سَاحِرٍ، وَلَا كَاهِنٍ
 وَلَا مَجْنُونٍ.

مَا كُلُّ موزونٍ شِعْرًا، وَلَا كُلُّ نَاطِمٍ شَاعِرًا، فَالْوَزْنُ

مَلَكَهٗ تَغَلَّقُ بِالنَّفْسِ مِنْ طُولِ تَرْدِيدِ الْمَنْظُومِ وَالتَّغْنِي بِهِ
مُقَطَّعاً تَقْطِيعاً يَوَازُنُ تَفَاعِيلَهُ، فَهُوَ نَعْمَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ، وَلَحْنٌ
خَاصٌّ مِنَ الْهَانِ الْغِنَاءِ، يَتَمَثَّلُ فِي قَوْلِ الْمَلِكِ الضُّلَيْلِ^(١)
[من الطويل]:

قِفَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

كَمَا يَتَمَثَّلُ فِي قَوْلِ الْخَلِيلِ:

فَعُولُنْ مَفَاعِيلُنْ فَعُولُنْ مَفَاعِلُنْ

وَيَتَرَاءَى فِي أَوْتَارِ الْحَلْقِ النَّاطِقِ، كَمَا يَتَرَاءَى فِي
أَوْتَارِ الْعُودِ الصَّامِتِ.

أَمَّا الشُّعْرُ، فَأَمْرٌ وَرَاءَ الْأَنْغَامِ وَالْأَوْزَانِ، وَمَا النَّظْمُ
بِالِإِضَافَةِ إِلَيْهِ إِلَّا كَالْحَلِيِّ فِي جِيدِ الْغَانِيَةِ الْحَسَنَاءِ، أَوْ الْوَشِيِّ
فِي ثَوْبِ الدُّبَابِ الْمُغْلَمِ، فَكَمَا أَنَّ الْغَانِيَةَ لَا يَخْزُنُهَا عَطَلٌ
جَيِّدُهَا، وَالدُّبَابَ لَا يُزْرِي بِهِ أَنَّهُ غَيْرُ مُغْلَمٍ، كَذَلِكَ الشُّعْرُ لَا
يَذْهَبُ بِحُسْنِهِ وَرَوَائِهِ أَنَّهُ غَيْرُ مَنْظُومٍ وَلَا موزُونٍ.

ذَلِكَ هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الشُّعْرِ وَالنَّظْمِ، وَهِيَ أَنْتَ تَرَى
أَنَّ لَا صِلَةَ بَيْنَهُمَا إِلَّا تِلْكَ الصِّلَةُ الْاضْطِلَاحِيَّةُ الَّتِي لَا
سَبَبَ لَهَا إِلَّا أَعْتِيَادُ النَّاسِ أَنَّهُمْ يَنْظُمُونَ مَا يَشْعُرُونَ،

(١) هُوَ لَقَبُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ.

وَتِلْكَ الصَّلَةُ هِيَ الَّتِي خَلَطَتْ بَيْنَهُمَا، وَعَمَّتْ عَلَى كَثِيرٍ
 مِنَ النَّاسِ أَمْرُهُمَا، وَهِيَ الَّتِي أَدْخَلَتْ النُّظَامِينَ فِي عِدَادِ
 الشُّعْرَاءِ وَأَلْقَتْ عَلَيْهِمْ جَمِيعاً رِداءً وَاحِداً لَا يُسْتَطَاعُ مَعَهُ
 التَّمْيِيزُ بَيْنَهُمَا إِلَّا لِلْقَلِيلِ مِنَ النَّاقِدِينَ الْمُسْتَبْصِرِينَ،
 فَأَصْبَحْنَا نَقْرَأُ لِبَعْضِ الْمُعَاصِرِينَ الْقَصِيدَةَ ذَاتِ الْمِئَةِ بَيْتٍ
 فَلَا نَجِدُ بَيْتاً، وَنَتَصَفَّحُ الدِّيوانَ ذَا الْمِئَةِ قَصِيدَةً، فَلَا نَعْثُرُ
 بِقَصِيدَةٍ، وَأَصْبَحْنَا لَا نَكَادُ نَجِدُ بَيْنَنَا قَارِئاً غَيْرَ شَاعِرٍ، لِأَنَّهُ
 لَا يَوْجَدُ فِي النَّاسِ شَخْصٌ وَاحِدٌ يُعْجِزُهُ تَصَوُّرُ تِلْكَ
 النُّعْمَةِ الْعَرُوضِيَّةِ وَتَصْوِيرُهَا حَتَّى الْعَامَّةِ وَالْأُمِّيِّينَ.

وَلَقَدْ كَتَبَ الْكَاتِبُونَ فِي تَعْرِيفِ الشُّعْرِ وَافْتَتَوْا فِي
 ذَلِكَ أَفْتِنَاناً بَعْدَ بِهِ عَنْ مَكَانِهِ، وَعِنْدِي أَنْ أَفْضَلَ تَعْرِيفٍ لَهُ
 أَنَّهُ (تَصْوِيرٌ نَاطِقٌ) لِأَنَّ قَاعِدَةَ الشُّعْرِ الْمُطْرَدَةُ هِيَ التَّأْثِيرُ،
 وَمِيزَانُ جُودَتِهِ مَا يَثْرُكُ فِي النَّفْسِ مِنَ الْأَثَرِ، وَسِرُّ ذَلِكَ
 التَّأْثِيرِ أَنَّ الشَّاعِرَ يَتِمَكَّنُ بِبِرَاعَةِ أُسْلُوبِهِ، وَقُوَّةِ خَيَالِهِ، وَدِقَّةِ
 مَسْلِكِهِ، وَسَعَةِ حِيلَتِهِ، مِنْ هَتْكِ ذَلِكَ السُّتَارِ الْمُسْبِلِ دُونَ
 قَلْبِهِ وَتَصْوِيرِ مَا فِي نَفْسِهِ لِلْسَّامِعِ تَصْوِيراً يَكَادُ يَرَاهُ بِعَيْنِهِ
 وَيَلْمَسُهُ بِبَنَانِهِ، فَيُضْبِحُ شَرِيكَهُ فِي حِسِّهِ وَوَجْدَانِهِ، يَبْكِي
 لِبُكَائِهِ، وَيَضْحَكُ لِضَحْكِهِ، وَيَغْضَبُ لِعُضْبِهِ، وَيَطْرَبُ
 لَطَرْبِهِ، وَيَطِيرُ مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْفَضَاءِ الْوَاسِعِ مِنَ الْخِيَالِ،

فَيْرَى الطَّبِيعَةَ بِأَرْضِهَا، وَسَمَائِهَا، وَشُمُوسَهَا،
وَأَقْمَارِهَا، وَرِيَاضِهَا، وَأَزْهَارِهَا، وَسُهُولِهَا وَجِبَالِهَا، وَصَادِحِهَا
وَبَاغِمِهَا^(١)، وَنَاطِقِهَا وَصَامِتِهَا، مِنْ حَيْثُ لَا يَنْقُلُ إِلَى ذَلِكَ
قَدَمًا، وَلَا يُلَاقِي فِي سَبِيلِهِ نَصَبًا؛ فَإِنْ سَمِعَ قَوْلَ الْقَائِلِ
[من الوافر]:

وَقَانَا لَفْحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ

سَقَاهُ مُضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ
نَزَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا
حُنُوَّ الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ
وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظَمَأٍ زُلَالًا
أَلَذَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
يَصُدُّ الشَّمْسَ أَنْتَى وَاجْهَتْنَا
فَيَخْجُبُهَا وَيَأْذَنُ لِلنَّسِيمِ
يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةً^(٢) الْعَذَارَى
فَقَلَمَسُ جَانِبِ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

(١) يقال: بغم الغزال، إِذَا صَوَّتَ بِأَرْخَمِ صَوْتِهِ، فهو باغِمٌ.

(٢) الحالية: لابسة الخُلْيِ.

خِيلَ لَهُ أَنَّهُ يَخْطُرُ فِي ذَلِكَ الرَّوْضِ الْبَلِيلِ بَيْنَ أَنْوَارِهِ
وَأَزْهَارِهِ، خَطَرَانِ النَّسِيمِ بَيْنَ ظِلَالِهِ وَأَشْجَارِهِ، وَأَنَّهُ يَرَى
بِعَيْنِهِ أَوْلَيْكَ الْعَذَارَى السَّانِحَاتِ وَقَدْ رَاعَهُنَّ مَنَظَرُ الْحَضَبَاءِ
الْلَامِعُ فَوْقَ تِلْكَ الدِّيَابِجَةِ الْخَضِرَاءِ فَتَوَلَّهِنَّ وَفَزَعْنَ إِلَى
جَوَانِبِ عُقُودِهِنَّ يَلْمَسْنَهَا بِأَطْرَافِ بَنَانِهِنَّ يَحْسَبْنَ أَنَّ قَدْ
وَهَتْ فَأَنْتَثَرَتْ جَوَاهِرُهَا فِي ذَلِكَ الرَّوْضِ الْأَرِيضِ.

وَأِنْ سَمِعَ قَوْلَ الْآخِرِ [من الطويل]:

وَدَارِ نَدَامَى عَظَّلُوهَا وَأَذْلَجُوا

بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ

حَبَسْتُ بِهَا صَخْبِي وَجَمَعْتُ شَمْلَهُمْ

وَإِنِّي عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ لِحَابِسُ

أَقْمَنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا

وَيَوْمًا لَهُ يَوْمَ التَّرْحَلِ خَامِسُ

تُذَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجَدِيَّةٍ

حَبَسْتُهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ

قَرَارَتُهَا كِشْرَى وَفِي جَنْبَاتِهَا

مَهَا تُدْرِيهَا^(١) بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ

(١) أَدْرَى الصَّيْدَ: خَتَلَهُ.

فَلِلرَّاحِ مَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا

وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

تَمَثَّلَ لَهُ كَأَنَّهُ مَرَّ فِي ضَاحِيَةٍ مِنْ ضَوَاحِي بَغْدَادَ بِدَارٍ
مُوحِشَةٍ فَسَمِعَ فِيهَا أَصْوَاتَ قَوْمٍ يَلْهُونَ وَيَقْصِفُونَ^(١)،
وَيَقْرَعُونَ الْكُؤُوسَ بِأَمْثَالِهَا، فَأَقْتَرَبَ مِنْهَا، وَأَطْلَّ مِنْ
خِصَاصِ^(٢) بَابِهَا، فَرَأَى أُولَئِكَ الْقَوْمَ مُجْتَمِعِينَ حَوْلَ دَنٍّ
مِنَ الْخَمْرِ قَدْ تَكَامَلَ سِنُّهُ، وَشَيَّبَ الدَّهْرُ فَوْدِيهِ^(٣)،
فَقَصَدُوهُ، فَسَالَ دَمُهُ الْأَخْمَرُ فِي كُؤُوسٍ مِنَ الذَّهَبِ
مَنْقُوشَةٍ نُقُوشاً فَارِسِيَّةً قَدْ اسْتَقَرَّتْ فِي قَرَارَتِهَا صُورَةُ
كِسْرَى فَارِسَ وَدَارَتْ فِي بَاطِنِهَا صُورُ فُرْسَانِهِ مُتَنَكِّبِي
قِسِيَّهِمْ كَأَنَّمَا يُطَارِدُونَ بَقَرِ الْوَحْشِ أَمَامَهُمْ وَرَأَاهُمْ يَمْلَأُونَ
الْكُؤُوسَ إِلَى مَا يُوَارِي أَعْنَاقَ تِلْكَ الْفُرْسَانِ، ثُمَّ يَمْزُجُونَهَا
بِالْمَاءِ إِلَى مَا يُغْطِي رُؤُوسَهُمْ، فَتَسَلَّلَ مِنْ مَكَانِهِ مُغْتَبِطاً
بِمَجْمَعِهِمْ، وَبِمَا هَيَّيَ لَهُمْ مِنَ الْهَنَاءِ وَالنَّعْمَةِ فِيهِ، ثُمَّ مَرَّ
بِتِلْكَ الدَّارِ بَعْدَ أَيَّامٍ قَرَّأَهَا مَقْفِرَةً مِنْ أَهْلِهَا لَا تُسْمَعُ بِهَا

(١) قصف: أقام في أكلٍ وشربٍ ولهُو.

(٢) الخصاص: كل خلل وخرق في بابٍ أو غيره.

(٣) الفودان: ناحيتا الرأس.

نَعْمَةٌ وَلَا نَأْمَةٌ^(١)، فَدَخَلَهَا، فَلَمْ يَرِ فِيهَا إِلَّا أَعْوَادَ رِيحَانٍ
 قَدْ يَبَسَ أَكْثَرُهَا، مُبَغْتَرَةٌ فِي جَوَانِبِهَا، وَخُطُوطاً كَانَتْ
 رَسَمَتْهَا زِقَاقُ الْخَمْرِ فَوْقَ تُرْبَتِهَا فِي غُدُّوْهَا وَرَوَاحِهَا بَيْنَ
 أَوْلَيْكَ النَّدْمَاءِ، فَأَنْصَرَفَ حَزِيناً مُكْتَتِباً يَسْمَعُ صَفِيرَ الرِّيحِ
 الضَّارِبِ فِي جَوَانِبِهَا، فَيُرَدِّدُ قَوْلَ الْقَائِلِ [من الرمل]:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا

يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ

عَصَفَ الدَّهْرُ بِهِمْ فَأَنْقَرَضُوا

وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالاً بَعْدَ حَالٍ

وَإِنْ سَمِعَ قَوْلَ الْآخِرِ [من الطويل]:

وَيَوْمَ كَتَنُورِ الْإِمَاءِ سَجَرْنَهُ^(٢)

وَأَوْقَدَنَ فِيهِ الْجَزْلَ حَتَّى تَضَرَّ مَا

رَمَيْتُ بِنَفْسِي فِي أَجِيجِ سَمُومِهِ

وَبِالْعِيسِ حَتَّى بَضَّ مِنْخَرُهَا دَمًا

شَعَرَ كَأَنَّ لَهَيْبَ تِلْكَ الْهَاجِرَةِ يَهْبُ فِي وَجْهِهِ فَيُشِيعُ

(١) النَّأْمَةُ: النَّعْمَةُ والصوت.

(٢) سَجَرَ الرجل التنور: ملأه وقوداً.

بَوَجْهِهِ عَنْهُ فِرَاراً مِنْ لَفْحَاتِهِ، وَيَكَادُ يَبْكِي رَحْمَةً لِدَلِكِ
الشَّبَحِ الْمَضْهُورِ الَّذِي مَلَكَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ التَّثَوُّفَةُ الْحَمْرَاءُ
سَبِيلَهُ، وَحَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فَلَا هُوَ بِصَابِرٍ إِنْ رَامَ
صَبْرًا، وَلَا بِنَاجٍ إِنْ أَرَادَ نَجَاءً.

وَإِنْ سَمِعَ قَوْلَ الْآخِرِ [من المنسرح]:

وَأَرْحَمَنَا لِلْغَرِيبِ فِي الْبَلَدِ النَّـ

بَنَازِحٍ مَاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا

فَارَقَ أَخْبَابَهُ فَمَا أَنْتَفَعُوا

بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا أَنْتَفَعَا

هَمَلْتُ عَيْنَاهُ وَجَدًّا عَلَى ذَلِكَ الْغَرِيبِ الْحَاثِرِ، وَتَمَنَّى
أَنْ لَوْ رَأَاهُ فِي بَعْضِ مَزَاهِبِهِ فَعَطَفَ عَلَيْهِ، وَأَنْسَ وَخَشْتُهُ،
وَحَفَّضَ لَوَعَتَهُ؛ ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِهِ، فَأَنْزَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَثْرَلًا كَرِيمًا،
وَأَبْدَلَهُ أَهْلًا بِأَهْلِ وَجِيرَانَا بِجِيرَانِ.

وَإِنْ سَمِعَ قَوْلَ الْآخِرِ [من الطويل]:

وَإِنَّ الَّذِي وَبَّيْنَ بَنِي أَبِي

وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلِفٌ جَدًّا

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لِحُومَهُمْ

وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا

وَأِنْ ضَيُّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ
وَأِنْ هُمْ هَوُوا غَيْبِي هَوَيْتُ لَمْ رُشِدَا
وَأِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بَنَخَسِ تَمُرٌ بِي
زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمُرٌ بِهِمْ سَعْدَا
وَلَا أَخْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ
وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَا
لَهُمْ جُلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غَنَى
وَأِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أَكْلِفْهُمْ رِفْدَا
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيَا
وَمَا شِيمَةٌ لِي غَيْرُهَا تُشَبِّهُ الْعَبْدَا

أَكْبَرُ تِلْكَ الْمَكْرَمَةِ الْعَظِيمَةِ وَأَجَلُّهَا، وَنَظَرَ إِلَيْهَا فِي
عَلَيَاءِ سَمَائِهَا كَمَا يَنْظُرُ الْفَلَكَيُّ إِلَى كَوْكَبِهِ، وَشَعَرَ كَأَنَّهُ
نُورُهَا قَدْ لَمَعَ فَأَمْتَدَّ شُعَاعُهُ إِلَى جَوَانِبِ نَفْسِهِ فَأَضَاءَهَا.

وَلَا غَرَوْ أَنْ يَبْلُغَ الشَّعْرُ مِنْ نَفْسِهِ هَذَا الْمَبْلَغَ،
فَلَطَالَمَا كَانَ لِلشَّعْرِ السُّلْطَانُ الْأَكْبَرُ عَلَى النُّفُوسِ الْعَظِيمَةِ،
فَقَدْ نَكَبَ الرَّشِيدُ الْبَرَامِكَةَ عِنْدَمَا دَسَّ لَهُ أَعْدَاؤُهُمْ ذَلِكَ
الْمُغْنَى الَّذِي غَنَّاهُ هَذَا الصُّوتُ [من الرمل]:

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعِدُ
وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا تَجِدُ

وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً
إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ

وَأَمَرَ السَّفَّاحُ بِقَتْلِ وُجُوهِ بَنِي أُمَيَّةَ بَعْدَ مَا قَرَّبَهُمْ
وَأَذْنَاهُمْ عِنْدَمَا دَخَلَ عَلَيْهِ سَدِيفُ مَوْلَاهُ وَأَغْرَاهُ بِهِمْ فِي
قَوْلِهِ [من الخفيف]:

لَا تُقِيلَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ عَثَارًا
وَأَقْطَعَنَّ كُلَّ رَقْلَةٍ^(١) وَغِرَاسٍ

أَنْزَلُوهَا بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا اللَّهُ
هُ بِدَارِ الْهَوَانِ وَالْإِثْعَاسِ

خَوْفُهُمْ أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ فِيهِمْ
وَبِهِمْ مِنْكُمْ كَحَرِّ الْمَوَاسِي

أَقْصِيهِمْ أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ وَأَخْسِمِ
عَنْكَ بِالسَّيْفِ شَأْفَةُ الْإِزْجَاسِ

(١) الرقلة: النخلة الطويلة التي تفوت اليد.

فَلَقَدْ سَاءَ نِي وَسَاءَ سِوَايِي
 قُرْبُهُمْ مِنْ نَمَارِقٍ وَكَرَاسِي
 بَلْ عَطَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى الْخُطَيْئَةِ وَأَطْلَقَهُ
 مِنْ سِجْنِهِ حِينَ سَمِعَهُ يَقُولُ [من البسيط]:
 مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرَحٍ
 حُمِرَ الْحَوَاصِلُ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرُ
 أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ
 فَأَغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ
 بَلْ سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلَ قَتِيلَةٍ بِنْتِ
 الْحَارِثِ تَعَاتِبُهُ فِي قَتْلِهِ أَخَاهَا النَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ عَلَى
 رَحِمِهِ مِنْهُ وَاتِّصَالِ نَسَبِهِ بِهِ [من الكامل]:
 أُمَحَمَّدُ يَا خَيْرَ صِنُو كَرِيمَةٍ
 فِي قَوْمِهَا وَالْفَخْلُ فَخْلُ مُغْرَقُ
 مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرُبَّمَا
 مَنْ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُخْنَقُ
 وَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ أَصَبَتْ وَسِيلَةٌ
 وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عِثْقُ يُغْتَقُ

ظَلَّتْ سُيُوفُ بَنِي أَبِيهِ تَنْوُشُهُ
لِلَّهِ أَرْحَامٌ هُنَاكَ تَشَقُّقُ

فَبَكَى، وَقَالَ وَهُوَ مَنْ لَا ظِنَّةَ^(١) فِي عَذْلِهِ، وَلَا رِيبةَ
فِي حُكْمِهِ: «لَوْ سَمِعْتُهَا قَبْلَ الْيَوْمِ مَا قَتَلْتُهُ».

لَا مُؤَثَّرٌ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ غَيْرُ الشَّعْرِ، وَمَا خَضَعَ
الْإِنْسَانُ لِشَيْءٍ فِي جَمِيعِ أَذْوَارِ حَيَاتِهِ إِلَّا لِلشَّعْرِ، وَلِلشَّعْرِ
الْفَضْلُ الْأَوَّلُ فِي نُبُوغِ الْإِنْسَانِ وَأَرْتِقَائِهِ، وَبُلُوغِهِ هَذَا
الْمَبْلَغَ مِنَ الْكَمَالِ، وَلَقَدْ أَحَبَّ الْإِنْسَانُ الشَّعْرَ نَاطِقًا
وَصَامِتًا، أَمَّا الشَّعْرُ النَّاطِقُ فَقَدْ عَرَفْتُهُ، وَأَمَّا الشَّعْرُ الصَّامِتُ
فَهَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي يُرَادُ بِنَضْبِهَا تَمْثِيلُ حَيَاةِ عُظَمَاءِ الرُّجَالِ
بَعْدَ مَمَاتِهِمْ شِعْرًا، وَهَذِهِ النَّغَمَاتُ الْمَوْسِيقِيَّةُ الَّتِي تُصَوِّرُ
خَوَاطِرَ الْقُلُوبِ وَوَجْدَانَاتِهَا فَتَهِيجُ عَاطِفَةَ الْحُبِّ فِي نَفْسِ
الْعَاشِقِ وَعَاطِفَةَ الْحِمَاسَةِ فِي نَفْسِ الْجُنْدِيِّ شِعْرًا، وَهَدِيرُ
الْأَمْوَاجِ شِعْرًا، لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ عَظَمَةَ الْجَبَّارِينَ، وَظِلَامُ اللَّيْلِ
شِعْرًا، لِأَنَّهُ يُطْلِقُ دُمُوعَ الْبَاكِينَ، وَحَفِيفُ أَوْرَاقِ الْأَشْجَارِ
شِعْرًا، لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ الْمُنَاجَاةَ فِي مَوَاقِفِ الْعُشَّاقِ، وَبُكَاءُ
الْحَمَائِمِ شِعْرًا، لِأَنَّهُ يُمَثِّلُ فَجْعَةَ الْبَيْنِ وَلَوْعَةَ الْفِرَاقِ.

(١) الظُّنَّةُ: التُّهْمَةُ.

تِلْكَ النُّعْمَاتُ الشُّعْرِيَّةُ الَّتِي نَسْمَعُهَا مِنْ فَمِ الْإِنْسَانِ
 مَرَّةً، وَفَمِ الطَّبِيعَةِ أُخْرَى، هِيَ الَّتِي زَخَرَفَتْ لَنَا هَذِهِ الْحَيَاةَ،
 وَأَلْبَسَتْهَا ذَلِكَ الثَّوبَ النَّاعِمَ الْأَبْيَضَ مِنَ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ حَتَّى
 أَحْبَبْنَاهَا، وَوَلَعْنَا بِهَا، وَحَرَضْنَا عَلَيْهَا، وَأَعَدَدْنَا الْعُدَدَ لِلْبَقَاءِ
 فِيهَا، وَالسُّكُونِ إِلَيْهَا، فَكَتَبْنَا وَدَوَّنَا، وَأَلْفَنَّا وَأَخْتَرَعْنَا، وَتَعَلَّمْنَا
 فَعَلَّمْنَا، وَبَنَيْنَا فَشَيَّدْنَا، وَغَرَسْنَا فَجَنَيْنَا، وَعَمِلْنَا فَزَيَّنَّا،
 وَاجْتَهَدْنَا فَأَثَرَيْنَا، وَأَمَلْنَا فَسَعَيْنَا، وَسَعَيْنَا فَبَلَّغْنَا.

فَكَانَ الشُّعْرُ سِرَّ هَذِهِ الْحَيَاةِ، وَعِلَّةَ هَذَا الْوُجُودِ، لَا
 تَطِيرُ إِلَيْنَا الْحَقَائِقُ إِلَّا عَلَى جَنَاحِهِ، وَلَا يَطِيبُ لَنَا الْعَيْشُ
 إِلَّا فِي جِوَارِهِ، فَلْنَمَجِّدِ الشُّعْرَاءَ كُلَّ التَّمَجِيدِ، وَلْنُكَبِّرْهُمْ
 كُلَّ الْإِكْبَارِ، فَهُمْ مَشَارِقُ شُمُوسِ الْحِكْمَةِ، وَأَفْلَاكُ كَوَاكِبِ
 الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، وَهُمْ الْيَنَابِيعُ الصَّافِيَةُ الَّتِي يَتَرَقَّرُ مَآوَاهَا،
 ثُمَّ يَتَسَرَّبُ إِلَى الْأَفْتِدَةِ وَالْقُلُوبِ فَيَمْلَأُهَا سَعَادَةً وَهَنَاءً.

كَلِمَةٌ فِي التَّغْرِيبِ ^(١)

«لحافظ أفندي إبراهيم»

هذا كتاب «البؤساء»، وهو خير ما أخرج للناس في
 هذا العهد. وضَّعه صاحبه وهو بائس، وعَرَّبَهُ معرِّبُهُ وهو

(١) هذه الكلمة هي مقدمة كتاب «البؤساء».

بائس، فجاء الأصل والتعريبُ كالحسناءِ وخیالِها في
المرآة، وضَعَهُ نابغةُ شعراءِ الغُرب وهو في مَنفاه، وعَرَّبَهُ
كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه.

ولولا أَنِّي أَشْرَبُ بالكأسِ التي كان يَشْرَبُ بها ذلك
الرجل العظيم لما وَصَلَ مَبْلَغُ عِلْمِي إلى مَبْلَغِ عِلْمِهِ، ولما
سَبَحَ يراعي في قَطْرَةٍ من سُيُولِ قَلَمِهِ؛ ولو أَنَّ لي قَلَمًا من
أعوادِ أشجارِ الجَنَّةِ، وصَحِيفَةً من صُحُفِ إبراهيم وموسى،
وقد تَلَقَّتْني البلاغَةُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ بِفَضْلِها، فَسَمَوْتُ إلى
لُبَابِ مُصَاصِها^(١)، وَأَخَذْتُ مِنْها حاجَتِي؛ لما حَدَّثْتَنِي
النَّفْسُ بِتَغْرِيبِ ذلك الكتابِ لولا اتِّحادُنا في الأَلَمِ
وتشابهُنا في الشَّقاء.

فلقد كُنْتُ أَنْظُرُ فِيهِ نَظْرَةَ المُنْجِمِ في المِيقَاتِ،
وَاسْتَوَزَعُ اللهَ بَيَانَ تلكَ المعْجِزاتِ، حتَّى إِذَا نَقَذَ الفِكرُ إلى
ما وراءِ سَطُورِهِ، وَاهْتَدَى الخَاطِرُ إلى مَكامِنِ حِكْمِهِ،
دَعَوْتُ إِلَيَّ أُمَّ اللُّغَاتِ، وَعَمِلْتُ على التوفيقِ بَينَ هذه
الغَادَةِ الشَّرْقِيَّةِ وتلكَ الفتاةِ الغَرْبِيَّةِ، وَعَمَدْتُ إلى مَدِّ صِلَةٍ
النَّسَبِ بَينَ الغَادَتَيْنِ اللَّتَيْنِ انْتَهَتْ إِلَيْهِمَا بِلَاغَةُ العَرَبِ

(١) مصاص الشيء: خالصه، أو سره.

وبلاغة الإفرنج، فإذا شَمَسَتْ^(١) إحداهما، وأزور جانبها،
أَغْرَيْتُ بها سلطانَ العقل، فلا يزالُ بها يروضُها كما
يروضُ الراكبُ الصَّغْبَةَ حَتَّى تَسْكُنَ إلى أختها وترتاح إلى
جوارها. ولم تزلْ تلك حالي أَدْخُلُ بَيْنَهُمَا دخولَ المِرْوَدِ
بين الجَفَنِ والجَفَنِ، وأَمْشِي بَيْنَهُمَا مَشْيَةَ الحَكِيمِ في
الصُّلْحِ بين القَوْمِ والقَوْمِ، حَتَّى ائْتَلَفَ الذُّوقَانِ، وامتزج
الرُّوحَانِ، وَضَمَّتْ شَمْسُهُمَا طُفَاوَةً^(٢)، واحتوت بذَرْنِيهما
هالَةً، وَخَلَعَتِ الْأُولَى على الثَّانِيَةِ جلالها، وأعارتها الثَّانِيَةُ
نضارتها وجمالها، وأضَبَحَتْ تلك المباني الإفرنجية بعد
أَنْ صَقَلَهَا اللِّسَانُ الْمُبِينُ وَجَنَدَرَهَا الذُّوقُ الشَّرْقِيُّ وهي
تَسْكُنُ في هذه المباني العربية.

ولم يَقَعْ لِلنَّاطِقِينَ بِالضَّادِ حَتَّى اليَوْمِ شَيْءٌ من
مُؤَلَّفَاتِ ذلك الحَكِيمِ، وَهُمْ أَخَوُجُ النَّاسِ إلى معرفة أسرار
الحياة والانتفاع بمثل ذلك الفِكْرِ الذي كُنْتُ بَيْنَا أَرَاهُ
يُسَابِحُ الْأَجْرَامَ في أَفْلَاكِهَا، إِذَا هُوَ يُدَارِجُ النُّمَالَ في
مَدَائِبِهَا؛ وَبَيْنَا أَلَمَحُهُ بين ذُرُوءِ الْعِلْمِ وَشُرْفَةِ الْقَصْرِ، إِذَا هُوَ
بَيْنَ قَاعِ الْبَحْرِ وَعَفِيقِ النَّهْرِ. فَكَمْ أَفَلَّتْ من هَجِيرَةٍ، وَاخْتَبَأَ

(١) شَمَسَ: امتنع وأبى.

(٢) الطفاوة: الدارة حول الشمس أو القمر.

فِي خَمِيلَةٍ؛ فَمِنْ تَلَهَّبَ جَمْرَةَ الْقَيْظِ فِي صَمِيمِ الْقَائِلَةِ إِلَى
تَرَاوَحِ النَّجْمِ فِي الرُّوضَةِ، وَمِنْ التَّرَدُّدِ بَيْنَ زَفِيرِ الْعَاشِقِ
وَحُرْقَتِهِ إِلَى التَّمَشُّيِ بَيْنَ نَفْسِ الْحَبِيبِ وَرَيْقَتِهِ.

وَلَا يَزَالُ الْكُتَّابُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ يَلْتَمِسُونَ أَنْ يُغْفَلَ
عَنْهُمْ مَا أَلْهِمُوا أَنْ يُدْخِلُوهُ فِي مُؤَلَّفَاتِهِمْ مِنَ الْحِكْمِ
وَالْأَمْثَالِ، فَيَضْدَحُونَ عَنْهَا الشُّرُورَ بِأَقْلَامِهِمْ كَمَا يُضْدَحُ^(١)
الْمَطَرُ، وَيَسْتَهْطِطُونَ الْحِكْمَةَ مِنْ سَمَائِهَا فَيَسْكُنُونَهَا بَيْنَ
سَطُورِهِمْ، وَيَنْشُدُونَ لَذَلِكَ الْأَمْثَالَ فَيَنْشُرُونَهَا فِيمَا يَتَخَيَّرُونَهُ
مِنَ الْأَقَاصِيصِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى الْعِظَةِ وَتَضْفَحُ^(٢) النُّفُوسَ
عَنْ رُكُوبِ سُبُلِ الْغَوَايَةِ.

وَمِنْ تِلْكَ الْأَقَاصِيصِ ذَلِكَ الْكِتَابُ الَّذِي أَعَانِي
تَعْرِيبُهُ الْيَوْمَ، فَلَقَدْ قَصَّ عَلَيْنَا صَاحِبُهُ أَحْسَنَ الْقَصَصِ،
فَكَانَ مَثْلُهُ فِيهِ كَمَا قَالَ عَنْ نَفْسِهِ، مَثَلُ الْمَنْجَمِ الذَّهَبِيِّ لَا

(١) أَخْرَجَهَا مَثَلًا، وَكَانَ مِنْ وَسَاوِسِ الْعَرَبِ إِذَا خَشُوا سَقُوطَ
الْمَطَرِ أَنْ يَغْمَدَ أَحَدُهُمْ إِلَى خَيْمَتِهِ أَوْ عَطْنِهِ فَيُرْسِمُ حَوْلَهَا دَائِرَةً،
وَيَتْلُو رُقِيَّةً يَعْلَمُهَا رَجَاءٌ أَنْ يُخْطِئَ الْمَطَرُ فِي سَقُوطِهِ مَا يَكُونُ
ضِمْنًا تِلْكَ الدَّائِرَةِ. وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الصُّدْحَةُ مِمَّا اسْتَعَانَ بِهِ
الْمُتَنَبِّي عَلَى تَأْيِيدِ دَعْوَاهُ فِي النُّبُوَّةِ.

(٢) صَفَحَهُ عَنْ حَاجَتِهِ: رَدَّهُ.

تَصِلُ الأَيْدِي إِلَى تَبْرِهِ حَتَّى تَكَادُ تُخْصِي ثَرَاهِ عَدًّا.

وقد خَارَ اللَّهُ لِي^(١) أَنْ أُعَرِّبَهُ، فَاسْتَعْنَتْهُ، فَأَعَانَنِي؛
وَاسْتَهْدَيْتُهُ، فَهَدَانِي؛ وَسَلَخْتُ اثْنِي عَشْرَ هِلَالٍ فِي تَعْرِيبِ
تِلْكَ الصَّفَحَاتِ الَّتِي تَرَوْنَهَا الْيَوْمَ. وَحَاوَلْتُ أَنْ أَصِلَ بِهَا
تِلْكَ الرَّجَمَ الَّتِي قَطَعَتْهَا يَدُ التَّرْجَمَةِ التِّجَارِيَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
أَوْلَئِكَ الرِّجَالِ الَّذِينَ تَجَرَّدُوا لِتَعْرِيبِ أُسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ،
فَوَافُوها قَسْطَها مِنَ الْإِتْقَانِ، وَأَلْبَسُوها مِنَ الْبَهْجَةِ لِبَاسًا
تَرْضَاهُ اللُّغَةُ وَيَرْضَاهُ أَبْنَاؤُهَا.

أَرَأَيْتَكَ أَيُّهَا النَّاطِرُ فِي كِتَابِ «كَلِيلَةِ وَدِئْمَةِ»؟ أَكَانَ
يَقُومُ بِنَفْسِكَ وَأَنْتَ تَذُوقُ حُلُوَ تَرْكِيبِهِ، وَتَسْتَمْرِي لَذَّةَ
أُسْلُوبِهِ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْمُقَفَّعِ قَدْ عَرَّبَهُ عَنِ الْفَارِسِيَّةِ لَوْ
لَمْ يَصِلْ خَبْرُ ذَلِكَ إِلَيْكَ؟ فَسُقِيَا لَتِلْكَ الْأَقْلَامِ الَّتِي عَرَّبَتْ
فَاعَرَّبَتْ؛ وَسَطَّرَتْ فَاغْجَبَتْ، وَوَاهَا لِهَذِهِ اللُّغَةِ الَّتِي
أَصْبَحَتْ بَيْنَ أَعْجَمِيٍّ يَنَادِي بِوَأْدِهَا، وَعَرَبِيٍّ يَعْمَلُ عَلَى
كَيْدِهَا.

وَمَنْ نَظَرَ فِي بَطُونِ تِلْكَ الْكُتُبِ الَّتِي تُتَرَجَّمُ الْيَوْمَ
رَأَى هَذِهِ الْغَادَةَ الشَّرْقِيَّةَ وَهِيَ عَلَى فِرَاشِ مَوْتِهَا تَنْدُبُ

(١) يُقَالُ: خَارَ اللَّهُ لَهُ فِي الْأَمْرِ: إِذَا جَعَلَ لَهُ فِيهِ خَيْرًا.

خِذْرًا قَدْ ابْتَدَلَتْهُ الْأَقْلَامُ، وَسِثْرًا قَدْ هَتَكَتْهُ الْأَوْهَامُ؛ وَقَدْ
فَتَحُوا لَهَا فِي بَطُونِ هَذِهِ الْكُتُبِ قُبُورًا، وَخَاطَبُوا لَهَا مِنْ
تِلْكَ الصُّحُفِ أَكْفَانًا، وَهَيَّؤُوا مِنْ هَذِهِ الْأَقْلَامِ أَعْوَادًا. وَمَا
هُوَ إِلَّا أَنْ يُثْنِيَ ذَلِكَ الْغَرْبِيُّ بِدَعْوَتِهِ حَتَّى يَسْرَعَ إِلَى
جَنَازَتِهَا أَهْلُهَا وَذَوْرُ قَرَابَتِهَا.

اللَّهُمَّ أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّنا نَعْلَمُ مَوْضِعَ الدَّاءِ وَفِينَا الطَّيِّبَ
الْمَاهِرَ، وَنَسْمَعُ ذَلِكَ النِّدَاءَ وَمِنَّا الْمَعِينُ النَّاصِرُ؛ اللَّهُمَّ إِنَّ
هَذَا خِذْلَانٍ مِنْكَ فَأَذِرْكُنَا بِرَحْمَتِكَ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
رَشْدًا.

أَيَكُونُ بَيْنَ أَبْنَاءِ اللُّسَانِ الْعَرَبِيِّ مِثْلُ مَنْ أَرَى الْيَوْمَ
مِنْ فُحُولِ الْبَلَاغَةِ وَمُلُوكِ الْكَلَامِ، وَأَنَا أَغْرِفُ مِنْ هَذِهِ
الزُّهُورِ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا غَيْرَ أَسْمَاءٍ مَعْدُودَاتٍ، وَلَا أَكَادُ
أَجِيدُ وَضَفَ قَضَرٍ مِنَ الْقُصُورِ، أَوْ آلَةٍ مِنَ الْآلَاتِ،
وَمُخْتَرَعٍ مِنَ الْمُخْتَرَعَاتِ؛ إِلَّا مَا وَقَعَ تَحْتَ نَظَرِ الْعَرَبِ
فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْجَرْدَاءِ، وَمَا سَمَتْ إِلَيْهِ حَضَارَتُهُمْ فِي
عَهْدِ الدَّوْلَةِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ. أَيُّ رَجُلٍ كَانَ صَاحِبُ كِتَابِ
«الْبُؤْسَاءِ» وَأَيُّ غَيْثِ سِقَاهُ، وَجَوْ حَوَاهُ، حَتَّى أَدْخَلَ فِي
لُغَتِهِ مِنَ الْكَلِمَاتِ مَا يَخْطِئُهُ الْعَدُوُّ، وَوَقَفَ فِي وَجْهِهِ
الْمَعَارِضِينَ فِيهَا وَقْفَةً الْبُسْفُورِ فِي وَجْهِهِ الطَّامِعِينَ فِي هَذِهِ

الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين؟ أو لئست رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما أتى به ذلك الرجل وهو وحيد؟

تباركت أسماؤك اللهم، أيذعي البعير، وهو ذلك المركب الخشن، بهذه الأسماء التي تضيق عنها بطون الكتب، وهذه مراكب البخار والكهرباء لا نكاد نجد لأسمائها مُرادفاً في هذه اللغة، فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربي الذي يقول في وصف عيشه [من الرجز]:

الْأَبْيَضَانِ أَبْرَدَا عِظَامِي

الماء والفت بلا إدام^(١)

وهو فوق راحلة ظالِع^(٢) على قتب يكاد يُذمي عجانه^(٣) تحت شمس تكاد تأكل ظلّها في مفازة.

(١) تقول العرب: الأبيضان عن الماء والفت [أي: الماء والخبز، ويقال أيضاً الأبيضان عن الماء واللبن] والأحمران عن اللحم والخمر.

(٢) ظَلَعَ البعير: غَمَزَ في مِشِيَّتِهِ.

(٣) عجان الرجل: ما تحته.

[البسيط]

تَمْشِي الرِّيحُ بِهَا حَيْرَى مُوَلَّهَةً
حَسْرَى تَلُوذُ بِأَكْنَافِ الْجَلَامِيدِ

إِذَا أَرَدْتَهُ عَلَى أَنْ يَصِفَ تِلْكَ الرَّاحِلَةَ الْعَجْفَاءَ
فَأَرْهَفَ بِالْقَوْلِ، وَسَرَدَ مِنَ الْوَصْفِ مَا يَبْلُغُ حَدَّ الْإِعْجَازِ؛
وَأَرَدْتَنَا عَلَى أَنْ نَصِفَ وَنَحْنُ نَسْتَطِيبُ مِنْ صُتُوفِ الطَّعَامِ
مَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرُ الْخَوَانِ، وَنَتَّبِئُ أَرِيكَ «الْأُتُومْبِيلِ» تَحْتَ
ذَلِكَ الظِّلِّ الظَّلِيلِ، فِي مَخَارِفِ^(١) ضِفَافِ النَّيْلِ، عَلَى
فِرَاشٍ وَثِيرٍ؛ وَمُتَكِّئٍ مِنْ حَرِيرٍ، بَيْنَ نَسِيمِ عَلِيلٍ، وَمَاءِ
سَلْسَبِيلٍ، ذَلِكَ الْمَرْكَبَ الذَّلُولَ الَّذِي لَا تَلْحَقُ بِهِ صَافِنَاتُ
الْخِيُولِ، فَوَقَفْنَا أَمَامَكَ مَوْقِفَ الْحَاثِرِ، لَا نَعْرِفُ لَهُ أَسْمَاءً
يَدُلُّ عَلَى مُسَمَّاهُ، وَلَا مُرَادِفًا فِي اللُّغَةِ يُوَدِّي مَعْنَاهُ.

فَخُذُوا أَيُّهَا الْقَادِرُونَ عَلَى الْإِصْلَاحِ بِيَدِ اللُّغَةِ،
وَأَنْظُرُوا كَمْ أَذْخَلَ فِيهَا آبَاؤُكُمْ الْأَوَّلُونَ مِنْ كَلِمَةٍ فَارْسِيَّةٍ.

وَهَذَا كِتَابُ اللَّهِ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ يَأْذَنُ لَكُمْ بِمَا نَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ،
وَهَذَا بَابُ الْأَشْتِقَاقِ وَبَابُ النَّحْتِ لَا يَزَالَانِ بِحَمْدِ اللَّهِ مَفْتُوحَيْنِ
لَمْ يَصْبِهُمَا مَا أَصَابَ بَابَ الْجِتْهَادِ، فَادْخُلَا مِنْهُمَا آمِنِينَ.

(١) جَمْعُ مَخْرَفَةٍ، وَهِيَ: الْمُتَنَزَّهَةُ.

الشعراء المعاصرون

«لِخَلِيلِ مُطَرَّاتٍ»

إسماعيل باشا صبري (١٢٧٠ - ١٣٤١ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٢٣ م):

أَكْثَرُ مَا يَنْظِمُ فَلِخَطَرَةٍ تَخْطُرُ عَلَى بَالِهِ، مِنْ مِثْلِ
حَادِثَةٍ يَشْهَدُهَا، أَوْ خَبَرٍ ذِي بَالٍ يَسْمَعُهُ، أَوْ كِتَابٍ يُطَالِعُهُ.

وَلَمَّا كَانَ لَا يَنْظِمُ لِلشُّهُرَةِ، بَلْ لِمَجَارَاةِ نَفْسِهِ عَلَى
مَا تَدْعُوهُ إِلَيْهِ، فَالْغَالِبُ فِي أَمْرِهِ أَنَّهُ يَقُولُ الشُّعْرَ مُتَمَشِّيًا،
وَرُبَّمَا قَالَه بِحُضْرَةِ صَدِيقٍ وَهُوَ مَائِلٌ عَنْهُ بِعُنُقِهِ، وَلَهُ بَيْنَ
حِينَ وَحِينَ أَنَّهُ بِمِثْلِ مَا تُنْطِقُ لَفْظَةً إِيَّهِ مُسْتَطْلِيَةً.

يَنْظِمُ الْمَعْنَى الَّذِي يَعْرِضُ لَهُ فِي بَيْتَيْنِ عَادَةً إِلَى
أَرْبَعَةٍ إِلَى سِتَّةٍ، وَقَلَّمَا يَزِيدُ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ إِلَّا حَيْثُ
يَقْصِدُ قَصِيدَةً، وَهُوَ نَادِرٌ.

شَدِيدُ النَّقْدِ لِشُعْرِهِ، كَثِيرُ التَّبْدِيلِ وَالتَّحْوِيلِ فِيهِ، حَتَّى
إِذَا اسْتَقَامَ عَلَى مَا يَرِيدُهُ ذَوْقُهُ مِنْ رِقَّةِ اللَّفْظِ وَفَصَاحَةِ
الْأُسْلُوبِ أَهْمَلَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ.

وَهَكَذَا يَمُرُّ بِهِ الْآنَ بَعْدَ الْآنَ، فَيَجِيشُ فِي صَدْرِهِ
الشُّعْرُ، فَيُرْسِلُ بَيْتَيْهِ إِطْلَاقَ زَوْجِي الطَّائِرِ، فَيَذْهَبَانِ فِي

الفضاء ضارِبِينَ من أَشْطَرِهِمَا بِأَجْنَحَةٍ مُلْتَمِعَةٍ، شَادِيَتَيْنِ عَلَى
تَوْقِيعِ العَرُوضِ إِلَى أَنْ يَتَوَارِيَا وَيَنْقَطِعَ نَعْمُهُمَا مِنْ عَالَمِ
النُّسْيَانِ.

ذلك هو الشُّعْرُ للشُّعْرِ.

أحمد شوقي بك (١٢٨٥ - ١٣٥١ هـ = ١٨٦٨ - ١٩٣٢ م):

يَنْظُمُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَيَكُونُ مَعَهُمْ وَلَيْسَ مَعَهُمْ، وَيَنْظُمُ
فِي الْمَرْكَبَةِ وَفِي السَّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ وَفِي الْمَجْتَمَعِ الرَّسْمِيِّ
وَحِينَ يَشَاءُ وَحَيْثُ يَشَاءُ. وَلَا يَعْرِفُ جَلِيسُهُ أَنَّهُ يَنْظُمُ إِلَّا
إِذَا سَمِعَ مِنْهُ بَادِيَاءَ بَدْءٍ غَمْغَمَةً تُشْبِهُ النَّعَمَ الصَّادِرَ مِنْ
غَوْرٍ بَعِيدٍ، ثُمَّ رَأَى نَاطِرِيهِ وَقَدْ بَرَقَا وَتَوَاتَرَتْ فِيهِمَا حَرَكََةُ
الْمَخَجَرَيْنِ، ثُمَّ بَصَرَ بِهِ وَقَدْ رَفَعَ يَدَهُ إِلَى جَيْبِهِ وَأَمَرَهَا
عَلَيْهِ إِمْرَارًا خَفِيفًا هُنَيْهَةً بَعْدَ هُنَيْهَةٍ.

فإِذَا قَوِطَعَ فِي خِلَالِ النَّظْمِ انْتَقَلَ إِلَى أَيِّ بَحْثٍ
يَبَاحَثُ فِيهِ، حَاضِرَ الذَّهْنِ صَافِيَهُ جَمِيلَ الْبَادِرَةِ كَعَادَتِهِ فِي
الْحَدِيثِ.

ثم إِذَا اسْتَأْنَفَ ذَلِكَ الْمَنْظُومَ وَلَوْ بَعْدَ أَيَّامٍ طَوَالٍ
عَادَ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ لَمْ يَنْقَطِعْ عَنْهُ مُسْتَظْهِرًا مَا تَمَّ مِنْهُ حَافِظًا
لِبَقِيَّةِ الْمَعْنَى الَّذِي يُضْمِرُهُ.

يَكْتُبُ الْقَصِيدَةَ بعد تمامِها، ورُبَّما تَمَّتْ وَنَسِيَهَا
شَهْرًا، ثم ذَكَرَهَا، فَكَتَبَهَا في جَلْسَةٍ واحدة.

يَكْلِفُ أحيانًا بمعارضة المُتَقَدِّمين، ولا يَنْذُرُ عَلَيْهِ أَنْ
يَبْزَهُمْ^(١).

لا يُجْهِدُ فِكْرَهُ ولا يَكْدَهُ في معنى أو في مَبْنَى.

فَأَمَّا الْمَعْنَى، فَيَجِيئُهُ عَلَى مَرَامِهِ أو عَلَى أَبْعَدِ مِنْ
مَرَامِهِ، ولا يَنْضُبُ عِنْدَهُ لِأَنَّهُ يَسْتَخْلِصُهُ مِنْ عَقْلِ فَوَارِ
الذِّكَاءِ ومعارِفِ جامِعَةٍ إلى أَفانين الآدابِ في لُغَاتِ
الإفْرِنج والأَعْرَابِ فلسفَةِ الحُقُوقِ وَحَقائِقِ التَّارِيخِ وَغَرَائِبِ
السِّيَرِ الَّتِي يَحْفَظُ مِنْهَا غَيْرَ يَسِيرٍ، إلى مِشَارِكاتِ عِلْمِيَّةٍ
وَتَنْبِيهاتِ فَنِّيَّةٍ اسْتِفَادَهَا مِنْ مِطالَعَتِهِ في صُنُوفِ الكُتُبِ،
وَأَتَّخَذَهَا عَنْ مَلْحُوظَاتِهِ وَمَسْمُوعَاتِهِ في جَوْلَاتِهِ بَيْنَ بِلَادِ
الشَّرْقِ والغَرْبِ.

وَأَمَّا الْمَبْنَى، فَلَهُ فِيهِ أَذْوَاقٌ مُتَعَدِّدَةٌ بِتَعَدُّدِ مَقَامَاتِ
الْقَوْلِ. تَرى فِيهِ مِنْ نَسِجِ البُخْتَرِيِّ وَمِنْ صِيَاغَةِ أَبِي تَمَّامٍ
وَمِنْ وَثَبَاتِ الْمُتَنَبِّيِّ وَمِنْ مُفَاجَأَاتِ الشَّرِيفِ وَمِنْ مُسَلْسَلَاتِ
مِهْيَارِ.

(١) بَزَهُ: غَلَبَهُ.

وفي المجموع تَجِدُ صِفَةً عَامَّةً لِلنَّظْمِ، وهي أَنَّهُ نَظْمٌ شَوْقِي.

ذلك شِعْرُ الْعَبْقَرِيَّةِ والتَّفُوقِ.

حافظ إبراهيم = [محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس]
(١٢٨٧ - ١٢٥١ هـ = ١٨٧١ - ١٩٣٢ م)

يقولُ الشُّعْرَ في كُلِّ مَكَانٍ يَتَّفِقُ له فيه أَنْ يَخْلُو
بِنَفْسِهِ، ومن عَادَتِهِ دخولُ حَديقَةِ الْأَزْبَكِيَّةِ بعدَ الظَّهْرِ طَلَباً
لِتِلْكَ الْخَلْوَةِ، ولا يَخْتَلِطُ عَلَيْهِ الْفِكْرُ خِلالَ الضَّجِيجِ
الْمَحِيطِ بِهِ.

يَتَعَبُ في قَرْضِ قَرِيضِهِ تَعَبَ النِّحَاتِ الْمَاهِرِ في
استخراجِ مِثَالٍ جَمِيلٍ من حَجَرِهِ.

يُؤَثِّرُ الْجِزَالَةَ عَلَى الرُّقَّةِ، وله فيها آيَاتٌ.

يَطْرُقُ الْمَوْضُوعُ في الْغَالِبِ من جَوْهَرِهِ، وَرُبَّمَا نَظْمٌ
أَكْثَرَ الْأَبْيَاتِ قَبْلَ الْمَطْلَعِ شَأْنَ الصَّانِعِ الْقَدِيرِ الَّذِي يَبْدَأُ
بِأَضْعَفِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ آمِناً أَنْ تَهْنَ عَزِيمَتُهُ دُونَ الْإِجَادَةِ بعدَ
ذَلِكَ، عَالِماً أَنَّ الْكَلَامَ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَهُ في أَيِّ مَقَامٍ طَبِيعاً
ولو بَعْدَ حِينٍ.

حاضِرُ المَحْفُوظِ من أَفْصَحِ أسالِبِ العَرَبِ، يَنْسِجُ
على مِثْوَالِهَا، وَيَتَخَيَّرُ نَفَائِسَ مُفْرَدَاتِهَا وَأَعْلَاقَ حُلَاهَا.

إِذَا صَبَّ الْبَيْتَ فِي قَالِبٍ مِنَ الْعَرُوضِ أَعَادَهُ نَعْمًا
عَلَى سَمْعِهِ مُسْتَشِيرًا بِذَلِكَ ذَوْقَهُ عَنْ طَرِيقِ أَذْنِهِ، وَطَالَمَا
صَدَّقَتْهُ الْأُذُنُ بِنَصِيحَتِهَا. أَمَّا تَغْنِيَةُ فَبَدَوِيٍّ، أَخَذَهُ عَنِ الشَّيْخِ
عَبْدِ الْمُحْسَنِ الْكَاضِمِيِّ، وَطَرِيقَتُهُ أَنْ يَنْطِقَ بِالْكَلِمَاتِ مُلَحَّنَةً
تَلْحِينًا سَادَجًا مِنْ إِطَالَةٍ فِي الْحُرُوفِ الْمُعْتَلَّةِ وَرَجْفَةٍ فِي
الْقَرَارِ كَرَّةً أَرْبَعَةً أَنْفَاسٍ وَتُقْتَضَبُ.

لَهُ غَرَامٌ بِاللَّفْظِ لَا يَقِلُّ عَنِ الْغَرَامِ بِالْمَعْنَى، وَفِي
أَقْصَى ضَمِيرِهِ يُؤَثِّرُ الْبَيْتَ الْمَجَادَّ لَفْظًا عَلَى الْمَجَادِّ مَعْنَى.
فَإِذَا فَاتَهُ الْإِبْتِكَارُ حِينًا فِي التَّصَوُّرِ لَمْ يَفُتْهُ الْإِبْتِكَارُ فِي
التَّصْوِيرِ.

أُولِعَ بِالْاجْتِمَاعِيَّاتِ، فَقَالَ فِيهَا وَأَجَادَ مَا شَاءَ.

كَبِيرُ الْأَمَالِ، عَائِثُ الْجَدِّ، تَجَدُّ عَلَى أَكْثَرِ مَنْظُومِهِ أَثْرًا
مِنْ أَلَمِ النَّفْسِ أَوْ مِسْحَةٍ مِنَ الشُّكُوفِ، وَتَحْمِلُ بَعْضُ
حُرُوفِهِ مِنْ بَثِّهِ مَا يَلْدَعُ لَذَعِ النَّارِ الْكَامِنَةِ فِي غَيْرِ مُتَّقِدٍ.

فَهُوَ عَلَى الْجُمْلَةِ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ هُمْ نَجُومُ الْأَدَبِ

العربي في مِضَرَ لهذا العَصْرِ، ولكلِّ من تلك النجوم
منزلته وإضاءته وأثره الخالد.

أما شِعْرُهُ فشعر البيان، وإنَّ من البيان لِسِحْرًا.

محمود باشا سامي البارودي (١٢٥٥ - ١٣٢٢ هـ = ١٨٣٩ -
١٩٠٤ م):

أدرَكْتُهُ وقد عاد من مَنفاه، وكان أوَّلُ معرفتي به أن
زُرْتُه مصاحبةً لصديقه ومُريدِه الشاعر النائر محمد بك
إبراهيم هلال.

دخلنا عليه وهو في صَدْرِ مَجْلِسِهِ، فحيانا بذلك
اللُّطْفِ الذي كان لا يفارقه الوقار ولا تثبت معه الكُلْفَةُ
وكان لي معه بعد ذلك ودٌّ وعَهْدٌ.

واتَّفَقَ أن جِثَّتْ ذاتَ يَوْمٍ وما بيننا ثالث، فتطارَحنا
الشُّعْرَ، وتباحثنا فيه، ثم اقترَحْتُ عليه بَيْتَيْنِ يَرْتَجِلُهُمَا،
فاستوى يفكر.

استوى ساكناً ساجياً مسنداً ظهره إلى الحائط، وفكَّرَ
غير منقبِضِ المُحَيَّا ولا مُعْنَتِ الملامح، متهللةً سماحةً
وجهِه اللامع بأنوار الزوال بين بَلَجِ لِحْيَتِهِ البِيضَاءِ
المُسْتَدِيرَةِ وَقَمِ الناظِرَتَيْنِ السَّوْدَاوَيْنِ اللَّتَيْنِ تَحْجُبَانِ عَيْنَيْهِ.

مَرَّتْ بِهِ وَبِي دَقِيقَةٌ وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ فِي تَأْمُلِهِ وَأَنَا
مُسْتَرْسِلٌ مَعَ خَاطِرٍ أَخْطَرْتُهُ فِي قَلْبِي رُؤْيَا الرَّجُلِ عَلَى
هَذِهِ الْحَالِ. فَخَيَّلَ لِي أَنِّي لَدَى تَمَثَالٍ مِنْ تِلْكَ التَّمَاثِيلِ
الَّتِي أَقَامَهَا صُنَاعُ الْيُونَانِ لِبَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ حُكَمَائِهِمْ،
وَتَبَدَّلْتُ فِي ذِهْنِي النَّاضِرَتَانِ السُّودَاوَانِ بِالظُّلَيْنِ اللَّذِينَ
يَحِيطَانِ بِالْعَيُونِ الْمُطَبَّقَةِ فِي تِلْكَ التَّمَاثِيلِ.

وَعَادَ إِلَى وَهْمِي اسْتَطْرَاقاً قُوَّةً مَا أَبَدَعُوهُ فِي تِلْكَ
الْأَنْصَابِ حَتَّى أَعَارَوْا بِإِتْقَانِهِمْ أَعْلَامَ الْإِنْسَانِ بَارِقَةً مِنْ
بَوَارِقِ الْأُلُوْهِيَّةِ.

وَبَيْنَمَا أَنَا مُسْتَغْرَقٌ الْحَوَاسِ بِتِلْكَ الذُّكْرَى، إِذْ تَحَرَّكَ
الرَّجُلُ تَحَرُّكٌ مِنْ يَعَالِجُ مَعْنَى مُسْتَضْعَباً، فَتَنَبَّهْتُ تَنَبُّهُ دَهْشَةٍ
كَأَنِّي بِالتَّمَثَالِ وَقَدْ تَحَرَّكَ.

وَفِي تِلْكَ الْوَهْلَةِ تَصَوَّرْتُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنَّ الرَّجُلَ
وَذَلِكَ رَسْمُهُ وَتِلْكَ بَشَرَتُهُ الْبَيْضَاءُ لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ التَّبِعَةِ،
وَقَضَيْتُ عَجَباً لَآيَةِ الْبَيَانِ الَّتِي تَنْتَفِي عِنْدَهَا فُرُوقُ الْأُصُولِ
وَالْفُرُوعِ وَالْإِمْكِنَةِ وَالْأَزْمَانِ.

أَمَّا شِعْرُهُ، فَهُوَ بِجُمْلَتِهِ صِنَاعَةٌ لَا تَنَافَسَ بِقَدِيمٍ أَوْ
حَدِيثٍ مَعَ ابْتِكَارٍ قَلِيلٍ وَإِحْسَاسٍ قِيَاضٍ.

اخْتَارَ لَهُ أَحْسَنَ أُسَالِيبِ الْعَرَبِ وَأَفْصَحَ أَلْفَاظِهِمْ،
وَتَغْنَى بِهَا عَلَى وَحْيِ نَفْسِهِ - وَنَفْسُهُ جَارِيَةُ النَّعْمَةِ وَعَاشِقَةُ
الْإِيْقَاعِ - فَافْتَنَّ حَتَّى أَنْسَى الْفَنَّ وَجَوَّدَ حَتَّى أَذْهَلَ عَنِ
الْمَعْنَى.

فَمَثَلُ قَارِئِهِ مَثَلُ سَامِعِ الْمُنْشِدِ الْبَارِعِ، لَا يَبْتَسِسُ حِينَ
يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ فَهْمُ الْأَلْفَاظِ إِذَا اسْتَمَرَ النَّعْمُ عَلَى نِظَامِهِ
وَإِتْقَانِهِ، بَلْ يَسْتَمِرُّ فِي طَرَبِهِ وَيَتَرَقَّى فِيهِ إِلَى أَنْ يَخْلُقَ
لِنَفْسِهِ سُجُونًا حَيْثُ تَفَوُّتُهُ سُجُونُ الْأَقْوَالِ الْمُنْشَدَةِ.

ذَلِكَ كَانَ مَذْهَبُهُ فِي الشُّعْرِ، وَتِلْكَ غَايَتُهُ مِنْهُ. وَلَا
نَسَى لَهُ فَضْلًا جَدِيرًا بِالذِّكْرِ الْخَاصِّ، وَهُوَ أَنَّهُ أَوَّلُ شِعْرَاءِ
الْبِعْثَةِ الْحَدِيثَةِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَدَّ الدِّيَابِجَةَ إِلَى بَهَائِهَا
وَصَفَائِهَا الْقَدِيمَيْنِ. وَمَا أَبْرَزَ قَرِيبُهُ لِقَرِيبِ جِيلِهِ، فَإِنَّكَ
لَتَجِدُ الْوَاحِدَةَ مِنْ قِصَائِدِهِ ذَاهِبَةً صُعْدًا إِلَى عَهْدِ أَرْقَى
أَزْمَنَةِ الْعَرَبِ، فَهِيَ كَالْجِبَالِ الشَّامِخَةِ وَحَوْلِهَا الْقِصَائِدُ
الْأُخْرَى كَالْأَرْكَانِ الْمُقَامَةِ مِنْ حِجَارَةِ أَطْلَالٍ بَلَا اخْتِبَارٍ وَلَا
نَسَقٍ وَلَا هِنْدَامٍ.

الْخِلَاصَةُ أَنَّ الْمَرْحُومَ الْبَارُودِيَّ كَانَ فِي الطَّبَقَةِ
الْأُولَى بَيْنَ شِعْرَاءِ الْعَرَبِ، وَكَانَ قَلْبُهُ كَلِيفًا بِالنَّعْمَةِ، وَذِهْنُهُ
مُنْصَرِفًا إِلَى الصَّنَاعَةِ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَنْظُومُهُ، وَكَمَا

يُشِيرُ إِلَيْهِ اخْتِيَارُهُ مِنْ أَقْوَالِ الْمُتَفَوِّقِينَ. فَإِنَّهُ لَمْ يَنْتَقِ مِنْهَا إِلَّا كُلَّ مَا حَسُنَ لَفْظًا وَمَعْنَى، أَوْ حَسُنَ لَفْظًا، وَأَهْمَلَ مَا حَسُنَ بِمَعْنَاهُ دُونَ مَبْنَاهُ.

فَشِعْرُهُ إِنَّمَا هُوَ شِعْرُ الصَّنَاعَةِ وَالْإِيقَاعِ.

الشيخ إبراهيم [بن ناصيف] البازجي (١٢٦٣ - ١٣٢٤ هـ = ١٨٤٧ - ١٩٠٦ م)

هو أستاذي بعد المرحوم أخيه الشيخ خليل. قرأت عليه أخريات الصحف في كتب البيان المتداولة يومئذ في المدرسة البطريركية ببيروت، وذلك أن أخاه كان قد أصيب بالعلّة التي مات بها، فحلّ هو محلّه إلى نهاية تلك السنة التي كانت آخر عهدي بطلب العلم في المدرسة.

راعني الشيخ بكمال سيرته ورجاحة عقله وسعة معارفه وإحاطة خبرته بالناس، فلزمته لزوم المتأدّب والمريد زماً طويلاً، ولا أبالغ بقولي: إنه إذا كان الإنسان في ظاهره وباطنه لا يخلو من العيوب، فقد كان الشيخ من أقلّ الناس عيوباً، بل أقول، ولا أبالي عاقبة التصريح على سمعته: إن كلّ ما تمنّيت على الله أن يزيده في

مناقبه ومحامده هو خلة العفو. فلقد كان مُنتَقِماً لِشَرِّهِ
وَشَرِّ بَيْتِهِ، يَنْتَقِمُ مَدَافِعاً لَا مُبَادِئاً، وَإِذَا ضَرَبَ ضَرْبَ
بِتُودَةٍ وَتَبَصَّرَ، نَاطِراً إِلَى الْمُقَاتِلِ، وَقَلَمًا تَصْدِي لِحْضَمٍ إِلَّا
تَرْكُهُ صَرِيحاً أَوْ جَرِيحاً جَرْحاً مُشْفِياً^(١).

على أَنَّهُ لَمْ يَنْبِرْ مَرَّةً لِأَحَدٍ إِلَّا عَنْ عَدْلٍ وَحَقٍّ.

كَانَ لِلشَّيْخِ مَذْهَبٌ عَامٌّ فِي شِعْرِهِ وَنَثَرِهِ وَسَائِرِ مَا
يَتَوَلَّاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْإِتْقَانِ.

لَا يَخْلُقُ جَدِيداً، وَلَكِنَّهُ يُثَقِّنُ مَا يَصْنَعُهُ إِلَى حَدِّ أَنْكَ
تَعْرِوهُ إِلَيْهِ وَتَعْرِفُهُ بِطَابَعِهِ.

وَلِهَذَا لَمْ يَنْظَمْ مُرْتَجِلاً، وَلَمْ يَكْتُبْ إِلَّا مُخْتَفِلاً^(٢).

زُرْتُهُ أحياناً وهو يَصْنَعُ آباءَ الحُرُوفِ المِطْبَعِيَّةِ
الْمُتَدَاوِلَةِ الْآنَ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ، وَكَانَ يَنْحِتُهَا مِنَ الْفُولاذِ.

وَزُرْتُهُ أَيَّاماً وهو يَضْرِبُ الْعُودَ، وَيَضَعُ لِلْأَنْغَامِ
الْعَرَبِيَّةِ عَلَائِمَ خَاصَّةً بِهَا، كَالْعَلَائِمِ الَّتِي تُقْرَأُ بِهَا الْأَنْغَامُ
الْإِفْرَنْجِيَّةُ.

(١) يقال: أَشْفَى المَرِيضُ عَلَى المَوْتِ: إِذَا قَارَبَهُ.

(٢) احْتَفَلَ بِالْأَمْرِ: أَحْسَنَ الْقِيَامَ بِهِ.

وَزُرْتُهُ مِرَاراً وَهُوَ قَدْ فَكَّكَ قَطْعَ سَاعَتِهِ بَعْضُهَا مِنْ
بَعْضٍ لِيُضْلِحَهَا، وَزُرْتُهُ آوَنَةً يَعَالِجُ الرَّسْمَ الشَّمْسِيَّ وَآوَنَةً
أُخْرَى يَرْسُمُ بِالْقَلَمِ الْفَخْمِيَّ صَدِيقاً لَهُ.

وَزُرْتُهُ فِي الْأَكْثَرِ وَهُوَ يَنْظُمُ أَوْ يَنْشُرُ وَاقِفاً تَجَاهِ مِنْصَدَةً -
كَذَلِكَ كَانَ شَأْنُهُ - وَالصَّحِيفَةُ أَمَامَهُ عَلَى دَرَجٍ مَائِلٍ.

فَفِي كُلِّ هَذِهِ الْأَحْوَالِ كُنْتُ أَجِدُهُ عَلَى مِثَالٍ وَاحِدٍ
مِنْ شِدَّةِ التَّفَكِيرِ وَالتَّدْبِيرِ وَبُطْءِ الْحَرَكَةِ وَجُمُودِ الْمَخْجَرَيْنِ
مَعَ غَرَابَةِ السُّطُوعِ فِي إِنْسَانَيْهِمَا، حَتَّى لَتَكَادُ تُخْسُ بِانْبِعَاطِ
الْأَشْيَعَةِ مِنْهُمَا مُتَجَمِّعَةً.

كَانَ أَثْنَاءَ نَظْمِهِ لَا يَتَقَلَّقُ مِنْ مَكَانِهِ لِمُرَاجَعَةِ كِتَابٍ
وَتَحْقِيقِ لَفْظَةٍ، وَالتَّحْقِيقُ خَلَّةٌ لَمْ تَبْلُغْ مِنْ بَاحِثٍ أَوْ عَالِمٍ
مَبْلَغَهَا مِنْهُ.

إِذَا نَظَّمَ الْبَيْتَ خَطَّهُ ذَلِكَ الْخَطُّ الْجَمِيلُ الْمَصُوعُ
صِيَاعَةَ الْجُمَانِ الدَّقِيقِ، وَقَدْ يُقَلِّبُ الصَّحِيفَةَ فِي يَدِهِ كَأَنَّهُ
يُرِيدُ أَنْ يَرَى فِي سِيَاقِ الْبَيْتِ وَاخْتِيَارِ مُفْرَدَاتِهِ مِثْلَمَا يَرَاهُ
مِنْ الْجَمَالِ فِي رَسْمِ حُرُوفِهِ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يُتِمَّ الْقَصِيدَةَ.

فَإِذَا أَتَمَّهَا وَاطَّلَعَتْ عَلَيْهَا، رَأَيْتَ فِيهَا مِنَ الْمَتَانَةِ،
وَوَضْعِ الْكَلِمِ فِي مَوَاضِعِهَا، وَفَصَاحَةِ الْأَسْلُوبِ، وَسَلَامَةِ

التَّرْكِيْب، والجَزَالَة أو الرُّقَة كُلُّ فِي المَكَانَةِ اللَّائِقَةِ لَهَا،
وتَجَافِي الضَّرُورَات، وَتَوْخِي الْمُسْتَحْسِنِ مِنَ الْمَأْلُوفَات؛ مَا
لَا تَجِدُ مِثْلَهُ فِي قِصَائِدِ غَيْرِهِ، وَوَجَدَتْ عَلَى الْجَمْلَةِ وَفِي
التَّفْصِيلِ لِمَعَانِ الصَّقْلِ.

وَأَكْثَرُ مُبْتَكِرِهِ لَفْظِيٌّ، يَفَاجِئُكَ بِالمُفْرَدَةِ التَّمثِيلِيَّةِ أَوْ
بِالعِبَارَةِ التَّصْوِيرِيَّةِ، فَيُرِيكَ أَبْعَدَ مَا يَزِمِي إِلَيْهِ فِكْرُكَ مِنْ
قُضْدِهِ وَيُعْجِبُكَ وَيُبْهَرُكَ.

عَلَى أَنَّهُ أَقَلُّ مِنَ الشُّعْرِ، لِأَنَّ إِبَاءَ نَفْسِهِ حَمَلَهُ مَعَ
الْأَيَّامِ عَلَى التِّيَّارِ الَّذِي دَفَعْتُهُ فِيهِ ابْتِغَاءً لِرِزْقِهِ، وَمَا كَانَ
أَغْنَاهُ لِمَالٍ لَا يُصِيبُهُ جِزَاءٌ وَفَاقًا لِحَقِّهِ.

وَأَصْلَحُ تَسْمِيَةٍ عَامَّةٍ لِشُعْرِهِ فِيمَا أَرَاهُ، هِيَ تَسْمِيَتُهُ
بِشُعْرِ الْإِتْقَانِ.

السيد [محمد] توفيق [بن علي] البكري: (١٢٨٧ - ١٣٥١ هـ =
١٨٧٠ - ١٩٣٢ م):

شَغِفْتُ كُلِّفَ بِالْغَرِيبِ مِنْ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ. أَذْكُرُ أَنَّهُ بَعَثَ
فِي صَبَاهِ إِلَى أَحَدِ كِبَرَاءِ الشَّامِ بِكِتَابٍ مَجَامَلَةٍ فَحَارَ فِي
حَلِّ رُمُوزِهِ، وَجَاءَنِي وَأَنَا يَوْمَئِذٍ فِي الْمَدْرَسَةِ يَسْتَعِينُ عَلَى
فَهْمِ ذَلِكَ الْكِتَابِ، فَاسْتَعْنَا كِلَانَا بِالمُعْجَمِ.

وما زالت هذه حاله إلى الآن، سواء في نشره وفي
شعره. على أن في ذلك عجباً، لأن الشيخ ممن يشاورون،
ولكن يغلب على الظن أن ثقافته الذين يرجع إلى رأيهم
من مثل العلامة الكبير الشنقيطي قديماً وسواء حديثاً، إنما
هم جميعاً من المشايخ الذين يمرُّ بهم العصر بما فيه من
معجزات الماء والنار والكهرباء والنور، وبما يفتن العقول
ويأخذ بالألباب من كل جميل النظام شائق الهدام بديع
التجزؤ والالتئام، كما تمرُّ بالبدوي المقيم في الصحراء
خيالات الجن وطمطمانيتهم في أضغاث الأحلام.

السَّيِّدُ مُقِلُّ، يحولُ الحَوْلُ أو الحولان فيَقْصِدُ
قصيدةً، ومن لطائفه أنه رأى يوماً عيون مَيٍّ في باريس،
ومَيٍّ على ما هو معلوم اسمُ أعرابية بنتِ أعرابية إلى
قحطان من الأسماء التي كان يذكرها شعراء العرب حقيقةً
أو عاريةً.

أما نظمه، فمَتِينٌ، وله فيه نظرات إلى زمانه، لكنَّها
أشبهُ شيءٍ بنظراتِ مُوجَّهةٍ من عهدٍ عهيد^(١) إلى عهد
جديد.

(١) العهد: القديم العتيق.

لَيْسَ لَهُ فِكْرٌ عَامٌّ ثَابِتٌ يَتَّجِهُ إِلَيْهِ، وَلَوْ التَّفَاتَا فِي
أَكْثَرِ مَا يَنْظِمُهُ كَمَا يَلْتَفِتُ حَافِظٌ إِلَى اجْتِمَاعِيَّاتِهِ وَشَوْقِي
إِلَى خُلُقِيَّاتِهِ، فَهُوَ يَقُولُ إِجَابَةً لِدَعَوَاتِ الطَوَارِيءِ، وَيَلْبَسُ
لِكُلِّ حَالَةٍ لَبُوسَهَا.

على إنا إنما أشرنا إلى انتفاء الجامعة التي تُجْمَعُ
وَلَوْ بِصِلَةٍ ضَعِيفَةٍ بَيْنَ أَقْسَامِ شِعْرِهِ لَأَسْبَابٍ، مِنْهَا أَنَّ السَّيِّدَ
شَاعِرٌ مُبَاهٍ بِالشَّاعِرِيَّةِ عَنْ حَقٍّ، وَكَانَ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَحُلَّ
فِي الرُّتَبَةِ الْأُولَى مِنْ شُعْرَاءِ زَمَانِهِ لَوْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مِنْ
زَمَانِهِ، وَلَكِنَّهُ انْتَهَى إِلَى عَصْرِ آخَرَ، فَلَمْ يَبْلُغْ وَلَنْ يَبْلُغْ هُوَ
وَلَا سِوَاهُ أَدْبَاءَ ذَلِكَ الْعَصْرِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ اللَّغَةَ
رَضَاعاً وَفِطَاماً وَعَادَةً يَقْطَعُ وَمَنَامٍ وَعُشْرَةً وَمَعَاشٍ. وَمِنْهَا
أَنَّ السَّيِّدَ طَالَعَ شِعْرَ الْإِفْرَنْجِ وَعَلِمَ مِنْهُ الْمُهَمَّةَ الْعُلْيَا الَّتِي
يَنْتَدِبُ لَهَا الشَّاعِرُ لَا بَيْنَ أُمَّتِهِ مُنْقَرَدَةً بَلْ بَيْنَ الْأُمَمِ جَمْعَاءَ
أَحْيَاناً. وَمِنْهَا أَنَّ سَمَاحَتَهُ أَذْرَى بِأَنَّ الشُّعْرَ فِي بَلَدٍ مَحْتَاجٍ
إِلَى التَّرْبِيَةِ وَالتَّأْدِيبِ كَمِضَرٍّ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا طَوَائِفُ
أَسْطَرٍ تُرْسَمُ مَقْسُومَةً إِلَى أَشْطَرِ فَفَضَّلُ الشَّاعِرِ رَبِّ
الْمَقَاصِدِ وَالْمَعَانِي عَلَى الْوَزَانِ النَّاضِمِ مُقَطَّعِ عَرُوضِ
الْكَلَامِ لَيْسَ بِالْكَبِيرِ. وَهُوَ إِذَنْ بِمَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ
وَالْتَّجِلَّةِ غَيْرِ جَدِيرٍ.

ليسامحننا السَّيِّدُ فِيمَا نَذْكُرُهُ لَهُ، فَمَا هُوَ - يَعْلَمُ اللَّهُ -
قَصْدُ إِحْلَالٍ لَهُ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، بَلْ تَوَسَّلُ إِلَيْهِ - وَفِي طَاقَتِهِ
أَنْ يُجِيبَ - بِالرُّقْيَى وَلَوْ شَقَّ الصَّعُودُ إِلَى الْأَوْجِ الَّذِي مَهَّدَ
لَهُ سَبِيلَهُ مَنْ زَانَ فِطْرَتَهُ بِذَلِكَ الذِّكَاءِ الْبَاهِرِ، وَالْفِكْرِ
الْحَاضِرِ، وَيَسَّرَ لَهُ الْإِطْلَاعَ عَلَى كَثِيرٍ، وَأَغْفَاهُ مِنَ الْمَعَاذِيرِ.

هَذَا، وَلِلْسَيِّدِ مِنَ الْمَقَاطِيعِ الشُّعْرِيَّةِ مَا لَا يَدْعُ فِي
مَعْنَاهُ مَقَالًا لِقَائِلٍ، وَلَا مَجَالًا لَجَائِلٍ؛ فَلَوْ جَارَى فِي كَثِيرِهِ
قَلِيلُهُ لَأُضْبَحَ قُطْبًا مِنْ أَقْطَابِ الزَّمَانِ، فِي الْجَمْعِ بَيْنَ
الْبَلَاغَةِ وَالْبَيَانِ.

أَمَّا وَطَرِيقَتُهُ الْعَامَّةُ مَا وَصَفْنَاهُ، فَالْكَلِمَةُ الَّتِي تَغْلِبُ
فِي وَصْفِ شِعْرِهِ أَنَّهُ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ عَشَرَ الْمَحْمُودِي شِعْرُ
الْبُعْثَةِ الْجَاهِلِيَّةِ.

اللُّغَةُ وَالْعَصْرُ

«لِلشَّيْخِ إِبْرَاهِيمِ الْيَازْجِيِّ»^(١)

لَمْ يَبْقَ فِي أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ وَمُنْتَحَلِي صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ
مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ لَمْ يَشْعُرْ بِمَا صَارَتْ إِلَيْهِ اللُّغَةُ لَعَهْدِنَا

(١) «الشَّيْخِ إِبْرَاهِيمِ [بْنِ نَاصِيفٍ] الْيَازْجِيِّ» [١٢٦٣ - ١٣٢٤ هـ =

الحاضر من التَّقْصِيرِ بِخِدْمَةِ أَهْلِهَا وَالْعُقْمِ بِحَاجَاتِ ذَوِيهَا،
 حَتَّى لَقَدْ ضَاقَتْ مُعْجَمَاتُهَا بِمَطَالِبِ الْكِتَابِ وَالْمُعَرَّبِينَ،
 وَأُضْبَحَتِ الْكِتَابَةُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ ضَرْباً مِنْ شَاقِّ
 التَّكْلِيفِ وَبَاباً مِنْ أَبْوَابِ الْعَنَتِ. وَاللُّغَةُ لَا تَزْدَادُ إِلَّا ضَيْقاً
 بِاتِّسَاعِ مَذَاهِبِ الْحَضَارَةِ وَتَشَعُّبِ طُرُقِ التَّفَنُّنِ فِي
 الْمُخْتَرَعَاتِ وَالْمُسْتَحْدَثَاتِ إِلَى أَنْ كَادَتْ تُنْبِذُ فِي زَوَايَا
 الْإِهْمَالِ، وَتُلْحَقُ بِمَا سَبَقَهَا مِنْ لُغَاتِ الْقُرُونِ الْخَوَالِ؛
 وَمَسَّتِ الضَّرُورَةُ إِلَى تَدَارِكِ مَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنَ الثُّلَمِ قَبْلَ
 تِمَامِ الْعَفَاءِ، وَقَبْلَ أَنْ يَنَادِيَ عَلَيْهَا مُؤَذِّنُ الْعَصْرِ: سُبْحَانَ
 مَنْ تَفَرَّدَ بِالْبَقَاءِ! وَيَخْتِمَ عَلَى مُعْجَمَاتِهَا بِقَصَائِدِ التَّأْيِينِ
 وَالرِّثَاءِ.

تلك هي اللُّغَةُ التي طالما وَصَفَهَا الْوَاصِفُونَ بِأَنَّهَا
 أَغْزَرُ الْأَلْسِنَةِ مَادَّةً، وَأَوْسَعُهَا تَغْبِيرًا، وَأَبْعَدُهَا لِلْأَغْرَاضِ
 مُتَنَاوِلًا، وَأَطْوَعُهَا لِلْمَعَانِي تَضْوِيرًا؛ قَدْ أَفْضَتِ الْيَوْمَ إِلَى
 حَالٍ لَوْ رَامَ الْكَاتِبُ فِيهَا أَنْ يَصِفَ حُجْرَةَ مَنَامِهِ لَمْ يَكْذُ

= هو أكبر عالم نَبَغَ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ، وَاتَّفَقَ لَهُ مَا لَا يَتَيَسَّرُ إِلَّا
 لِقَلِيلٍ مِنَ اللَّغَوِيِّينَ مِنْ قُوَّةِ الْبَيَانِ وَبِرَاعَةِ الْإِنْشَاءِ، فَهُوَ فَخْرُ
 سُورِيَّةٍ خَاصَّةً وَالْعَرَبِ عَامَّةً، وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ أَبْقَاهُ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لَنَالَتْ
 فَوْقَ مَا نَالَتْ عَلَى يَدِهِ خَيْرًا كَثِيرًا.

يَجِدُ فِيهَا مَا يَكْفِيهِ هَذِهِ الْمُؤَوَّنَةُ الْيَسِيرَةُ فَضْلاً عَمَّا وَرَاءَ
 ذَلِكَ مِنْ وَصْفِ قُصُورِ الْمُلُوكِ وَالْكَبَرَاءِ، وَمَنَازِلِ الْمُتَرَفِّينَ
 وَالْأَغْنِيَاءِ، وَشَوَارِعِ الْمُدُنِ الْغَنَاءِ؛ وَمَا ثَمَّ مِنْ آيَةٍ وَأَثَرٍ
 وَمَلْبُوسٍ وَمَفْرُوشٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَاعُونِ
 وَأَدَوَاتِ الزَّيْنَةِ مِمَّا لَا يَجِدُ لِشَيْءٍ مِنْهُ اسماً فِي هَذِهِ اللُّغَةِ،
 وَلَا يَكُونُ حَظُّ الْعَرَبِيِّ مِنْ وَصْفِهِ إِلَّا الْعِيَّ وَالْحَضَرَ وَطَيَّ
 لِسَانِهِ عَلَى مَعَانٍ فِي قَلْبِهِ لَا يَتَسَنَّى لَهُ إِبْرَازُهَا بِالنُّطْقِ وَلَا
 يَجِدُ سَبِيلاً إِلَى تَمْثِيلِهَا بِاللَّفْظِ، كَأَنَّ الْمَقَاطِعَ الَّتِي يُعَبَّرُ بِهَا
 عَنْ هَذِهِ الْمُشَخَّصَاتِ لَمْ يُخْلَقْ لَهَا مَوْضِعٌ بَيْنَ فَكِّهِ،
 وَلَيْسَتْ مِمَّا يَجْرِي بَيْنَ لَهَايَةِ وَشَفَتَيْهِ؛ فَعَادَ كَالْأَبْكَمِ يَرَى
 الْأَشْيَاءَ وَيُمَيِّزُهَا وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهَا إِلَّا بِالْإِشَارَةِ وَلَا
 يَصِفُهَا إِلَّا بِالْإِيمَاءِ.

ويا ليت شِعْرِي! مَا يَصْنَعُ أَحَدُنَا لَوْ دَخَلَ أَحَدُ
 الْمَعَارِضِ الطَّبِيعِيَّةِ أَوْ الصَّنَاعِيَّةِ وَرَأَى مَا ثَمَّةَ مِنَ الْمُسَمَّيَاتِ
 الْعَضْوِيَّةِ وَغَيْرِ الْعَضْوِيَّةِ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ وَضُرُوبِ النَّبَاتِ
 وَصُنُوفِ الْمَعَادِنِ، وَعَايَنَ مَا هُنَاكَ مِنَ الْأَلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ
 وَسَائِرِ أَجْنَاسِ الْمَصْنُوعَاتِ وَمَا تَتَأَلَّفُ مِنْهُ مِنَ الْقِطْعِ
 وَالْأَجْزَاءِ بِمَا لَهَا مِنَ الْهَيْئَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمَنَافِعِ الْمُتَبَايِنَةِ
 وَأَرَادَ الْعِبَارَةَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ.

ثُمَّ مَا هُوَ فاعِلٌ لو أَرَادَ الكلامَ فيما يَحْدُثُ كُلُّ يَوْمٍ
 مِنَ الْمُخْتَرَعَاتِ الْعِلْمِيَّةِ وَالصَّنَاعِيَّةِ وَالْمُكْتَشَفَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ
 وَالْكِيمَاوِيَّةِ وَالْفُنُونِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْيَدَوِيَّةِ وَمَا لِكُلِّ ذَلِكَ مِنْ
 الْأَوْضَاعِ وَالْحُدُودِ وَالْمُضْطَلَحَاتِ الَّتِي لَا تَغَادِرُ جَلِيلًا وَلَا
 دَقِيقًا إِلَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ بِلَفْظِهِ الْمَخْصُوصِ.

لَا رَيْبَ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ ذَلِكَ لَا يَتَحَرَّكُ لَهُ بِهِ لِسَانٌ،
 وَلَا يَعْبُدُ لَهُ بَيْنَ الْأَوَاحِ مُعْجَمَاتِ اللُّغَةِ الْفَاضِلُ يُعَبِّرُ بِهَا
 عَنْهُ، وَلَا يُغْنِيهِ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ مَا عِنْدَهُ مِنْ ثَمَانِينَ أَسْمَاءً
 لِلْعَسَلِ، وَمِثْلِي اسْمٍ لِلخَمْرِ، وَخَمْسَ مِثْلٍ لِلْأَسَدِ، وَأَلْفَ
 لَفْظَةٍ لِلسِّيفِ، وَمِثْلَهَا لِلْبَعِيرِ، وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ لِلذَّاهِيَةِ، وَمَا
 يَفُوتُ الْحَضَرَ لِشَيْءٍ آخَرَ حَرَصَ مُؤَلِّفُ «الْقَامُوسِ» عَلَى
 اسْتِقْصَاءِ الْفَاضِلِ، حَتَّى لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ مَادَّةً إِلَّا وَفِيهَا شَيْءٌ
 يَشِيرُ إِلَيْهِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ.

عَلَى أَنَّ اللُّغَةَ مِرَاةُ أَحْوَالِ الْأُمَّةِ وَصُورَةُ تَمْدُنِهَا
 وَرَسْمُ مُجْتَمَعِهَا وَتَمَثُّلُ أَخْلَاقِهَا وَمِلْكَاتِهَا وَسَجَلُ مَا لَهَا
 مِنْ عُلُومٍ وَصَنَائِعٍ وَأَدَابٍ، وَإِنَّمَا تَضَعُ مِنْهَا عَلَى قَدْرِ مَا
 تَقْتَضِيهِ حَاجَاتُهَا فِي الْخِطَابِ وَمَا يَتَمَثَّلُ فِي خَوَاطِرِهَا أَوْ
 يَقَعُ تَحْتَ حِسِّهَا مِنَ الْمَعَانِي. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَرَبَ وَاضِعِي
 هَذِهِ اللُّغَةِ كَانُوا قَوْمًا أَهْلَ بَادِيَّةٍ، بُيُوتُهُمُ الشَّعْرُ وَالْأَدِيمُ،

وَمَفْرَشُهُمُ الْبَارِيُّ^(١) وَالْبَلَّاسُ^(٢)، وَلِبَاسُهُمُ الْكِسَاءُ وَالرِّدَاءُ،
وَأَثَاثُهُمُ الرَّحَى وَالْقِدْرُ، وَأَنْبِئُهُمُ الْقَعْبُ^(٣) وَالْجَفْنَةُ^(٤)، إِلَى
مَا شَاكَلَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكَادُونَ يَغْدُونَهُ فِي حِلٍّ وَلَا تَرْحَالٍ؛
فَأَيْنَ هُمْ وَمَا نَحْنُ فِيهِ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ اتِّسَاعِ مَذَاهِبِ
الْحَضَارَةِ وَالْأَسْتَبْحَارِ فِي التَّرَفِ وَالْيَسَارِ وَكَثْرَةِ مَا بَيْنَ
أَيْدِينَا مِنْ صَنُوفِ الْمَرَافِقِ وَأَنْوَاعِ الْأَثَاثِ وَالزُّخَارِفِ، وَمَا
نَحْنُ فِيهِ مِنَ التَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِ الْمُجْتَمَعِ وَالْمَعَاشِ، فَضلاً
عَمَّا بَلَغَ إِلَيْهِ أَهْلُ هَذَا الْعَصْرِ مِنَ التَّبَسُّطِ فِي مَنَاحِي الْعِلْمِ
وَالصَّنَاعَةِ مِمَّا كَانَ أَوْلَئِكَ بِمَغْزَلٍ عَنْ جَمِيعِهِ، إِلَّا مَا حَدَثَ
بَعْدَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ اسْتِفْحَالِ الْإِسْلَامِ مِمَّا ذَهَبَ عَنَّا أَكْثَرُهُ،
وَمَا كَانَ فِيهِ لَوْ بَلَغَ إِلَيْنَا إِلَّا غَنَاءٌ قَلِيلٌ؟

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ حَالِ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ، وَضِيقِ مُضْطَرَبِ
الْحَضَارَةِ عِنْدَهُمْ، وَمَا نَجِدُ فِي أَلْفَاظِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ وَالتَّقْصِيرِ
عَنْ حَاجَاتِ هَذَا الزَّمَنِ؛ فَلَا يَتَوَهَّمَنَّ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ ذَلِكَ وَارِدٌ
عَلَى اللُّغَةِ مِنْ هَرَمٍ أَدْرَكَهَا فَقَعَدَ بِهَا عَنْ مَجَارَاةِ الْأَحْوَالِ

(١) [الباري: الحصر المنسوج من القصب].

(٢) [البلاس: البساط من شجر].

(٣) [القعب: القدح الضخم الجافي].

(٤) [الجفنة: القضة].

العصرية، وأناخ بها في ساقه الألسنة الحالية، فإن معنى
 الهرم في اللغة أن يحدث عند المتكلمين بها معانٍ قد
 خلت ألفاظها عنها، ثم تضيق أوضاعها عن إحداث ألفاظ
 تؤدي بها تلك المعاني، فيطرأ على اللغة النقص حيناً بعد
 حين إلى أن تعجز عن أداء أغراض أهلها، ولا تبقى
 صالحة للاستعمال، وحينئذ فلا يبقى إلا أن يلقى حبلها
 على غاربيها، أو يستعان بغيرها على سد ما عرض فيها
 من الخلل بما يغير من ديباجتها ويُنكر أسلوب وضعها،
 حتى تبدل هيناتها على الزمن، وتصير على الجملة لغة
 أخرى، وليس بمنكر أن ما وصفناه من هذه الحال يشبه
 في بادئ الرأي ما نشاهد من حال لغتنا اليوم وما لم
 نزل نعاها عليها منذ حين من تقصيرها عن الوفاء بمطالبنا
 العصرية، إلا أن ذلك إذا استقرت أوجه وأسبابه،
 وسبرت غور اللغة في نفسها، وقست مبلغ استعدادها؛
 علمت أنه ليس منها من شيء، وأيقنت أنها لا تزال في
 ريعان شبابها وطور ترغريها، وإن فيها بقية صالحة لأن
 تجاري أوسع اللغات وأكثرها مادة، ولكن ما أدركها من
 ذلك وارد من قبل الأمة وتخلّفها في حلبة الحضارة
 والمدنية، إذ اللغة بأهلها، تشب بشبابهم، وتهرم بهرمهم؛

وَإِنَّمَا هِيَ عِبَارَةٌ عَمَّا يَتَدَاوَلُونَهُ بَيْنَهُمْ، لَا تَعْدُو أَلْسِنَتُهُمْ مَا فِي خَوَاطِرِهِمْ، وَلَا تُمَثِّلُ أَلْفَاظُهُمْ إِلَّا صُورَ مَا فِي أَذْهَانِهِمْ. وَبِدِيهِي أَنَّ اللُّغَةَ لَمْ تُوضَعْ دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَإِنَّمَا كَانَ يُوضَعُ مِنْهَا الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ عَلَى قَدْرِ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ حَاجَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ بِهَا، وَقَدْ اخْتَصَّتْ هَذِهِ اللُّغَةُ بِمَزِيَّةٍ عَزَّ أَنْ تُوجَدَ فِي غَيْرِهَا، وَهِيَ أَنَّ أَكْثَرَ أَلْفَاظِهَا مَأْخُودَةً بِالِاشْتِقَاقِ اللَّفْظِيِّ أَوْ الْمَعْنَوِيِّ، بِحَيْثُ صَارَتْ إِلَى مَا صَارَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِتْسَاعِ الَّذِي لَا تَكَادُ تُضَاهِيهَا فِيهِ لُغَةٌ عَلَى كَوْنِهَا مِنْ أَقَلِّ اللُّغَاتِ أَوْضَاعًا، إِلَّا أَنَّهَا مِنْ أَكْثَرِهِنَّ صِيغًا وَأَبْنِيَّةً، وَهُوَ السَّرُّ فِي قَبُولِهَا هَذَا الْإِتْسَاعَ الْعَجِيبَ، فَضْلًا عَمَّا فِيهَا مِنْ تَشَعُّبِ طُرُقِ الْمَجَازِ عَلَى مَا سَنَعُودُ إِلَى بَيَانِهِ بِالتَّفْصِيلِ.

وَأَعْتَبِرْ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ بِالرُّجُوعِ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ اللُّغَةُ زَمَنَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَمَقَابِلَتِهَا بِمَا بَلَغَتْ إِلَيْهِ عَلَى عَهْدِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ بَعْدَ سُكُونِ الْغَارَاتِ وَاسْتِثْبَابِ الْفُتُوحِ وَتَنْبُهِ الْأُمَّةِ لِطَلَبِ الْعُلُومِ وَتَبَسُّطِهَا فِي الْفُنُونِ وَالْحَضَارَةِ بِحَيْثُ خَرَجُوا بِهَا مِنْ حَالِ الْخُسُوفَةِ الْبَدَوِيَّةِ إِلَى أَبْعَدِ مَذَاهِبِ الْمَدَنِيَّةِ الشَّائِعَةِ لِعَهْدِهِمْ ذَاكَ، لَمْ يَكَادُوا يُدْخِلُونَ فِيهَا لَفْظًا أَعْجَمِيًّا، وَلَا أَضْطَرُّوا

فِيهَا إِلَى وَضْعٍ جَدِيدٍ، وَلَكِنَّهَا خَدَمَتْهُمْ بِنَفْسِ أَوْضَاعِهَا
الَّتِي وَضَعَتْهَا الْعَرَبُ، فَاشْتَقُّوا مِنْهَا مَا لَا عَهْدَ بِهِ لِلْعَرَبِ
عَلَى وَجْهِهِ الَّذِي نَقَلُوهُ إِلَيْهِ، وَلَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَضْلاً، حَتَّى
أَحَاطُوا بِصِنَاعَةِ الْفُرسِ وَعُلُومِ الْيُونَانِ، وَأَذْخَلُوا كَثِيراً مِنْ
مُضْطَلَحَاتِ الْأُمَمِ الَّتِي اجْتَاخُوهَا شَرْقاً وَغَرْباً، وَزَادُوا عَلَى
ذَلِكَ كُلِّهِ مَا اسْتَنْبَطُوهُ بَأَنْفُسِهِمْ، وَاللُّغَةُ مَشَايِعَةٌ لَهُمْ فِي كُلِّ
مَا أَخَذُوا فِيهِ، لَمْ تَنْضُبْ مَوَارِدُهَا دُونَهُمْ، وَلَا رَأَيْنَا مَنْ
شَكَا مِنْهُمْ عَجْزاً وَلَا تَقْصِيراً، إِلَى أَنْ أَدْرَكَهُمْ مَنْ تَبَدَّلَ
الْأَطْوَارِ وَغَارَاتِ الْأَقْدَارِ مَا وَقَفَ بِهِمْ عِنْدَ ذَلِكَ الْحَدِّ،
فَوَقَفَتِ اللَّغَةُ عِنْدَ مَا نَرَاهُ فِيهَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ كُتُبِهِمْ.

وَتَوَالَى الْأَجْتِيَا حُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الْأُمَّةِ وَتَتَابَعَتْ
دَوَاعِي الدَّمَارِ حَتَّى أَنْدَرَسَتْ أَغْلَامُ حَضَارَتِهَا وَذَهَبَتْ
عُلُومُهَا أَذْرَاجَ الرِّيَّاحِ، فَزَالَ أَكْثَرُ اللَّغَةِ مِنْ أَلْسِنَتِهَا بِزَوَالِ
مَعَانِيهَا، حَتَّى صَارَ الْمَوْجُودُ مِنْهَا الْيَوْمَ لَا يَقُومُ بِخِدْمَةِ أُمَّةٍ
مُتَمَدِّنَةٍ وَلَا هُوَ أَهْلٌ لِأَنْ يَبْلُغَ بِهِ مَا مَنْزِلَتُهُ تِلْكَ. وَلِذَلِكَ
فَإِنْ كَانَ ثَمَّةَ هَرَمٍ فَإِنَّمَا هُوَ فِي الْأُمَّةِ لَا فِي اللَّغَةِ، لِأَنَّ مَا
عَرَضَ لَهَا مِنَ الْهَجْرِ وَالْإِهْمَالِ غَيْرٌ لَاحِقٍ بِهَا وَلَا مُلْحِقٍ
بِهَا وَهْنًا وَلَا عَجْزاً، وَإِنَّمَا هُوَ عَجْزٌ فِي أَلْسِنَةِ الْأُمَّةِ
وَمَدَارِكِهَا وَتَأَخَّرٌ فِي أَحْوَالِهَا وَاسْتِعْدَادِهَا، وَلَوْ صَادَقَتْ مَنْ

أهلها البقاء على عهد أسلافهم من السغي في سبل الحضارة وتوسيع نطاق العلم لم تقصّر عن مشايعتهم في كل ما فاتهم من الأطوار حتى تبلغ بهم إلى مجارة العصر الحاضر.

ولقد أتى على اللغة مئات من السنين بعد ذلك لم يزد فيها حرف، بل لم يكذ يحفظ منها ما يزيد على الحوائج البيئية والسوقية على تناقص هذه الحوائج وتراجع عددها يوماً بعد يوم بما طرأ على أهلها من الضغط والفاقة وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلص العمران وذهاب الحضارة من بينهم، حتى عادت حوائج كثير من أهل المدن الحافلة لا تكاد تتعدى حوائج البدوي والآكار، وما دامت المعاني التي يعبر عنها باللغة معدومة فلا سبيل إلى بقاء الألفاظ الدالة عليها، إذ اللفظ إنما يتخذ للعبارة عن الخواطر التي في النفس، فلا يكون إلا على قدرها بالضرورة. وزاد على ذلك كله ذهاب ما كتب المتقدمون، بعضه بالإخراق، كما تم في مكتبة قرطبة، وكأن هذا في مقابلة ما وقع من مثله بالإسكندرية وفارس... وبعضه بالاجتياح والنهب، فلا بقي في مكانه فينتفع به المتأخر، ولا احتفظ به الذي نهبه لجهله قيمته،

وَبَقِيَ الشَّيْءُ الْيَسِيرُ، نَجِدُهُ الْيَوْمَ فِي مَكَاتِبِ الْأَعَاجِمِ،
وَأَكْثَرُهُ مِمَّا أَشْتَرِي مِنْ أَيْدِينَا بِالذَّهَبِ... فَلَا غَزْوَ إِنْ نَشَأَ
عَنْ تِلْكَ الْأَحْوَالِ كُلِّهَا ذَهَابُ هَذِهِ اللُّغَةِ مِنَ أَلْسِنَةِ
الْأَغْقَابِ، حَتَّى لَوْ رَامَ أَحَدُنَا إِثَارَةَ دَفَائِنِهَا وَتَعَهَّدَهَا
بِالتَّجْدِيدِ وَالْإِحْيَاءِ لَمَا وَجَدَ مِنْهَا فِي الْبِلَادِ إِلَّا الشَّيْءَ النَّزَرَ
لَا يَغْدُو فِي الْغَالِبِ عُلُومَ الدِّينِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِمَّا لَمْ
يَكَدْ أَهْلُ بِلَادِنَا يَحَافِظُونَ عَلَى سِوَاهُ.

عَلَى أَنَّكَ لَوْ طُفَّتِ الْيَوْمَ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْبِلَادِ الَّتِي
كَانَتْ مَبَاءَةً لِلْعَرَبِ وَمَعْرِضاً لِحَضَارَتِهِمْ وَفُتُونِهِمْ، لَمْ تَكَدْ
تَجِدُ مَوْضِعاً تَتَوَسَّمُ فِيهِ آثَارَ ذَلِكَ الْقَدِيمِ سِوَى الدِّيارِ
الْمِصْرِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَوْدَعُ ذَخَائِرِ السَّلَفِ وَمَجْمَعُ شَمْلِ
عُلُومِهِمْ فِي شَمْلِ بَقَايَاهُمْ، وَالَّتِي إِنْ كَانَ قَدْ كُتِبَ لِهَذِهِ
اللُّغَةِ أَنْ تَسْتَأْنِفَ الْبَقَاءَ مُدَّةً أُخْرَى، فَإِنَّ مَبْعَثَهَا إِنَّمَا يَكُونُ
مِنْ نَاحِيَّتِهَا، وَعَلَى أَيْدِي رِجَالِهَا، وَإِنْ سَبَقَهُمْ إِلَى إِحْيَاءِ
رُسُومِهَا بَعْضُ الْمَجَاوِرِينَ لَهُمْ مِمَّنْ أَضْطَبَغُوا صِبْغَةَ الْعَرَبِ
وَلَيْسُوا مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ، وَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يُغْنَى بِالْأَمْرِ
لِضَرُورَةِ أَخْوَجَتِهِ إِلَيْهِ وَمَنْ تَكُونُ فَايِدَتُهُ لَهُ وَخُسْرَانُهُ عَلَيْهِ.

وَقَدْ كَانَ عُقْدَ فِي هَذِهِ الْعَاصِمَةِ، أَغْنَى مَدِينَةَ
الْقَاهِرَةَ، مُجْتَمَعٌ لُغَوِيٌّ تَطَالَتْ إِلَيْهِ أَغْنَاقُ النَّاطِقِينَ بِالضَّادِ

مِنْ جَمِيعِ الْآفَاقِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَوَقَّعَ الْمُتَأَدِّبُونَ مِنْهُ فَوَائِدَ جَمَّةٍ
 لَمْ تَبْرَحِ النُّفُوسُ مُتَطَلِّعَةً إِلَيْهِ وَالْأُمَانِيُّ مَعْقُودَةً عَلَيْهِ،
 فَاعْتَرَضَ دُونَ تِلْكَ الثَّمَرَاتِ مَا عُهِدَ فِي أَهْلِ الشَّرْقِ عَامَّةً
 وَالْمِصْرِيِّينَ خَاصَّةً مِنْ وَنَاءِ الْهِمَمِ وَتَخَلُّفِ الثَّبَاتِ، عَلَى
 حِينٍ لَمْ يَجْزُوا فِي هَذَا الشُّوْطِ إِلَّا خُطَوَاتِ يَسِيرَةٍ أَبَانُوا
 فِيهَا عَنْ رَأْيِ فَطِيرٍ وَبِضَاعَةِ مُزْجَاةٍ، وَصَدَرَتْ الْأَمَالُ عَنْهُمْ
 كَمَا وَرَدَتْ، لَمْ تَظْفَرْ مِنْهَا بِبِلَّةٍ، بَلْ تَجَرَّعَتْ مِنَ الْيَأْسِ مَا
 زَادَهَا عَلَى غُلَّتِهَا غُلَّةً.

وَلَا بَأْسَ أَنْ نُلِمَّ فِي هَذَا الْمَقَامِ بِطَرَفٍ مِنْ تَارِيخِ
 هَذَا الْمُجْتَمَعِ وَالْكَشْفِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِ بَيَانًا لِلْغَايَةِ
 الَّتِي جَعَلُوهَا نُصَبَ أَبْصَارِهِمْ وَاسْتَنْهَضُوا لَهَا هِمَمَهُمْ، ثُمَّ
 الْمَبْلَغَ الَّذِي أَذْرَكُوهُ مِنْ ذَلِكَ وَالْأَمَدَ الَّذِي اسْتَوْلُوا عَلَيْهِ
 مِنْهُ، لَا نَرِيدُ بِذَلِكَ تَسْوِئَةً لَهُمْ وَلَا غَضًّا مِنْهُمْ، وَلَكِنْ
 الْإِشَارَةَ إِلَى أَوْجِهِ التَّقْصِيرِ فِيمَا هَمُّوا بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ
 الْخَطِيرِ وَالْبَحْثِ فِي الْخُطَةِ الَّتِي يَنْبَغِي سُلُوكُهَا لِلْوُصُولِ
 إِلَى الْمَقْصَدِ الَّذِي تَمَثَّلَ لَهُمْ بَعْدَمَا أَوْضَحْنَا مِنَ الْحَاجَةِ
 الْمَاسَّةِ إِلَيْهِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْفَوَائِدِ الَّتِي أَيْسَرُهَا تَدَارُكُ
 اللُّغَةِ، مِنَ السَّقُوطِ وَلِحَاقِهَا بِلُغَاتِ الْغَايِرِينَ.

لَا جَرَمَ أَنَّ الْأُمُورَ إِنَّمَا تَسْتَيْبُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ الْعَمَلِ،

والحازمُ مَنْ إِذَا هَمَّ بِمَفْعُولٍ نَظَرَ فِي غَايَاتِهِ قَبْلَ مَبَادِيهِ
حَتَّى يَكُونَ مَدْخَلُهُ فِيهِ سَدِيداً وَمَخْرَجُهُ مِنْهُ حَمِيداً. فَأَوَّلُ
مَا يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ فِي أَمْرِ هَذَا الْمُجْتَمَعِ أَنَّهُمْ حَصَرُوا
اِنتِخَابِ الْمُشْتَغَلِينَ بِهِ فِي عِدَادِ رِجَالِ مِصْرَ، وَحَظَرُوا أَنْ
يُشَارِكَهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ مِنْ سَائِرِ النَّاطِقِينَ بِهَذَا اللِّسَانِ، وَهُوَ
أَمْرٌ قَدْ خَفِيَ عَلَيْنَا وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِيهِ، بَلْ لَمْ نَجِدْ لَهُمْ
عُذْراً يُخْرِجُهُمْ مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَيْهِ. فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ
مَزِيدِ اعْتِدَادِ بَأَنفُسِهِمْ فِي كِفَايَةِ هَذَا الْأَمْرِ حَتَّى أَذَاهُمْ إِلَى
تَرْكِ الْأَعْتِدَادِ بِغَيْرِهِمْ، فَهِيَ السَّوْءَةُ الَّتِي لَا يَسْتُرُهَا إِحْسَانٌ
وَلَا يَشْفَعُ فِيهَا فَضْلٌ وَلَا مَزِيَّةٌ، بَلْ هِيَ السَّقَطَةُ الَّتِي تَقْضِي
وَحْدَهَا عَلَى عَمَلِهِمْ بِالْحُبُوطِ وَمَسَاعِيهِمْ بِالْإِخْفَاقِ. وَذَلِكَ
أَنَّ مَا عَقَدُوا الْعَزْمَ عَلَى إِخْدَائِهِ فِي هَذَا الْمُجْتَمَعِ مِنْ
الزِّيَادَةِ وَالتَّبْدِيلِ فِي أَلْفَاظِ اللُّغَةِ أَمْرٌ لَا يَسْتَتِبُ نَفْعُهُ وَلَا
تَتَحَقَّقُ ثَمَرَتُهُ إِلَّا بِأَنْ يَعَمَّ اسْتِعْمَالُهُ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ بِهَا
وَتَتَدَاوَلُهُ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَقْلَامُهُمْ، حَتَّى يُلْحِقُوهُ بِأَصْلِ اللُّغَةِ،
وَيَعْتَبِرُوهُ فِي جُمْلَةِ أَوْضَاعِهَا. وَعَلَى ذَلِكَ، فَمَنْ لَمْ يَدْعُوهُ
مِنْ أَوْلَىكَ إِلَى مُشَارَكَتِهِمْ فِي الرَّأْيِ وَمُشَاطَرَتِهِمْ وَجْهَ
الْحُكْمِ، فَقَدْ دَعَا بِلِسَانِ حَالِهِمْ إِلَى مُتَابَعَتِهِمْ فِيمَا يَرَوْنَ

وَالنُّزُولِ عَلَى مَا يَحْكُمُونَ، وَذَلِكَ أَمْرٌ وَلَا سُلْطَةٌ تَغْضُدُهُ
لَا يَتَسَنَّى إِلَّا بِرِضَى مَنْ يَدْعُوهُ إِلَيْهِ وَارْتِيَا حِإِ إِلَى
مَوَافَقَتِهِمْ عَلَيْهِ، وَهَيْهَاتَ أَنْ يَرْضَى بِذَلِكَ مِنْهُمْ، وَهُمْ قَدْ
جَعَلُوا بِرِيدَهُمْ إِلَيْهِ مَا عَلِمْتَ مِنَ الِاسْتِخْفَافِ وَالِازْدِهَاءِ.
وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ طَلَبًا لِلْآثَرَةِ وَالِانْفِرَادِ بِالْمَزِيَّةِ عَلَى غَيْرِهِمْ،
فَهُوَ أَمْرٌ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ أَيْضًا، وَلَيْسَ مِنَ النِّصْفَةِ وَلَا السَّدَادِ
فِي شَيْءٍ.

وَذَلِكَ، أَمَّا أَوَّلًا: فَلَأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ الَّذِي اجْتَمَعُوا
عَلَيْهِ مِنْ شُؤْنٍ مِضْرَ الْخَاصَّةِ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ لِأَحَدٍ
حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ وَلَا حَقُّ الْمُطَالَبَةِ بِالْدُخُولِ مَعَهُمْ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ
مِنَ الْأُمُورِ الشَّائِعَةِ بَيْنَ جَمِيعِ الْأُمَّةِ عَلَى السَّوَاءِ، لَيْسَ
بَغْضُهَا أَحَقُّ بِهِ مِنْ بَغْضِ، فَانْفِرَادُهُمْ بِهِ دُونَ سَائِرِهَا
اسْتِبْدَادٌ لَا وَجْهَ لَهُ وَدَاعٍ إِلَى الْمُنَافَسَةِ وَالتَّخَاذُلِ وَنَقْضِ
عُرْوَةِ الْوِثَامِ.

وَأَمَّا ثَانِيًا: فَلَأَنَّ مَدَارَ الْعَمَلِ عَلَى سَدِّ مَا طَرَأَ عَلَى
اللُّغَةِ مِنَ النِّقْصِ وَوَضْعِ الْفَافِ بِإِزَاءِ الْمَعَانِي الَّتِي حَدَّثَتْ
فِي الْأَغْصِرِ الْمُتَأَخَّرَةِ، وَهُنَاكَ مِنَ الْأَوْضَاعِ وَالْمُضْطَلَّحَاتِ
مَا لَوْ جُمِعَتْ مُفْرَدَاتُهُ فِي كُلِّ فَنٍّ لَبَلَّغْتَ أَنْ تَكُونَ

مُجَلَّدَاتٍ كَثِيرَةً. وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي لَا يَضْطَلِعُ بِهَا إِلَّا الْعَدَدُ الْعَدِيدُ فِي الزَّمَنِ الْمَدِيدِ مِمَّا يَدْعُو إِلَى تَضَافُرِ الْأَيْدِي وَالِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْعَامِلِينَ مَعَ مُوَاصَلَةِ الْجِدِّ وَإِذْمَانِ الْإِسْتِغَالِ، ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ رُبَّمَا أَتَى عَلَيْنَا قَرْنٌ بِتَمَامِهِ وَلَمْ نَبْلُغْ آخِرَهُ، بَلْ كَيْفَ نَبْلُغُهُ وَنَحْنُ لَا نُفْضِي إِلَى ذَلِكَ الزَّمَنِ حَتَّى يَكُونَ قَدْ حَدَثَ مِنْ تِلْكَ الْأَوْضَاعِ أَضْعَافُ الْمَوْجُودِ الْآنَ.

وَبَعْدُ، فَإِنَّ نَقْلَ هَذِهِ الْأَوْضَاعِ إِلَى لُغَتِنَا لَا يَكْفِي فِيهِ الْعِلْمُ بِقَوَائِنِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِحَاطَةُ بِالْأَفَاطِ مِنْهَا نَسْتَظْهِرُهَا مِنْ بَطُونِ الدَّفَاتِيرِ، بَلْ مِنْ مُقْتَضَاهُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ الْمُشْتَغَلِينَ بِهِ مِنَ الْعَارِفِينَ بِاللُّغَاتِ الْمَنْقُولِ عَنْهَا وَالْمُطَّلِعِينَ عَلَى عُلُومِ أَرْبَابِهَا وَصَنَائِعِهِمْ وَسَائِرِ فُنُونِهِمْ لِيَكُونُوا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ مَوَاضِعِ النِّقْصِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا وَتَحْقِيقِ الْمَعَانِي الَّتِي يَتَّبِعِي وَضْعُ أَفَاطِ لَهَا، مِمَّا يُؤَدِّي بِهِ الْمَقْصُودُ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَيْسَ فِي مِضَرٍّ وَخِذْهَا مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ إِلَّا رِجَالٌ مَعْدُودُونَ لَا نَحْسَبُهُمْ إِنْ كَانُوا قَدْ جَعَلُوا لَهُمْ مَكَانًا مِنْ هَذَا الْعَمَلِ كَافِينَ لِلِاضْطِلَاعِ بِهِ عَلَى طَوْلِهِ وَاتِّسَاعِهِ وَعَلَى مَا يَقْتَضِيهِ مِنَ التَّفَرُّغِ وَإِذْمَانِ النَّظَرِ. فَقَدْ كَانُوا وَالْحَالَةُ هَذِهِ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَى أَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي كُلِّ قِطْرِ أَنْاسٍ مِنْ

أمثال أولئك يُوازِرُونَهُمْ فِي الْعَمَلِ وَيَكُونُونَ أَغْوَانًا لَهُمْ
 عَلَى النُّجَحِ، وَكَانَ يَبْقَى لَهُمْ مِنَ الْمَرْيَةِ الَّتِي حَرَصُوا عَلَيْهَا
 أَنَّهُمْ هُمُ الشَّارِعُونَ فِي تَأْسِيسِ هَذَا الْمُجْتَمَعِ وَالِدَاعُونَ
 إِلَيْهِ، وَأَنَّ أَرْضَهُمْ مُلْتَقَى أَشْعَتِهِ وَمُنْبَثِقُ أَنْوَارِهِ، وَهَذَا كَافٍ
 فِي بَابِ الْأَثَرِ، وَهُوَ مِمَّا لَا يَنْقُصُهُ عَلَيْهِمْ مَنَافِسٌ. وَبِالتَّالِي
 فَإِنَّهُمْ لَوْ نَظَرُوا نَظْرَةً فِي التَّارِيخِ لَأَرْتَهُمْ مِثَالَ مَا هُمْ فِيهِ
 بِمَا يُسْفِرُ لَهُمْ عَنْ وَجْهِ الرَّأْيِ وَيَنْهَجُ لَهُمْ سَبِيلَ الْعَمَلِ، إِذْ
 لَيْسَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ، عَبَرَ فِيهَا عَلَى الْأُمَّةِ مِثْلُ ذَلِكَ
 وَدَعَتِ الْحَالُ إِلَى الْإِحْدَاثِ فِي اللُّغَةِ وَإِدْخَالِ شَيْءٍ جَدِيدٍ
 بَيْنَ أَهْلِهَا. فَكُلُّ يَعْزَمُ مَا فَعَلَ الْمَأْمُونُ حِينَ عَرَبَ كُتُبَ
 الْيُونَانِ وَالْفُرْسِ وَالسَّرِّيَانِ فِي الطَّبِّ وَالْحِكْمَةِ وَالْعُلُومِ
 الطَّبِيعِيَّةِ وَالرِّيَاضِيَّةِ وَغَيْرِهَا، فَإِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِي الْأُمَّةِ مَنْ
 يَضْطَلِعُ بِاسْتِخْرَاجِ هَذِهِ الْكُتُبِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ لَمْ يَتَوَقَّفَ عَنْ
 اسْتِذْعَاءِ قَوْمٍ مِنْ نَسَاطِرَةِ الْعَجَمِ لِيَتَوَلَّوْا لَهُ نَقْلَهَا، لَمْ
 يَسْتَنْكِفْ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَنْفَ مَنْ يَبَايِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ
 حَشَدَهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ، وَنَاهِيكَ بِهِمْ مَنْ كَانُوا أَنْ
 يُشَارِكُوهُمْ فِي الْعَمَلِ. وَقَدْ أَقْرَدَ لَهُمْ مَكَانًا فِي بِلَاطِهِ وَوَزَّعَ
 تِلْكَ الْأَعْمَالَ بَيْنَهُمْ عَلَى مَا يُخْسِنُهُ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ
 جَعَلَ لَهُمْ يَوْمًا فِي الْأُسْبُوعِ يَجْتَمِعُونَ فِيهِ وَتُعْرَضُ أَعْمَالُ

المُعَرَّبِينَ عَلَى عُلَمَاءِ اللُّغَةِ، فَيَقْرُونَ مِنْهَا مَا وَجَدُوهُ سَدِيداً، وَيَنْظُرُونَ فِي غَيْرِهِ مِمَّا لَمْ يَقَعِ الْمُعَرَّبُونَ عَلَى وَجْهِهِ فَيُصَحِّحُونَهُ.

أَمَّا مَا كَانَ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا الْمُجْتَمَعِ، فَزُبْدَةُ مَا اتَّصَلَ بِهَا أَنَّهُمْ عَقَدُوا سِتَّ أَوْ سَبْعِ جُلُوسَاتٍ اسْتَحْدَثُوا فِيهَا عِشْرِينَ لَفْظَةً بِإِزَاءِ عِشْرِينَ كَلِمَةً مِنَ الْأَلْفَاظِ الْأَعْجَمِيَّةِ، وَلَا بَأْسَ أَنْ نَذْكُرَ بَعْضَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ تَتِمَّةً لِسِيَاقَةِ الْبَحْثِ.

فَمِنْهَا قَوْلُهُمْ: «مَرَحَى»، و«أَيْحَى» فِي مَكَانِ «بَرَاخُو» Bravo، «وَبَرَحَى» فِي مَكَانِ «فِي Fi»، وَهِيَ كَلِمَاتٌ تُقَالُ الْأُولَيَانِ مِنْهَا لِمَنْ أَصَابَ الْمَرْمَى وَالثَّالِثَةُ لِمَنْ أَخْطَأَهُ، فَنَقَلُوهَا إِلَى مُطْلَقِ مَعْنَى الْإِسْتِحْسَانِ أَوْ الْإِسْتِهْجَانِ، وَقَدْ تَكَلَّفُوا فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ عَلَى مَا نَرَى «وَأَبْعَدُوا الْمَرْمَى» بِمَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، لِوُجُودِ كَثِيرٍ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ مِنْ مَشْهُورِ اللَّفْظِ وَمَأْنُوسِهِ يُغْنِي عَنْهُ اجْتِلَابُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَنَقَلُوهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا. فَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي الْإِسْتِحْسَانِ: أَحْسَنْتَ، وَأَجَدْتَ، وَأَبْدَعْتَ، وَلِلَّهِ دُرُكٌ، وَلِلَّهِ أَنْتَ، وَلِلَّهِ أَبُوكَ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَكَذَا وَإِلَّا فَلَا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُمْ: بَخٍ بَخٍ، وَبِهِ بِهِ، وَزِهِ، بِكْسَرِ

فسكون؛ وهذه الأخيرة من مُستَذركات الزُّبيدي على «القاموس» نقلاً عن «الأغاني». ويقولون في التَّقْبِيح: سَوَاءٌ لِفُلَانٍ، وَقُبْحاً لَهُ، وَخُزِياً لَهُ، وَتَبّاً لَهُ، وَأَفُّ لَهُ، وَلَا أَباً لَهُ، وَخُسِياً الْآبَعْدُ وَخُزِي، وَلَا دَرٌّ دَرُّهُ، ونحو ذلك؛ وكُلُّها من الألفاظ الوافية بالمراد على خُلُوها ممّا في تلك من الغرابة وما في بعضها من الاستهجان في السَّمْع.

ومنها قَوْلُهُمْ: «عِمَّ صَبَاحاً» و«عِمَّ مَسَاءً» في مُقَابَلَةِ: «بَنَجُور Bonjour» و«بُونَسُوار Bonsoir»، وهُمَا مِمَّا لَا دَاعِي إِلَيْهِ أَيْضاً، إِذْ لَا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَاظِ التَّحِيَّةِ عِنْدَنَا، فَضْلاً عَنْ أَنَّهُمَا مِنْ قَدِيمِ اللَّفْظِ الَّذِي قَدْ أُمِيتَ اسْتِعْمَالُهُ مُنْذُ أَزْمَانٍ مَدِيدَةٍ، فَلَا تُقْبَلَانِ فِي هَذَا الْعَصْرِ. وَبَعْدُ، فَلَا نُزِيدُهُمْ عِلْماً أَنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ: بَنَجُور وَبُونَسُوار، لَيْسَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَنْ افْتِقَارٍ إِلَى لَفْظٍ يُرَادُفُهُمَا بِالْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّ أَجْهَلَ الْعَوَامِّ يَقُولُهَا فِي تَحِيَّةِ الصَّبَاحِ: نَهَارَكَ سَعِيدٌ، أَوْ صَبَّحَكَ اللَّهُ بِالْخَيْرِ مثلاً؛ وَفِي تَحِيَّةِ الْمَسَاءِ: لَيْلَتَكَ سَعِيدٌ، أَوْ أَسْعَدَكَ اللَّهُ مَسَاءًكَ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَلَكِنَّ الدَّاءَ الَّذِي أَرَادُوا عِلَاجَهُ بِهَاتَيْنِ الْعِبَارَتَيْنِ لَيْسَ مِنَ الْأَدْوَاءِ الَّتِي تُعَالَجُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَلَا الَّتِي يَنْجَعُ فِيهَا هَذَا الضَّرْبُ مِنَ الْعَقَاقِيرِ؛ إِنَّمَا عِلَاجُهُ تَلْقِينُ فِتْيَانِنَا حُبَّ الْوَطَنِ وَتُنْشِئْتُهُمْ عَلَى عِزَّةِ

النَّفْسِ والاعتِدَادِ بِحُرْمَةِ الذَّاتِ حَتَّى لَا تَتَسَفَّلَ أَهْوَاؤُهُمْ
إِلَى التَّشْبِهِ بِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَيْسُوا بِخَيْرٍ مِنْهُمْ أَحْسَاباً وَلَا
أَشْرَفَ خِلَالاً، وَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَعْرَاضِ هَذَا الدَّاءِ مَا تَجِدُ
اسْتِعْمَالَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ فِي جَنْبِهِ سَهْلاً، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُلْهِمَنَا
رُشْدَ أَنْفُسِنَا وَهُوَ وَلِيُّ الْهِدَايَةِ.

وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ: «نُمرّة» فِي مَوْضِعِ «نُومِرُو Numéro»!
وهذه لَا تَخْلُو مِنْ غَرَابَةٍ، فَإِنْ كَانَ الْقَصْدُ مِنْهَا تَعْرِيبَ
الْلَفْظَةِ، أَيْ: تَحْوِيلَهَا إِلَى صِيغَةٍ تُوَافِقُ الْأَبْنِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ، فَهُوَ
مِمَّا سَبَقَتْهُمْ إِلَيْهِ الْعَامَّةُ، يَقُولُونَ: كَمْ نُمرّة هَذَا الثَّوبُ؟
مَثَلًا. وَإِنْ كَانَ مُرَادُهُمْ أَنَّ «النُّمرّة» لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ بِهَذَا
الْمَعْنَى، فَلَا صِحَّةَ لَهُ، لِأَنَّ «النُّمرّة» فِي اللُّغَةِ النُّكْتَةُ فِي
الشَّيْءِ تَخَالِفُ لَوْنَهُ، كَمَا يُرَى فِي جِلْدِ النَّمْرِ مَثَلًا، فَكَانَ
الْأَوَّلَى أَنْ يَبْحَثُوا عَنْ لَفْظَةٍ عَرَبِيَّةٍ تُوَافِقُ الْمَعْنَى، وَإِلَّا فَهَذِهِ
كَغَيْرِهَا مِنَ الْكَلِمِ الَّتِي كَانُوا يَضْعُونَهَا اتِّفَاقًا مِنْ غَيْرِ أَنْ
يُطَالِبَهُمْ بِهَا مُطَالِبٌ، فَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ بَأْسٌ مِنْ تَرْكِهَا
وَأَرْجَائِهَا إِلَى فَتْحٍ جَدِيدٍ.

وَمِنْهَا: «الْحَرَّاقَةُ» فِي تَعْرِيبِ: «التوربيد Torpille»،
قَالُوا: وَهِيَ - أَيْ: الْحَرَّاقَةُ - سَفِينَةٌ فِيهَا مَرَامٍ لِلنَّيْرَانِ يُرْمَى
بِهَا الْعَدُوُّ فِي الْبَحْرِ! وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ فِي شَيْءٍ

من التوربيد، إذ هو عبارة عن صُنْدُوقٍ وَنَحْوِهِ من رَقِيقِ صَفَائِحِ الْمَعْدِنِ، يُخَشَى بِالْبَارُودِ، وَيُرْسَلُ فِي قَعْرِ الْبَحْرِ حَتَّى يَصِيرَ تَحْتَ سَفِينَةِ الْعَدُوِّ، ثُمَّ يُفَجَّرُ بِنَابِضِ (زنبرك) أَوْ سِلْكٍ كَهْرِبَائِيٍّ، فَتَنْقَذُفُ السَّفِينَةُ صُعْدًا. و«التوربيد» في الأصل: اسمٌ لِسِلْكٍ كَهْرِبَائِيٍّ، مِنْ لَمَسَهُ خَدِرَتْ يَدُهُ، وَتُسَمِّيهِ الْعَرَبُ بِالرَّعَادِ، وَهُوَ اللَّفْظُ الَّذِي اسْتَعْمَلَهُ بَعْضُهُمْ فِي تَعْرِيبِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَلَعَلَّهُ أَوْلَى.

ومنها: «الوشاح» اختاروه للتعبير عن «الكوردون» الذي يُتَّخَذُ لِلسَّيْفِ بِجَامِعِ الْهَيْئَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ تَعْرِيبًا لِلْفِظَةِ الْأَعْجَمِيَّةِ، إِذْ هِيَ فِي الْأَصْلِ عِنْدَهُمْ بِمَعْنَى الْقُوَّةِ مِنْ قُوَى الْحَبْلِ، ثُمَّ نَقَلُوهَا، وَإِنْ لَمْ يَظْهَرْ وَجْهُ النُّقْلِ إِلَى هَذَا السَّيْفِ مِنْ مَنَسُوجِ الْحَرِيرِ وَنَحْوِهِ، تَشْدُهُ النِّسَاءُ عَلَى أَوْسَاطِهِنَّ، وَيُزَيَّنُ بِهِ رُؤُوسُهُنَّ، وَتُجْمَعُ بِهِ أَطْرَافُ السُّجُوفِ وَكِلَلُ الْأَسِرَّةِ، وَيُتَّخَذُ مِنْهُ نِجَادُ السَّيْفِ وَغَيْرُ ذَلِكَ؛ وَالْوِشَاحُ لَا يَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ إِلَّا لِلْمَعْنَى الْأَخِيرِ، فَهُوَ أَخْصَصُ مِنَ اللَّفْظَةِ الْمُعَرَّبَةِ؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا بَأْسَ بِاسْتِعْمَالِهِ لِهَذَا الْمَوْضِعِ.

ومنها: «الطنف» لما يُسَمَّى: «بالبلكون Balcon»، إِلَّا أَنَّهُمْ فَسَّرُوهُ بِالسَّقِيفَةِ الَّتِي تُشْرَعُ فَوْقَ بَابِ الدَّارِ، وَهِيَ غَيْرُ

الْبَلْكُون، على أَنَّ اللَّفْظَةَ أَوْسَعُ مِمَّا ذَكَرُوا، ويرادفها أيضاً:
الْجَنَاحُ، وهو أَحْسَنُ لَفْظاً وَأَدْلُّ على المراد.

ومِنْهَا: «الْمِشْجَب» لِمَا يُقَالُ لَهُ عِنْدَ الْعَامَّةِ:
«شَمَاعَة»، وَهُوَ بِالْإِفْرَنْجِيَّةِ «بُورْت مَانْتو - Porte
chapeaux». «وَحَصَّبَ الطَّرِيقَ بِالْحَضْبَاءِ» مَكَانَ قَوْلِهِمْ:
«وَضَعَ فِيهَا الْمِكَدَامَ». «وَالْعِطَافُ» وَ«الْمِغْطَفُ» لِمَا يُسَمَّى:
«الْبَالَطُو» وَ«الْبَارْدَسُو Pardessus» كَذَا مِنْ غَيْرِ تَغْيِينٍ،
وَالْأَظْهَرُ أَنَّ مَا أَخْتَرَعُوهُ يُوَافِقُ الْأَوَّلَ، وَأَمَّا الثَّانِي فَالْيَقُ مَا
يُسَمَّى بِهِ الدُّثَّارُ، فَإِنْ كَانَ يُتَّقَى بِهِ مَاءُ الْمَطَرِ فَهُوَ الْمِمْطَرُ
وَالْمِمْطَرَةُ.

ومِنْهَا: «الْبَهْو» بِمَعْنَى «الصالون Salon»، وَ«الْقُفَازُ»
بِمَعْنَى «الغوانتي = Gant»، وَ«الْبِطَاقَةُ» بِمَعْنَى «الكَارْتِ»
«Carte»، وَ«الشَّرْطِي» وَ«الْجِلْوَاظُ» بِمَعْنَى «البوليس Police»؛
وَهَذِهِ كُلُّهَا مِمَّا سَبَقُوا إِلَيْهِ.

وَبَقِيََتْ أَلْفَاظٌ أُخَرُ أُرْسِلَتْ مِنْ عَفْوِ الذَّاكِرَةِ وَلَمْ
يُنْضَجْهَا الْفِكْرُ، فَلَا نُطِيلُ بِاسْتِقْصَائِهَا وَالْكَلَامِ عَلَيْهَا.

على أَنَّهُ مَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، فَلَمْ يَكُنْ
مِنَ الْمُتَعَيِّنِ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا يَضَعُونُهُ وَإِردَادُ مَوْرِدِ الإِصَابَةِ،

ولا ينبغي أن يتوقع مثل ذلك من أي قوم تعاطوا مثل هذا الأمر الدقيق على ما يقتضيه من الإحاطة وبُعد النظر وكثرة التتقيب في أعطاف الحافظة وبين تضاعيف السطور، ولا سيما أن تلك الألفاظ كانت تصدر من وضع الواحد، ثم تُنشر بلا بحث ولا تنقيح، فلا عجب أن بعضها مرمرى للنقد. على أنهم لو مضوا على ما بدؤوا به من ذلك وأدمنوا الاشتغال بالبحث والتتقيب، لجاء فيما يضعونه فوائد لا تُحصى، ولخدموا اللغة خدمة سنية كانت تردّها عليهم شكراً جزيلاً وذكرًا على الأيام جميلاً، ولكنهم لم يلبثوا بعد وضع هذه الكلمات أن تشاغلوا بإنشاد القصائد وإلقاء الخطب، ثم ختم المجتمع على هذا القدر.

ومهما يكن من أمر هذا المجتمع، فقد مضى على وجهه، ودرجت بعده الأيام، ودبت الليالي؛ والحاجة في مكانها، والرغبات متطالّة، والخواطر هائمة، والأقلام جافّة، واللغة على ما كان من عهدّها لم تستغنِ بتلك الكلمات العشرين، ولا وجد بعد ذلك من أجرى لها ذكراً، ولا أخطر للنظر في أمرها فكرياً، فكان ذلك المجتمع إنما عُقد لتشييط العزائم عن نهضتها وقطع آخر عزق من الأمل، وكأن أربابه نفر من الأطباء اجتمعوا

للاثِّمَارِ عَلَى عَليِّ، فَكَانَ قُصَارَى مَا فِي طِبْهِمْ أَنْ قَضَوْا
بِالْيَاسِ مِنْهُ، ثُمَّ خَرَجُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: عَظَّمَ اللَّهُ أَجْرَكُمْ
فِي الْفَقِيدِ.

فَبَقِيَ الْآنَ، إِمَّا أَنْ نُسَجِّلَ بِمَوْتِ اللُّغَةِ وَمَوْتِ الْأَمَالِ
مَعَهَا وَالْيَاسُ إِحْدَى الْغَنِيْمَتَيْنِ، وَإِمَّا أَنْ نَسْتَأْنِفَ الْعَزَمَ
وَنَجِدَّ السَّغْيَ فِي إِحْيَاءِ مَا أُنْذِرُ مِنْهَا وَتَدَارِكُ مَا طَرَأَ
عَلَيْهَا مِنَ الثَّلَمِ، وَهُوَ مَا لَا تَزَالُ الْأَمَالُ فِيهِ مَنُوطَةٌ بِهِمْ
رِجَالِ هَذَا الْقَطْرِ، إِنْ نَشِطُوا لَهُ، وَتَفَرَّغُوا لِلْاِشْتِغَالِ بِهِ،
وَتَنَبَّهُوا لِمَكَانِ اللُّغَةِ مِنَ الْأُمَّةِ، وَأَنَّهَا هِيَ عُنوانُهَا وَالْفَضْلُ
الَّذِي تَتَّمِيزُ بِهِ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ، بَلِ اللُّغَةُ هِيَ الْأُمَّةُ بِعَيْنِهَا،
فَكَمَا تُشَخِّصُ تَارِيخَهَا وَعِلْمُهَا وَعَادَاتُهَا وَعِبَادَاتُهَا، فَإِنَّهَا
تُشَخِّصُ الْأُمَّةَ بِنَفْسِهَا، وَبِهَا يُشَارُ إِلَيْهَا، وَيُدَلُّ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ
فَضْلاً عَنْ أَنَّهَا هِيَ مَجْمَعُ أَلْفَتِهَا، وَالْوَضْلَةُ الْحِسِّيَّةُ بَيْنَ
أَحَادِهَا وَجَمَاعَاتِهَا، فَهِيَ عِلَّةُ الضَّمِّ الْحَقِيقِيَّةُ بَيْنِهَا،
وَالْجَامِعَةُ الطَّبِيعِيَّةُ الَّتِي بِهَا يُسْتَتَبُ مَعْنَى الْمَدْنِيَّةِ، وَإِذَا
تَقَطَّنْتَ لِلْمَرَادِ مِنْ قَوْلِهِمْ: الْإِنْسَانُ مَدْنِيٌّ بِالطَّبْعِ، شَفَّ لَكَ
عَنْ حَقِيقَةِ هَذَا الْقَوْلِ وَتَبَيَّنَتْ مَوْضِعُ اللُّغَةِ مِنَ الْحَالَةِ
الْاجْتِمَاعِيَّةِ. وَاعْتُبِرْ ذَلِكَ فِي الْأُمَمِ الْأُورُوبِيَّةِ لِهَذَا الْعَهْدِ،
فَإِنَّهَا عَلَى اتِّحَادِ أَكْثَرِهَا فِي النِّحْلَةِ الدِّينِيَّةِ وَمَا يَصِلُ بَيْنَهَا

مِنْ لُحْمَةِ النَّسَبِ، إِنَّمَا تَتَمَيَّزُ الْجِنْسِيَّةُ عِنْدَهَا بِاللُّغَةِ، وَهِيَ
 الْفَضْلُ الْفَارِقُ بَيْنَ أُمَّةٍ وَأُمَّةٍ، وَعَلَيْهَا مَدَارُ الْوَحْدَةِ الْوَطَنِيَّةِ
 وَصِيَانَةِ الْمَصْلَحَةِ الْأُمِّيَّةِ، وَمَا لَمْ تَتَّحِدِ الْأُمْتَانِ مِنْهَا فِي
 اللُّغَةِ لَا يُؤْمَنُ انْتِفَاضُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى، وَلَوْ اتَّحَدَتْ
 بَيْنَهُمَا الْمَصْلَحَةُ الْوَطَنِيَّةُ وَالْجَامِعَةُ السِّيَاسِيَّةُ. بَلِ انْظُرْ إِلَى
 النَّاظِقِينَ بِلِسَانِنَا الْعَرَبِيِّ، فَإِنَّهُمْ عَلَى تَبَايُنِهِمْ فِي الْأَنْسَابِ
 وَالْأَذْيَانِ وَالْعَوَائِدِ إِلَى مَا لَا تَجِدُ لَهُ مَثِيلاً فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ،
 وَعَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ اخْتِلَافِ الْحَالِ السِّيَاسِيَّةِ وَتَفَاوُتِ
 الْمَصَالِحِ الذَّاتِيَّةِ وَتَضَافِرِ دَوَاعِي الشُّقَاقِ وَالْاِفْتِرَاقِ، لَمْ
 تَثْبُتْ لَهُمْ جَامِعَةٌ يَنْضَمُّونَ بِهَا وَيَتَأَلَّفُونَ حَوْلَهَا سِوَى اللُّغَةِ،
 حَتَّى لَقَدْ تَجِدُ مِنَ الدُّخْلَاءِ فِيهَا مَنْ هُوَ أَشَدُّ اغْتِصَاماً بِهَا
 وَمُحَافَظَةً عَلَيْهَا مِمَّنْ وَرِثَهَا عَنْ أَوْلِيَائِهِ، وَأَنْتَهَتْ إِلَيْهِ عَنْ
 غَيْرِ كَلَالَةٍ.

بَلِ عِنْدَنَا الْيَوْمَ مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مَا تَرَاهُ
 مِنْ كَثِيرٍ مِنْ فُتْيَانِنَا الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ الْعِلْمَ فِي الْمَدَارِسِ
 الْأَجْنِبِيَّةِ، فَإِنَّكَ تَجِدُ كُلَّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ قَدْ أَشْرَبَ الْمَيْلَ إِلَى
 الْأُمَّةِ الَّتِي يَدْرُسُ فِي لِسَانِهَا، فَمَنْ تَعَلَّمَ فِي الْمَدَارِسِ
 الْإِنْكِلِيزِيَّةِ مَثَلًا، خَرَجَ مَيْلُهُ إِنْكِلِيزِيًّا، وَكَذَا مِنْ دَرَسَ فِي
 الْمَدَارِسِ الْفَرَنْسَوِيَّةِ أَوْ الطُّلَيَانِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا، حَتَّى تَرَاهُ يَبَاهِي

بِرِّجَالِ تِلْكَ الْأُمَّةِ، وَيَتَّبِعُ بِأَخْبَارِ مُلُوكِهَا وَكُبَرَائِهَا وَفَضَائِلِ
 أَهْلِ الْعِلْمِ وَالشُّعْرِ مِنْهَا، وَيَقْتَبِسُ كَثِيرًا مِنْ أَخْلَاقِهَا
 وَعَادَاتِهَا، وَيَتَشَبَّهُ بِمَشَاهِيرِ أَهْلِهَا، وَمَنْ يَقَعُ فِي نَفْسِهِ مِنْهَا
 مَوْقِعًا؛ وَرُبَّمَا أَشْرَبَ عَقَائِدَ بَعْضِ عُلَمَائِهَا وَفَلَّاسِفَتِهَا، إِلَى
 غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا تَكَادُ تُفَرِّقُهُ فِيهِ عَنْ أَحَدِ أَفْرَادِهَا، بَلْ رُبَّمَا
 بَلَغَ مِنْ بَعْضِهِمْ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى اللَّحَاقِ بِجِنْسِيَّتِهَا وَالْإِنْتِظَامِ
 فِي عِدَادِ آحَادِهَا، فَيَطْلُبُ مُشَارَكَتَهَا فِي الْوَحْدَةِ الْحِسِّيَّةِ بَعْدَ
 الْوَحْدَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَهُوَ نِهَايَةُ مَا يُمَكِّنُ تَصَوُّرَهُ مِنَ الشَّوَاهِدِ
 فِي هَذَا الْبَابِ.

وَهَذَا الْأَمْرُ مِمَّا تَنَبَّهَتْ لَهُ الْأُمَمُ الْفَاتِحَةُ مِنْ قَدِيمٍ،
 وَاتَّخَذَتْهُ قَاعِدَةً تَجْرِي عَلَيْهَا فِي تَقْرِيرِ فُتُوحِهَا وَتَوْثِيقِ
 سُلْطَانِهَا وَاتِّقَاءِ سُورَةِ الْمَغْلُوبِينَ إِذَا حَزَبَهُمْ مِنْ نَاجِيَّتِهَا
 ظَلَمٌ أَوْ سَامَتْهُمْ شَيْئًا مِنْ ضُرُوبِ الْخَسْفِ، وَحَسْبُنَا شَاهِدًا
 عَلَيْهِ مَا هُوَ جَارٍ لِيَوْمِنَا هَذَا فِي الْجَزَائِرِ وَتُونِسَ مِنَ الْبِلَادِ
 الْعَرَبِيَّةِ، حَيْثُ أَهْمِلَ تَعْلِيمُ اللُّسَانِ الْعَرَبِيِّ فِي الْمَكَاتِبِ إِلَّا
 بِمَقْدَارِ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَجُعِلَ كُلُّ مَا
 سِوَى ذَلِكَ بِاللُّغَةِ الْفَرَنْسَوِيَّةِ، حَتَّى كَادَتْ الْعَرَبِيَّةُ تُتَنَاسَى
 فِي تِلْكَ الْأَقْطَارِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا مَا يَتَدَاوَلُهُ الْعَامَّةُ مِنَ
 اللَّفْظِ الْمَبْدُوءِ وَالْكَلِمِ السُّوقِيِّ، وَغَابَتْ عَنْهُمْ مُحَاسِنُهَا

وعلوؤها وتواريخها وآدابها، وعلى الجملة، فإنها صارت
عندهم أمراً تافهاً لا معنى له ولا رغبة فيه، وهي سائرة
في طريق الاضمحلال بما تغلب عليها من العجمة
وشيوعها على ألسنة أهل البلاد، وذلك فضلاً عما يتهرهم
كل يوم من اقتدار الفاتحين وما يرون من آثار سطوتهم
ونفوذ شوكتهم وضخامة ملكهم، وما لهم من ضروب
التفنن في العلم والاختراع مما تتعاضده نفوسهم يوماً بعد
يوم، وعن قليل ستصبح هذه اللغة عندهم كأن لم تكن
بالأمرس ولم تكن شيئاً مذكوراً. ولذلك كان من أوجب
الواجب في المحافظة على بقاء الأمة وصيانة الجنسية
بينها، إحياء لغتها بين عامة أهلها وتكثير سواد أهل العلم
منها والتجافي بها ما أمكن عن لغات الأعاجم، إلا
الخاصة الذين عليهم المعول في نقل علومهم إلينا ونشرها
بلغتنا، بحيث نلحق بهم في الحضارة دون الجنسية. وهذا
إنما يتم اليوم بأن تنهض الأمة بنفسها لهذا الأمر الخطير
ويتجرد له عقلاء سرائرها وأهل العلم فيها، لا يتكلمون في
ذلك إلا على أنفسهم، ولا يصدرون إلا عن عزائمهم؛
ولا فإن استنامتهم إلى من سلم إليهم قياد القلم وتهذيب
الأمة في القطر لا يعد إلا ضرباً من التفرير بمصلحتهم

وَالْإِعَانَةُ عَلَى اضْمِحْلالِهِمْ؛ وَمَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ بَغَضُهُمْ مَغْلُوبٌ
لِسَيْطَرَةِ الْأَجْنَبِيِّ يَفْعَلُ بِمَا يُوَعِزُّ إِلَيْهِ لَا بِمَا يَرَاهُ، وَبَغَضُهُمْ
مُنْقَادٌ لِسُلْطَانِ التَّعَصُّبِ، وَهُوَ هَادِمٌ لِأَرْكَانِ الْعِلْمِ مِنْ
قَوَاعِدِهَا، ذَاهِبٌ بِرُسُومِ الْجَنَسِيَّةِ مِنْ أَضْلِلِهَا، مُغْرِقٌ لِهَذِهِ
السِّرْذِمَةِ الْبَاقِيَةِ فِي لُجٍّ لَا يُعْرَفُ لَهُ دَرْكٌ وَلَا سَاحِلٌ،
وَبَغَضُهُمْ مُقِيمٌ فِي ظِلَالِ الْجَهْلِ وَالْأُمِّيَّةِ لَا يُمَيِّزُ الْأَلْفَ مِنَ
الرَّاءِ، وَلَا الثَّاءَ مِنَ الْيَاءِ... ثُمَّ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ
يَتَنَازَعَانِ الْأُمَّةَ لِهَذَا الْوَقْتِ لِكِلَيْهِمَا وَجْهَةٌ وَاحِدَةٌ يَلْتَقِيَانِ
عِنْدَهَا وَإِنْ اخْتَلَفَ طَرِيقُهُمَا، وَغَرَضٌ وَاحِدٌ يَرْمِيَانِ إِلَيْهِ
وَإِنْ تَبَايَنَ مَوْقِفُهُمَا، أَلَا وَهُوَ اسْتِثْصَالُ أَرْوَمَةِ الْجَنَسِيَّةِ
وَالذَّهَابُ بِآثَارِ الْوَطَنِيَّةِ؛ فَإِنْ اسْتَيْقَظُوا لِمَا أُرْصِدُ لَهُمْ،
وَبَادَرُوا الْأَمْرَ قَبْلَ مَوْقِعِهِ، وَإِلَّا فَهَذِهِ لُغْتُهُمْ عَنْهُ قَلِيلٌ
سَتَسْقُطُ مِنْ عَالِمِ الْأَقْلَامِ وَتُسْتَبْدَلُ بِرِطَانَةِ أَعْجَمِيَّةٍ، بَلْ
تُصْبِحُ أَلْسِنَتُهُمْ أَشْبَهَ بِالْسِنَةِ أَصْحَابِ الصَّرْحِ، وَأَشْرَاطُ الْأَمْرِ
بَادِيَةٌ مِنَ الْآنَ، فَلْيَعْتَبِرُوهَا، وَإِذَا مَضَى عَلَى هَذَا زَمَنٌ يَسِيرٌ
بَقِيَتِ اللُّغَةُ مَحْضُورَةً فِي الْمَسَاجِدِ وَالْمَحَاكِمِ الشَّرْعِيَّةِ، وَلَمْ
تَجِدْهَا فِي الْمَحَادَثَاتِ الْيَوْمِيَّةِ إِلَّا عَلَى أَلْسِنَةِ أَقْوَامٍ مِنَ
الْفَلَاحِينِ وَأَهْلِ الْبَادِيَةِ لَا يُطْلَقُ اسْمُ الْعَرَبِيِّ إِلَّا عَلَى
شَرَاذِمٍ مِنْ أَوْلِيكَ، وَيُشَسَّ الْخَلْفُ.

وَصَفُ شِعْرِ شَكْسْبِير Shakespeare

«تعريب محمد السباعي»^(١).

شكسبير Shakespeare مِنحَةُ الطَّبيعَةِ وَجَائِزَةُ الدَّهْرِ،
أَدَاهُ إِلَيْنَا الْحَظُّ فِي سُكُوتٍ، فَتَنَاوَلْنَاهُ فِي سَكُوتٍ، كَأَنَّمَا
هُوَ شَيْءٌ صَغِيرُ الشَّانِ، قَلِيلُ الْخَطَرِ، وَإِنَّهُ فِي الْوَاقِعِ النُّعْمَةُ
لَا تُقَدَّرُ، وَالْهَبَةُ لَا يُحَدُّ مَقْدَارَهَا وَلَا يُخَصَّرُ.

مِنْ أَسْبَابِ عَظَمَةِ شَكْسْبِيرِ بَرَاعَةُ تَصْوِيرِهِ لِلأَشْخَاصِ
وَالْأَشْيَاءِ، وَلَا أَحْسَبُ أَنَّ إِنْسَانًا يَمَائِلُهُ فِي تِلْكَ الْقُوَّةِ
الْمُخْتَرَعَةِ الثَّاقِبَةِ الْهَادِثَةِ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ لَمْ يَنْظُرْ مِنْهُ
إِلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ أَوْ ذَاكَ، بَلْ إِلَى صَمِيمِ لُبِّهِ، وَكَأَنَّ ذَلِكَ
الْمَنْظُورَ يَتَحَلَّلُ أَمَامَهُ فِي ذَوْبٍ مِنَ الضِّيَاءِ، فَتَنَكَّشِفُ لَهُ

(١) محمد [بن محمد] السباعي [١٢٩٨ - ١٣٥٠ هـ = ١٨٨١ - ١٩٣١ م].

هو أحد كتّاب هذا العصر، الممتازين بالبراعة في الترجمة من
الإنكليزية إلى العربية، المعروفين بالتمكّن في كلتا اللغتين،
على قِلَّةِ المتمكّنين فيهما معاً، إلا أنّه في ترجمته أميل إلى
التندرّ بالغريب وتدوين التراكيب الجَزَلَة منه إلى السلاسة
والرُقَّة، ولعاً باللغة العربية، وشغفاً بإحيائها، فَمَنْ لَا يَنْظُرُ إِلَى
الكَتَابَةِ بِالْعَيْنِ الَّتِي يَنْظُرُ بِهَا إِلَيْهَا يَرَى فِي كِتَابَتِهِ أَحْيَاناً مِنَ
التَّعْقِيدِ وَالْمُشَادَّةِ غَيْرِ مَا يَرَاهُ. أما كَلِمَتُهُ هَذِهِ، فَهِيَ مَقْتَطَفَةٌ مِنْ
كِتَابِ «الْأَبْطَالِ» لِكَارَلِيلِ، الَّذِي تَرَجَمَهُ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

دخائل تركيبه وبواطن بنائه، ونحن نُسَمِّي ذلك إبداعاً واختراعاً وخلقاً شِعْرياً، وما هو لو تأملت إلا النظر الدقيق المستوعِبُ للشيء المحيط بظاهره وباطنه.

ما روايات شكسبير إلا ثمرة الطبيعة، ولها جلال الطبيعة وعمقها، وما صناعته بصناعة، إنما هي وحي يتدفق به طبعه عفواً، ويهطل به خاطره سحاً دراكاً^(١).

إن شكسبير نائي تتناوله الطبيعة، فتترنم فيه بأشجى نغماتها، وتخرج منه أشهى أصواتها، ولعل الأمم التي ستجيء بعد آلاف السنين ستجد في شكسبير هذا معاني جديدةً وبياناً للأغاز حياتهم.

كَانَ لِشَكْسْبِيرِ حَظُّهُ مِنَ الْهُمُومِ وَالْأُخْزَانِ وَقِسْطُهُ مِنَ الْقُرُوحِ وَالْأَشْجَانِ، وَأَغَانِيهِ تَشْفُ عَمَّا كَابَدَهُ مِنْ غُصَصِ الزَّمَنِ، وَتَجَرَّعَ مِنْ مَرَارَةِ الْمَحَنِ. وَقَدْ أَفَالَ الرَّأْيِ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ كَانَ خِلْوًا مِنَ الْأَسَى صَفْوًا مِنَ الْقَذَى، فَإِنِّي لِرَجُلٍ أَنْ يُصَوِّرَ أَمْثَالَ هَامَلِيْثٍ وَكُورِيَالَانَسٍ وَمَاكِثٍ^(٢) وَغَيْرِ هَذِهِ مِنَ الْقُلُوبِ الْمُتَأَلِّمَةِ إِلَّا وَقَدْ عَرَفَ قَلْبُهُ الْكَبِيرُ الْأَلَمَ.

(١) الدراك: المتلاحق المتصل.

(٢) أسماء أشخاص بعض روايات شكسبير.

إِذَا خُيِّرْنَا بَيْنَ أَنْ نَتْرَكَ شَكْسِيرَ أَوْ بِلَادَ الْهِنْدِ، نَقُولُ
سَوَاءٌ حَكَمْنَا الْهِنْدَ أَوْ لَمْ نَحْكُمَهَا، فَلَا غِنَى لَنَا عَنْ شَكْسِيرٍ.
فَسَيَجِيءُ يَوْمٌ يُضْبِحُ فِيهِ أَبْنَاءُ بَرِيطَانِيَّةٍ مُبْعَثَرِينَ فِي نَوَاحِي
الْكُرَّةِ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ شَكْسِيرُ الْمَلِكِ الَّذِي يَضُمُّنَا جَمِيعاً.

الشُّعْرُ

«لمصطفى [صادق] الرافعي»^(١)

أَوَّلُ الشُّعْرِ اجْتِمَاعُ أَسْبَابِهِ، وَإِنَّمَا يُرْجَعُ فِي ذَلِكَ إِلَى
طَبْعِ صَقْلَتِهِ الْحِكْمَةِ، وَفِكْرِ جَلَا صَفْحَتِهِ الْبَيَانِ. فَمَا الشُّعْرُ
إِلَّا لِسَانُ الْقَلْبِ إِذَا خَاطَبَ الْقَلْبُ، وَسَفِيرُ النَّفْسِ إِذَا
نَاجَتْ النَّفْسُ؛ وَلَا خَيْرَ فِي لِسَانٍ غَيْرِ مُبِينٍ، وَلَا فِي سَفِيرٍ
غَيْرِ حَكِيمٍ.

(١) «مصطفى [صادق بن عبد الرزاق] الرافعي» [١٢٩٨ - ١٣٥٦ هـ]

= [١٨٨١ - ١٩٣٧ م].

شاعر من شعراء العصر المجيد، وكاتب من كتّابه المتأدبين؛
ويذهب في شعره مذهب شعراء المعاني، كالمُتَنَّبِيِّ وابن الرومي
وغيرهما من الذين يخفّلون بجمال المعنى قبل جمال
الأسلوب، فإن صح له الأول لا يبالي بالثاني، على أن له في
كثير من الأحيان، خصوصاً في النسيب، ما يُعَدُّ في طبقة
الإبداع، حسن تصور، وبراعة نظم، ورقة أسلوب.

ولو كَانَ طَيْرًا يَتَغَرَّدُ لَكَانَ الطَّبْعُ لِسَانَهُ، وَالرَّأْسُ
عُشَّهُ، وَالْقَلْبُ رَوْضَتَهُ. وَلَكَانَ غِنَاؤُهُ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ أَفْوَاهِ
الْمُجِيدِينَ مِنَ الشُّعْرَاءِ. وَحَسْبُكَ بِكَلَامٍ تَنْصَرِفُ إِلَيْهِ كُلُّ
جَارِحَةٍ، وَتُضَمُّ عَلَيْهِ كُلُّ جَانِحَةٍ، وَيُجَنَّى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
حَتَّى لَتَحَسَبَ الشُّعْرَاءُ مِنَ النَّحْلِ، تَأْكُلُ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ،
فَيَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ.

وَكَأَنَّمَا هُوَ بَقِيَّةٌ مِنْ مَنْطِقِ الْإِنْسَانِ اخْتَبَأَتْ فِي زَاوِيَةٍ
مِنَ النَّفْسِ، فَمَا زَالَتْ بِهَا الْحَوَاسُّ حَتَّى وَرَنَتْهَا عَلَى
ضَرْبَاتِ الْقَلْبِ، وَأَخْرَجَتْهَا بَعْدَ ذَلِكَ أَلْحَانًا بِغَيْرِ إِيقَاعٍ. أَلَا
تَرَاهَا سَاعَةَ النِّظْمِ كَيْفَ تَتَفَرَّغُ كُلُّهَا، ثُمَّ تَتَعَاوَنُ، كَأَنَّمَا
تَبْحَثُ بِثَوْرِ الْعَقْلِ عَنْ شَيْءٍ غَابَ عَنْهَا فِي سُوَيْدَاءِ الْفُؤَادِ
وِظْلَمَاتِهِ. لِذَلِكَ كَانَ أَحْسَنُ الشُّعْرِ مَا تَتَغَنَّى بِهِ قَبْلَ عَمَلِهِ،
وَهِيَ طَرِيقَةٌ تَفَنَّنَ فِيهَا الشُّعْرَاءُ حَتَّى لَكَانَ الْحُطَيْئَةُ يَغْوِي
فِي إِثْرِ الْقَوَافِي عَوَاءَ الْفَصِيلِ فِي إِثْرِ أُمِّهِ.

وَتَرَى الْمُجِيدَ مِنْ أَهْلِ الْغِنَاءِ إِذَا رَفَعَ عَقِيرَتَهُ يَتَغَنَّى،
ذَهَبَ فِي التَّحْرُكِ مَذَاهِبَ، حَتَّى كَأَنَّمَا يَشْتَرِغُ كُلُّ نِعْمَةٍ مِنْ
مَوْضِعٍ فِي نَفْسِهِ، فَيَتَأَلَّفُ مِنْ ذَلِكَ صَوْتُ إِذَا أَجَالَ خَلْقَهُ
فِيهِ وَقَعَتْ كُلُّ قِطْعَةٍ مِنْهُ فِي مِثْلِ مَوْضِعِهَا مِنْ كُلِّ مَنْ
يَسْمَعُ، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْتَفْزَهُ طَرَبُهُ، كَأَنَّمَا انْجَذَبَ قَلْبُهُ؛

وَتَضَبُّو نَفْسَهُ، كَأَنَّمَا أَخَذَ حِسَّهُ. لَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ
 أَعْجَمِيٍّ وَعَرَبِيٍّ. وَمِنْ أَجْلِ هَذَا تَرَى أَحْسَنَ الْأَصْوَاتِ
 يَغْلِبُ عَلَى كُلِّ طَبْعٍ، وَإِنَّمَا الشَّاعِرُ وَالْمُغَنِّي فِي جَذْبِ
 الْقُلُوبِ سَوَاءٌ، وَفِي سِحْرِ النُّفُوسِ أَكْفَاءٌ. إِلَّا أَنَّ هَذَا يُوحِي
 إِلَى الْقَلْبِ، وَذَاكَ يَنْطِقُ عَنْهُ. وَأَحَدُهُمَا يَفِيضُ عَلَيْهِ،
 وَالثَّانِي يَأْخُذُ مِنْهُ. وَالْوَيْلُ لِكِلَيْهِمَا إِذَا لَمْ يُطْرَبْ هَذَا وَلَمْ
 يُعْجَبْ ذَاكَ.

وَالشَّعْرُ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ نَفْسٍ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى. فَإِنَّكَ
 لَتَسْمَعُ الْفَتَاةَ فِي خَذِرِهَا، وَالْمَرْأَةَ فِي كِسْرِ بَيْتِهَا، وَالرَّجُلَ
 وَقَدْ جَلَسَ فِي قَوْمِهِ، وَالصَّبِيَّ بَيْنَ إِخْوَتِهِ، يَقْصُونَ عَلَيْكَ
 أَضْغَاثَ أَخْلَامٍ فَتَجِدُ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِمْ مِنْ عَبَقِ الشَّعْرِ مَا
 لَوْ نَسَمْتَهُ لَفَعَمَكَ^(١). وَحَسْبُكَ أَنْ تَكْسِرَ وَسَادَكَ تَتَحَدَّثُ
 إِلَيْهِمْ، فَتَرَاهُ طَائِرًا بَيْنَ أَمْثَالِهِمْ وَفِي فُلْتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، وَهُوَ
 كَأَنَّمَا قَدْ ضَلَّ أَغْشَاشَهُ. وَلَقَدْ نَبَغَ فِيهِ مِنْ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ
 شُمُوسٌ سَطَعْنَ فِي سَمَاءِ الْبَيَانِ، وَطَلَعْنَ فِي أَفْقِ الْبَلَاغَةِ؛
 وَلَا يَزَالُ النَّاسُ إِلَى الْيَوْمِ يَرْوُونَ لِلْخَنَسَاءِ وَجَنُوبَ وَعُلَيَّةَ
 وَعِنانَ وَنَزْهُونَ وَوَلَادَةَ وَغَيْرَهُنَّ، وَيَحْسِبُكَ قَوْلُ النُّوَاسِيِّ:

(١) فَعَمَهُ الطَّبُّ: سَدَّ خِيَاشِيمَهُ.

مَا قُلْتُ الشُّعْرَ حَتَّى رَوَيْتُ لِسْتَيْنَ أَمْرَاءَ، مِنْهُنَّ الْخَنَسَاءُ وَلَيْلَى.

وَلَوْ كَانَ الشُّعْرُ هَذِهِ الْأَفَاطِ الْمَوْزُونَةِ الْمُقَفَّاةَ لَعَدَدْنَاهُ ضَرْباً مِنْ قَوَاعِدِ الْإِعْرَابِ، لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا مَنْ تَعَلَّمَهَا، وَلَكِنَّهُ يَنْتَزِلُ مِنَ النَّفْسِ مَنَزَلَةَ الْكَلَامِ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَنْطِقُ بِهِ، وَلَا يُقِيمُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ. وَأَمَّا مَا يَغْرِضُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوِزْنِ وَالتَّقْفِيَةِ، فَكَمَا يَغْرِضُ لِلْكَلامِ مِنْ اسْتِقَامَةِ التَّرْكِيبِ وَالْإِعْرَابِ. وَإِنَّكَ إِنَّمَا تَمْدَحُ الْكَلَامَ بِإِعْرَابِهِ، وَلَا تَمْدَحُ الْإِعْرَابَ بِالْكَلامِ.

وَلَمْ أَقْرَأْ أَجْمَعَ فِيهِ مِنْ قَوْلِ حَكِيمِ الْعَصْرِ، وَإِمَامِ الْإِفْتَاءِ فِي مِصْرٍ^(١): «لَوْ سَأَلُوا الْحَقِيقَةَ أَنْ تَخْتَارَ لَهَا مَكَاناً تُشْرِفُ مِنْهُ عَلَى الْكَوْنِ لَمَا اخْتَارَتْ غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الشُّعْرِ» وَلَا فِيمَا قَالُوهُ فِي الشُّعْرَاءِ أَجْمَعَ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ الْأَخْبَارِ: «الشُّعْرَاءُ أَنَا جِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، تَنْطِقُ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْحِكْمَةِ».

وَلَمْ يَكُنْ لِأَوَائِلِ الْعَرَبِ مِنَ الشُّعْرَاءِ إِلَّا الْأَبْيَاتُ يَقُولُهَا الرَّجُلُ فِي الْحَاجَةِ تَغْرِضُ لَهُ، كَقَوْلِ دُوَيْدَ بْنِ زَيْدٍ حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، وَهُوَ مِنْ قَدِيمِ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ [مَنْ

(١) يُرِيدُ بِهِ الْمَرْحُومَ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ عَبْدَهُ.

الرجز]:

اليوم يُبنى لدونيد بيته
لو كان للدهر بلى أليته
أو كان قرني واحداً كفيته
وإنما قصدت القصائد على عهد عبد المطلب أو
هاشم بن عبد مناف.

وهناك رفع أمرؤ القيس ذلك اللواء، وأضاء تلك
السماء التي ما طاولتها سماء. وهو لم يتقدم غيره إلا بما
سبق إليه مما اتبعه فيه من جاء بعده. فهو أول من
استوقف على الطلول، ووصف النساء بالطباء والمهي
والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وفرق بين النسيب
وما سواه من القصيدة، وقرب ماخذ الكلام، وقيد أوابده،
وأجاد الاستعارة والتشبيه. ولقد بلغ منه أنه كان يتعنت
على كل شاعر يشعره.

ثم تتابع القارضون من بعده، فمنهم من أشهب
فأجاد، ومنهم من أكب^(١) كما يكبو الجواد، وبعضهم كان

(١) أكب: انصرع.

كَلَامُهُ وَخِيَ الْمَلَا حِظًا، وَفَرِيقٌ كَانَ مِثْلَ سُهَيْلٍ فِي النُّجُومِ،
يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. وَلَقَدْ جَدُّوا فِي ذَلِكَ حَتَّى أَنَّ
مِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لِسَانَهُ لَوْ وُضِعَ عَلَى الشَّعْرِ لَحَلَقَهُ،
أَوْ الصَّخْرِ لَفَلَقَهُ.

ذَلِكَ أَيَّامَ كَانَ لِلْقَوْلِ غُرُزٌ فِي أَوْجِهِ وَمَوَاسِمَ، بَلْ
أَيَّامَ كَانَ مِنْ قَدْرِ الشُّعْرَاءِ أَنْ تَغْلِبَ عَلَيْهِمُ الْقَابِهُمُ بِشُعْرِهِمْ
حَتَّى لَا يُعْرِفُونَ إِلَّا بِهَا، كَالْمُرْقَشِ وَالْمُهْلِهِلِ وَالشَّرِيدِ
وَالْمُمَزَّقِ وَالْمُتَلَمِّسِ وَالنَّابِغَةِ وَغَيْرِهِمْ. وَمِنْ قَدْرِ الشُّعْرِ أَنَّ
كَانَتْ الْقَبِيلَةُ إِذَا نَبَغَ فِيهَا شَاعِرٌ أَتَتِ الْقَبَائِلُ فَهَنَّاثُهَا بِذَلِكَ،
وَصَنَعَتِ الْأَطْعِمَةَ، وَاجْتَمَعَ النِّسَاءُ يَلْعَبْنَ بِالْمَزَاهِرِ كَمَا
يَصْنَعْنَ فِي الْأَعْرَاسِ. وَأَيَّامَ كَانُوا لَا يُهَنِّثُونَ إِلَّا بِغِلَامٍ
يُولَدُ، أَوْ شَاعِرٍ يَنْبُغُ، أَوْ فَرَسٍ تَنْشُجُ. وَكَانَتْ الْبَنَاتُ يَنْفُقْنَ
بَعْدَ الْكِسَادِ إِذَا شَبَّ بِهِنَّ الشُّعْرَاءُ.

وَلَمْ يَتْرِكِ الْعَرَبُ شَيْئًا مِمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِ أَعْيُنُهُمْ أَوْ
وَقَعَ إِلَى آذَانِهِمْ أَوْ اغْتَقَدُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ إِلَّا نَظَّمُوهُ فِي
سِمِطٍ مِنَ الشُّعْرِ، وَادَّخَرُوهُ فِي سَفِطٍ مِنَ الْبَيَانِ، حَتَّى إِنَّكَ
لَتَرَى مَجْمُوعَ أَشْعَارِهِمْ دِيوانًا فِيهِ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ
وَأَدَابِهِمْ وَأَيَّامِهِمْ، وَمَا يَسْتَخْسِنُونَ وَيَسْتَهْجِنُونَ حَتَّى مِنْ
دَوَائِبِهِمْ. وَكَانَ الْقَائِلُ مِنْهُمْ يَسْتَمِدُّ عَفْوَ هَاجِسِهِ، وَرُبَّمَا لَفَظَ

الكلمة تحسبها من الوحي، وما هي من الوحي، ولم يكن
يُفاضل بينهم إلا أخلاقهم الغالبة على أنفسهم. فزهير
أشعرهم إذا رغب، والتابع إذا رهب، والأعشى إذا طرب،
وعنترة إذا كلب، وجريز إذا غضب؛ وهلم جرا.

ولكل زمن شاعر وشعراء، ولكل شاعر مرآة من
أيامه، فقد انفرد امرؤ القيس بما علمت، واختص زهير
بالحوليّات، واشتهر التابع بالاعتذارات، وأرتفع الكميت
بالهاشميات، وشمخ الخطيئة بأهاجيه، وساق جريز
قلائصه، وبرز عدي في صفات المطية، وطفيل في الخيل،
والشماخ في الحمير، ولقد أنشد الوليد بن عبد الملك
شيئاً من شعره فيها، فقال: ما أوصفه لها! إني لأحسب أن
أحد أبويه كان حماراً... وحسبك من ذي الرمة، رئيس
المشبهين الإسلاميين، أنه كان يقول: «إذا قلت كأن ولم
أجد مخلصاً منها فقطع الله لسانى» ولقد فتن الناس ابن
المعتر بتشبيهاته، وأسكرهم أبو نواس بخمرياته، ورفقت
قلوبهم على زهديات أبي العتاهية، وجرت دموعهم
لمراثي أبي تمام، وأبتهجث أنفسهم بمدائح البخاري،
وروضيات الصنوبري، ولطائف كشاجم.

فمن رجع بصره في ذلك، وسلك في الشعر ببصيرة

المَعْرِي، وَكَانَتْ لَهُ أَدَاةُ ابْنِ الرُّومِي، وَفِيهِ غَزَلُ ابْنِ أَبِي
رَبِيعَةَ، وَصَبَابَةُ ابْنِ الْأَخْنَفِ، وَطَبْعُ ابْنِ بُزْدٍ، وَلَهُ اقْتِدَارُ
مُسْلِمٍ، وَأَجْنِحَةُ دِيكَ الْجَنِّ، وَرِقَّةُ الْجَهْمِ، وَفَخْرُ أَبِي
فِرَاسٍ، وَحَنِينُ ابْنِ زَيْدُونَ، وَأَنْفَةُ الرَّضِيِّ، وَخَطَرَاتُ ابْنِ
هَانِيءٍ، وَفِي نَفْسِهِ مِنْ فُكَاهَةِ أَبِي دُلَامَةَ، وَلَعَيْنِيهِ بَصْرُ ابْنِ
خَفَاجَةَ بِمَحَاسِنِ الطَّبِيعَةِ، وَبَيْنَ جَنِّيهِ قَلْبُ أَبِي الطَّيِّبِ، فَقَدْ
اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ شَاعِرَ دَهْرِهِ وَصَنَاجَةَ^(١) عَصْرِهِ.

وَأَبْرَعُ الشُّعْرَاءِ مَنْ كَانَ خَاطِرُهُ هَدَفًا لِكُلِّ نَادِرَةٍ،
قُرْبَمَا عَرَضَتْ لِلشَّاعِرِ أَحْوَالٌ مِمَّا لَا يَغْنِي غَيْرُهُ، فَإِذَا عَلِقَ
بِهَا فِكْرُهُ تَمَخَّضَتْ عَنْ بَدَائِعِ مِنَ الشُّعْرِ، فَجَاءَتْ بِهَا
كَالْمُعْجَزَاتِ، وَهِيَ لَيْسَتْ مِنَ الْإِعْجَازِ فِي شَيْءٍ، وَلَا
فَضْلَ لِلشَّاعِرِ فِيهَا إِلَّا أَنَّهُ تَنَبَّهَ لَهَا. وَمَنْ شَدَّ يَدَهُ عَلَى هَذَا
جَاءَ بِالنَّادِرِ مِنْ حَيْثُ لَا يَتَيَسَّرُ لِغَيْرِهِ وَلَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَيْهِ
فِي كُلِّ حِينٍ.

وَلَيْسَ بِشَاعِرٍ مَنْ إِذَا أَنْشَدَكَ لَمْ تَحْسَبْ أَنَّ سَمْعَهُ
مَخْبُوءٌ فِي فَوَادِيكَ، وَأَنَّ عَيْنَكَ تَنْظُرُ فِي شِعَاغِهِ؛ فَإِذَا تَغَزَّلَ
أَضْحَكَكَ إِنْ شَاءَ، وَأَبْكَكَ إِنْ شَاءَ؛ وَإِذَا تَحَمَّسَ فَرِغَتْ

(١) الصَّنَاجَةُ: طَبْلٌ مَعْرُوفٌ.

لِمَسَاقِطِ رَأْسِكَ؛ وَإِذَا وَصَفَ لَكَ شَيْئًا هَمَمْتَ بِلَمْسِهِ حَتَّى
 إِذَا جِئْتَهُ لَمْ تَجِدْهُ شَيْئًا؛ وَإِذَا عَتَبَ عَلَيْكَ جَعَلَ الذَّنْبَ لَكَ
 أَلْزَمَ مِنْ ظِلِّكَ؛ وَإِذَا نَثَلَ كِنَانَتَهُ رَأَيْتَ مَنْ يَرْمِيهِ صَرِيحًا لَا
 أَثَرَ فِيهِ لِقَدِيفَةٍ وَلَا مُدْيَةٍ، وَلَكِنَّهَا كَلِمَةٌ فُتِحَتْ عَلَيْهَا عَيْنُهُ،
 أَوْ وَلَجَتْ إِلَى قَلْبِهِ مِنْ أُذُنِهِ فَاسْتَقَرَّتْ فِي نَفْسِهِ، وَكَأَنَّمَا
 اسْتَقَرَّ عَلَى جَمْرِ؛ وَإِذَا مَدَحَ حَسِبْتَ الدُّنْيَا تُجَاوِبُهُ، وَإِذَا
 رَأَى خِفْتَ عَلَى شِعْرِهِ أَنْ يَجْرِيَ دُمُوعًا، وَإِذَا وَعَظَ
 اسْتَوْقَفَتِ النَّاسَ كَلِمَتُهُ وَزَادَتْهُمْ خُشُوعًا، وَإِذَا فَخَرَ أَشْتَمَ
 مِنْ لِحْيَتِهِ رَائِحَةَ الْمُلْكِ فَحَسِبْتَ أَنَّهَا حَفَّتْ بِهِ الْأَمْلاَكُ
 وَالْمَوَاكِبُ.

وَجَمَاعُ الْقَوْلِ فِي بَرَاعَةِ الشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ مِنْ
 قَلْبِهِ، فَإِنَّ الْكَلِمَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ،
 وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تَتَجَاوَزِ الْآذَانَ.

وَلَقَدْ رَأَيْنَا فِي النَّاسِ مَنْ تَكَلَّفَ الشُّعْرَ عَلَى غَيْرِ
 طَبْعٍ فِيهِ، فَكَانَ كَالْأَعْمَى يَتَنَاوَلُ الْأَشْيَاءَ لِيُقَرِّهَا فِي
 مَوَاضِعِهَا، وَرُبَّمَا وَضَعَ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ فِي مَوَاضِعَيْنِ أَوْ
 مَوَاضِعَ وَهُوَ لَا يَذَرِي.

وَأَبْصَرْنَا فِيهِمْ كَذَلِكَ مَنْ يَجِيءُ بِاللَّفْظِ الْمُوْتَقِّ

وَالْوُشْيَ النَّصِيرِ، فَإِذَا نَثَرَتْ أَوْرَاقَهُ لَمْ تَجِدْ فِيهَا إِلَّا ثَمَرَاتِ
فَجَّةً^(١).

وَرَأَيْنَا فِي الْمَطْبُوعِينَ مَنْ أَثْقَلَ شِغْرُهُ بِأَنْوَاعٍ مِنَ
الْمَعَانِي، فَكَانَ كَالْحَسَنَاءِ تَزِيدَتْ مِنَ الزَّيْنَةِ حَتَّى سَمِعَتْ،
فَصُرِفَتْ عَنْهَا الْعُيُونُ بِمَا أَرَادَتْ أَنْ تَلْفِتَهَا بِهِ، عَلَى أَنَّ
أَحْسَنَ الشُّعْرِ مَا كَانَتْ زِينَتُهُ مِنْهُ، وَكُلُّ ثَوْبٍ لِبَسْتُهُ الْغَانِيَّةُ
فَهُوَ مَعْرُضُهَا.

وَهُوَ عِنْدِي أَرْبَعَةُ أَبْيَاتٍ: بَيْتٌ يُسْتَخَسَنُ، وَبَيْتٌ
يَسِيرُ، وَبَيْتٌ يَنْدُرُ، وَبَيْتٌ يُجَنُّ بِهِ جُنُونًا؛ وَمَا عَدَا ذَلِكَ
فَكَالشَّجَرَةُ الَّتِي تُفِضُ ثَمَرَهَا، وَجُنِي زَهْرُهَا لَا يَرْغَبُ فِيهَا
إِلَّا مَخْتَطِبٌ.

أَمَّا مَذَاهِبُهُ الَّتِي أَبَانُوهَا مِنَ الْغَزَلِ وَالنَّسِيبِ وَالْمَدْحِ
وَالِهَجَاءِ وَالْوَصْفِ وَالرِّثَاءِ وَغَيْرِهَا، فَهِيَ شُعُوبٌ مِنْهُ، وَمَا
انْتَهَى الْمَرْءُ مِنْ مَذْهَبٍ فِيهِ إِلَّا إِلَى مَذْهَبٍ، وَلَا خَرَجَ مِنْ
طَرِيقٍ إِلَّا إِلَى طَرِيقٍ؛ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ؟
وَمَا دَامَتِ الْأَعْمَارُ تَتَقَلَّبُ بِالنَّاسِ فَالشُّعْرُ أَطْوَارٌ؛ أَوْنَةُ
تَخْطُرُ فِيهِ نَسَمَاتُ الصَّبَا مَا بَيْنَ أَفْئَانِ الْوَصْفِ إِلَى أَزْهَارِ

(١) الفَجُّ من الفواكه: الذي لم يَنْضُجْ.

الغزل، ويتسبب فيه ماء الشباب من نهر الحياة إلى
مشرعة الأمل؛ وطوراً تراه جم النشاط تكاد تضقل بمائه
السيف، وتفرق بحده الصفوف؛ وحيناً تجده وقد البسه
المشيب ثوب الاعتبار، وجمله بمسحة من الوقار، وهو
في كل ذلك يروي عن الأيام وتروي عنه، وما أكثر فنون
الشعر إذا رويتها عن أفانين الأيام.

وأما ميزانه، فاعمد إلى ما تريد نقده قرده إلى الشر،
فإن استطعت حذف شيء منه لا ينقص من معناه، أو كان
في نشره أكمل منه منظوماً، فذلك الهذر بعينه أو نوع منه.
ولن يكون الشعر شِعْراً حتى تجد الكلمة من مطلقها
لمقطعها مفرغة في قالب واحد من الإجادة.

ماهية اللغة

«لسعادة أحمد فتحي باشا زغلول»^(١)

الفكر حركة نفسية يحتاج في ظهوره إلى معونة
الجهاز المخصوص الذي يكون به الكلام. وعليه، فالكلام
هو حركة ذلك الجهاز المنبعية عن مجرد الطبع، أو

(١) «أحمد فتحي باشا زغلول» [١٢٧٩ - ١٣٣٢ هـ = ١٨٦٣ -

الْمَذْفُوعَةُ بِالْإِرَادَةِ لِلتَّغْيِيرِ عَنْ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِ النَّفْسِ.
يَتَّجُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكَلَامَ يَتَنَوَّعُ بِاخْتِلَافِ الشَّارَاتِ الَّتِي تَدُلُّ
عَلَى الْأَفْكَارِ، وَأَنَّ تِلْكَ الشَّارَاتِ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:
طَبِيعِيَّةٍ وَصَنَاعِيَّةٍ.

فَالأُولَى: هِيَ الَّتِي تَصْدُرُ عَنِ الذَّاتِ مِنْ حَيْثُ هِيَ،
أَيِ بِمُقْتَضَى وُجُودِهَا الْمَادِّي. وَكُلُّ شَارَاتِ هَذَا الْقِسْمِ
عَرَضِيَّةٌ، مِثْلُ شَارَاتِ الْيَدِ وَالرَّأْسِ وَالْعَيْنِ وَبَقِيَّةِ الْأَعْضَاءِ،
وَمِثْلُ الْأَصْوَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ أَلْفَاظًا وَالْكَلَامِ أَيِ: الْمَنْطِقِ.

وَالثَّانِيَّةُ: خَارِجَةٌ عَنِ الذَّاتِ، وَهِيَ تَخْدُثُ مِنْ تَأْثِيرِ
الْإِنْسَانِ فِي الْمَادِّيَّاتِ الْخَارِجَةِ عَنْهُ، وَكُلُّ شَارَاتِ هَذَا
الْقِسْمِ جَوْهَرِيَّةٌ، بِمَعْنَى أَنَّ لَهَا دَوَامًا طَوِيلًا كَانَ أَوْ قَصِيرًا،
كَالْأَعْلَامِ وَالنَّقْشِ وَالرَّسْمِ وَالْحَفْرِ وَالكِتَابَةِ.

= هُوَ نَابِغَةُ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ عِلْمًا وَفَضْلًا، وَنَادِرَتُهَا ذِكَاةٌ وَفَهْمًا، وَأَقْدَرُ
كُتَابِهَا عَلَى التَّرْجَمَةِ الصَّحِيحَةِ الْفَصِيحَةِ الَّتِي لَا يَضِيعُ فِيهَا
مَعْنَى وَلَا يَضْطَرُّ فِيهَا لَفْظٌ، وَمَا انْتَفَعَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ فِي
عَظَمِهَا الْحَاضِرِ بِعِلْمِ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَائِهَا انْتِفَاعًا بِمُؤَلَّفَاتِهِ
وَمُتَرَجَمَاتِهِ، وَيَمْتَنَزُ فِي كِتَابَتِهِ بِالْبَيَانِ وَالْإِبْضَاحِ وَالِدَقَّةِ فِي وَضْعِ
الْأَلْفَاظِ بِإِزَاءِ مَعَانِيهَا، فَلَا يَتَجَوَّزُ إِلَّا قَلِيلًا، وَلَا يَتَخَيَّلُ إِلَّا نَادِرًا،
وَلَا يُغْرِبُ وَلَا يَتَنَدَّرُ بِحَالٍ مِنَ الْأَخْوَالِ.

وَمِمَّا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْكَلَامَ الطَّبِيعِيَّ عَامٌّ، لِكَوْنِهِ
مَفْهُومًا بِذَاتِهِ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَمِنَ الْحَيَوَانِ أحيانًا، كَمَا
هُوَ الْحَالُ بِالنَّظَرِ لِشَارَاتِ الْأَعْضَاءِ وَأَصْوَاتِ الْغَضَبِ أَوْ
الاسْتِخْسَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ اتِّفَاقٌ سَابِقٌ عَلَى
مَفْهُومِ تِلْكَ الشَّارَاتِ. وَعَلَى خِلَافِ ذَلِكَ الْكَلَامُ الصَّنَاعِيُّ
أَوْ الْإِتِّفَاقِيُّ، لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الْأَلْفَاظِ الْمَخْصُوصَةِ
الْمَوْضُوعَةِ لِلْمَعَانِي الْمَخْصُوصَةِ وَعَنِ التَّرَاكِبِ أَوْ الصَّبِغِ
النَّاتِجَةِ مِنْ تَأْلِيفِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ لِتَوْصُلِ إِلَى الدِّهْنِ بِوَاسِطَةِ
الْأُذُنِ أَوْ الْعَيْنِ مَعَانِي مَخْصُوصَةً مُتَّفَقًا عَلَيْهَا.

وَقَدْ يَتَأْتَى أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ الصَّنَاعِيُّ عَامًّا، أَي: إِنَّ
كُلَّ النَّاسِ يُذَرِّكُونَ الْمُرَادَ مِنْهُ، كَالرَّسْمِ مَثَلًا، وَعَلَى هَذَا
يَتَّضِحُ خَطَأُ تَعْرِيفِهِمُ اللُّغَةَ بِأَنَّهَا أَصْوَاتٌ يُعَبَّرُ بِهَا كُلُّ قَوْمٍ
عَنْ أَغْرَاضِهِمْ.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ اللُّغَةَ هِيَ مَجْمُوعُ الْعَادَاتِ
الْمَخْصُوصَةِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا كُلُّ أُمَّةٍ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ
أَغْرَاضِهَا بِوَاسِطَةِ الْكَلَامِ أَوْ الْكِتَابَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ مَعْنَى
الْكَلَامِ.

وَلَا يَصَحُّ إِطْلَاقُ اسْمِ اللُّغَةِ عَلَى ذَلِكَ الْمَجْمُوعِ إِلَّا
إِذَا كَانَتِ النِّسْبَةُ تَامَّةً بَيْنَ اللَّفْظِ وَمَذْلُولِهِ، لِأَنَّ قُوَّةَ اللُّغَةِ

مُتَوَقِّفَةٌ عَلَى شِدَّةِ الْمُطَابَقَةِ، بِحَيْثُ إِنَّ الْأُذُنَ أَوْ الْعَيْنَ
تَرْسُمُ فِي ذَهْنِ السَّامِعِ أَوْ الْقَارِئِ صُورَةَ الْمَذْلُولِ كَمَا
هِيَ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ شُرُوطٍ ثَلَاثَةٍ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ مَذْلُولٍ عَلَامَةٌ خَاصَّةٌ
بِهِ تَدُلُّ عَلَيْهِ دَائِمًا وَلَا تَدُلُّ عَلَى غَيْرِهِ أَبَدًا.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْعَلَامَةُ قَابِلَةً لِلتَّغْيِيرِ
بِتَغْيِيرِ الْمَذْلُولِ وَتَبَعًا لَهُ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: إِنَّهَا تَكُونَ قَابِلَةً لِلِاسْتِقْطَاعِ كَمَذْلُولِهَا،
فَإِذَا اسْتُقْتُ مِنْهَا مَذْلُولٌ اسْتُقْتُ مِنْهَا عَلَامَةٌ دَالَّةٌ عَلَيْهِ بِالشُّرُوطِ
عَيْنِهَا.

وَبِنَاءٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ تَكُونُ شُرُوطُ اللَّغَةِ الْحَقِيقَةِ بِهَذَا
الاسْمِ ثَلَاثَةً أَيْضًا.

الأول: أَنْ يَكُونَ تَغْيِيرُهَا مُحْكَمًا، وَذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنْ
تَمَامِ الْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الدَّالِّ وَالْمَذْلُولِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا إِلَّا
إِذَا سَهَّلَ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ بِقَدْرِ الْمَعْنَى وَلَمْ يَزِدِ الْمَعْنَى عَنْ
الَلْفِظِ الْمُسْتَعْمَلِ لِأَجْلِهِ، وَهَذَا الشَّرْطُ صَعْبُ التَّوْفُرِ، فَمَا
وُفِّقَتْ لُغَةٌ حَتَّى الْآنَ لِنَيْلِ هَذِهِ الْمَرْيَةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا لُغَةُ
عُلَمَاءِ الرِّيَاضَةِ، بَلْ إِنَّ اللُّغَاتِ الْأُخْرَى لَنْ تَنَالَهَا أَبَدًا.

الثَّانِي: المَلَابَسَةُ، وهي الخاصَّةُ المَوْجُودَةُ فِي
الْأَلْفَاظِ أَوْ التَّرَاكِيِبِ، أَي الصَّيْغِ، تِلْكَ الخاصَّةُ الَّتِي يُدْرِكُ
بِهَا الْفَاهِمُ نَظَائِرَ الْمَذْلُولِ وَنَقَائِضَهُ، وَالْمَلَابَسَةُ تَقْتَضِي
تَحْلِيلَ الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ، وَذَلِكَ غَيْرُ مَيْسُورٍ عَادَةً فِي اللُّغَاتِ
الْأَصْلِيَّةِ إِلَّا نَادِرًا.

الثَّالِثُ: الْوُضُوحُ التَّامُّ، وَهُوَ يَرْجِعُ لِلشَّرْطَيْنِ
السَّابِقَيْنِ، وَلِصَّنَاعَةِ تَرْتِيبِ الْأَلْفَاظِ وَتَرْكِيبِ الْجُمْلِ تَرْتِيبًا
وَتَرْكِيبًا يَتَنَفَّى مَعَهُمَا الْإِبْهَامُ وَيَرْتَفِعُ الشَّكُّ وَالْإِلْتِبَاسُ. وَمِنْ
اللُّغَاتِ مَا تَمِيلُ بِأَهْلِهَا إِلَى الْإِغْرَابِ فِي التَّعْبِيرِ، وَهَذَا هُوَ
السَّبَبُ فِي ظُلْمَتِهَا وَتَعَسُّرِ فَهْمِهَا. وَكُلَّمَا كَانَ الْقَوْلُ طَبِيعِيًّا،
أَي: بَسِيطًا، أَزْدَادَ وَضُوحًا، فَالْبَسَاطَةُ هِيَ أَمْثَلُ طُرُقِ
الْكَلَامِ، عَلَى أَنَّهَا طَرِيقَةُ الْعِلْمِ وَالْوَاقِعِ، وَهِيَ الَّتِي يَسْهُلُ
بِهَا التَّعْبِيرُ عَنِ الْأَفْكَارِ وَحَرَكَاتِ النَّفْسِ كَمَا يَنْبَغِي.

وَكَأَنِّي بِكُمْ وَقَدْ اسْتَشَجَّحْتُمْ مِمَّا ذَكَرْتُ إِلَى الْآنَ خَطَرَ
مَذْهَبِ التَّجَوُّزِ أَوْ الْإِشْتِرَاكِ فِي اللُّغَةِ، وَذَكَرْتُمْ أَنَّهُ يَذْهَبُ
بِجَمَالِهَا، وَيُخْفِي مِنْ وَضُوحِ دَلَالَتِهَا، وَيَجْعَلُهَا ثَقِيلَةً عَلَى
أَهْلِهَا، بَعِيدَةً الْمَنَالِ عَلَى طُلَّابِهَا مِنَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى.

سَمِعْتُ كَلَامًا كَثِيرًا فِي اللُّغَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَأَنَّ لَهَا
أَصْلًا أَوْ أَصُولًا تَرْجِعُ إِلَيْهَا وَتَسْتَمِدُّ رُوحَ التَّجَدُّدِ مِنْهَا،

فَأَهْلُهَا فِي حِلٍّ مِمَّا يَفْعَلُونَ؛ وَأَمَّا نَحْنُ فَلَا أَضِلُّ لِلْغَتِنَا؛
وَيَبْنُونَ عَلَى هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ نَتِيجَةً هِيَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ لَا
نُعَرِّبَ كَلِمَةً أَعْجَمِيَّةً لِنُضِيفَهَا إِلَى لُغَتِنَا الْعَرَبِيَّةِ.

الْحَقُّ أَنِّي مَا فَهِمْتُ النُّسْبَةَ بَيْنَ تِلْكَ الْمُقَدِّمَةِ وَهَذِهِ
النَّتِيجَةِ، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَضِلُّ لُغَاتِ
أُمَمٍ أوروبيةٍ الْمَعْرُوفَةِ بِهَذَا الْاسْمِ، مِنْ فَرَنْسَاوِيَّةٍ وَتِلْيَانِيَّةٍ
وَأَنْدَلُسِيَّةٍ وَغَيْرِهَا، فَأَجِدُهَا لُغَاتٍ مُمْتَازَةً تَمَاماً عَنْ ذَلِكَ
الْأَضِلِّ، بَلْ أَجِدُ الْفَرَنْسَاوِيَّ مِنْ حَيْثُ هُوَ لَا يَعْرِفُ كَلِمَةً
وَاحِدَةً مِنْ أَضِلِّ لُغَتِهِ، وَكَذَلِكَ بَقِيَّةُ مَنْ ذَكَرْنَا، وَأَرَى أَنَّ
كُلَّ لُغَةٍ حَيَّةٍ هِيَ لُغَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا، لَهَا قَوَاعِدُ
خَاصَّةٌ بِهَا وَتَرَائِكِبُ وَصِيَغٌ تَمَيِّزُهَا عَنْ أَضِلِّهَا تَمَاماً، فَإِذَا
اسْتَعَارُوا لِمُخَدَّتٍ جَدِيدٍ اسْمًا مِنْ ذَلِكَ الْأَضِلِّ، فَإِنَّمَا هُمْ
يَسْتَعِيرُونَهُ مِنْ لُغَةٍ أَعْجَمِيَّةٍ بِالنَّظَرِ إِلَى لُغَتِهِمْ. أَلَا تَرَوْنَ
أَنَّهُمْ لَا يَقْضُرُونَ الِاسْتِعَارَةَ عَلَى اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ وَيَتَعَدَّوْنَهَا
إِلَى الْيُونَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ وَأَخْيَانًا يَسْتَعِيرُونَ كَلِمَتَيْنِ مِنْ كُلِّ لُغَةٍ
كَلِمَةً، وَيَنْجِحُونَهُمَا وَيَضْفُلُونَهُمَا وَيَذْمَجُونَ هَذَا الْمَزِيجَ فِي
لُغَتِهِمْ، فَيَصِيرُ جُزْءاً مِنْهَا، وَيُفْسِحُونَ لَهُ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ
مَحَلًّا بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ أَضِلِّيَّتَيْنِ بِحَسَبِ تَرْتِيبِ حُرُوفِهِ الْأَبْجَدِيَّةِ.

إِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا. إِنَّ لِكُلِّ بَلَدٍ عَادَاتٍ فِي

أَكْلِهَا وَسُكْنَاهَا، وَلِبَاسِهَا وَأَطْوَارِهَا، وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ وُجُودُ
 أَسْمَاءٍ عِنْدَ قَوْمٍ لِمُسَمِّيَاتٍ لَا يَعْرِفُهَا قَوْمٌ آخَرُونَ، إِلَّا أَنْ
 التَّجَارَةَ وَطُرُقَ الْمُوَاصَلَاتِ تَنْقُلُ هَذِهِ الْمُسَمِّيَاتِ أَوْ تَجْعَلُهَا
 تُشَاهَدُ فِي أَمَاكِنِهَا مِنَ النَّازِحِينَ إِلَيْهَا، فَيَرَى أَهْلُ الْبَلَدِ مَا
 يَرُوقُ لَهُمْ مِنْ بَعْضِ تِلْكَ الْخُصُوصِيَّاتِ لِأَهْلِ الْبَلَدِ الْآخَرِ،
 وَلَا يَجِدُونَ مِنْ لُغَتِهِمْ نَصِيرًا عَلَى التَّغْيِيرِ عَنْهُ تَمَامًا،
 لِكِنَّهُمْ لَا يَخْتَارُونَ وَلَا يَقْصِدُونَ الْاجْتِمَاعَ تِلْوَ الْاجْتِمَاعِ
 وَلَا يَفْتَرِقُونَ شَيْعًا وَأَخْرَابًا، بَلْ يُقَدِّمُونَ عَلَى تَنَاوُلِ الْمُسَمَّى
 وَاسْمِهِ وَيَذَرُجُونَ عَلَيْهِ مِنْ سَاعَتِهِمْ، فَيَمْتَزِجُ بِلُغَتِهِمْ،
 وَيَعْرِفُهُ الْكُلُّ، وَيَتَحَرَّوْنَ فِي حَدِيثِهِمْ أَنْ يَلْفِظُوهُ كَأَنَّهُمْ فِي
 نُطْقِهِمْ بِهِ مِنْ أَهْلِهِ. وَالْأَمْثَلُ عَلَى ذَلِكَ لَا تُحْصَى، يَعْرِفُهَا
 كُلُّ مَنْ تَعَلَّمَ لُغَةً وَاحِدَةً أجنبيَّةً. هُمْ يَعْمَلُونَ ذَلِكَ حَتَّى
 فِي الْعُلُومِ، فَتَرَى الْحَكِيمَ الْفَرَنْسَاوِيَّ وَهُوَ يَقَرُّرُ مَذْهَبَهُ
 عِنْدَمَا يَأْتِي عَلَى مَا يُخَالِفُهُ مِنْ مَذَاهِبِ الْأَلْمَانِ إِذَا وَصَلَ
 إِلَى مَعْنَى خَاصٍّ بِأَحَدِهِمْ لَمْ يَفْكُرْ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ بِغَيْرِ لَفْظِهِ
 الْأَلْمَانِي، وَهَكَذَا، ثُمَّ يَذْكُرُ بِهِامِشِ كِتَابِهِ مَعْنَاهُ.

مَا كَانَ هَذَا لِيُفْسِدَ لُغَةً مِنْ تِلْكَ اللُّغَاتِ، وَلَا يُشِيرُ
 عَاطِفَةَ الْحَنَانِ وَالْإِشْفَاقِ عَلَيْهَا، بَلْ مَا أَزْدَادَتْ لُغَاتُهُمْ بِهَذَا
 إِلَّا طَلَاوَةً وَيُسْرًا، بَلْ تَكَادُ هَذِهِ الطَّرِيقَةُ تَجْرِي عِنْدَ الْأُمَمِ

الغريبة عادةً لتكون الألفاظ الغريبة عن لغتهم بُرْهَانًا عَلَى سَعَةِ مَدَارِكِهِمْ وَرَخْبِ صُدُورِهِمْ لِكُلِّ نَافِعٍ وَكُلِّ مُفِيدٍ، وَلِتَكُونَ دَلِيلًا عَلَى مَضَرِّ الْمُسَمَّى وَمُذَكَّرَةً بِجُزْءٍ مِنْ تَرْجَمَتِهِ.

قَالُوا: إِنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ عِنْدَهُمْ لِتَمَاثُلِ أَحْرَفِ هِجَائِهِمْ وَاتِّحَادِ صُورِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَا قِبَلَ لَنَا بِعَمَلِ مَا يَعْمَلُونَ لِاخْتِلَافِ أَحْرَفِ هِجَائِنَا وَصُورِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَلَسْتُ أَرَى فِي هَذَا الْإِعْتِرَاضِ إِلَّا أَنَّهُ دَلِيلُ أَحَدِ أَمْرَيْنِ، فَإِمَّا شُعُورَ بَعْجِزِنَا عَنِ الْمَجَارَاةِ لِفُتُورٍ فِي هِمَّتِنَا أَوْ قُصُورٍ فِي مَعَارِفِنَا، وَإِمَّا أَنَّ أَحْرَفَ هِجَائِنَا وَأَشْكَالِهَا وَصُورِهَا مَحْتَاجَةٌ هِيَ أَيْضًا إِلَى الْإِصْلَاحِ لِتَتِمَّكَنَ مِنْ تَنَاوُلِ كَلِمَاتِ الْغَيْرِ بِأَشْكَالٍ وَصُورٍ تَجْعَلُنَا نَنْطِقُ كَلِمَاتِهِمْ كَمَا يَنْطِقُونَ، وَنَنْقُلُ عَنْهُمْ كَمَا هُمْ عَنْ بَعْضِهِمْ يَنْقُلُونَ.

نَحْنُ إِمَّا عَرَبٌ أَوْ مُسْتَعَرِبُونَ، وَإِمَّا أَجَانِبُ عَنْ لُغَةِ الْعَرَبِ أَوْ مُوَلَّدُونَ. فَإِنْ كُنَّا الْأَوَّلِينَ فَلَنَا حَقُّنَا فِي التَّصَرُّفِ بِلُغَتِنَا كَمَا تَقْتَضِيهِ مَصْلَحَتُنَا؛ وَإِنْ كُنَّا مُسْتَعَرِبِينَ فَبِحُكْمِ قِيَامِنَا مَقَامَ أَصْحَابِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَيَكُونُنَا وَرَثَتِهَا عَنْهُمْ بَعْدَ أَنْ بَادُوا، فَلَيْسَ مَنْ لَهُ أَنْ يُنَازِعَنَا فِي اسْتِعْمَالِ مَا كَانَ مُبَاحًا لِآبَائِنَا مِنْ قَبْلِنَا؛ وَإِنْ كُنَّا أَجَانِبَ أَوْ مُوَلَّدِينَ، فَمَنْ لَهُ

أَنْ يُسَيِّطَرَ عَلَيْنَا وَيَحْرِمَنَا ثَمَرَةَ الْكَدِّ فِي حِفْظِ هَذِهِ اللُّغَةِ
وَتَفْضِيلِهَا عَلَى غَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ اللُّغَاتِ فَيُلْزِمَنَا بِالْبَقَاءِ عَلَى
الْقَدِيمِ وَيَحْكُمَ عَلَيْنَا بِالْجُمُودِ وَأَعْتِقَالِ اللِّسَانِ.

أَخَذَ الْعَرَبُ الْعُلُومَ عَنْ أَهْلِهَا، وَنَقَلُوهَا إِلَى لُغَتِهِمْ،
فَلَمَّا وَجَدُوا مِنْهَا اسْتِغْصَاءً فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ ذَلَّلُوهَا
وَأَخْضَعُوا الْغَرِيبَ عَنْهَا لِأَحْكَامِهَا، فَأَيَّسَرَتْ وَدَرَجَتْ بَعْدَ
الْجُمُودِ، فَكَانَتْ لَهُمْ نِعَمَ النَّصِيرِ عَلَى إِدْرَاكِ مَا طَلَبُوا مِنْ
نُورٍ وَعُرْفَانٍ.

نَسِينَا نَحْنُ أَنَّ زَمَانَنَا غَيْرُ زَمَانِهِمْ، فَكَانُوا أَصْحَابَ
حَوْلٍ وَطَوْلٍ وَذَوِي مَجْدٍ وَسُلْطَانٍ، وَنَحْنُ عَلَى مَا نَعْلَمُ
مِنَ الضَّعْفِ وَالْانْزِوَاءِ عَلَى أَنَّهُمْ فِي عِزِّهِمْ وَبُعْدِ فَخَارِهِمْ
وَتَمَكُّنِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَمْ يَغْتَرُّوا بِلُغَتِهِمْ، فَتَقَرَّوْا مِنَ الْعُجْمَةِ
لِأَنَّهَا عُجْمَةٌ، بَلِ اسْتَخْدَمُوهَا حَيْثُ وَجَبَ الْأَخْذُ بِهَا
تَمَكِّيناً لِللُّغَتِهِمْ وَحَذَرًا مِنْ أَنْ يُصِيبَهَا الْوَهْنُ إِذَا قَعَدُوا بِهَا
عَنْ مُجَارَاةِ تَيَّارِ التَّقَدُّمِ، وَهُمْ أُولُو الرَّأْيِ فِيهِ، وَخَوْفًا مِنْ
أَنْ يُعِيقَهُمُ الْجُمُودُ فِيهَا عَنْ حِفْظِ مَرْكَزِهِمُ الْعَظِيمِ بَيْنَ
الْأُمَمِ الَّتِي كَانَتْ تَعَاصِرُهُمْ.

أَيَجُوزُ لَنَا أَنْ نَتَخَلَّفَ عَنِ السَّيْرِ فِي طَرِيقِهِمْ
وَالِاسْتِزْشَادِ بِهَدْيِهِمْ وَالْعَمَلِ بِطَرِيقَتِهِمْ بِحُجَّةِ أَنَّهُمْ أَنْقَرَضُوا

وَبَادُوا، فَلَا حَقَّ لَنَا فِي مُتَابَعَةِ الرُّقِيِّ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ نَخْطُو
بَعْدَهُمْ خُطْوَةً إِلَى الْأَمَامِ، لَكِنْ مَنْ الَّذِي اسْتَأْجَرَنَا حُرَّاساً
مِنَ الْخُرُسِ عَلَى هَذِهِ الْوَدِيعَةِ؟ وَيَأَيُّ قُوَّةٍ أَخْضَعَنَا عَلَى
الْوُقُوفِ هَذَا الْمَوْقِفَ، مَوْقِفَ الْاسْتِكَانَةِ وَقَطَعَ الرَّجَاءَ
وَفَقَدَانِ الْهِمَّةِ وَانْجِلَالِ الْعَزَائِمِ؛ أَنْقَضَ فِي الْأَفْهَامِ، أَمْ قِصَرُ
فِي الْأَجْسَامِ، أَمْ جَهْلُ بَأْنَا مِنَ الْبَشَرِ لَنَا كُلُّ حُقُوقِ
الْإِنْسَانِ؟

لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَمَسَّكَ بِالْقَدِيمِ لِقَدَمِهِ، وَإِنْ أَضْبَحَ عَدِيمَ
الْجَدْوَى، وَإِلَّا فَأَوْلَى بِنَا أَنْ نَكْفَ عَنِ الدَّرْسِ وَالْمُطَالَعَةِ،
وَأَنْ نَكْتَفِيَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِمَا وَرِثْنَا عَنِ الْآبَاءِ لِنَعِيشَ كَمَا
عَاشَ الْأَوَّلُونَ! غَيْرَ أَنِّي أَرْجُوكُمْ أَنْ تَتَعَلَّمُوا الصَّبْرَ فَلَا
تَجْزَعُوا إِذَا أَصَابَتْكُمْ مَصَائِبُ التَّقَدُّمِ، فَتُرِكْتُمْ آخِرَ الْقَوْمِ،
وَلَا تَجْزَعُوا إِذَا هَصَرَتْكُمْ عَوَامِلُ الرُّقِيِّ فَمُنِيتُمْ بِمَنْ يَقِفُ
مُتَفَرِّجاً عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ كَالصُّورِ الْمُتَحَرِّكَةِ النَّاظِقَةِ، لَكِنَّهَا
تَتَحَرَّكُ بِحَرَكَةٍ هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ اهْتِزَازِ الشَّيْءِ مَكَانَهُ، وَتَنْطِقُ
بِلُغَةٍ دَائِرَةٌ قَدْ خَلَتْ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أَضْبَحَ دَارِجاً عَلَى
أَلْسِنَةِ الْمُتَفَرِّجِينَ.

خَافَ خُصُومُ مَذْهَبِنَا عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَحَسِبُوهَا
طَعَاماً سَهْلَ التَّنَاولِ وَالْهَضْمِ فِي مَعَدِّ اللُّغَاتِ الْأَعْجَمِيَّةِ،

فَاسْتَجَارُوا مِنْ التَّغْرِيبِ، وَصَاحُوا: إِنَّا لَا نَطِيقُ أَسْمَاءً
أَعْجَمِيًّا يَدْخُلُ عَلَيْهَا.

أَلَيْسَتْ هِيَ تِلْكَ اللُّغَةُ الْحَافِلَةُ بِالْأَلْفَافِ وَالتَّرَاكِبِ
الْعَالِيَةِ، وَالْقَوْلِ الْفَصِيحِ، الْمَصُونَةُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ
رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَهِيَ لَمْ تَتَأَثَّرْ بِبَعْضِ
كَلِمَاتٍ تَدْخُلُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ عَامٍ، بَلْ إِنَّ هَذَا الْعَمَلَ مِمَّا
يُؤَيِّدُهَا، وَيَشُدُّ أَرْزَاقَهَا، وَيَرْفَعُ مَقَامَهَا بَيْنَ اللُّغَاتِ، فَلَا يَطْمَعُ
الْأَعَاجِمُ فِي اغْتِبَارِهَا مِنَ اللُّغَاتِ الْمَيِّتَةِ.

قَالُوا: ذَلِكَ يُفْسِدُ عَلَيْنَا لُغَةَ الْقُرْآنِ، وَلَا خَوْفَ عَلَى
الْقُرْآنِ مَا دَامَ فِي الْوُجُودِ مُسْلِمٌ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْقُرْآنَ
مَحْفُوظٌ مَصُونٌ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْعَرَبِيَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟
إِلَيْكُمْ التُّرْكُ وَالْهِنْدُ وَالصِّينَ وَالْقُوقَازَ وَالرُّوسِيَّةَ، تِلْكَ أُمَّةٌ
تَعُدُّ خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَا يَعْرِفُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ غَيْرَ
لُغَةِ أُمَّتِهِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَخْرِصُ عَلَى الْقُرْآنِ أَشَدَّ مِنْ
حِرْصِ الْجَبَانِ عَلَى دِمِهِ، أَيْعِزُّكُمْ أَنْ تُحَافِظُوا عَلَى الْقُرْآنِ
بِيَمِينِكُمْ وَتُفْسِحُوا الْمَجَالَ فِي لُغَتِكُمْ لِلتَّقَدُّمِ بِالْيَسَارِ لِنَتَالُوا
السَّعَادَتَيْنِ، وَتَكُونُوا مِنَ النَّاجِحِينَ فِي الدَّارَيْنِ؟

قَالُوا: الْعِلْمُ نَافِعٌ.

قالوا: كَثِيرٌ مِنْهُ مُخَالِفٌ لِلدِّينِ.

قالوا: الْحَضَارَةُ تُهَدِّدُنَا فَلَنَتَّقِهَا.

قالوا: هِيَ تُخَالِفُ الدِّينَ.

قالوا: حَدَّثْتُ مُسْتَحْدَثَاتٍ، فَسَمُّوَهَا.

قالوا: حَرَامٌ عَلَيْكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ.

مِنْ جَرَاءِ هَذَا قَالَ الْفِرَنْجُ: إِنَّا قَوْمٌ جَامِدُونَ! وَمَا جُمُودُنَا إِلَّا مِنَ الدِّينِ! فَصِخْنَا مَعَ هَذَا وَقُلْنَا لَهُمْ: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ ظَالِمُونَ، مَا لَنَا وَلِلدِّينِ نَجْرُهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَنُقِيمُهُ حَاجِزاً فِي وَجْهِ كُلِّ بَاحِثٍ، حَتَّى فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَأْمُرُ هُوَ بِتَنَاوُلِهَا! يَأْمُرُنَا الدِّينُ بِتَعَلُّمِ مَا خَلَقَ اللَّهُ، وَأَنْ نَسِيرَ عَلَى سُنَّةِ التَّقَدُّمِ الَّتِي سَنَّا لِلْبَشَرِ، وَنَخْضُ كُلَّ يَوْمٍ فِي إِحْجَامٍ بِدَعْوَى يَعْزِمُ اللَّهُ مِقْدَارَ بُعْدِهَا عَنِ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ.

عَلَيْكُمْ بِالتَّقَدُّمِ، فَادْخُلُوا أَبْوَابَهُ الْمَفْتَحَةَ أَمَامَكُمْ، وَلَا تَتَأَخَّرُوا، فَلَسْتُمْ وَخَدَّكُمْ فِي هَذَا الْوُجُودِ، وَلَا تَقْدَمَ لَكُمْ إِلَّا بِلُغَتِكُمْ فَأَغْنُوا بِهَا، وَأَصْلِحُوهَا، وَهَيِّئْهَا لِتَكُونَ آلَةً صَالِحَةً فِيمَا تَبْتَغُونَ، لَكِنْ لَا تُكْثِرُوا مِنَ الْأَشْتِقَاقِ الْخَارِجِ عَنْ حَدِّ الْقِيَاسِ الْمَعْقُولِ، وَلَا تُشَوِّهُوا صُورَتَهَا الْجَمِيلَةَ بِتَعَدُّدِ الْأَشْتِرَاكِ أَوْ التَّجَوُّزِ، ثُمَّ لَا تَقْفُوا بِهَا مَوْقِفَ الْجُمُودِ؛

وَالْعُجْمَةُ تُهَدِّدُهَا عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَامَّةِ، وَهِيَ لَا تَلْبَثُ أَنْ
تَدْخُلَ عَلَى لُغَةِ الْخَاصَّةِ. أَقِيمُوا فِي وَجْهِ هَذَا السَّيْلِ
الْجَارِفِ سَدًّا مِنَ الْاِشْتِقَاقِ الْمَعْقُولِ وَالتَّرْجَمَةِ الصَّحِيحَةِ
والتَّعْرِيبِ عِنْدَ الضَّرُورَةِ لِتَكُونُوا مِنَ النَّاجِحِينَ.

حَقِيقَةُ الشُّعْرِ

«لِلأَمِيرِ شَكِيبِ أَرْسَلَانَ»^(١)

الشُّعْرُ قَوْلٌ ثَقِيلٌ وَعِبٌّ عَقْلِيٌّ بَاهِظٌ، لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ
سِوَى الْخَنَازِيدِ^(٢) الْقُرْحِ^(٣)، وَالْمَغَاوِرِ السُّبْقِ؛ وَلَا يُجِيدُهُ

(١) «الأمير شكيب أرسلان» [١٢٨٦ - ١٣٦٦ هـ = ١٨٦٩ - ١٩٤٦ م].

شاعِرٌ من عُيُونِ شعراءِ العصر، وكاتبٌ من أَقْدَرِ كتّابه على
البيانِ الفَصِيحِ، واللَّفْظِ الجَزَلِ، ويمتازُ في الصناعتينِ بِسُرْعَةِ
البَدِيعَةِ، والذَّهَابِ مَذَهَبِ الطَّرِيقَةِ البَدَوِيَّةِ في الأسلوبِ، وهو
أَحَدُ عُلَمَاءِ الْأَدَبِ الَّذِينَ لَا يَنْطِقُونَ إِلَّا عَنْ عِلْمٍ رَاسِخٍ، وَأَدَبٍ
مَكِينٍ، وَلَوْ كَانَ لِلأَدَبِ عِنْدَهُ مِنَ الْحِظِّ مَا لِلسياسةِ لَرَفَعَ مِنْ
شَأْنِهِ مَا قَصَرَتْ عَنْهُ أَيْدِي سِوَاهِ.

(٢) الْخَنَازِيدُ: الشاعرُ المَجِيدُ.

(٣) الْقَارِحُ من ذِي الْحَاوِرِ: الَّذِي شَقَّ نَابُهُ وَطَلَعَ.

إِلَّا النَّاخِعُونَ^(١) الْكُمَّلُ أُولُو الْقُوَّةِ الْبَاهِرَةِ، وَالْمُنَّةِ^(٢)
 الْوَثِيقَةِ، وَالسَّلِيقَةِ الْفَائِقَةِ، وَالطَّبِيعَةِ الصَّافِيَةِ، الَّتِي لَا تُتَاخُ
 إِلَّا لِلْأَحَادِ، وَلَا يُؤْتَاهَا إِلَّا الْأَفْرَادُ، يَكَادُ قَائِلُهُ يَتَجَرَّدُ مِنْ
 عَالَمِ الْمَادَّةِ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ، وَشُفُوفِ جِسْمِهِ؛ وَيَلْحَقُ بِالْمَلَأِ
 النُّورَانِيِّ فِي مَضَاءِ عَزْمِهِ، وَوَزِي زَنْدِهِ، وَسُرْعَةِ فِكْرِهِ؛ وَلَوْ
 كَانَتْ الْكَهْرَبَائِئَةُ شَخْصاً لَكَانَتْ هِيَ الشَّاعِرُ.

وَحَسْبُكَ أَنَّ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ لَهُمُ الْأَوَّلِيَّةُ فِي الْبَيَانِ كَمَا
 فِي الزَّمَانِ كَانُوا يَخْسَبُونَ الشُّعْرَ قُوَّةً مِنْ وَرَاءِ الطَّبِيعَةِ،
 وَرُبَّمَا جَعَلُوا لَهُ شَيَاطِينَ. وَكَانَ الشُّعْرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ دَوْلَةً
 وَمُلْكاً، وَإِذَا أَجَادَهُ وَاحِدٌ تَهَيَّبُوهُ تَهَيَّبَ الْأُمَرَاءُ، وَأَجْلَوْهُ
 إِجْلَالَ الرُّؤَسَاءِ؛ وَإِذَا تَذَبَذَّبُوا فِي الْإِيمَانِ بِرُسُولِ بَهْرَتِهِمْ
 آيَاتُهُ، وَأَفْحَمَتُهُمْ مُعْجَزَاتُهُ، أَحَالُوا إِعْجَازَهُ عَلَى الشُّعْرِ! كَأَنَّهُ
 الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ تَنْزَلَ عَنْهَا الْآيَاتُ مِنْ عَتَبَةِ
 الْوَحْيِ. نَعَمْ! إِنَّ الشُّعْرَ قُوَّةٌ رُوحِيَّةٌ يُفِيضُهَا اللَّهُ عَلَى مَنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، فَتُحَلَّقُ بِالشَّاعِرِ تَخْلِيقَ الْأَجْنِحَةِ بِالطَّائِرِ،
 وَتَطُوفُ بِهِ فِي سَبْعِ سَمَوَاتِ الْخِيَالِ، فَيَرَى الطَّبِيعَةَ فِي

(١) يقال: نَخَع بالامر: إذا كان به خييراً.

(٢) المُنَّة: القوة.

أَفْخَمَ مَشَاهِدَهَا، وَأَشْمَخَ شُرَفَاتِهَا، وَأَبْهَى مَجَالِيهَا، وَأَشْجَى
أَصْوَاتِهَا، وَأَذَكَّى أَعْرَافِهَا، وَيَنْفُثُ مَا شَاهَدَهُ مِنْ هَذِهِ
الْمَرَاتِي الْمُجَسِّمَةِ فِي قَوَالِبَ مِنَ النُّطْقِ، فَتَقَّ اللَّهُ بِهَا لِسَانَهُ
الِهَائِلَ، فَجَاءَتْ شَبِيهَةً بِمَوْضُوعِهَا، وَتَحَدَّرَ بِهَا تَحَدَّرَ السَّيْلِ
فِي صَبَبٍ، وَهَتَفَ الْمَقَامُ بِالْمُقِيمِ، وَطَلَبَ الْعُلُوُّ بَغْضَهُ
بَغْضًا، وَتَجَادَبَتِ الْبِدَائِعُ، وَصَدَقَتْ نِسْبَةُ الرُّوَائِعِ فَفَصَلَ
الْكَلَامُ عَمَّا شِئْتَ مِنْ فِكْرِ سَامٍ وَمَقَامٍ شَرِيفٍ، وَمَا أُرِدْتَ
مِنْ مَعْنَى بِكْرٍ وَلَفْظٍ فَخْلٍ؛ لِذَلِكَ قِيلَ: إِنَّ الشُّعْرَ هُوَ لُغَةٌ
تَامَةٌ.

وَإِذَا تَغَلَّغَلَ الشَّاعِرُ فِي أَنْحَاءِ النَّفْسِ وَأَخْنَاءِ الْقَلْبِ،
وَهَامَ فِي أَوْدِيَةِ الْإِنْفِعَالِ، وَأَخَذَ يُؤَدِّي مِنْ هُنَاكَ مَا يُلْقِيهِ
إِلَيْهِ مُضَاعَفًا: هَوَى مُلِحٌ، وَشَوْقٌ هَافٍ، وَحُبٌّ شَاغِفٌ،
وَتَمَنُّ وَاصِبٌ، وَتَوَسُّلٌ هَالِعٌ، وَرَغْبَةٌ وَرَهْبَةٌ، وَإِيمَانٌ كَلِيمَانٌ
الْعَجَائِزُ؛ ثُمَّ آبَ مِنْ أَوْدِيَةِ إِحْسَاسَاتِهِ، وَأَعْطَافِ فِرَاسَاتِهِ،
مُفْضِيًا بِذَلِكَ إِلَى سَامِعِيهِ أَشْجَى وَأَضْبَى، وَأَرْقَصَ وَأَبْكَى،
وَأَحْرَقَ وَرَوَّى، وَنَضَّرَ وَأَذَوَّى، وَأَيْسَسَ وَأَرْجَى، وَأَفْقَرَ
وَأَغْنَى، وَأَسْعَدَ وَأَشْقَى، وَبَلَغَ مِنْ كُلِّ مَقَامٍ، الْغَايَةَ
الْقُصْوَى، وَجَذَبَ بِأَفْنَانِ سِدْرَةِ الْمُتَهَنَّى.

فَالشُّعْرُ إِذَنْ مَظْهَرُ الْمَرْءِ فِي أَسْمَى خَوَاطِرِ فِكْرِهِ،

وَأَقْصَى عَوَاطِفِ قَلْبِهِ، وَأَبْعَدَ مَرَامِي إِذْرَاكِهِ، وَالشُّعْرُ هُوَ
رُؤْيَةُ الْإِنْسَانِ الطَّبِيعَةَ بِمِرَاةِ طَبْعِهِ، فَهُوَ شُعُورٌ عَامٌّ، وَحِسٌّ
مُسْتَفْرِقٌ، يَأْخُذُ الْمَرْءَ بِكُلِّيَّتِهِ، وَيَتَنَاوَلُهُ بِجَمِيعِ خَصَائِصِهِ
حَتَّى يَرُوحَ نَشْوَانُ خَمَرَتِهِ، أَسِيرَ رَايَتِهِ، وَيُربِّيه الْأَشْيَاءَ
أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، وَيُصَوِّرُهَا بِأَلْوَانٍ سَاطِعَةٍ، وَحُلًى مُؤَثِّرَةً
تَفُوقُ الْحَقَائِقَ، وَرُبَّمَا أَزْرَثَ بِهَا، وَصَرَفَتِ النَّفْسَ عَنِ
النَّظَرِ إِلَيْهَا، فَهُوَ أَخْيَانًا أَحْسَنُ مِنَ الْحُسْنِ، وَأَجْمَلُ مِنَ
الْجَمَالِ، وَأَشْجَعُ مِنَ الشَّجَاعَةِ، وَأَعَفُّ مِنَ الْعَفَافِ، وَإِنَّ
الظَّنِّيَّ فِي قَصِيدَةِ غَيْرِ الظَّنِّيِّ فِي فَلَاةٍ، بَلْ غَيْرِ الظَّنِّيِّ فِي
مُلَاءَةٍ؛ وَإِنَّ الْأَسَدَ فِي مَنْظُومَةٍ غَيْرِ الْأَسَدِ فِي مَفَازَةٍ، وَذَلِكَ
حَيْثُ كَانَ الشُّعْرُ كَلَامًا يُلْقَى بِلِسَانِ الْإِحْسَاسِ، وَنُطْقًا يَنْزِلُ
عَنْ وَحْيِ الْمُخَيَّلَةِ، وَأَوْصَافًا يُفْضِي بِهَا الشُّوقُ، وَإِنَّمَا
كَانَتْ الْمِبَالِغَةُ زِيَادَةً عَلَى الْحَقِيقَةِ لِتَمْكِينِ السَّامِعِ مِنَ
الْوُصُولِ إِلَى مِقْدَارِ الْحَقِّ وَالْجِرْصِ عَلَى أَنْ لَا يَنْقَطِعَ مِنْهُ
قِسْمٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِلْقَاءِ، وَفِي أَثْنَاءِ الْإِنْتِقَالِ؛ فَكَأَنَّ هَذِهِ
الزِّيَادَةُ جُعِلَتْ لِتَمْلَأَ الْفَرَاغَ الْوَاقِعَ بَيْنَ الْمُذْرِكِ وَالْمُذْرَكِ،
حَتَّى لَا يَصِلَ إِلَى الدُّهْنِ إِلَّا كَامِلًا بِكُلِّ قُوَّتِهِ، وَلَا يَحُلُّ
فِي الْعَقْلِ إِلَّا بِجَمِيعِ حَاشِيَّتِهِ.

وَلِلشُّعْرِ سَعَةُ الْمَذْهَبِ وَالتَّفَنُّنِ فِي شُعُوبِ الْقَوْلِ

بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْمَطَالِبُ، فَهُوَ مَلِكُ الْكَلَامِ، يَتَصَرَّفُ فِيهِ
 كَيْفَ يَشَاءُ، فِيهِ تَجَسُّيْمُ الْمُجَرَّدِ، وَتَجْرِيدُ الْمُجَسِّمِ، وَتَشْبِيهُ
 الْمُجَرَّدَاتِ بِالْمَحْسُوسَاتِ، وَتَلْطِيفُ الْمَحْسُوسَاتِ إِلَى
 دَرَجَةِ الْمُجَرَّدَاتِ؛ فَتَارَةً يُجَسِّمُ الْمُجَرَّدَ حَتَّى يَكَادُ يُحَسُّ
 وَيُمَسُّ، وَتَقَعُ عَلَيْهِ الْأَيْدِي وَتَنْعَكِسُ أَشِعَّةُ نُورِهِ عَلَى
 الْعَيْنِ، وَتَهْتَزُّ دَقَائِقُهُ فَتَهْزُّ بِالْهَوَاءِ طَبْلَةَ الْأُذُنِ، وَطَوْرًا
 يُهْفَفُ^(١) بِهِ الْمَلْمُوسُ، وَيُهْلَهُلُ الْمَحْسُوسُ، حَتَّى يَشِفَّ
 شُفُوفَ الْبَلُّورِ، وَيَسْطَعَ مِنْ وَرَائِهِ النُّورُ؛ فَإِذَا شَاءَ هَلْهَلَ،
 وَإِذَا شَاءَ أَجْزَلَ، وَإِذَا شَاءَ أَذَابَ، وَإِذَا شَاءَ أَجْمَدَ، وَكَأَنَّهُ
 كِيمِيَاءُ الْكَلَامِ، يُرَكَّبُ مِنْ أَجْزَائِهِ مَا يُرِيدُ لِيُبْرِمَ الصُّورَةَ
 الَّتِي يَرِسِمُهَا الْخَيَالُ.

وَعَلَيْهِ، فَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ ذَلَاقَةِ الْمَنْطِقِ، وَقُوَّةِ التَّأْدِيَةِ،
 وَعُلُوِّ اللِّسَانِ الْمُتَرْجِمِ بِهِ ذَلِكَ الشُّعُورِ السَّامِيِّ؛ فَأَنْتَى
 لِلْكَلامِ أَنْ يُحِيطَ بِهَاتِيكَ الْانْفِعَالَاتِ؟ وَأَنْتَى لِلشَّاعِرِ أَنْ
 يَتَغَنَّى لِسَانَهُ بِكُلِّ مَا يَتَغَنَّى بِهِ جَنَانُهُ؟ وَأَيْنَ الثُّرَيَّا مِنْ يَدِ
 الْمُتَنَاوِلِ؟ فَإِنَّ اللُّغَةَ رُمُوزٌ مَخْدُودَةٌ، وَإِشَارَاتٌ مَخْصُوصَةٌ،
 وَهِيَ تَطْمَعُ أَنْ تُعَبِّرَ عَمَّا فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالنَّفْسِ

(١) هَفَفَهُ: جعله مُهْفَفًا، وهو: الضامِرُ أو الرقيق.

البَشَرِيَّةُ عَالَمٌ بِنَفْسِهِ، لَا تُذَرِّكُ لَهُ الْبَصِيرَةُ أَفْقًا، وَبَحْرٌ لَا تَعْرِفُ لَهُ قَرَارًا، وَلِذَلِكَ كَانَ أَشْعَرُ النَّاسِ أَمَكْنَهُمْ مِنْ هَاتِيكَ الْخَيَالَاتِ وَتِلْكَ الْعَوَاطِفِ أَنْ يَزِفَّهَا فِي أَبْهَجِ حُلَاهَا وَأَسْطَعِ أَلْوَانِهَا، وَهَذَا هُوَ أَتَمُّ النَّاسِ لُغَةً.

فَكَيْفَ لَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ الشُّعْرَاءُ أَمْرَاءَ الْكَلَامِ، وَمُلُوكَ الْأَلْسِنَةِ؟ وَلَا يَكُونُ لَهُمُ التَّصَرُّفُ بِاللُّغَاتِ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا فِي النَّزْعِ وَالْإِثْبَاتِ؟ وَالشُّعْرُ يَبْقَى بَقَاءَ الشَّمْسِ، وَيَسِيرُ مَسِيرَ الْأَرْضِ، وَقَدْ رَوَاهُ الْخَلْفُ عَنِ السَّلَفِ، وَتَدَارَسَهُ النَّاسُ مِنْذُ أَيَّامِ الْعَرَبِ الْبَائِدَةِ، وَحَفِظُوا شِعْرَ جَدِيسٍ وَعَادٍ، وَقَدْ مُحِيتْ رُسُومُ إِرَمِ ذَاتِ الْعِمَادِ، وَكَانَ مِنْ آلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ ثَلَاثُونَ مَلِكًا بَادُوا وَبَادَ ذِكْرُهُمْ وَبَقِيَ ذِكْرُهُ وَخَدَهُ بِمَا أَمْسَكَهُ مِنْ شِعْرِهِ وَمَكَّنَهُ مِنْ قَوْلِهِ السَّائِرِ فِي الْأَعْقَابِ الْمُتَسَلِّسِ فِي الْأَيَّامِ تَسْلُسِلَ النُّطْفِ فِي الْأَضْلَابِ. وَأَيُّ رَجُلٍ مِنَ الْيُونَانِ بَقِيَ ذِكْرُهُ بَقَاءَ ذِكْرِ هُومِيرُوسَ، مَعَ كَوْنِ بَعْضِهِمْ شَكَّ فِي مُجَرَّدِ وُجُودِهِ؟ بَلْ أَيُّ صَغِيرٍ مِنْ صِغَارِ الْعَرَبِ لَا يَسْمَعُ بِذِكْرِ الْمُتَنَبِّيِّ، وَلَا يُحِلُّ أَسْمَهُ فِي أَوَائِلِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَطْرُقُ ذَاكِرَتُهُ، وَيَتَعَلَّمُهَا مِنْذُ طُفُولِيَّتِهِ، وَقَدْ لَا تَعْرِضُ لَهُ أَسْمَاءُ أَشْهَرِ الْمُلُوكِ إِلَى زَمَنِ كُهُولَتِهِ؟

نَعَمْ! إِنَّ الشُّعْرَاءَ هُمْ سَدَنَةُ هَيَاكِلِ الْبَيَانِ، وَبِهِمْ
تُحْفَظُ اللُّغَةُ، وَمِنْهُمْ يُعْرَفُ تَارِيخُ الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ، وَعَلَيْهِمْ
مُعَوَّلُ الْقُلُوبِ إِذَا أَضْدَأَتْهَا الْكُرُوبُ، وَإِنَّ أَبْقَى آثَارِ
الْأَدَمِيِّينَ هُوَ الْقَوْلُ، وَأَبْقَى أَصْنَافِ الْقَوْلِ هُوَ الشُّعْرُ، لِأَنَّ
النَّثْرَ - كما يقال - يَتَنَاثَرُ تَنَاثُرَ الشَّرَرِ، وَالنَّظْمَ يَرْسَخُ رُسُوخَ
النَّقْشِ فِي الْحَجَرِ، بَلْ قَدْ تُمَحَى النُّقُوشُ مِنْ صَفَحَاتِ
الْحَجَرِ وَلَا تُمَحَى الْأَشْعَارُ مِنْ رُؤُوسِ الْبَشَرِ.

مُقَابَلَةٌ

بَيْنَ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ وَالشُّعْرِ الْإِفْرَنْجِيِّ

«للشيخ نجيب الحداد»^(١)

الشُّعْرُ هُوَ الْفَنُّ الَّذِي يَنْثَقُلُ الْفِكْرُ مِنْ عَالَمِ الْحِسِّ إِلَى

(١) «الشيخ نجيب [بن سليمان] الحداد» [١٢٨٣ - ١٣١٦ هـ =
١٨٦٧ - ١٨٩٩ م].

كَاتِبٍ مِنْ أَحْسَنِ كِتَابِ هَذَا الْعَصْرِ، وَشَاعِرٍ مِنْ أَرْقِ شُعْرَائِهِ،
وَمُتَرَجِّمٍ مِنْ أَقْدَرِ الْمُتَرَجِّمِينَ عَلَى التَّرْجُمَةِ السَّهْلَةِ الْفَصِيحَةِ
السَّائِغَةِ؛ وَلَقَدْ مَرَّ عَلَى وَفَاتِهِ بِضْعُ سِنِينَ، وَلَمْ أَرِ بَيْنَ السُّورِيِّينَ
وَالْمِصْرِيِّينَ مِنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُ فِي تَرْجُمَةِ الرِّوَايَاتِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ،
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْآثَارِ إِلَّا رَوَايَةُ «غُضُنُ الْبَانِ» وَرَوَايَةُ
«الْفَرَسَانِ الثَّلَاثَةِ» لَكَفَاهُ.

عَالَمِ الْخَيَالِ، وَالْكَلَامِ الَّذِي يُصَوِّرُ أَرْقَ شَعَائِرِ الْقُلُوبِ عَلَى
أَبْدَعِ مِثَالٍ؛ وَالْحَقِيقَةُ الَّتِي تَلْبَسُ أَخِيَانًا أَثْوَابَ الْمَجَازِ،
وَالْمَعْنَى الْكَبِيرُ الَّذِي تُبْرِزُهُ الْأَفْكَارُ فِي أَحْسَنِ قَوَالِبِ
الِإِيجَازِ، وَأَخْفَى وَجْدَانَاتِ النَّفْسِ تَتَمَثَّلُ لِلْمَرْءِ فَيَحْسَبُهَا
سَهْلَةً وَهِيَ مُنْتَهَى الْإِبْدَاعِ وَالْإِعْجَازِ؛ بَلْ هُوَ الْآنَةُ الَّتِي
تَخْرُجُ مِنْ قَلْبِ الثَّكْلَانِ، وَالنَّعْمَةُ الَّتِي يَتَرَنَّحُ لِتَرْدِيدِهَا
الطَّرُوبُ النَّشْوَانُ، وَالشُّكْوَى الَّتِي تُخَفِّفُ لَوْعَةَ الشَّاكِي
وَيَأْنَسُ بِهَا الْمُحِبُّ الْوَلَهَانُ؛ بَلْ هُوَ الْحِكْمَةُ يَجِدُهَا الْحَكِيمُ
فَيُبْرِزُهَا بِمَا يَلِيقُ بِهَا مِنْ مُحَاسِنِ اللَّفْظِ، وَيُوزَنُ بَيْنَ أَجْزَائِهَا
مُوزَانَةً تُحِبُّ وَرُودَهَا عَلَى الْأُذُنِ وَتُقَرَّبُ مَنَالَهَا مِنَ الْحِفْظِ،
وَالْجَمَالَ تَرَاهُ الْعَيْنُ فَتُحِبُّ أَنْ تَحْفَظَ ذِكْرَاهُ، فَتُبْقِيهِ صُورَةً
مَائِلَةً يَرَاهُ بِهَا مَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ رَآهُ. وَمَنْ نَظَرَ فِي تَارِيخِ
الشُّعُوبِ وَسِيرَةِ الْأُمَمِ لَمْ يَجِدْ شَعْبًا وَلَا أُمَّةً بَلَغَتْ غَايَةَ مِنْ
الْمَدَنِيَّةِ، أَوْ تَأَخَّرَتْ دَرَجَاتٍ فِي الْهَمَجِيَّةِ، إِلَّا كَانَ لِلشُّعْرِ
مِنْهَا نَصِيبٌ وَلِلنَّظْمِ بَيْنَ أَفْرَادِهَا سَجِيَّةٌ. يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ
الْإِنْسَانَ شَاعِرٌ كَمَا هُوَ نَاطِقٌ بِالطَّبْعِ، وَأَنَّ الطَّبِيعَةَ تَقْتَضِي
التَّوَازُنَ وَالْإِنْتِظَامَ فِي عُنَاصِرِهَا وَسَائِرِ كَائِنَاتِهَا وَأَحْوَالِهَا، وَمَا
أَحْسَبُ الشُّخْرُورَ يُغْنِي وَالْقَمَرِيَّ يَنُوحُ إِلَّا وَلَهُمَا مِنْ أَنْتِظَامٍ
تَغَارِيْدِهِمَا طَرَبٌ، وَمِنْ وَزْنٍ أَلْحَانِهِمَا سُرُورٌ؛ هُوَ مَسْرَةٌ

الشَّعْرِ فِي النَّفْسِ، وَطِيبُ أَوْزَانِهِ عَلَى الْأُذُنِ، وَخِفَةُ تَقْطِيعِهِ
عَلَى الْحَوَاسِّ. وَمَا الْغِنَاءُ لَوْلَا تَوَازُنُ نَبْرَاتِهِ وَتَشَابُهُ إِيقَاعِهِ إِلَّا
صَوْتُ مُمِلٍّ لَا مَعْنَى لَهُ وَلَا تَأْثِيرَ فِيهِ.

وَلَقَدْ أُولَعْتُ بِهَذَا الْفَنِّ مُنْذُ الصَّبِيِّ، وَصَرَفْتُ لَهُ مِنْ
أَوْقَاتِ الْفَرَاغِ بُرْهَةً طَوِيلَةً، قَرَأْتُ فِيهَا دَوَائِينَ الْعَرَبِ وَنَظْمَ
الْمُجِيدِينَ مِنْ شُعَرَائِهِمْ، ثُمَّ قَرَأْتُ كَثِيرًا مِنْ شِعْرِ
الْفَرَنْسِيِّسِ وَشِعْرِ غَيْرِهِمْ مَنَقُولًا إِلَى لُغَتِهِمْ، كَشِعْرِ الْيُونَانِ
وَالرُّومَانِ وَالْإِنْكَلِيزِ وَالْأَلْمَانِ وَالطُّلِيَانِ، وَكُلُّهُمْ مِنْ شُعَرَاءِ
الدُّنْيَا الْمَعْدُودِينَ الَّذِينَ لَمْ تُتَرْجَمْ أَقْوَالُهُمْ إِلَى اللُّغَةِ
الْفَرَنْسَوِيَّةِ إِلَّا لِشُهْرَتِهَا وَإِبْدَاعِ نَاطِظِيهَا، مِثْلُ: هُومِيرُوسَ
وَفَرْجِيلَ وَتَاسَ وَدَانْتِي وَشِكْسْبِيرَ وَشِيلَرَ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ
الشُّعْرِ الْإِفْرَنْجِيِّ الَّذِينَ تُضْرَبُ بِهِمُ الْأَمْثَالُ، وَيُسْتَشْهَدُ
بِأَقْوَالِهِمْ فِي كُلِّ مَقَالٍ.

وَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ لَا تَسْعُنِي مُخَالَفَتُهُ أَنْ أَسْتَعِينَ بِمَا
تَوَصَّلْتُ إِلَيْهِ مِنْ قِرَاءَةِ الشُّعَرَيْنِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِفْرَنْجِيِّ عَلَى
وَضْعِ مَقَالَةٍ أُبَيِّنُ فِيهَا الْمَقَابِلَةَ بَيْنَهُمَا، وَأَتَكَلَّمُ عَنِ الْفَرْقِ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَهْلِ الْغَرْبِ فِي مَعَانِي الشُّعْرِ، وَأَنْوَاعِ إِبْرَادِهِ،
وَأَذْوَاقِ نَاطِظِيهِ، وَطَرَائِقِ الْبَيَانِ فِي مَأْخِذِهِ، وَإِبْرَازِ الْمَقَاصِدِ
مِنْهُ إِلَى مَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنْ قَوَاعِدِ نَظْمِهِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ

عِنْدَ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ. وَهُوَ وَلَا شَكَّ مَطْلَبُ عَسِيرٍ وَنِيَّةٌ^(١)
بَعِيدَةٌ تَقِفُ دُونَ غَايَتِهَا سَوَابِقُ الْأَقْلَامِ، وَتَخْسُرُ دُونَ
إِدْرَاكِهَا بِصَائِرِ الْأَفْهَامِ. إِذْ يَتَّبِعِي لِلكَاتِبِ أَنْ يَعْلَمَ لُغَةً كُلُّ
شَاعِرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ، وَيَعْرِفُ مَنْزِلَتَهُ الشُّعْرِيَّةَ فِي أَهْلِ
لِسَانِهِ، وَيَكُونُ قَادِرًا عَلَى الْحُكْمِ فِي شِعْرِهِمْ، وَبَيَانِ الْفَرْقِ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشُّعْرِ عِنْدَنَا، مِمَّا يَسْتَلْزِمُ عِلْمًا كَبِيرًا، وَخِبْرَةً
وَاسِعَةً بِجَمِيعِ هَذِهِ اللُّغَاتِ.

وَلَكِنِّي لَسْتُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَنَا فِي هَذَا
الْبَحْثِ مِنْ حَيْثُ الْفَصَاحَةُ اللَّفْظِيَّةُ وَالتَّرَاكِبُ اللَّغَوِيَّةُ، بَلْ
أَتَعَرَّضُ لِلْكَلامِ فِيهِ مِنْ حَيْثُ الْمَعَانِي الشُّعْرِيَّةُ الَّتِي وَقَفْتُ
عَلَيْهَا مَنْقُولَةً إِلَى اللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ عَنْ جَمِيعِ هَذِهِ اللُّغَاتِ،
وَأَقَابِلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ الْمَعْنَوِيِّ
فَقَطْ، أَي: مِنْ حَيْثُ إِبرَازُ الْمَعَانِي الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى
مَقْدِرَةِ الشَّاعِرِ وَمَنْزِلَتِهِ مِنَ النُّبْلِ وَالْحِكْمَةِ، مَعَ بَيَانِ شَيْءٍ
مِنْ قَوَاعِدِ الشُّعْرِ فِي لُغَةِ الْفَرَنْسِيْسِ الَّتِي عَنْهَا أَنْقُلُ كُلَّ مَا
رَأَيْتُهُ مِنْ شِعْرِ الْجَمِيعِ مُمَثَّلًا فِيهَا بِتَمَامِ مَعَانِيهِ.

وَمَا أَنْكِرُ أَنَّ نَقْلَ الشُّعْرِ إِلَى النَّثْرِ وَتَصْوِيرَ الْمَعَانِي

(١) النِّيَّةُ: الْوَجْهُ الَّذِي يَنْوِيهِ الْمُسَافِرُ.

الشَّعْرِيَّةُ فِي قَوَالِبَ نَثْرِيَّةٍ، وَلَا سِيَّمًا إِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْقَوَالِبُ
 مِنْ غَيْرِ اللُّغَةِ الَّتِي وُضِعَتْ فِيهَا، مِمَّا يَحُطُّ قَدَرُ النِّظْمِ
 وَيَنْزِلُ بِهِ عَنْ رُتَبَةِ الْبَلَاغَةِ الَّتِي كَانَ يَمْتَّازُ بِهَا فِي لِسَانِهِ
 الْأَصِيلِ، وَلَكِنَّ الشَّعْرَ الْإِفْرَنْجِيَّ قَدْ يَكُونُ وَاحِدًا تَقْرِيبًا مِنْ
 هَذَا الْقَبِيلِ، إِذْ أَكْثَرُ اضْطِلَاحَاتِهِمُ الْكَلَامِيَّةُ وَضُرُوبُ
 تَعَابِيرِهِمُ اللَّفْظِيَّةُ فَلَمَّا تَتَفَاوَتْ فِي دَرَجَاتِ الْبَيَانِ وَوُجُوهِ
 الْإِيضَاحِ وَالتَّغْيِيرِ، لِأَنَّهَا كُلُّهَا تَرْجَعُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ
 اللُّغَةُ اللَّاتِينِيَّةُ الَّتِي هِيَ أُمُّ لُغَاتِهِمْ جَمِيعًا، وَعَنْهَا يُشْتَقُّ أَكْثَرُ
 أَلْفَظِهِمْ وَمُسَمِّيَاتِهِمْ وَطُرُقِ الْإِنْشَاءِ عِنْدَهُمْ، بِحَيْثُ إِنَّكَ لَوْ
 نَقَلْتَ كِتَابًا مِنَ الطُّلْبَانِيَّةِ مَثَلًا إِلَى الْفَرَنْسَاوِيَّةِ لَمْ تَكُذْ تَحْتَاجُ
 فِي نَقْلِهِ إِلَى الزِّيَادَةِ عَلَى تَرْجَمَةِ الْأَلْفَازِ بِأَعْيَانِهَا وَمَوَاضِعِهَا
 دُونَ تَغْيِيرٍ يُذَكَّرُ فِي أُسْلُوبِ الْعِبَارَةِ أَوْ تَنْسِيقِ مُفْرَدَاتِهَا
 عَلَى الْوَجْهِ النَّحْوِيِّ، إِذِ النَّحْوُ فِي كِلْتَا اللَّغَتَيْنِ مُتَقَارِبٌ، لَا
 يَكَادُ يَتَبَايَنُ إِلَّا فِي النَّادِرِ، وَضُرُوبُ الْبَلَاغَةِ الْإِنْشَائِيَّةِ
 مُتَشَابِهَةٌ لَا يَكَادُ يَخْتَلِفُ فِيهَا الذَّوْقُ عَنِ الذَّوْقِ إِلَّا اخْتِلَافًا
 يَسِيرًا فِي مَوَاضِعَ لَا تُذَكَّرُ. وَبِخِلَافِ ذَلِكَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ
 وَغَيْرُهَا مِنَ اللُّغَاتِ الشَّرْقِيَّةِ، فَإِنَّ النُّقْلَ عَنْهَا مِثْلُ النُّقْلِ
 إِلَيْهَا، يَسْتَلْزِمُ تَبْدِيلَ الْعِبَارَةِ كُلِّهَا بِجَمِيعِ وَضْعِهَا تَقْرِيبًا،
 وَتَقْدِيمَ كَثِيرٍ مِنْ أَلْفَازِهَا أَوْ تَاخِيرَهُ، وَرُبَّمَا أَدَّى الْأَمْرُ

بِالنَّاقِلِ إِلَى تَغْيِيرِ الْأَصْلِ بِجُمْلَتِهِ إِلَى مَعْنَى يُقَارِبُهُ لِعَدَمِ
 اتَّفَاقِ الْمَعَانِي بَيْنَ اللَّغَتَيْنِ وَتَبَايُنِ أَذْوَاقِ أَهْلِهِمَا فِي وُجُوهِ
 التَّغْيِيرِ وَأَسَالِيِبِ الْمَجَازِ وَطُرُقِ الِاسْتِعَارَةِ، مِمَّا يَرْجِعُ إِلَى
 مَأْلُوفِ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي حَالِ الْحَضَارَةِ وَهَيْئَةِ
 الْأَجْتِمَاعِ. وَلِذَلِكَ كَانَ أَكْثَرُ الْأَشْعَارِ الْإِفْرَنْجِيَّةِ الْمَنْقُولَةِ إِلَى
 اللُّغَةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ لَا يَفْقِدُ مِنْ جَمَالِ مَعَانِيهِ الشُّعْرِيَّةِ شَيْئاً
 سِوَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ طَلَاوَةِ النَّظْمِ وَرَوْنَقِ الْقَالِبِ
 الشُّعْرِيِّ، وَكَأَنَّ مَنْ وَقَفَ عَلَى تِلْكَ الْأَشْعَارِ مَنْقُولَةً إِلَى
 هَذِهِ اللُّغَةِ كَأَنَّهُ وَقَفَ عَلَيْهَا فِي لُغَتِهَا مِنْ حَيْثُ دِقَّةُ
 الْمَعَانِي وَابْتِكَارُهَا وَدَرَجَةُ نَازِمِهَا فِي مَقَامِ الشَّاعِرِيَّةِ، وَذَلِكَ
 لِمَا قَدَّمَنا مِنْ اتَّفَاقِ أَكْثَرِ هَذِهِ اللُّغَاتِ فِي أَصُولِهَا وَقُرْبِ
 الْمُشَابَهَةِ بَيْنَها فِي بَيَانِ الْعَوَاطِفِ وَالْوِجْدَانَاتِ، وَلَا سِيَّما
 وَأَنَّ أَصْحَابَهَا فِي نَظْمِهِمْ إِنَّمَا يُعَوِّلُونَ عَلَى دِقَّةِ الْمَعَانِي
 وَحَقَائِقِ الْأَفْكَارِ أَكْثَرَ مِمَّا يِعْتَمِدُونَ عَلَى رِشَاقَةِ اللَّفْظِ
 وَزُخْرَفِ الْأَسَالِيِبِ، إِذْ لُغَاتُهُمْ أَضْيَقُ مِنْ لُغَتِنَا كَثِيراً، وَقَلَمًا
 تَخْتَلِفُ أَنْوَاعُ التَّغْيِيرِ عِنْدَهُمْ بِالنُّسْبَةِ إِلَى اخْتِلَافِهَا
 وَأَسْتِفَاضَتِهَا عِنْدَنَا، بِحَيْثُ أَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ لِإِبْرَازِ الْمَعْنَى
 صِيغَةً أَوْ صِيغَتَيْنِ إِلَّا وَجَدْنَا لَهُ نَحْنُ عَشْرَ صِيغٍ أَوْ أَكْثَرَ،
 نَتَفَنَّنُ بِهَا فِي إِبْرَازِهِ، وَتَخْتَلِفُ دَرَجَةُ الشَّاعِرِيَّةِ عِنْدَنَا

بِاخْتِلَافِ الإِجَادَةِ وَالتَّقْصِيرِ فِيهَا، وَهِيَ الْمَزِيَّةُ الَّتِي أَمْتَارَتْ
بِهَا لُغَتُنَا الْعَرَبِيَّةُ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ اللُّغَاتِ.

وَلَا بَأْسَ قَبْلَ الدُّخُولِ فِي هَذِهِ الْمُقَابَلَةِ التَّفْصِيلِيَّةِ
بَيْنَ أَشْعَارِنَا وَأَشْعَارِهِمْ أَنْ أُورِدَ لِلْمُطَالَعِ نُبْذَةً إِجْمَالِيَّةً عَنْ
أَصْلِ الشَّعْرِ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ وَدَرَجَاتِ ارْتِقَائِهِ فِي سُلَّمِ
الْكَمَالِ مِنْ حِينَ نَشَأَتْهُ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ، وَمَا تَقَلَّبَ عَلَيْهِ مِنْ
أَحْوَالِ الْمَعَانِي وَشُؤُونِهَا بِتَقَلُّبِ الْأَيَّامِ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنْ
الشُّعُوبِ، إِذْ هُوَ مِرَاةُ الْأَخْلَاقِ وَتَارِيخُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ
الْأُمَمُ فِي مَرَاقِي تَقَدُّمِهَا وَحَضَارَتِهَا إِلَى الْآنِ.

وَأَبْدَأُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا يَقُولُهُ الْإِفْرَنْجُ عَنْ أَصْلِ الشَّعْرِ
عِنْدَهُمْ، وَكَيْفِيَّةِ تَدْرُجِهِ وَوُصُولِهِ إِلَيْهِمْ، عَلَى سِلْسِلَةٍ أَوَّلُ
حَلَقَاتِهَا بَدْءُ الشَّعْرِ فِي الْعَالَمِ مُنْذُ عَهْدِ آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ،
وَأَخِيرُهَا مَا صَارَ إِلَيْهِ عَلَى عَهْدِ شُعَرَائِهِمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ
نَقْلًا عَنْ فِكْتُورِ هِيغُو أَكْبَرِ شُعَرَاءِ الْفَرَنْسِيِّسِ وَأَشْهَرِهِمْ فِي
هَذَا الْفَنِّ، قَالَ:

إِنَّ الْهَيْئَةَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ الَّتِي تَغْمُرُ الْأَرْضَ الْيَوْمَ لَمْ
تَكُنْ هِيَ نَفْسُهَا الَّتِي كَانَتْ تَغْمُرُهَا مِنْ قَبْلُ، بَلْ إِنَّ
الْمُجْتَمَعَ الْإِنْسَانِيَّ قَدْ نَشَأَ وَدَرَجَ وَشَبَّ كَمَا يَنْشَأُ الْوَاحِدُ
مِنْ أَفْرَادِهِ، فَكَانَ صَبِيًّا، ثُمَّ صَارَ رَجُلًا، ثُمَّ نَحْنُ الْآنَ

نَشْهَدُ شَيْخُوخَتَهُ الْكُبْرَى. وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَ الْأَوَانِ الَّذِي
يُسَمِّيهِ الْمُعَاصِرُونَ عَهْدَ الْخُرَافَاتِ أَوَانٌ أَقْدَمُ مِنْهُ، يُسَمِّيهِ
السَّلَفُ الْعَهْدَ الْعَتِيقَ، وَأَوَّلَى بِهِ أَنْ يُسَمَّى عَهْدَ الْأَوَّلِينَ،
وَبِهِ تَخَصَّلُ عِنْدَنَا ثَلَاثَةُ عُهُودٍ لِلْمُجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ مِنْ يَوْمِ
نَشَأَتِهِ إِلَى هَذَا الْعَصْرِ. وَلَمَّا كَانَ كُلُّ مُجْتَمَعٍ لَهُ شَجَرٌ
بِخُصُوصِهِ يَمْتَّازُ بِهِ عَنْ سِوَاهُ، فَقَدْ رَأَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَ هُنَا مَا
كَانَ مِنَ الْمَزِيَّةِ الشَّعْرِيَّةِ لِكُلِّ عَهْدٍ مِنْ هَذِهِ الْعُهُودِ الثَّلَاثَةِ
الَّتِي هِيَ أَطْوَارُ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، مِنْ بَدْءِ نُشُوءِهَا، وَهِيَ:
عَهْدُ الْأَوَّلِينَ وَعَهْدُ الْخُرَافَاتِ وَالْعَهْدُ الْحَاضِرُ، وَهُوَ يَشْمَلُ
مَا كَانَ مِنَ الْأَعْصَرِ الْوُسْطَى إِلَى الْآنَ.

فَلَقَدْ خُلِقَ الْإِنْسَانُ جَدِيداً فِي الْعَهْدِ الْأَوَّلِ، وَخُلِقَ
الشَّجَرُ مَعَهُ بِالطَّبْعِ، إِذْ هُوَ مَفْطُورٌ عَلَيْهِ، فَكَانَتْ أَشْعَارُهُ
الْأَنَاشِيدَ وَالْأَغَانِي الرُّوحِيَّةَ طَبَقاً لِمَا كَانَ يَرَى حَوْلَهُ مِنْ
عَجَائِبِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ، ثُمَّ هُوَ قَدْ كَانَ قَرِيبَ الْعَهْدِ بِصُنْعِ اللَّهِ
لَهُ، فَكَانَ شَجَرُهُ الصَّلَاةَ وَالْأَبْتِهَالِ، وَكَانَ لِعُودِ النَّظْمِ عِنْدَهُ
ثَلَاثَةُ أَوْتَارٍ، لَا يَرْنُ عَلَيْهِ سِوَاهَا، وَهِيَ الْخَالِقُ وَالْخَلِيقَةُ
وَالنَّفْسُ. ثُمَّ إِنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ قَفْراً خَالِياً، يَنْقَسِمُ سُكَّانُهَا
إِلَى أُسْرِ لَا إِلَى قَبَائِلَ، وَيُسَمَّى حُكَّامُهَا آبَاءٌ لَا مُلُوكاً،
وَكَانَ الْعَيْشُ فِيهَا عَلَى دَعَاةٍ وَسَعَةٍ لَيْسَ فِيهِ اجْتِيَازُ أَرْضٍ

مَخْصُوصَةٌ وَلَا شَرِيعَةٌ وَلَا نِزَاعٌ، بَلْ هُوَ عَيْشَةُ رُعَاةٍ رُحْلٍ
 هِيَ مَهْدُ كُلِّ حَضَارَةٍ وَمَدَنِيَّةٍ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي شَيْءٍ
 مِنْهُمَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَكَانَ فِكْرُ الْمَرْءِ فِيهَا كَحَيَاتِهِ أَشْبَهَ
 بِسَحَابَةٍ سَارِيَةٍ تَتَغَيَّرُ أَشْكَالُهَا وَتَخْتَلِفُ مَجَارِيهَا بِاخْتِلَافِ مَا
 يَهْبُثُ عَلَيْهَا مِنَ الرِّيحِ، وَهَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ، بَلِ
 الشَّاعِرُ الْأَوَّلُ، وَيُدْعَى عَهْدُهُ عَهْدَ الْخَلِيقَةِ أَوْ عَهْدَ الْأَوَّلِينَ.

ثُمَّ تَدْرَجُ الْعَالَمُ فِي مَرَاقِي فِطْرَتِهِ الْكَمَالِيَّةِ، فَاتَّسَعَ
 نِطَاقُ الْعُمَرَانِ، وَامْتَدَّتْ حُدُودُ الْاجْتِمَاعِ، فَصَارَتِ الْأُسْرَةُ
 قَبِيلَةً، وَالْقَبِيلَةُ أُمَّةً وَشُعْبًا، وَآلَفَتْ كُلُّ هَذَا الْمَجْمُوعِ عَلَى
 قُطْبٍ وَاحِدٍ جَعَلَهُ مَرْكَزَ عُمَرَانِهِ، فَنَشَأَتْ مِنْ ذَلِكَ الْإِمَارَاتُ
 وَالْدُّوَلُ. وَقَامَ الْمُجْتَمَعُ الْمَدَنِيُّ مَقَامَ الْقَبَائِلِ الرَّاحِلَةِ،
 وَأَخْطَطَ الْمِصْرُ الْوَاسِعُ مَكَانَ الْحِلَّةِ الصَّغِيرَةِ، وَشِيدَ الْقَصْرُ
 الرَّفِيعُ مَكَانَ الْخَيْمَةِ الْمَضْرُوبَةِ، وَبُنِيَ الْهَيْكَلُ الْعَظِيمُ فِي
 مَوْضِعِ خَيْمَةِ الْاجْتِمَاعِ، وَبَقِيَ أَوْلِيكَ الرُّؤُوسِ رُعَاةً،
 وَلَكِنَّهُمْ صَارُوا رُعَاةَ شُعُوبٍ بَدَلَ الْقُطْعَانِ، وَاسْتَبَدَّلُوا عَصَا
 الرَّاعِي بِالصُّوْلَجَانِ. ثُمَّ ضَاقَتِ الْأَرْضُ بِسُكَّانِهَا وَشُعُوبِهَا،
 فَصَدَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَكَانَتْ مِنْ ذَلِكَ الْحُرُوبُ وَالْغَارَاتُ،
 وَكَانَ الشُّعْرُ مِرَاةً لِكُلِّ تِلْكَ الْأُمُورِ تَنْعَكِسُ عَنْهُ، وَتَلُوحُ
 صُورُهَا فِيهِ، فَانْتَقَلَ بِهَا مِنْ حَدِّ بَيَانِ الْأَفْكَارِ إِلَى حَدِّ

وَصَفِ الْحَوَادِثِ وَتَصْوِيرِهَا، فَانْتَظِمَ فِي سِلْكِهِ تَارِيخُ
 الْعُصُورِ وَالشُّعُوبِ وَالذُّوَلِ وَتَذْوِينُ الْمَوَاقِعِ وَالْحُرُوبِ
 وَالْحِكَايَاتِ، وَخَرَجَ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ هُومِيرُوسُ الشَّاعِرُ
 الْيُونَانِيُّ الْمَشْهُورُ، وَفِي قَصَائِدِهِ وَحَدَّهَا صُورُ تِلْكَ الْأَعْصُرِ
 كُلِّهَا وَبَيَانُ وَقَائِعِهَا وَحَوَادِثِهَا وَوَصْفُ مَسَاهِيرِهَا وَأَبْطَالِهَا
 وَآلِهَتِهَا طَبَقاً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الشُّعْرُ فِي ذَلِكَ الْحِينِ مِنْ
 الْجَمْعِ بَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَحَقِيقَةِ التَّارِيخِ وَأَوْهَامِ الْخُرَافَاتِ.

ثُمَّ دَخَلَ الْعَالَمُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي حَالٍ جَدِيدَةٍ، هِيَ
 النَّصْرَانِيَّةُ الَّتِي دَرَجَتْ مِنْ مَهْدِ الشَّرْقِ، فَكَانَ الْغَرْبُ مُجْتَمِعَ
 أَنْوَارِهَا، وَهَدَمَتْ مَبَانِي تِلْكَ الْخُرَافَاتِ الْقَدِيمَةِ، وَوَضَعَتْ
 أُسَاسَ الْمَدِينَةِ الصَّحِيحَةِ عَلَى آثَارِهَا، وَأَعْلَمَتْ الْإِنْسَانَ أَنَّ
 لَهُ حَيَاتَيْنِ: حَيَاةً فَانِيَةً وَحَيَاةً خَالِدَةً، وَأَنَّهُ مَثَلُ حَيَاتِهِ مُؤَلَّفٌ
 مِنْ غُنْصُرَيْنِ: حَيَوَانٌ وَنُطْقٌ وَنَفْسٌ وَجَسَدٌ، وَفَصَلَتْ بَيْنَ
 النَّسَمِ وَالْأَجْسَامِ فَضْلاً بَعِيداً، وَوَضَعَتْ بَيْنَ الْخَالِقِ
 وَالْمَخْلُوقِ فَرْقاً شَاسِعاً، فَأَزْتَقَى بِهَا عَقْلُ الْإِنْسَانِ مِنْ حَالٍ
 إِلَى حَالٍ، وَتَحَوَّلَتْ أَخْلَاقُهُ الَّتِي هِيَ تَلَوُ عَقَائِدِهِ مِنْ صِيغَةٍ
 إِلَى صِيغَةٍ أُخْرَى، وَانْتَقَلَ الشُّعْرُ عِنْدَهُ مِنْ دَائِرَةِ الْوَهْمِ إِلَى
 حَدِّ الْحَقِيقَةِ، وَمِنَ الْخِيَالِ الْخُرَافِيِّ الْكَاذِبِ إِلَى الْمَعْنَى
 الْحِسِّيِّ الصَّحِيحِ، حَتَّى بَلَغَ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ. اهـ.

أَمَّا الشُّعْرُ الْعَرَبِيُّ، فَلَمْ يَكُنْ فِي شَيْءٍ مِنْ تَارِيخِ
الشُّعْرِ الْإِفْرَنْجِيِّ فِي تَبَاعُدِ أَطْوَارِهِ وَشِدَّةِ التَّبَايُنِ فِي تَنَقُّلِهِ
مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ عَلَى مَا بَيَّنَّهُ الْكَاتِبُ الْفَرَنْسَوِي فِيمَا
نَقَلْنَاهُ مِنْ كَلَامِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ شِعْرٌ مُتَفَرِّدٌ فِي نَفْسِهِ، نَشَأَ فِي
بِلَادِ الْعَرَبِ بِخُصُوصِهَا، وَأَجْرَاهُ اللَّهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ
وَحَدَّهِمْ دُونَ غَيْرِهِمْ، لَمْ يَأْخُذُوهُ عَنْ أَحَدٍ مُتَسَلِّلاً كَمَا
أَخَذَ الْإِفْرَنْجُ شِعْرَهُمْ عَنِ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ وَمَنْ قَبْلَهُمَا،
وَلَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ عَنْهُمْ كَمَا أَخَذَ عَنْ غَيْرِهِمْ، بَلْ بَقِيَ
مُتَحَصِراً فِيهِمْ، تَنَاوَلُوهُ إِرْثًا عَنِ الطَّبِيعَةِ فِي بَدَاوَتِهِمْ وَلَمْ
يُورَثُوهُ أَحَدًا مِنْ غَيْرِ قَبَائِلِهِمْ وَالنَّاطِقِينَ بِلِسَانِهِمْ، وَجُلَّ مَا
كَانَ مِنْ تَقَلُّبِ أَطْوَارِهِ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَمَّا انْتَقَلَ إِلَى الْحَضَرِ،
أَوْ لَمَّا انْتَقَلَتْ بَدَاوَةُ الْعَرَبِ إِلَى الْحَضَارَةِ الْمَدَنِيَّةِ لَمْ يَطْرَأْ
عَلَيْهِ سِوَى تَغْيِيرِ بَزَّتِهِ بِتَنْقِيحِ بَعْضِ أَلْفَاظِهِ وَتُخْيِيرِ السَّهْلِ
الْمَائُوسِ مِنْهَا وَأَطْرَاحِ الْكَلِمِ الْوَحْشِيِّ الَّذِي تَأْبَاهُ رِقَّةُ
الْحَضَارَةِ وَأَدَابُ اجْتِمَاعِهَا، وَأَمَّا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ نَسَقِ
نَظْمِهِ وَدِيبَاجَةِ مَعَانِيهِ وَطَرَائِقِ إِنْشَائِهِ وَبَيَانِ الْمَقَاصِدِ مِنْهُ،
فَإِنَّهُ لَمْ يَكُذْ يَتَغَيَّرُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا مَا دَعَتْ إِلَيْهِ حَالَاتُ
الْحَضَارَةِ فِي بَعْضِ مُصْطَلَحَاتِهَا وَمُسْتَحْدَثِ عَادَاتِهَا، بَلْ
هُمْ لَا يَزَالُونَ عَلَى الْمَجَرَى الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ فِي وَصْفِ

الديار والبكاء على الأطلال والتشبيب بالمحبوب وتقديم
الغزل والتسبيح بين أيدي ما يقصدونه من الأغراض ونظم
الحكم والأمثال في أثناء ما يعرض لهم من صنوف
الكلام، ورُبَّما خرجوا عن ذلك إلى ما أحدثته عندهم
الحالة الحضرية من وصف الرياض والقصور ومجالس
الشرب وأمثالها مما لم يكن معروفاً في الجاهلية أو كان
مخصوصاً بالمترفين منهم ممن اتفقت لهم مثل تلك
الحالات.

وبالجُملة، فهم قوم جرى الشعر على ألسنتهم كاملاً
فيما ترويه عنهم، إلا إذا كان قبل ذلك شيء لم يبلغنا مما
لم ينقله لنا التاريخ، ولعل أول ما نطقوا به منه هذا النوع
المعروف بالرجز، وهو منزلة بين الشعر والنثر، يلتزمون
في كل بيت منه قافيتين فقط، على نحو ما نراه في الشعر
الإفرنجي ليومنا هذا، ثم تطرقوا منه إلى سائر الأوزان
يلتزمون فيها القافية الواحدة في جميع أبياتها.

وكان شعرهم في أول أمره مقصوداً على حوادث
أنفسهم والإبانة عما يكنه الشاعر من شكوى أو وجدان أو
حكاية واقعة غرامية أو حماسية، يبرزون المعاني الشعرية
في ذلك كله كما تصور لهم نفوسهم، مجردة عن

الاختلاق، ودَعَوَى غَيْرِ الْحَقِيقَةِ، وَحِكَايَةِ حَوَادِثَ وَهَمِيَّةٍ
مِمَّا دَرَجَ عَلَيْهِ الْمُؤَلَّدُونَ بَعْدَ ذَلِكَ؛ وَإِذَا خَرَجُوا إِلَى
الْمَدْحِ لَمْ يَمْدَحُوا الرَّجُلَ إِلَّا بِمَا فِيهِ، وَلَمْ يَذْكُرُوا مِنْ
حَسَنَاتِهِ إِلَّا مَا صَدَرَ عَنْهُ فِعْلاً، كَمَا أَنَّهُمْ إِذَا رَثُوا مَفْقُوداً
لَمْ يَرْتَوْهُ إِلَّا بِمَا تَتَفَجَّعُ بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْحُزَنِ عَلَيْهِ وَبَيَانِ
أَخْلَاقِهِ وَصِفَاتِهِ، كَمَا تَرَى ذَلِكَ فِي قَصَائِدِهِمُ الْجَاهِلِيَّةِ
وَالْمُخَضَّرَةِ، كَقَصَائِدِ زُهَيْرٍ فِي هَرَمِ بْنِ سِنَانٍ وَقَصِيدَةِ
كَعْبٍ فِي مَدْحِ الرَّسُولِ وَاسْتِعْطَافِهِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ لَا
تَجِدُ هُنَاكَ اخْتِلَاقاً فِي الْمَدْحِ، وَلَا تَطَرُّفاً فِي الْإِطْرَاءِ، وَلَا
إِفْرَاطاً فِي الثَّنَاءِ، إِلَّا مَا جَرَى عَلَى طَرِيقِ الْاِعْتِدَالِ؛ وَلَمْ
يَخْرُجْ عَنْ حَدِّ الْمَقْبُولِ السَّائِعِ فِي الْأَفْهَامِ، عَلَى غَيْرِ مَا
صَارَ إِلَيْهِ الْمَدْحُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْغُلُوِّ الزَّائِدِ وَكَثْرَةِ التَّشْعُّبِ
فِي إِبْرَازِ الْمَعَانِي الْخَيَالِيَّةِ، وَالصُّورِ الْوَهْمِيَّةِ، وَالخُرُوجِ تَارَةً
إِلَى الْمُحَالِ حَيْثُ يَجْعَلُ الْمَادِحُ مَمْدُوحَهُ حَاكِماً عَلَى
الدَّهْرِ، وَيَضَعُ فِي يَدَيْهِ أَرْمَةَ الْأَقْدَارِ، وَيُقَرِّبُ عَلَيْهِ تَنَاوُلَ
النُّجُومِ لَوْ أَرَادَهَا، وَيُوصِلُ حَدَّ حُكْمِهِ إِلَى الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ،
تَوْسِعاً فِي الْمَعَانِي وَتَفُتُّناً فِي إِبْرَادِهَا وَتَصْوِيرِهَا، كَأَنَّهُمْ لَمَّا
انْتَقَلُوا مِنْ حَالَةِ الْبَدَاوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْبَسَاطَةُ وَالْفِطْرَةُ
إِلَى حَالَةِ الْحَضَارَةِ الَّتِي فِي سُلْمِ الْأَرْتِقَاءِ وَمَذْرَجَةِ التَّائِقِ

فِي سَعَةِ الْعَيْشِ وَتَرَفِ النِّعَمَةِ، وَرَأَوْا غَيْرَ مَا كَانُوا يَأْلِفُونَهُ
 مِنْ أُبْهَةِ الْمُلْكِ وَزِينَةِ الْحَضَارَةِ، أَنْتَقَلَتْ مَعَانِيَهُمُ الشُّعْرِيَّةُ
 أَيْضاً عَلَى هَذَا النَّسَقِ تَدْرِجاً مَعَهُمْ فِي مَرَايِي الْمَدَنِيَّةِ
 وَجَعَلَ الشَّاعِرُ يُزَخِّرُ مَعَانِي شِعْرِهِ كَمَا يُزَخِّرُ مَنْزِلَهُ،
 وَيَتَفَنَّنُ فِي إِبْرَازِ مَقَاصِدِهِ كَمَا يَتَفَنَّنُ فِي طَعَامِهِ وَلِبَاسِهِ،
 وَيَزْتَقِي بِهَا فِي سُلْمِ الْخَيَالِ الَّذِي هُوَ تِلْوُ الْحَقِيقَةِ كَمَا
 أَرْتَقَى فِي سُلْمِ الْحَضَارَةِ الَّتِي هِيَ رَدِيفُ الْبَدَاوَةِ وَالْفِطْرَةِ،
 إِلَى أَنْ بَلَغَ الشُّعْرُ عِنْدَنَا مَبْلَغَهُ الْمَعْرُوفَ لِهَذَا الْعَهْدِ، لَمْ
 يَتَحَوَّلْ عَنْ حَقِيقَةِ أَضْلِهِ وَنَسَقِ نَظْمِهِ إِلَّا هَذَا التَّحَوُّلُ
 النَّسْبِيُّ.

أَمَّا الْفَرْقُ الْفَاصِلُ بَيْنَ الشُّعْرِ عِنْدَنَا وَعِنْدَهُمْ، فَعَلَى
 نَوْعَيْنِ: لَفْظِيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ. أَمَّا اللَّفْظِيُّ، فَهُوَ مَا تَعَلَّقَ بِالْوِزْنِ
 وَالْقَافِيَةِ، فَإِنَّ وَزْنَ الشُّعْرِ عِنْدَهُمْ يَتَأَلَّفُ مِنَ الْأَهْجِيَةِ
 اللَّفْظِيَّةِ، وَهِيَ كُلُّ نَبْرَةٍ صَوْتِيَّةٍ تَعْتَمِدُ عَلَى حَرْفٍ مِنْ
 حُرُوفِ الْمَدِّ، سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ الْحَرْفُ وَخْذَهُ أَوْ مُقْتَرِناً
 بِحَرْفٍ صَحِيحٍ، وَيُسَمُّونَ هَذِهِ الْأَهْجِيَةَ فِي اضْطِلَاحِهِمُ
 الشُّعْرِيَّ «أَقْدَاماً»، وَبِهَا تَنْقَسِمُ أَبْحُرُ الشُّعْرِ عِنْدَهُمْ عَلَى
 حَسَبِ أَعْدَادِهَا فِي الْبَيْتِ، فَيَكُونُ أَطْوَلُهَا مَا تَرَكَبَ مِنْ
 اثْنَيْ عَشَرَ هِجَاءً، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ: الْوِزْنَ الْإِسْكَنْدَرِيَّ،

نِسْبَةً إِلَى الإسْكَندَرِ؛ وَأَقْصَرُهَا مِنْ هِجَاءٍ وَاحِدٍ فَقَطْ،
بِحَيْثُ يَسُوعُ لِلشَّاعِرِ عِنْدَهُمْ أَنْ يَنْظِمَ الْقِطْعَةَ يَكُونُ أَوَّلُ
أَبْيَاتِهَا اثْنِي عَشَرَ هِجَاءً، ثُمَّ يَنْزِلُ فِيهَا بِالتَّذْرِيجِ إِلَى أَنْ
يَخْتِمَهَا بِهِجَاءٍ وَاحِدٍ عَلَى مَا يُشْبِهُ بَعْضَ التَّوَاشِيحِ الْغَنَائِيَّةِ
عِنْدَنَا تَقْرِيْبًا. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْأَوْزَانِ شُيُوعًا بَيْنَهُمْ هُوَ الْوَزْنُ
الْإِسْكَندَرِيُّ، وَمِنْهُ أَكْثَرُ قَصَائِدِهِمْ وَرِوَايَاتِهِمْ، وَلَكِنْ يُشْتَرَطُ
فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَكُونُ مِنْ هَذَا الْوَزْنِ أَنْ يَنْتَهِيَ كُلُّ شَطْرِ
مِنْهُ عِنْدَ الْهِجَاءِ السَّادِسِ، بِحَيْثُ لَا تَنْقَطِعُ الْكَلِمَةُ فِي
وَسْطِهِ إِلَى شَطْرَيْنِ، بِخِلَافِ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي يُجَوِّزُ
وَضَلَ الشَّطْرَيْنِ مِنْهُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَنَا
بِالْمُدَوَّرِ. وَلَكِنَّهُمْ يُخَالِفُونَ الْعَرَبَ فِي هَذَا الْقَيْدِ بِأَنَّهُمْ
يَصِلُونَ بَيْنَ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي فِي الْمَعْنَى وَاللَّفْظِ
جَمِيعًا، بِأَنْ يَجْعَلُوا الْفَاعِلَ قَافِيَةً لِلْبَيْتِ، وَيَضَعُوا مَفْعُولَهُ
فِي أَوَّلِ الْبَيْتِ الثَّانِي، بِحَيْثُ يَضْطَرُّ الْقَارِئُ لَهُ أَنْ لَا
يَقِفَ عِنْدَ الْقَافِيَةِ، بَلْ يَصِلْهَا بِمَا بَعْدَهَا فِي الْإِلْقَاءِ، وَهُوَ
الْمَذْهَبُ الَّذِي أَنْشَأَهُ فَيْكَتُورُ هِيغُو أَخِيرًا، وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ
شُعْرَائِهِمُ الْيَوْمَ، وَبِخِلَافِ ذَلِكَ الْعَرَبِ، فَإِنَّ هَذَا يُعَدُّ
عِنْدَهُمْ مِنَ الْعُيُوبِ، وَلَا يَتَسَامَحُونَ بِوُقُوعِ شَيْءٍ مِنْهُ فِي
أَشْعَارِهِمْ وَلَوْ وَقَعَ فِي كَلَامٍ أَفْحَلَ شُعْرَائِهِمْ، كَالنَّابِغَةِ

الذُّبْيَانِي حَيْثُ يَقُولُ [من الوافر]:

وَهُمْ وَرَدُّوا الْجِفَارَ عَلَى تَمِيمٍ

وَهُمْ أَضْحَابُ يَوْمِ عُكَاظِ أَنِّي

شَهِدْتُ لَهُمْ مَوَاقِفَ صَادِقَاتٍ

شَهِدْنَ لَهُمْ بِصَدَقِ الْوُدِّ مِنِّي

وَلَا يَخْفَى أَنَّ إِقَامَةَ الْوِزْنِ فِي الشُّعْرِ الْإِفْرَنْجِيَّ عَلَى
عَدَدِ الْأَهْجِيَّةِ مِمَّا يُسَهِّلُ نَظْمَهُ كَثِيرًا، وَيُبِيحُ لِلشَّاعِرِ أَنْ
يُقَدِّمَ وَيُؤَخِّرَ فِي أَلْفَاظِ الْبَيْتِ مَا شَاءَ وَيَضَعُ فِي أَثْنَائِهِ
الْلَفْظَةَ الَّتِي يُرِيدُهَا وَلَا يَخْتَلُ مَعَهُ الْوِزْنُ عَكْسَ الشُّعْرِ
الْعَرَبِيِّ الَّذِي يَتَعَمَّدُ وَزْنُهُ عَلَى التَّفَاعِيلِ مِنَ الْأَسْبَابِ
وَالْأَوْتَادِ، فَإِنَّ تَقْدِيمَ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ أَوْ تَأْخِيرَهُ فِيهِ قَدْ
يُؤَدِّي إِلَى اخْتِلَالِ الْوِزْنِ بِجُمْلَتِهِ، أَوْ يُثْقِلُ الْبَيْتَ مِنْ بَحْرِ
إِلَى بَحْرِ آخَرَ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَرْبَابِ هَذَا الْفَنِّ.

وَمِمَّا نُخَالِفُ الْإِفْرَنْجَ فِيهِ مُخَالَفَةً لَفْظِيَّةً مَسْأَلَةُ
الْقَافِيَةِ، فَإِنَّهَا عِنْدَهُمْ لَا تَلْزَمُ الشَّاعِرَ فِي أَكْثَرِ مِنْ بَيْتَيْنِ،
وَلِذَلِكَ كَانَ شِعْرُهُمْ أَشْبَهَ بِالْأَرَاجِيزِ عِنْدَنَا عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ
قَرِيبًا، وَلَكِنَّ لَهُمْ فِيهَا قَيْدًا آخَرَ لَا وَجُودَ لَهُ عِنْدَنَا، وَهُوَ
أَنَّهُمْ يَقْسِمُونَ الْقَوَافِي إِلَى مُؤَنَّثَةٍ وَمُذَكَّرَةٍ، وَيَقْتَضُونَ أَنْ

تَكُونُ كُلُّ قَوَافِي الْقَصِيدَةِ مُؤَنَّثَةً فَمُذَكَّرَةٌ عَلَى التَّوَالِي،
 بِحَيْثُ لَا يَتَوَالَى بَيَّتَانِ عَلَى قَافِيَةٍ مُذَكَّرَةٍ أَوْ مُؤَنَّثَةٍ، وَيُرِيدُونَ
 بِالْقَافِيَةِ الْمُؤَنَّثَةِ مَا كَانَتْ مَخْتُومَةً بِحَرْفِ عِلَّةٍ، وَبِالْمُذَكَّرَةِ مَا
 كَانَتْ مَخْتُومَةً بِحَرْفِ صَحِيحٍ، فَهُمْ أَبَدًا يُعَاقِبُونَ بَيْنَ هَذِهِ
 الْقَوَافِي إِلَى خِتَامِ الْقَصِيدَةِ.

وَإِنَّمَا جَعَلُوا أَيْبَاتَ شِعْرِهِمْ عَلَى قَوَافٍ مُتَعَدِّدَةٍ، لِأَنَّ
 لُغَتَهُمْ ضَيِّقَةٌ قَلِيلَةُ الْأَلْفَافِ، لَا تَتَّسِعُ لِلتَّيَزَامِ قَافِيَةٍ وَاحِدَةٍ
 فِي الْقَصِيدَةِ الطَّوِيلَةِ عَلَى خِلَافِ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي لَهُ
 مِنْ اتِّسَاعِ لُغَتِهِ وَأَسْتِفَاضَةِ أَلْفَافِهَا أَكْبَرُ نَصِيرٍ وَأَوْفَى مَدَدٍ
 عَلَى تَعَدُّدِ قَوَافِيهِ وَالتَّيَزَامِ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ فِيهَا. وَمِنْ الْغَرِيبِ
 أَنَّهُمْ مَعَ تَوْسُّعِهِمْ فِي الْقَافِيَةِ بِكَثْرَةِ تَغْيِيرِهَا وَعَدَمِ التَّيَزَامِهَا
 وَجَوَازِ تَكَرَّارِهَا نَجِدُهُمْ أَكْثَرَ النَّاسِ شَكْوَى مِنْ صُعُوبَتِهَا
 وَقِلَّةِ الظَّفَرِ بِالْمُخَكَّمِ الْمَتِينِ مِنْهَا، حَتَّى أَنَّ فُولْتِيَرَ نَفْسَهُ،
 وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ شُعْرَائِهِمْ، كَانَ يَتَذَلَّلُ مِنْهَا، وَيُسَمِّيْهَا: النَّيْرُ
 الثَّقِيلُ وَالظَّالِمُ الشَّدِيدُ، وَأَنَّ شَاعِرَهُمْ بُوَالُو لَمَّا امْتَدَّحَ
 مُولِيرَ الشَّاعِرَ الرَّوَائِيَّ الشَّهِيرَ، قَالَ لَهُ: «عَلَّمَنِي يَا مُولِيرُ
 أَيْنَ تَجِدُ الْقَافِيَةَ» وَمَا تُنَكِّرُ أَنَّ شُعْرَاءَ الْعَرَبِ يَفْتَخِرُونَ
 بِالْقَافِيَةِ فِي شِعْرِهِمْ وَيَتَبَاهَوْنَ بِالْوُقُوعِ عَلَى الْمُخَكَّمِ مِنْهَا،
 وَيَمْدَحُونَ شَاعِرَهُمْ بِأَنَّ الْقَوَافِي تَنْقَادُ لَهُ، وَأَنَّهُ يَضَعُهَا فِي

أماكنها؛ وَلَكِنْ شَتَانٌ بَيْنَ مَنْ يَفْخَرُ بِالْقَافِيَةِ وَهُوَ يَلْتَزِمُهَا فِي كُلِّ أَبْيَاتٍ قَصِيدَتِهِ، وَبَيْنَ مَنْ يَفْخَرُ بِهَا وَيَعُدُّهَا نِيراً ثَقِيلاً وَهُوَ لَا يَلْتَزِمُهَا إِلَّا فِي كُلِّ بَيْتَيْنِ مِنْ أَبْيَاتِهِ!

ثُمَّ إِنَّ عِنْدَهُمْ خِلاَ ذَلِكَ نَوْعاً مِنَ الشُّعْرِ يُسَمُّونَهُ «الشُّعْرَ الْأَبْيَضَ»، وَهُوَ الَّذِي لَا يَلْتَزِمُونَ فِيهِ قَافِيَةً، بَلْ يُرْسِلُونَهُ إِزْسَالاً، وَلَا يَتَّقِدُونَ فِيهِ بَغْيَ الْوِزْنِ، وَأَكْثَرُ شُيُوعِ هَذَا النَّوعِ عِنْدَ الْإِنْكَلِيزِ، وَعَلَيْهِ أَغْلَبُ مَنْظُومَاتِ شَاعِرِهِمْ شِكْسْبِيرُ أَخْذاً عَنِ الشُّعْرِ الْقَدِيمِ.

وَمِنْ اضْطِلَاحِهِمْ فِي النَّظْمِ أَنَّهُمْ يُخَالِفُونَ بَيْنَ أَبْيَاتِ الْقَصِيدَةِ فِي قَوَافِيهَا، بِأَنَّ يُفَرِّقُوا بَيْنَ كُلِّ بَيْتَيْنِ مِنْ قَافِيَةٍ وَاحِدَةٍ بَيْتَيْنِ آخَرَيْنِ مِنْ قَافِيَةٍ أُخْرَى عَلَى مَا يُشْبِهُ نَسَقَ الْمُوشَّحَاتِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ عِنْدَنَا، إِلَّا أَنَّهُمْ تَوَسَّعُوا فِي الْمَقَارَنَةِ بَيْنَ الْأَوْزَانِ تَوْسَعاً زَائِداً، حَتَّى صَارُوا يَنْظُمُونَ الْمَقْطُوعَ الْوَاحِدَ مِنَ الشُّعْرِ عَلَى عِدَّةِ أَوْزَانٍ مُخْتَلِفَةٍ لَا يَنْطَبِقُ مَجْمُوعُهَا عَلَى الذَّوْقِ السَّمَاعِيِّ، إِذْ بَيْنَمَا الْأُذُنُ تَسْمَعُ وَزْناً فِي بَيْتٍ إِذْ بِهَا قَدْ انْتَقَلَتْ فَجْأَةً إِلَى وَزْنٍ آخَرَ، وَمِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، دُونَ أَنْ تَسْتَقَرَّ عَلَى وَزْنٍ مَعْلُومٍ، وَهُوَ مِمَّا لَا يُوجَدُ عِنْدَنَا إِلَّا فِي بَعْضِ الْمُوشَّحَاتِ الْمَذْكُورَةِ الَّتِي لَمْ يَعُدْ أَحَدٌ يَنْسِجُ عَلَى مِثَالِهَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ.

هَذَا مُجْمَلٌ مَا نُبَايِنُ الْإِفْرَنْجَ فِيهِ مِنْ حَيْثُ اضْطِلَاحُ
الشَّعْرِ اللَّفْظِيِّ وَمُقْتَضِيَّاتُ قَوَاعِيدِهِ وَأَوْضَاعِهِ؛ وَأَمَّا مِنَ
الْجِهَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ، فَأَوَّلُ مَا يُخَالِفُونَنَا فِيهِ أَنَّهُمْ يَلْتَزِمُونَ
الْحَقَائِقَ فِي نَظْمِهِمْ التِّزَامَ شَدِيداً، وَيَبْعُدُونَ عَنِ الْمُبَالَغَةِ
وَالْإِطْرَاءِ بُعْداً شَاسِعاً، فَلَا تَكَادُ تَجِدُ لَهُمْ غُلُوءاً وَلَا إِغْرَاقاً،
وَلَا تَشْبِيهاً بَعِيداً، وَلَا اسْتِعَارَةً خَفِيَّةً، وَلَا خُرُوجاً عَنْ حَدِّ
الْجَائِزِ الْمَقْبُولِ مِنَ الْمَعَانِي الشَّعْرِيَّةِ فِي جَمِيعِ وُجُوهِهَا
وَمَقَاصِدِهَا، فَهُمْ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أَشْبَهُ بِالْعَرَبِ فِي
جَاهِلِيَّتِهِمْ، إِذَا مَدَحُوا لَمْ يُبَالِغُوا، وَإِذَا وَصَفُوا لَمْ يُغْرِبُوا،
وَإِذَا شَبَّهُوا لَمْ يُبْعِدُوا فِي التَّشْبِيهِ، وَإِذَا رَثَوْا لَمْ يَتَعَدَّوْا
صِفَاتِ الْمَرِئِيِّ وَأَخْلَاقَهُ فِي الْمَعَانِي السَّهْلَةِ الْمَقْبُولَةِ، عَلَى
خِلَافِ مَا صَارَ إِلَيْهِ شِعْرُ الْعَرَبِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ مِنَ الْإِغْرَاقِ
وَالْغُلُوءِ وَالْمُغَالَاةِ فِي الْوَصْفِ إِلَى مَا يَفُوتُ حَدَّ التَّصَوُّرِ
وَالْإِذْرَاكِ مِمَّا أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِي فَاتِحَةِ هَذَا الْمَقَالِ. غَيْرَ أَنَّنَا إِذَا
خَالَفْنَاهُمْ فِي أَكْثَرِ هَذَا الْأَمْرِ، فَتَحْنُ مَعَهُمْ عَلَى اتِّفَاقٍ فِي
بَعْضِ أَطْرَافِهِ، أَي: أَنَّهُ يَجُوزُ عِنْدَنَا كُلُّ مَا يَجُوزُ عِنْدَهُمْ
مِنْ هَذَا النَّحْوِ، وَلَا يَجُوزُ لَدَيْهِمْ كُلُّ مَا لَدَيْنَا مِنْهُ، بِحَيْثُ
كُنَّا جَامِعِينَ شِعْرَهُمْ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَزَائِدِينَ عَلَيْهِ مَا
انْفَرَدْنَا بِهِ دُونَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْإِغْرَابِ، وَكُنَّا نَقْدِرُ أَنْ نَقُولَ:

«أَعَذَّبَ الشُّعْرُ أَكْذَبُهُ، وَأَحْسَنُهُ أَصْدَقُهُ» وَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَقُولُوا إِلَّا أَنَّ أَحْسَنَ الشُّعْرِ أَصْدَقُهُ فَقَطُّ.

وَمَنْ وَقَفَ عَلَى مَا فِي «دِيوانِ الحماسة» مِنْ شِعْرِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَصَدَرَ الْإِسْلَامَ، وَوَقَفَ عَلَى شِعْرِ الْإِفْرَنْجِ الْيَوْمَ، رَأَى أَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الشُّعْرَيْنِ فِي بَسَاطَةِ الْمَعَانِي، وَصِدْقِ التَّشْبِيهِ، وَحَقَائِقِ الْوَصْفِ؛ وَعَجِبَ كَيْفَ يَكُونُ كَمَالُ الشُّعْرِ عِنْدَ الْإِفْرَنْجِ فِي عِزَّةِ مَدَنِيَّتِهِمْ وَتَمَامِ حَضَارَتِهِمْ مُشَابِهًا لِبَدْءِ نَشَأَتِهِ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي إِبَانِ جَاهِلِيَّتِهِمْ وَخُشُونَةِ بَدَاوَتِهِمْ. عَلَى أَنَّنَا إِذَا شَابَهْنَا الْإِفْرَنْجَ فِي شِعْرِ جَاهِلِيَّتِنَا مِنْ حَيْثُ الْبَسَاطَةُ وَالْتِزَامُ الْحَقَائِقِ، وَبَيَانُهُمْ كَثِيرًا فِي شِعْرِنَا الْأَخِيرِ مِنْ عَهْدِ الْمُتَنَبِّي إِلَى الْيَوْمِ مِنْ حَيْثُ الْإِغْرَابُ فِي الْمَعَانِي وَالْمُغَالَاةُ فِي الْوَصْفِ بِمَا يُخْرِجُ الْكَلَامَ عَنْ حَدِّ الْحَقِيقَةِ أَخْيَانًا، أَوْ يُلْبِسُ الْحَقِيقَةَ الصَّغِيرَةَ مِنْهُ الثُّوبَ الطَّوِيلَ الضَّافِي مِنَ الْمَجَازِ وَالْإِيهَامِ حَتَّى يَكَادُ يُنْكِرُهَا الْخَاطِرُ وَتَبْدُو لَهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهٍهَا الْمَعْرُوفِ، إِلَّا أَنْ ذَلِكَ لَا يَرِدُ فِي شِعْرِنَا إِلَّا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ الْمَعْدُودَةِ، كَالْغَزَلِ وَالْمَدِيحِ وَأَشْبَاهِهِمَا مِمَّا يُوَافِقُ الْخَيَالَ وَيَجْرِي مَعَ وَهْمِ النَّفْسِ، وَيُقْصَدُ بِهِ تَصْوِيرُ الْوُجْدَانِ الْخَفِيِّ أَكْثَرَ مِمَّا يُقْصَدُ بِهِ تَقْرِيرُ الْحَقِيقَةِ الرَّاهِنَةِ، وَلِذَلِكَ تَفَنَّنَ فِيهِ شُعْرَاءُ

العَرَبِ وَتَسَابَقُوا إِلَى الصُّورِ الْخَيَالِيَّةِ مِنْهُ، يُصَوِّرُونَهَا فِي كُلِّ
قَالَ، وَيَأْتُونَ بِهَا مِنْ كُلِّ سَبِيلٍ، وَقَدْ آنَسُوا مَيْدَانَ الْخِيَالِ
فَسِيحاً فَجَالُوا، وَوَجَدُوا مَجَالَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقَالُوا،
وَسَاعَدَتْهُمْ أَسَالِيبُ اللُّغَةِ وَاتَّسَاعُ تَرَكَيبِهَا وَبِلَاغَةُ تَغْيِيرِهَا
وَجَزَالَةُ أَلْفَافِهَا وَوَفَرَةُ الِاسْتِعَارَاتِ وَالْكِنَايَاتِ فِيهَا، فَأَرْسَلُوا
أَفْرَاسَ قَرَائِحِهِمْ مُطْلَقَةَ الْعِنَانِ، وَأَجَالُوا بِصَائِرِهِمْ فِي سَمَاءِ
الْمَعَانِي، فَاسْتَنْزَلُوا النُّجْمَ مِنَ الْعِنَانِ. وَأَمَّا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ
تَقْرِيرِ الْوَقَائِعِ وَإِيرَادِ الْحِكَمِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَتَصْوِيرِ
الْحَقَائِقِ وَوَضْفِ الْمَشَاهِدِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَكَادُونَ يَخْرُجُونَ عَنْ
حَدِّ الطَّبِيعَةِ، وَلَا يَحِيدُونَ عَنْ مَحَجَّةِ الصِّدْقِ وَالْقَصْدِ، وَلَا
يَأْتُونَ إِلَّا بِمَا تُلْقِيهِ الْبَدَاهَةُ وَيُمْلِيهِ الْجَنَانُ عَلَى اللِّسَانِ، فَهُمْ
مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ يُشَبِّهُونَ الْإِفْرَنْجَ وَإِنْ لَمْ يُشَبِّهِهُمْ الْإِفْرَنْجُ مِنْ
غَيْرِ هَذَا الْقَبِيلِ. ثُمَّ إِنَّ اضْطِلَاحَ الْإِفْرَنْجِ أَنْ لَا يُقَدِّمُوا شَيْئاً
بَيْنَ أَيْدِي أَغْرَاضِهِمُ الشُّعْرِيَّةِ، بَلْ يَأْتُونَ بِهَا أَقْتِضَاباً مِنْ غَيْرِ
تَمْهِيدٍ وَلَا تَقْدِمْ عَلَى خِلَافِ مَا يَفْعَلُهُ أَكْثَرُ شُعْرَاءِ الْعَرَبِ
مِنْ تَقْدِيمِ الْغَزَلِ وَالنَّسِيبِ وَالْحِكَمِ وَأَمْثَالِهَا أَمَامَ مَا يَقْصِدُونَ
مِنَ الْمَدْحِ أَوْ الرِّثَاءِ إِلَى أَنْ يَخْلُصُوا مِنْهَا إِلَيْهِ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ
لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْإِلَازِمِ عِنْدَنَا، وَكَثِيراً مَا يَأْتِي الشَّاعِرُ بِغَرَضِهِ فِي
مُفْتَتِحِ قَصِيدَتِهِ دُونَ تَوَاطُئَةٍ وَلَا تَمْهِيدٍ.

وَمِمَّا يُخَالِفُونَنَا فِيهِ أَنَّهُمْ يَتَجَافَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ فِي
قَصَائِدِهِمْ وَلَا يَسْتَعْمِلُونَ التَّمْدِخَ فِي كَلَامِهِمْ، بَلْ يَعُدُّونَهُ
عَيْبًا وَنَقْصًا خِلَافَ الْعَرَبِ الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ
دَهْرًا طَوِيلًا، وَجَعَلُوا لَهُ فِي أَشْعَارِهِمْ بَابًا خَاصًّا، عَلَى أَنَّهُ
مَعَ كَوْنِهِ مُبَاحًا عِنْدَ الْعَرَبِ، فَهُوَ الْيَوْمُ مِنَ الْمَذَاهِبِ
الْمَرْغُوبِ عَنْهَا لِمَا فِي طَبِيعَةِ الْعَصْرِ مِنْ إِبَائِهِ إِلَّا إِذَا دَعَتْ
إِلَيْهِ ضَرُورَةٌ تَدْفَعُ الشَّاعِرَ إِلَى مِثْلِهِ فِي مَقَامِ النُّضَالِ
وَالْمُدَافَعَةِ عَنِ الْأَخْسَابِ.

وَمِمَّا فَاقَ الْإِفْرَنْجُ فِيهِ فِي مَقَامِ الشُّعْرِ وَأَنْفَرَدُوا بِهِ
دُونَنَا، نَظْمُ الرُّوَايَاتِ التَّمْثِيلِيَّةِ وَاعْتِدَادُهَا مِنْ أَوَّلِ أَبْوَابِ
الشُّعْرِ وَأَسْمَى دَرَجَاتِهِ وَأَشَدُّهَا دَلَالَةً عَلَى بَرَاعَةِ الشَّاعِرِ
وَحُسْنِ اخْتِرَاعِهِ، وَهُمْ مُصِيبُونَ فِي هَذَا الْأَعْتِقَادِ كُلَّ
الْإِصَابَةِ، لِأَنَّ فِي نَظْمِ الرُّوَايَةِ الشُّعْرِيَّةِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى
الْفَضْلِ وَالْإِبْدَاعِ أَكْثَرَ مِمَّا فِي نَظْمِ الدِّيَّوَانِ مِنَ الْقَصَائِدِ
وَالْمُقَطَّعَاتِ، إِذْ هِيَ تَقْتَضِي حُسْنَ الْاِخْتِرَاعِ فِي تَأْلِيفِ
حِكَايَتِهَا، وَبَرَاعَةَ النُّظْمِ فِي وَضْعِ أَبْيَاتِهَا، وَلُطْفَ التَّصَوُّرِ
فِي بَيَانِ شَعَائِرِ مُمَثِّلِيهَا وَاخْتِلَافِ حَالَاتِهِمْ، وَدِقَّةَ تَبْوِيبِ
فُصُولِهَا، وَتَوْثِيقَ عُقْدَتِهَا، وَوَضَلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ؛ مِمَّا
يَسْتَلْزِمُ رَوِيَّةً طَوِيلَةً، وَعَارِضَةً شَدِيدَةً، وَقُدْرَةً فَائِقَةً فِي

التَّصَوُّرِ وَالنَّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ عَلَى غَيْرِ مَا تَقْتَضِيهِ الْقَصَائِدُ
وَالْمَقَاطِعُ الْمُسْتَقِلَّةُ الَّتِي يَقْصِدُ بِهَا النَّاظِمُ غَرَضاً وَاحِداً،
فَيَأْتِي بِهِ فِي أَبْيَاتٍ مَعْدُودَةٍ لَا يَضْطَرُّ فِيهَا إِلَى عَقْدِ حِكَايَةٍ
وَلَا إِلَى تَمْثِيلِ عَوَاطِفَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَلَا إِلَى إِقَامَةِ نَفْسِهِ فِي
مَوْقِفِ كُلِّ شَخْصٍ مِنْ أَشْخَاصِ الرِّوَايَةِ يَتَكَلَّمُ بِلِسَانِهِ
وَيَنْطِقُ عَنْ شُعُورِهِ وَيَضَعُ فِي دَوْرِهِ التَّمْثِيلِيَّ مَا كَانَ يَنْبَغِي
أَنْ يَقُولَهُ صَاحِبُ الدَّورِ الْأَصِيلِ.

وَقَدْ اُنْتَقَلَ هَذَا الْفَنُ إِلَيْنَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَاشْتَغَلَ
بِهِ جَمَاعَةٌ مِثْلًا، نَظَّمُوا فِيهِ الرِّوَايَاتِ الشُّعْرِيَّةَ، وَأَخْصَصُوهُمْ
الْمَرْحُومُ الْمَأْسُوفُ عَلَيْهِ الشَّيْخُ خَلِيلُ الْيَازْجِي فِي
رِوَايَتِهِ «الْمُرُوءَةُ وَالْوَفَاءُ» إِلَّا أَنَّنَا لَمْ نَبْلُغْ فِيهِ مَبْلَغَ
الْإِقْرَنْجِ بَعْدُ، وَلَا وَصَلْنَا إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ دَرَجَةِ
كَمَالِهِ وَإِتْقَانِهِ.

وَمِنْ الْفَرْقِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فِي نَظْمِ الشُّعْرِ أَنَّنَا نَفُوقُهُمْ
فِي وَصْفِ الشَّيْءِ وَهُمْ يَفُوقُونَنَا فِي وَصْفِ الْحَالَةِ، أَيْ:
إِنَّنَا إِذَا وَصَفْنَا الْأَسَدَ أَوْ الْفَرَسَ أَوْ الْقَصْرَ أَوْ الْفَتَى الْجَمِيلَ
أَوْ الْغَادَةَ الْحَسَنَاءَ أَتَيْنَا فِي ذَلِكَ بِأَحْسَنَ مِمَّا يَأْتُونَ بِهِ،
وَتَوَسَّعْنَا فِيهِ تَوْسَعًا لَا يَقْدِرُونَ هُمْ عَلَى الْإِثْنَانِ بِمِثْلِهِ؛ وَإِنَّهُمْ

إِذَا وَصَفُوا حَالَةً مِنْ قِتَالِ رَجُلَيْنِ، أَوْ مَعْرَكَةِ جَيْشَيْنِ، أَوْ مُقَابَلَةِ مُحِبِّينِ، أَوْ غَرَقِ سَفِينَةٍ، أَوْ مُصَابِ قَوْمٍ جَاؤُوا فِي ذَلِكَ بِأَحْسَنَ مِمَّا نَجِيءُ بِهِ، وَتَوَسَّعُوا فِيهِ بِمَا لَا نَقْدِرُ أَنْ نَسْبِقَهُمْ إِلَيْهِ. وَمِثْلُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُتَنَبِّيَّ وَصَفَ الْأَسَدَ بِمَا لَا يَقْدِرُ إِفْرَنْجِيٌّ عَلَى وَصْفِهِ بِمِثْلِهِ، وَهِيَغُو وَصَفَ مَعْرَكَةَ وَاتَّرَلُو بِمَا لَا يَقْدِرُ شَاعِرٌ عَرَبِيٌّ عَلَى الْإِثْيَانِ بِنَظِيرِهِ، فَهُمْ بِذَلِكَ أَقْدَرُ عَلَى تَصْوِيرِ الْوَقَائِعِ، وَنَحْنُ أَقْدَرُ عَلَى تَصْوِيرِ الْأَعْيَانِ، لَأَنَّا إِذَا وَصَفْنَا الشَّيْءَ بَلَّغْنَا مِنْ بَيَانِ صِفَاتِهِ إِلَى أَدَقِّهَا وَأَخْفَاهَا، وَتَوَصَّلْنَا مِنْ إِدْرَاكِ مَعَانِيهِ إِلَى أَضْعَافِهَا وَأَذْنَاهَا، حَتَّى لَا يُبْقِيَ مِنْهُ بَاقِيَةٌ، وَلَا تَفُوتُنَا مِنْهُ حَقِيقَةٌ وَصْفٍ؛ وَهُمْ إِذَا وَصَفُوا حَالَةً أَوْ مَوْقِفًا تَوَصَّلُوا إِلَى أَخْفَى دَخَائِلِهِ، وَأَبَانُوا عَنْ أَدَقِّ خَفَايَاهُ، وَبَسَطُوا لِعَيْنِ الْفِكْرِ مَا لَا تَكَادُ تُبْصِرُهُ عَيْنُ الْحِسِّ مِنْ غَوَامِضِهِ وَسَرَائِرِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ وَجْدَانَاتِ النَّفْسِ إِلَى أَقْصَاهَا، فَلَا يُفَوِّتُونَ مِنْهَا جَلِيلًا وَلَا دَقِيقًا، وَهِيَ الْمَزِيَّةُ الَّتِي يَغْتَبِرُونَ الشَّاعِرَ بِهَا، وَنَحْنُ نُشِيرُ إِلَى تِلْكَ الشَّعَائِرِ إِشَارَةً إجمالاً، وَنَتْرُكُ إِلَى الْقَارِئِ تَمَامَ التَّصَوُّرِ وَالتَّفْصِيلِ.

هَذَا، وَلَوْ تَتَّبَعْنَا بَيَانَ كُلِّ فَرْقٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْإِفْرَنْجِ،

مِنْ مِثْلِ الْبَدِيعِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ مِمَّا لَا وُجُودَ لَهُ عِنْدَهُمْ،
 وَالتَّفَقُّنِ فِي إِيرَادِ الْمَعَانِي عَلَى أَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ مِمَّا أَنْفَرَدْنَا بِهِ
 دُونَهُمْ، وَأَوْرَدْنَا عَلَى كُلِّ ذَلِكَ شَاهِدًا مِنْ كَلَامِنَا وَكَلَامِهِمْ؛
 لِمُضَاقِ بِنَا الْمَجَالِ، وَخَرَجَ بِنَا نِطَاقُ الْبَحْثِ إِلَى دَائِرَةِ أَوْسَعِ
 مِنْ دَائِرَةِ الْمَوْضُوعِ، تَسْتَعْرِقُ كِتَابًا بِأَسْرِهِ؛ وَلَكِنَّ الَّذِي
 يُؤْخَذُ مِنْ جُمْلَةٍ مَا أَوْرَدْنَاهُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ أَمْتَازُوا عَنَّا بِشَيْءٍ،
 وَأَمْتَازْنَا عَنْهُمْ بِأَشْيَاءَ، وَأَتْنَا قَدْ جَمَعْنَا مِنْ شِعْرِهِمْ أَحْسَنَهُ
 وَلَمْ يَجْمَعُوا مِنْ شِعْرِنَا كَذَلِكَ، وَهِيَ وَلَا شَكَّ مَزِيَّةُ اللُّغَةِ
 الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي اخْتَصَّتْ بِمَا لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ لُغَةٌ سِوَاهَا مِنْ
 غَزَاةِ مَوَادِّ اللَّفْظِ، وَوَفَرَةِ ضُرُوبِ التَّعْبِيرِ، وَاتِّسَاعِ مَذَاهِبِ
 الْبَيَانِ؛ حَتَّى لَقَدْ سَمَّاهَا الْإِفْرَنْجُ أَنْفُسُهُمْ: «أَتَمَّ لُغَةٍ فِي
 الْعَالَمِ» وَكَفَى بِذَلِكَ بَيَانًا لِفَضْلِهَا عَلَى سَائِرِ اللُّغَاتِ وَدَلِيلًا
 عَلَى فَضْلِ شِعْرِهَا عَلَى سَائِرِ الشُّعْرِ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

نَقْدُ دِيَوَانِ شَوْقِي^(١)«لمحمد بك المؤيدلي»^(٢)

(١)

الانتقادُ قائِدُ الاجتهادِ والإحسانِ، ورَائِدُ الإِجَادَةِ
وَالِإِتْقَانِ؛ وَهُوَ لِلْإِنْسَانِ بِمَنْزِلَةِ الصَّيْقَلِ لِلصَّوَارِمِ، وَالصَّيْرِفِ
لِلدَّرَاهِمِ. وَلَوْلَا النَّقْدُ لَمَا اِمْتَاَزَ الصَّحِيحُ مِنَ الْفَاسِدِ، وَلَا

(١) كُتِبَ هَذَا النَّقْدُ فِي أَعْدَادِ مُتَفَرِّقَةٍ مِنْ جَرِيدَةِ «مَصْبَاحِ الشَّرْقِ»،
فَنَشَرُهُ عَلَى حَسَبِ تَرْتِيْبِهِ هُنَاكَ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ نَقْدَ مَقْدَمَةِ الدِّيَوَانِ
وَجُزْءٍ قَلِيلٍ مِنَ الدِّيَوَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ انْقَطَعَ النَّقْدُ بَعْدَ ذَلِكَ؛
وَالْفَرَضُ مِنْ نَشْرِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ هُنَا الْإِتْيَانُ بِمِثَالِ حَسَنِ مِنْ أَدَبِ
الْإِتْقَادِ، وَدِقَّةِ النَّظَرِ فِيهِ، وَجَمَالِ اسْلُوبِ كِتَابَتِهِ؛ أَمَّا مَا وَرَاءَ
ذَلِكَ مِنْ صِحَّةِ أَوْجُهِ الْإِتْقَادِ جَمِيعِهَا أَوْ صِحَّةِ بَعْضِهَا دُونَ
بَعْضٍ، فَهُوَ مَبْنَحْتُ آخِرٍ لَا دَخَلَ لَهُ فِي مَوْضُوعِ الْإِخْتِيَارِ.

(٢) «محمد بك [ابن إبراهيم] المؤيدلي» [١٢٧٥ - ١٣٤٨ هـ =
١٨٥٨ - ١٩٣٠ م].

هُوَ مِنْ أَقْدَرِ كُتَابِ هَذَا الْعَصْرِ عَلَى الْكِتَابَةِ فِي الْأَخْلَاقِ وَاتِّقَادِ
الْعَادَاتِ، وَلَهُ فِي التَّرْسُلِ مَا لَا يَكَادُ يُجَارِيهِ فِيهِ مُجَارٍ، وَاسْلُوبُهُ
فِي الْمُتَأَخِّرِينَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِاسْلُوبِ الْجَاحِظِ فِي الْمُتَقَدِّمِينَ
وَيَمْتَاَزُ فِي كِتَابَتِهِ بِالْإِعْتِمَادِ فِي كُلِّ مَا يَكْتُبُ عَلَى الْعِلْمِ الْجَمِّ،
وَالْأَدَبِ الْغَزِيرِ، وَالتَّارِيخِ الصَّحِيحِ.

تَبَيَّنَ الْحَالِي مِنَ الْعَاطِلِ، وَلَمَّا قِيلَ لِلْإِنْسَانِ فِي كُلِّ عَمَلٍ
يَعْمَلُهُ: أَحْسَنْتَ وَأَصَبْتَ؛ وَلَوَقَفَ النَّاسُ فِي سَبِيلِ
الْإِحْسَانِ، وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى مَوَاضِعِ الْخَطَا وَمَوَاقِعِ الزَّلَلِ.
وَلَا يَكُونُ الْإِحْسَانُ ظَاهِرًا مُتَبَلِّجًا وَالْإِثْقَانُ وَاضِحًا مُتَأَلِّقًا،
إِلَّا عِنْدَ إِطْلَاقِ الْإِنْتِقَادِ وَصِدْقِ الْقَوْلِ؛ وَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ فِي
إِقْبَالِ دَوَلَةِ الْفَصَاحَةِ وَعِزِّ مَقَامِ الْأَدَبِ، إِذَا أَنْشَأَ رِسَالَةً أَوْ
نَظَّمَ قَصِيدَةً عَرَضَهَا عَلَى نُقَادِ الْكَلَامِ، فَاسْتَحْسَنُوا مِنْهَا
الْحَسَنَ، وَنَبَّهُوهُ إِلَى الْقَبِيحِ، فَيَحْذِفُ مِنْهَا مَا لَمْ يَرْضَوْهُ،
أَوْ يَرْجِعُ إِلَى تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ، فَتَرْسَخُ فِيهِ مَلَكَةُ الْإِثْقَانِ مَا
تَكَرَّرَ عَلَيْهِ الْإِنْتِقَادُ حَتَّى بَلَغَ بِكَثِيرٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ أَنَّهُمْ لَمْ
يَكُونُوا لِيَعْرِضُوا قَصَائِدَهُمْ عَلَى مَمْدُوحِيهِمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ
يَنْتَقِدَهَا وَيَرْضَاهَا مَنْ كَانَ مُكَلَّفًا عَلَى أَبْوَابِهِمْ بِوِظَافَةٍ
الْإِنْتِقَادِ مِنْ أَسَاتِذَةِ الْكَلَامِ وَجَهَابِذَةِ الْبَيَانِ، وَهَذَا أَبُو تَمَّامٍ،
وَنَاهِيكَ بِعُلُوِّ قَدْرِهِ فِي الشُّعْرِ، قَدْ وَفَدَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
طَاهِرٍ بِخُرَاسَانَ، فَمَدَحَهُ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ لَا يُجِيزُ شَاعِرًا إِلَّا
إِذَا رَضِيَهُ أَبُو الْعَمَيْثَلُ وَأَبُو سَعِيدٍ الضَّرِيرُ، وَكَانَا عَلَى بَابِهِ
لِإِنْتِقَادِ الشُّعْرِ، وَكَانَا رُبَّمَا أَسْقَطَا الْقَصِيدَةَ بِجُمْلَتِهَا إِذَا لَمْ
يَرْضَاهُمَا الْبَيْتُ الْوَاحِدُ مِنْهَا، فَقَصَدَهُمَا أَبُو تَمَّامٍ، وَأَنْشَدَهُمَا
الْقَصِيدَةَ الَّتِي أَوَّلُهَا [من الطويل]:

هَنَّ عَوَادِي يُوسُفَ وَصَوَاحِبُهُ
 فَعَزَمًا فَقِدَمًا أَذْرَكَ السُّؤْلَ طَالِبُهُ
 فَلَمَّا سَمِعَا هَذَا الْإِبْتِدَاءَ أَسْقَطَاهَا، فَسَأَلَهُمَا اسْتِثْمَامِ
 النَّظَرِ، فَمَرَّا بِقَوْلِهِ:

وَرَكِبْ كَأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ عَرَسُوا
 عَلَى مِثْلِهَا وَاللَّيْلُ تَسْطُو غِيَاهِبُهُ
 لِأَمْرِ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ صُدُورُهُ
 وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَتِمَّ عَوَاقِبُهُ

فَاسْتَحْسَنَّا هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ وَأَيَّاتًا أُخْرَى مِنْهَا، وَهِيَ:
 وَقَلْقَلْ نَائِي مِنْ خُرَاسَانَ جَاشَهَا
 فَقُلْتُ أَظْمَنِي أَنْضِرُ الرُّوضِ عَازِبُهُ
 إِلَى سَالِبِ الْجَبَّارِ بَيْضَةَ مُلْكِهِ
 وَآمِلُهُ عَادٍ عَلَيْهِ فَسَالِبُهُ

فَعَرَضَا الْقَصِيدَةَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، وَأَخَذَا لَهُ الْجَائِزَةَ عَلَيْهَا.
 كَذَلِكَ كَانَ انْتِقَادُ الشُّعْرِ وَالْأَدَبِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ
 بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الْعَالِيَةِ مِنَ الْإِعْتِبَارِ وَالْاهْتِمَامِ، وَبِهِ رَاجَتْ
 سُوقُ الْأَدَبِ، وَصَفَا جَوْهَرُ الشُّعْرِ.

ثُمَّ إِنَّكَ إِذَا التَّفَتَّ إِلَى حَالِ الْغَرَبِيِّينَ الْيَوْمَ وَجَدْتَ
الانْتِقَادَ عِنْدَهُمْ أَنْفَعَ الْآلَاتِ لِتَقْدِمِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَارْتِقَاءِ
الْمُخْتَرَعَاتِ وَالْمُبْتَدَعَاتِ، فَلَا تَخْلُو جَرِيدَةً عِنْدَهُمْ مِنْ
عَامِلَيْنِ مُوظَّفَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ لِانْتِقَادِ مَا يَكُونُ لَهُ قِيَمَةٌ
مِنْ تَأْلِيفٍ أَوْ تَضْنِيفٍ أَوْ ابْتِكَارٍ أَوْ ابْتِدَاعٍ، حَتَّى أَنْ
الْمُؤَلِّفَ الَّذِي لَا يَنْتَقِدُ تَأْلِيفَهُ مُنْتَقِدٌ مِنْهُمْ يَعُدُّ نَفْسَهُ سَاقِطَ
الْمَنْزِلَةِ بَيْنَ أَقْرَانِهِ.

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْأَدَبِ فِي مِضَرٍ أَنَّ أَرْبَابَ
الْجَرَائِدِ فِيهَا لَمْ يَلْتَفِتُوا يَوْمًا إِلَى هَذَا الْعَمَلِ النَّافِعِ، بَلْ
جَعَلُوا دَيْنَهُمُ التَّغَالِيَّ وَسُوءَ الْمُبَالَغَةِ فِي مَذْحِ مَا يَظْهَرُ فِي
الْوُجُودِ مِنْ رِسَالَةٍ كَاتِبٍ، أَوْ قَصِيدَةِ شَاعِرٍ، أَوْ تَأْلِيفِ
مُؤَلِّفٍ، أَوْ تَغْرِيبِ مُعَرِّبٍ؛ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَمَّا إِذَا كَانَ مَا
يَمْدَحُونَ أَهْلًا لِلْمَدِيحِ وَجَدِيرًا بِالثَّنَاءِ، وَنَسُوا أَنَّ هَذِهِ الْعَادَةَ
يَنْتُجُ عَنْهَا أَمْرَانِ مَذْمُومَانِ. أَحَدُهُمَا: أَنَّ مَذْحَ الرَّجُلِ فِي
وَجْهِهِ (وَصِفَاتُ الْجَرَائِدِ مَذْحٌ فِي الْوَجْهِ) أَمْرٌ غَيْرُ مَرْضِيٍّ
طَالَمَا نَهَى عَنْهُ النَّاهُونَ، وَحَذَّرَ مِنْهُ الْمُحَذِّرُونَ.

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِذَا مَدَحْتَ أَخَاكَ فِي
وَجْهِهِ فَكَأَنَّمَا أَمْرَزْتَ عَلَى خَلْقِهِ مُوسَى رَمِيضَةً^(١)».

(١) الرَّمِيضَةُ: الحادة.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ مَشَى رَجُلٌ إِلَى رَجُلٍ بِسَيْفٍ مُزْهَفٍ كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ» [قال العراقي في «تخريج الإحياء»: لم أجده].

وَقَالَ أَيْضاً لِرَجُلٍ مَدَحَ رَجُلًا فِي وَجْهِهِ: «عَقَرْتُ الرَّجُلَ، عَقَرَكَ اللَّهُ» [هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، راجع «كنز العمال» رقم: ٩٠١١].

وَوَجْهُ الذَّمِّ لِهَذَا الْمَدْحِ أَنَّهُ يَنْشَأُ عَنْهُ إِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ وَاعْتِرَاضُهُ بِمَنْزِلَتِهِ، فَيَرَى كُلَّ شَيْءٍ فِي نَفْسِهِ حَسَنًا، وَيَمْتَلِئُ بِالْبَاطِلِ اخْتِيَالًا وَعُجْبًا.

قَالَ بَعْضُهُمْ لِرَجُلٍ رَأَاهُ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ: يَسُرُّنِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ مِثْلَكَ فِي نَفْسِكَ، وَأَنْ أَكُونَ عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَكَ عِنْدَ النَّاسِ. فَتَمَنَّى حَقِيقَةً مَا يُقَدِّرُهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ. ثُمَّ تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِعُيُوبِ نَفْسِهِ كَمَا يَعْرِفُ النَّاسُ عُيُوبَ ذَلِكَ الْمُعْجَبِ بِنَفْسِهِ.

وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ: عُجِبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ، وَمَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّاحِطُ عَلَيْهِ.

وَيَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْمَمْدُوحَ يَعْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ الْإِحْسَانَ وَالْإِثْقَانَ وَالْإِصَابَةَ وَالْإِجَادَةَ، فَتَقَعُدُ هِمَّتُهُ عَنِ

الْعَمَلِ، وَيَكْتَفِي بِالدَّرَجَةِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا مُتَظَلِّلًا بِظَلَالِ
ذَلِكَ الْمَدْحِ.

وَمِنْ كَلَامِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْمَدْحُ هُوَ الذَّبْحُ»
قَالُوا: لَأَنَّ الْمَذْبُوحَ يَنْقَطِعُ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالْأَعْمَالِ، وَكَذَلِكَ
الْمَمْدُوحُ يَفْتَرُّ عَنِ الْعَمَلِ، وَيَقُولُ: قَدْ حَصَلَ فِي الْقُلُوبِ
وَالنُّفُوسِ مَا أَسْتَغْنِي بِهِ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالْجَدِّ.

وَمِنْ أَمْثَالِ الْحَرَّائِينَ: «إِذَا صَارَ لَكَ صَيْتٌ بَيْنَ
الْحَصَادَةِ فَانْكَسِرْ مِنْجَلَكَ».

وَتَانِي الْأَمْرَيْنِ الْمَذْمُومَيْنِ: أَنَّ الْمَدْحَ عَلَى حَسَبِ
الْعَادَةِ غِشٌّ لِلنَّاسِ مِمَّنْ لَا يَتَكَلَّفُونَ تَعَبَ الْفِكْرِ فِيمَا إِذَا
كَانَ الْعَمَلُ يَسْتَحِقُّ الْمَدْحَ أَوْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، فَيَعْتَمِدُونَ عَلَى
أَقْوَالِ الْمَدِيحِ، وَيَغْفُلُونَ عَنْ قِيَمَةِ الْمَمْدُوحِ فِي نَفْسِهِ، وَكِلَا
الْأَمْرَيْنِ تَغْرِيرٌ بِالنَّاسِ لَا يَخْفَى مَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ عَلَى
الْعُلُومِ وَالْآدَابِ.

وَلَمَّا كَانَ حَضْرَةُ الشَّاعِرِ الْأَدِيبِ أَحْمَدُ بَكْ شُوقِي
عَزِيزَ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَنَا، نُحِبُّ لَهُ التَّقَدُّمَ فِي الْأَدَبِ وَالتَّرْقِيَّ فِي
أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ لِمَا نَأْنِسُهُ فِيهِ مِنَ الذِّكَاةِ وَحُسْنِ الذَّوْقِ
وَالْإِنْطِبَاعِ الْفِطْرِيِّ عَلَى مَحَبَّةِ الشُّعْرِ، وَكُنَّا نَتَمَنَّى لَهُ أَنْ

يَكُونُ شِعْرُهُ كُلُّهُ لُؤْلُؤًا لَا يَخَالِطُهُ حَصَى، وَذَهَبًا خَالِصًا لَا يَشُوبُهُ بَهْرَجٌ، وَكَانَ الْإِنْتِقَادُ كَمَا قَدَّمْنَا وَكَمَا يَعْلَمُهُ خَيْرٌ وَاسِطَةً إِلَى الْإِحْسَانِ وَالْإِتْقَانِ وَالْإِجَادَةِ وَالْإِصَابَةِ؛ لَا بَدَعَ أَنْ أَخْتَرْنَا مَعَهُ سُلُوكَ هَذَا السَّبِيلِ، سَبِيلِ الْإِنْتِقَادِ عَلَى دِيَوَانِهِ الَّذِي أَهْدَى إِلَيْنَا نُسخَةً مِنْهُ، عِنَايَةً بِهِ، وَاعْتِرَافًا بِقُدْرِهِ، وَلَمْ نَفْعَلْ بِهِ مَا نَفَعَلَهُ بغيرِهِ مِنَ الْمَطْبُوعَاتِ مِمَّا لَا يَسْتَحِقُّ فِي نَظَرِنَا الْإِنْتِقَادَ، فَلَا يَكُونُ لَهُ نَصِيبٌ عِنْدَنَا إِلَّا السُّكُوتُ عَلَيْهِ. وَنَحْنُ لَا نَشُكُّ أَنَّ حَضْرَةَ الشَّاعِرِ الْفَاضِلِ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِمَزِيَّةِ الْإِنْتِقَادِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، لَا بُدَّ أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ مِنَّا أَحْسَنَ قَبُولٍ، وَيَتَّبَعَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ الْبَالِغَةَ وَالْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ: «أَمْرٌ مُبْكِيَاتِكَ لَا أَمْرٌ مُضْحِكَاتِكَ».

(٢)

قِيلَ لِأَفْلَاطُونٍ: مَا لَكَ تُعَارِضُ سُقْرَاطَ فِي أَقْوَالِهِ وَأَنْتَ تُحِبُّهُ؟

قَالَ: أَحِبُّ سُقْرَاطَ، وَلَكِنِّي أَحِبُّ الْحَقَّ أَكْثَرَ مِنْهُ.

وَعَلَى ذَلِكَ نَبْدَأُ فِي مَا بَدَأَ لَنَا الْكَلَامُ عَلَيْهِ مِنْ دِيَوَانِ حَضْرَةِ الشَّاعِرِ الْفَاضِلِ شَوْقِي بِكَ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ نَكُونَ مِنَ الدَّاخِلِينَ فِي مَنْ أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ لَهُمْ فِي آخِرِ

مُقَدَّمَتِهِ بِقَوْلِهِ: «وَأَنَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِأَهْلِي وَلِمَنْ يَنْظُرُ
إِلَى هَذَا الْكِتَابِ بِعَيْنِ الْكَرِيمِ الْمُتَجَاوِزِ أَوْ الْمُنتَقِدِ
الْعَدْلِ».

صَدَّرَ الشَّاعِرُ دِيْوَانَهُ بِمُقَدِّمَةٍ طَوِيلَةٍ تَكَلَّمَ فِيهَا عَنِ
الشُّعْرِ وَعَنْ نَفْسِهِ. أَمَّا الْمُقَدِّمَةُ مِنْ حَيْثُ صِنَاعَةُ الْإِنْشَاءِ،
وَمِنْ حَيْثُ اللَّغَةُ، فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ شَاعِرٌ لَا نَائِرٍ، وَتَدُلُّ
عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَاجُ إِلَى إِعَادَةِ نَظَرٍ لِلتَّنْقِيحِ وَالتَّصْحِيحِ،
وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ يَخْسَبُ لِلانْتِقَادِ حِسَاباً وَلَمْ يَغْتَمِذْ عَلَى
الْإِطْرَاءِ وَالْمَدْحِ وَخَذَهُ مِنْ أَوْلِيكَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ الْانْتِقَادَ
مِمَّا يُثَبِّطُ الْهِمَّةَ، لَكَانَ تَأَمَّلَهَا بِنَفْسِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، أَوْ كَانَ
عَرَضَهَا عَلَى مَنْ يَنْتَقِدُهَا لَهُ، وَثِقَةَ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ مَجْلَبَةً
لِلْخَطَا، فَإِذَا نَظَرْتَ فِي الصَّحِيفَةِ الْأُولَى وَخَذَهَا وَجَدْتَهُ
يَقُولُ فِيهَا عَنِ الشُّعْرِ: «قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ وَاصِفاً وَحَاكِياً،
وَصَاحِجاً وَبَاكِياً، وَنَاسِياً وَغَازِلاً». وَالْغَازِلُ هُنَا مِنْ قَوْلِكَ:
غَزَلَتِ الْمَرْأَةُ الْقِطْنَ وَالْكَثَّانَ وَغَيْرَهُمَا، مِنْ بَابِ ضَرَبَ،
غَزَلاً: مَدَّتْهُ وَقَتَلَتْهُ خِيْطَاناً. وَلَا يَكُونُ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ «غَازِلاً»
إِلَّا إِذَا كَانَ غَزَلَ أَمْرَاسَ الْكَثَّانِ فِي قَوْلِهِ [مِنْ الطَّوِيلِ]:

فَبَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ

بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلِ شَدَّتْ بِإِذْبُلٍ

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِّهَا

بِأَمْرَاسٍ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ

أَمَّا إِذَا كَانَ غَرَضُهُ الْغَزَلَ مُحَرَّكًا، فَلَا يَأْتِي أَسْمُ
الْفَاعِلِ مِنْهُ غَازِلًا، وَإِنَّمَا يُقَالُ: رَجُلٌ مُتَغَزِّلٌ وَغَزِلٌ. كَكَتِفٌ،
وَوَغَزِيلٌ.

وَقَالَ فِي الصَّحِيفَةِ نَفْسُهَا عِنْدَ كَلَامِهِ عَلَى قَصِيدَةٍ
أَبِي قِرَاسٍ [مِن الطويل]:

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيَمْتُكَ الصَّبْرُ

أَمَّا لِلْهَوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ

«لَيْسَتْ إِلَّا عِقْدًا تَوَحَّدَ سِلْكُهُ، وَتَشَابَهَتْ جَوَاهِرُهُ،
وَدَقُّ نِظَامِهِ؛ تَعَاوَنْتَ فِيهِ مَلَكَةُ الْعَرَبِيِّ وَسَلِيْقَةُ الشَّاعِرِ عَلَى
حُسْنِ الْحِكَايَةِ». وَكَانَ الصَّوَابُ أَنْ يَقُولَ: «سَلِيْقَةُ الْعَرَبِيِّ
وَمَلَكَةُ الشَّاعِرِ»، لِأَنَّ الْمَلَكَةَ لِكُلِّ النَّاسِ، وَالسَّلِيْقَةُ لِلْعَرَبِيِّ
خَاصَّةً؛ قَالَ بَعْضُ شُعْرَائِهِمْ [مِن الطويل]:

وَلَيْسَتْ بِنَخْوِيٍّ يَلُوكُ لِسَانَهُ

وَلَكِنْ سَلِيْقِي أَقُولُ فَأُغْرِبُ

وَفِي الصَّحِيفَةِ نَفْسُهَا خَطَاةٌ مِنْ حَيْثُ التَّارِيخُ، إِذْ
قَالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَمَا زَالَ لِيَوَاءَ الشُّعْرِ مَعْقُودًا لِأُمَرَاءِ الْعَرَبِ

وَأَشْرَافِهِمْ». وَأَمْرَاءُ الْعَرَبِ وَأَشْرَافُهُمْ كَانُوا بِمَغْزِلٍ عَنْ نَظْمِ
الشُّعْرِ، وَكَانُوا يَأْتُونَ مِنْ قَوْلِهِ، وَيَعُدُّونَهُ غَيْرَ لَائِقٍ
بِمَقَامَاتِهِمْ؛ وَحِكَايَةُ حَجَرٍ مَشْهُورَةٍ، وَهِيَ أَنَّهُ غَضِبَ عَلَى
أَبْنِهِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ لَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ يَنْظُمُ الشُّعْرَ، فَأَمَرَ خَادِمًا لَهُ
أَنْ يَذْهَبَ بِهِ لِيَقْتُلَهُ وَيَأْتِيَهُ بِعَيْنَيْهِ أَمَارَةً عَلَى قَتْلِهِ، فَرَجَمَ
الْخَادِمُ الْغُلَامَ، فَدَسَّهُ فِي جَبَلٍ، وَرَجَعَ إِلَى مَوْلَاهُ بِعَيْنَيْ
ظَنِّي.

وَأَمَّا مَا يُنْقَلُ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ تِلْكَ الْأَشْعَارِ
فَمَكْذُوبٌ عَلَيْهِ.

هَذَا مِنْ حَيْثُ اللُّغَةُ وَالتَّارِيخُ فِي صَحِيفَةٍ وَاحِدَةٍ،
وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ الْكَلَامُ عَنِ الشُّعْرِ، فَإِنَّكَ تَرَاهُ فِي الْمُقَدِّمَةِ
مُضْطَرِبًا مُتَنَاقِضًا، فَتَارَةً يَرْفَعُ الشُّعْرَ الْعَرَبِيَّ إِلَى دَرَجَةٍ
عَالِيَةٍ، كَقَوْلِهِ:

«وَكَانَ أَبُو الْعَلَاءِ يَصُوغُ الْحَقَائِقَ فِي شِعْرِهِ، وَيُوعِي
تَجَارِبَ الْحَيَاةِ فِي مَنْظُومِهِ، وَيَشْرَحُ حَالَةَ النَّفْسِ، وَيَكَادُ
يَنَالُ سِرِّيرَتَهَا، وَمَنْ تَأَمَّلَ قَوْلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ [من الوافر]:

فَلَا مَطَلَتْ عَلَيَّ وَلَا بِأَرْضِي

سَحَابُ لَيْسَ تَنْتَظِمُ الْبِلَادَا

وَقَابَلَ بَيْنَ هَذَا الْبَيْتِ وَبَيْنَ قَوْلِ أَبِي فِرَاسٍ [مِنَ
الطَوِيلِ]:

مُعَلَّلَتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ
إِذَا مِتُّ ظَمَانًا فَلَا نَزَلَ الْقَطْرُ

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الْأَوَّلِ كَيْفَ شَرَعَ سُنَّةَ الْإِيثَارِ، وَبَالَغَ فِي
إِظْهَارِ رِقَّةِ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ، وَأَنْعِطَافِ الْجَنْسِ نَحْوَ الْجَنْسِ؛
وَالِى الثَّانِي كَيْفَ وَضَعَ مَبْدَأَ الْأَثَرَةِ، وَغَالَى بِالنَّفْسِ، وَرَأَى
لَهَا الْاِخْتِصَاصَ بِالْمَنْفَعَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، تَعِيشُ فِيهَا جَافِيَةً،
ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْهَا غَيْرَ آسِيَةٍ؛ عَلِمَ أَنَّ شُعْرَاءَ الْعَرَبِ حُكَمَاءَ،
لَمْ تَغْزُبْ عَنْهُمْ الْحَقَائِقُ الْكُبْرَى، وَلَمْ يَفْتَهُمْ تَقْرِيرَ الْمَبَادِيءِ
الْعَالِيَةِ، وَأَنَّهُمْ أَقْدَرُ الْأُمَمِ عَلَى تَقْرِيبِهَا مِنَ الْأَذْهَانِ
وَإِظْهَارِهَا فِي أَجَلَى وَأَجْمَلِ صُورِ الْبَيَانِ».

وَتَارَةً يَنْزِلُ بِالشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ إِلَى أَدْنَى دَرَكَةٍ، فَيَقُولُ:

«إِنِّي قَرَعْتُ أَبْوَابَ الشُّعْرِ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ مِنْ حَقِيقَتِهِ
مَا أَعْلَمُهُ الْيَوْمَ، وَلَا أَجِدُ أَمَامِي غَيْرَ دَوَاوِينَ لِلْمَوْتَى لَا
مَظْهَرَ لِلشُّعْرِ فِيهَا، وَقَصَائِدَ لِلْأَحْيَاءِ يَحْذُونَ فِيهَا حَذَوِ
الْقَدَمَاءِ، وَالْقَوْمُ فِي مِضَرٍ لَا يَعْرِفُونَ مِنَ الشُّعْرِ إِلَّا مَا كَانَ
مَذْحًا فِي مَقَامِ عَالٍ».

ثُمَّ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ عَنِ الشُّعْرَاءِ حَتَّى عَنْ آخِرِ
الْمُتَأَخِّرِينَ:

«وَالَا فَمِنْ دَوَائِبِهِمْ مَا يَخْلُقُ أَنْ يَكُونَ الْمِثَالُ
الْمُخْتَذَى فِي شُعْرَاءِ الْأُمَمِ، كَأَبْنِ الْأَخْنَفِ مُرْسِلِ الشُّعْرِ
كُتُبًا فِي الْهَوَى وَرَسَائِلَ، وَمُتَّخِذِهِ رِسْلًا فِي الْهَوَى
وَوَسَائِلَ؛ وَكَأَبْنِ خَفَاجَةَ شَاعِرِ الطَّبِيعَةِ وَمَجْنُونِ لَيْلَاهَا،
وَوَاصِفِ بَدَائِعِهَا وَحَلَاهَا؛ وَكَأَلْبَهَاءِ زُهَيْرِ سَيِّدِ مَنْ ضَحِكَ
فِي الْقَوْلِ وَبَكَى، وَأَفْصَحَ مَنْ عَتَبَ عَلَى الْأَحِبَّةِ وَأَشْتَكَى؛
وَحَسْبُكَ أَنَّهُ لَوْ اجْتَمَعَ أَلْفُ شَاعِرٍ، يُعَزِّزُهُمْ أَلْفُ نَائِرٍ عَلَى
أَنْ يُحِلُّوا شِعْرَ الْبَهَاءِ، أَوْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ فِي سُهُولَتِهِ، لَانْصَرَفُوا
عَنْهُ وَهُوَ كَمَا هُوَ».

وَمَنْ كَانَ نَظَرُهُ فِي الْبَهَاءِ زُهَيْرٍ وَرَأْيُهُ فِيهِ هَكَذَا،
كَيْفَ يَكُونُ رَأْيُهُ فِي فُحُولِ الشُّعْرَاءِ كَمُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ،
وَأَبِي تَمَّامٍ، وَالْبُخْتَرِيِّ، وَأَبْنِ الرُّومِيِّ، وَالْأَرْجَانِيِّ؟! ثُمَّ هُوَ
بَعْدَ ذَلِكَ يَنْزِلُ بِالشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ إِلَى أَنْ يَقُولَ:

«ثُمَّ طَلَبْتُ الْعِلْمَ فِي أَوْرَبَةٍ، فَوَجَدْتُ فِيهَا نُورَ
السَّبِيلِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، وَعَلِمْتُ أَنِّي مَسْئُولٌ عَنْ تِلْكَ الْهَبَةِ
الَّتِي يُؤْتِيهَا اللَّهُ وَلَا يُؤْتِيهَا سِوَاهُ، وَأَنِّي لَا أُؤَدِّي شُكْرَهَا
حَتَّى أَشَاطَرَ النَّاسَ خَيْرَاتِهَا، وَإِذْ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَوْهَامَ

إِذَا تَمَكَّنَتْ مِنْ أُمَّةٍ كَانَتْ لِبَاغِي إِبَادَتِهَا كَالْأَفْعُوَانِ، لَا يُطَاقُ لِقَاؤُهُ وَيُؤْخَذُ مِنْ خَلْفِ بِأَطْرَافِ الْبَنَانِ؛ جَعَلْتُ أَبْعَثُ بِقَصَائِدِ الْمَدِيحِ مِنْ أَوْرَبَةِ مَمْلُوءَةٍ مِنْ جَدِيدِ الْمَعَانِي وَحَدِيثِ الْأَسَالِبِ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ».

وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ وَجَدَ نُورَ السَّبِيلِ إِلَى الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ فِي أَوْرَبَةِ مَنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، وَأَنَّهُ وَجَدَ فِي مِصْرٍ أَوْهَاماً كَالثُّغْبَانِ لَا يُؤْخَذُ إِلَّا بِالْحِيلَةِ، فَاحْتَالَ عَلَيْهِ بِقَصَائِدِهِ عَلَى الْأَسْلُوبِ الْعَرَبِيِّ الْجَدِيدِ الْأَوْرَبِيِّ لِإِبَادَةِ تِلْكَ الْأَوْهَامِ الَّتِي تَمَكَّنَتْ مِنَ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهَذَا أَغْرَبُ مَا رُوي! لِأَنَّ الشَّعْرَ أَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ، فَالرُّجُوعُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَخْذُ عَنْ أَهْلِهَا وَاجِبٌ مِنْ جِهَةِ الْأَلْفَاظِ؛ أَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَعَانِي، فَقَدْ طَالَعْنَا مَا قَدَرْنَا عَلَى مُطَالَعَتِهِ مِنْ شِعْرِ الْغَرِيبِينَ فَلَمْ نَجِدْهُمْ أَطْوَلَ بَاعاً مِنَ الشَّرْقِيِّينَ فِي الْمَعَانِي، بَلِ الشَّرْقِيُّونَ يَفُوقُونَهُمْ فِيهَا، وَهُمْ إِلَى الْآنَ لَا يَزَالُونَ فِي الْمَعَانِي عِيَالاً عَلَى الْيُونَانِيِّينَ وَالْفُرسِ وَالْعَرَبِ، يَنْتَحِلُونَهَا وَيُزَيِّنُونَ بِهَا أَشْعَارَهُمْ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْمَوَاضِعِ الشُّعْرِيَّةِ وَالتَّغْنِيِ بِالطَّبِيعَةِ وَوَضْفِ الْكَوْنِ مِمَّا يُشِيرُ إِلَيْهِ فِي مُقَدِّمَتِهِ، فَهُوَ يُشْهِدُ نَفْسَهُ: «أَنَّ شُعْرَاءَ الْعَرَبِ حُكَمَاءَ لَمْ تَغْرُبْ عَنْهُمْ الْحَقَائِقُ الْكُبْرَى، وَلَمْ يَفْتَهُمْ تَقْرِيرُ الْمَبَادِيءِ الْعَالِيَةِ، وَأَنَّهُمْ

أَقْدَرُ الْأُمَمِ عَلَى تَقْرِيْبِهَا مِنَ الْأَذْهَانِ، وَإِظْهَارِهَا فِي أَجَلَى
وَأَجْمَلِ بَيَانٍ». وَقَدْ قَالَ شُعْرَاءُ الشَّرْقِ مَا قَالُوا فِي هَذِهِ
الْأَبْوَابِ، فَمَا عَلَى الشَّاعِرِ الْجَدِيدِ إِلَّا أَنْ يَتَصَفَّحَ
دَوَائِنَهُمْ، فَيَجِدَ فِيهَا ضَالَّتَهُ الَّتِي يَنْشُدُهَا، فَإِنْ رَأَوْهُمْ قَدْ
فَاتَهُمْ شَيْءٌ أَوْ أَغْفَلُوا بَاباً فِي الشَّعْرِ لَمْ يَفْتَحُوهُ، فَلْيَقْرَعُوهُ
وَلْيَتَحِفَّ بِهِ أَهْلَ زَمَانِهِ، وَالْكَوْنُ وَالطَّبِيعَةُ أَمَامَهُ فِي كُلِّ
زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَهُوَ فِي غِنَى عَنِ التَّطَوُّحِ بِالشَّعْرِ إِلَى أَرْضِ
أُورُبَّةَ لِيَسْتَنِيرَ بِنُورِ هُدَاهَا وَيَخْتَدِيَ الصُّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ بِهَا.

هَذَا مَا رَأَيْنَاهُ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنْ مُقَدِّمَةِ الدِّيَوَانِ،
وَسَتَّبِعُهُ بِمَا نَرَاهُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي الَّذِي خَصَّصَهُ الشَّاعِرُ
الْفَاضِلُ لِلْكَلامِ عَنْ نَفْسِهِ، وَنَحْنُ لَا نَشْكُ فِي أَنَّهُ يَحْمِلُ
كُلَّ كَلَامِنَا فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى أَحْسَنِ مَحْمَلٍ، فَمَا غَرَضُنَا
إِلَّا خِدْمَتُهُ وَخِدْمَةُ الْأَدَبِ مَعَهُ، وَهُوَ لِلْأَدَبِ خَيْرُ مُسَاعِدٍ
وَمُعِينٍ.

(٢)

مِنَ الْأَقْوَالِ الْمَأْثُورَةِ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ قَوْلَةِ أَنَا».

و«إِذَا أَرَدْتَ أَنْ يُثْنَى عَلَيْكَ فَلَا تُثْنِ عَلَى نَفْسِكَ».

سَلَكَ الشَّاعِرُ الْفَاضِلُ فِي مُقَدِّمَتِهِ فِي الْكَلَامِ عَلَى

نَفْسِهِ مَسْلُكًا لَمْ تَسْلُكْهُ الشُّعْرَاءُ مِنْ قَبْلِهِ فِي دَوَائِبِهِمْ، بَلْ
كَانُوا يَتْرَكُونَ لِغَيْرِهِمُ الْكَلَامَ عَنْهُمْ، وَغَايَةُ مَا رَأَيْنَاهُ مِنْ
الْمُؤَلِّفِينَ لِلنُّكُثِ الْعَرَبِيَةِ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا الْكَلَامَ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ فَلَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا عَنْ أَصُولِهِمْ فِي الْأَدَبِ لَا عَنْ
أَصُولِهِمْ فِي النَّسَبِ، فَيَذْكُرُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مِمَّنْ أَخَذَ، وَعَمَّنْ
تَلَقَّى، وَعَلَى مَنْ قَرَأَ، وَمَاذَا حَفِظَ. أَمَّا الشَّاعِرُ الْفَاضِلُ،
فَقَدْ ذَكَرَ لِنَفْسِهِ أَصُولًا أَرْبَعَةً فِي النَّسَبِ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ
أَصْلًا وَاحِدًا فِي الْأَدَبِ، إِذْ قَالَ: «أَنَا إِذَا عَرَبِيٌّ، تُرْكِيٌّ،
يُونَانِيٌّ، جَرْكَسِيٌّ بِجَدَّتِي لِأَبِي؛ أَصُولٌ أَرْبَعَةٌ، فِي فَرْعٍ
مُجْتَمِعَةٍ».

[السريع]

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ

أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

وَكُلُّ مَنْ قَرَأَ كَلَامَهُ فِي مُقَدِّمَتِهِ يَرَاهُ يَدُورُ عَلَى أَرْبَعَةِ
أَشْيَاءَ: الزَّهْوِ، وَالسَّهْوِ، وَالْحَشْوِ، وَسَلَامَةِ النِّيَّةِ.

فَمِنْ قَوْلِهِ فِي الزَّهْوِ: «مَعْدِرَتِي إِلَى الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ أَنَّ
مَنْ يَغْرِضُ صُورَتَهُ عَلَى النَّاسِ كَمَنْ يَغْرِضُ وَجْهَهُ عَلَيْهِمْ،
وَأَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِالْمُحِبِّينَ أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، عَلَى أَنْ

صُورَتِي مَا عِشْتُ بَيْنَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا، فَإِذَا مِتُّ فَلْيَأْخُذُوهَا مِنْ أَهْلِي إِذَا جَدَّ بِهِمْ الْحِرْصُ عَلَيْهَا. وَلِلْآخِرِينَ أَقُولُ: إِنِّي لَا أَزَالُ فِي أَوَّلِ النَّشْأَةِ، وَإِنَّ حَيَاتِي لَمْ تَخْفِلْ بَعْدُ بِالْعَجَائِبِ، وَلَمْ تَمْتَلِئْ مِنَ الْفَوَائِدِ وَلَا الْمَصَائِبِ حَتَّى أُحَدِّثَ النَّاسَ بِأَخْبَارِهَا، لَكِنِّي لَا أَثِقُ بِيَوْمِي الْآتِي، وَأَخَافُ بَعْدِي رُجُومَ الظَّنِّ وَضَلَّاتِ الْأَحَادِيثِ».

هَذَا هُوَ الزَّهْوُ الْمُضَاعَفُ! وَصُورُ الْمُلُوكِ كَمَا لَا يَخْفَاهُ فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَصُورُ الْعُلَمَاءِ وَالشُّعْرَاءِ فِي هَذَا الْعَصْرِ فِي صُدُورِ كُتُبِهِمْ وَدَوَائِينِهِمْ، وَتَكْهَنُهُ بِحِرْصِ النَّاسِ عَلَى صُورَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ مِنْ ذَلِكَ الزَّهْوِ أَيْضًا.

وَمِنْ قَوْلِهِ فِي هَذَا الْبَابِ فِي ذِكْرِ جَدِّهِ وَجَدَّتِهِ: «حَتَّى تُؤْفِيَ جَدِّي وَهُوَ وَكِيلٌ لِخَاصَّةِ الْخَدِيِّوِي إِسْمَاعِيلَ بَاشَا، فَأَمَرَ بِنَقْلِ مُرْتَبِهِ بِرُمَّتِهِ إِلَى أَرْمَلَتِهِ وَأَنْ يُحَسَبَ ذَلِكَ مَعَاشًا لَا إِحْسَانًا»، وَقَوْلِهِ حَاكِيًا عَنْ نَفْسِهِ فِي الْمَدْرَسَةِ التَّجْهِيْزِيَّةِ: «فَكُنْتُ التَّلْمِيْذَ الثَّانِي لِهَذِهِ الْمَدْرَسَةِ وَأَنَا فِي الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ، وَكَانَ نَاطِرُهَا الْمَرْحُومُ صَادِقُ بَاشَا شَنَّ قَدْ حَصَلَ لِي مِنَ النَّظَارَةِ عَلَى الْمَجَانِيَّةِ بِوَجْهِ الْإِسْتِثْنَاءِ لَا عَنْ حَاجَةٍ إِلَيْهَا».

وَمِنْ الزَّهْوِ أَيْضًا قَوْلُهُ: «أَخَذْتَنِي جَدَّتِي، لِأُمِّي مِنْ

المَهْدِ وَهِيَ الَّتِي أَرِثُهَا فِي هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ، وَكَانَتْ مُنْعَمَةً
مُوسَّرَةً، فَكَفَلْتَنِي لِوَالِدَيَّ، وَكَانَتْ تَحْنُو عَلَيَّ فَوْقَ حُنُوهِمَا،
وَتَرَى لِي مَخَايِلَ فِي الْبِرِّ مَرْجُوءَةً. حَدَّثْتَنِي أَنَّهَا دَخَلَتْ بِي
عَلَى الْخَدْيَوِيِّ إِسْمَاعِيلَ وَأَنَا فِي الثَّالِثَةِ مِنْ عُمْرِي، وَكَانَ
بَصْرِي لَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ اخْتِلَالِ أَغْصَابِهِ، فَطَلَبَ
الْخَدْيَوِيُّ بَذْرَةً مِنَ الذَّهَبِ، ثُمَّ نَثَرَهَا عَلَى الْبِسَاطِ عِنْدَ
قَدَمَيْهِ، فَوَقَعَتْ عَلَى الذَّهَبِ أَشْتَغَلُ بِجَمْعِهِ وَاللَّعِبِ بِهِ،
فَقَالَ لِجَدَّتِهِ: أَصْنَعِي مَعَهُ مِثْلَ هَذَا، فَإِنَّهُ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَغْتَادَ
النَّظَرَ إِلَى الْأَرْضِ. قَالَتْ: هَذَا دَوَاءٌ لَا يَخْرُجُ إِلَّا مِنْ
صَيْدَلِيَّتِكَ يَا مَوْلَايَ. قَالَ: جِئْتِي بِهِ إِلَيَّ مَتَى شِئْتَ، إِنِّي
أَخِرُّ مَنْ يَنْثُرُ الذَّهَبَ فِي مِضْرٍ».

مَنْ كَانَ طَبِيبُ عَيْنَيْهِ إِسْمَاعِيلَ، وَصَيْدَلِيَّتُهُ خَزَائِنَ
مِضْرٍ وَهُوَ فِي الثَّالِثَةِ مِنْ عُمْرِهِ، لَا يَدَعُ إِذَا كَانَ الزَّهْوُ
تَرَبَّ صِبَاهُ وَرَفِيقَ حَيَاتِهِ.

وَحَتَامُ بَابِ الزَّهْوِ قَوْلُهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى وَفَاةِ أَبِيهِ:
«كَانَتْ وَفَاةُ وَالِدِي مِنْ نَحْوِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، فَكَانَ لِي عَجَبًا
أَنْ وَجَدْتُ بَيْنَ أَوْرَاقِهِ شَيْئًا كَثِيرًا مِنْ مُشْتَتِ مَنْظُومِي
وَمَنْثُورِي، مَا نُشِرَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يُنْشَرْ، قَدْ كَتَبَ بَعْضُهُ
بِالْحَبْرِ وَالبَعْضُ الْآخِرَ بِالرِّصَاصِ، وَالْكُلُّ خَطُّ يَدِ

المرحوم، وقد لفته في ورقة كتبت عليها هذه العبارة: «هذا ما تيسر لي جمعه من أقوال ولدي أحمد، وهو يطلب العلم في أوروبة، فكنت كأني أراه، وإنني أمره أن يجمعه ثم ينشره للناس، لأنه لا يجد بعدي من يعتني بشؤونه، وربما لا يوجد بعده من يعتني بالشعر والآداب».

على هذا، فالشاعر في رأي أبيه خاتم الشعراء
والأدباء!

ومن باب السهو عن حسن التعبير قوله عن أبيه في مناقب جدّه: «ثم تداولت الأيام، وتعاقب الولاة الفخام، وهو يتقلد المراتب العالية، ويتقلب في المناصب السامية، إلى أن أقامه سعيد باشا أميناً للكمارك المضريّة، فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية بدّها أبي في (سكرة الشباب)، ثم عاش بعمله غير نادم ولا مخروم، وعشت في ظله وأنا واحد أسمع بما كان من سعة رزقه، ولا أراي في ضيقي حتى أندب تلك السعة، فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبل أن لا أقات من فضلات الموتى».

سكرة الشباب بإزاء ضياع المال من والده سهو عن حسن التعبير، كان يجعل أدبه عنه، وتعبيره عن الإرث بفضلات الموتى سهو أيضاً عن حسن التعبير، يعز سماعه

عَلَى الْوَارِثِينَ، لِأَنَّ الْإِرْثَ رِزْقٌ مِّنْ أَطْهَرِ الْأَرْزَاقِ مُنْذُ
خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، فَلَا يُقَالُ لِعَنِيٍّ وَرِثَ مَالاً وَلَا لِمَلِكٍ وَرِثَ
مُلْكاً إِنَّهُ يَفْتَاتُ مِنْ فَضَلَاتِ الْمَوْتَى!

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ قَوْلُهُ عِنْدَ ذِكْرِ جَدِّهِ وَجَدَّتِهِ: «وَكَانَ
الْخَدْيَوِي الْمُشَارُ إِلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ يَقُولُ عَنْهُمَا: لَمْ أَرِ أَعَفَ
مِنْهُ وَلَا أَقْنَعَ مِنْ زَوْجَتِهِ، وَلَوْ لَمْ يُسَمِّهِ أَبِي حَلِيمًا لِحَلِيمِهِ
لَسَمَّيْتُهُ عَفِيفًا لِعِفَّتِهِ».

السَّهْوُ فِي التَّغْيِيرِ هُنَا لَا يُغْتَفَرُ لِلْأَدِيبِ. سَأَلَ أَحَدُ
الْأَمْراءِ أَدِيبًا، فَقَالَ: أَيُّنَا أَكْبَرُ؟ فَقَالَ لَهُ الْأَدِيبُ: حَضَرْتُ
زَفَافَ أُمِّكَ الْمُبَارَكَةِ عَلَى أَبِيكَ الطَّيِّبِ. هُنَا تَحَرَّرَ الشَّاعِرُ
مِنْ خِطَابِهِ بِأَنَا أَكْبَرُ مِنْكَ أَوَّلًا، وَتَحَرَّرَ ثَانِيًا فَلَمْ يَقُلْ: أُمُّكَ
الطَّيِّبَةُ، بَلْ هَرَبَ مِنْهَا إِلَى مَا هُوَ أَلْيَقُ بِالْأَدَبِ.

وَمِنْ بَابِ السَّهْوِ فِي التَّغْيِيرِ قَوْلُهُ عَنِ الْمَغْفُورِ لَهُ
تَوْفِيقِ بَاشَا: «فَتَحَلَّى الْحَلِيمُ بِصُورَةِ الْغَضَبِ» وَلَيْسَ
الْغَضَبُ حَلِيَّةً يَتَحَلَّى بِهَا. وَمِنْهُ قَوْلُهُ عِنْدَ تَبْشِيرِ الْمَرْحُومِ
تَوْفِيقِ بَاشَا لَهُ بِتَغْيِينِ أَبِيهِ مُفْتَشًا فِي الْخَاصَّةِ الْخَدْيَوِيَّةِ
وَالْوَعْدِ بِتَغْيِينِهِ هُوَ أَيْضًا: «ثُمَّ مَدَّ إِلَيَّ الْعَزِيزُ يَدَهُ، فَقَبَّلْتُهَا
وَاجِمًا، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيَّ السُّرُورُ حَتَّى أَنْسَانِي الشُّعْرَ وَكَانَ
ذَلِكَ وَقْتَهُ».

التَّغْيِيرُ بِالْوَاجِمِ هُنَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، تَقُولُ: وَجَمَ
الرَّجُلُ وَجُومًا: سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ، وَقِيلَ: سَكَتَ وَعَجَزَ عَنِ
التَّكَلُّمِ مِنْ كَثْرَةِ الْغَمِّ وَالْخَوْفِ، وَالْوَاجِمُ: الْعَبُوسُ الْمُطْرِقُ
لِشِدَّةِ الْحُزَنِ، يُقَالُ: مَا لِي أَرَاكَ وَاقِفًا وَاجِمًا؟ وَهُوَ وَاجِمٌ،
وَدَمَعُهُ سَاجِمٌ.

وَمِنْ بَابِ سَلَامَةِ النِّيَّةِ مَا يَحْكِيهِ عَنِ الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ
عَلِيِّ اللَّيْثِيِّ مِنْ قِصَّةِ الْمَنَامِ وَالْخَرَقِ فِي الْإِسْلَامِ، قَالَ:
«حَدَّثَنِي سَيِّدُ نُدَمَاءِ هَذَا الْعَصْرِ الْمَرْحُومُ الشَّيْخُ عَلِيُّ
اللَّيْثِيُّ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَاكَ وَأَنْتَ حَمْلٌ لَمْ يُوضَعْ بَعْدُ، فَقَصَّ
عَلَيَّ حُلُمًا رَأَاهُ فِي نَوْمِهِ، فَقُلْتُ لَهُ وَأَنَا أَمَارِحُهُ: لَيُولَدَنَّ لَكَ
وَلَدٌ يَخْرِقُ - كَمَا تَقُولُ الْعَامَّةُ - خَرَقًا فِي الْإِسْلَامِ. ثُمَّ
اتَّفَقَ أَنِّي عُدْتُ الشَّيْخَ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ، وَكَانَتْ فِي يَدِهِ
نُسْخَةٌ مِنْ جَرِيدَةِ الْأَهْرَامِ، فَأَبْتَدَرَ خِطَابِي يَقُولُ: هَذَا تَأْوِيلُ
رُؤْيَا أَبِيكَ يَا شَوْقِي، فَوَاللَّهِ مَا قَالَهَا قَبْلُ فِي الْإِسْلَامِ أَحَدٌ؛
قُلْتُ: وَمَا تِلْكَ يَا مَوْلَايَ؟ قَالَ: قَصِيدَتُكَ فِي وَصْفِ الْبَالِ
الَّتِي تَقُولُ فِي مَطْلَعِهَا:

[المقتضب]

خَفَّ كَأَسََهَا الْحَبَبُ

فَنَهِيَ فِضَّةٌ ذَهَبُ

وَكُلُّ مَنْ عَرَفَ الْمَرْحُومَ الشَّيْخَ عَلِيَّ اللَّيْثِيَّ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى إِرسَالِ النُّكَاتِ الْمُستَظَرِّفَةِ أَذْرَكَ لِأَوَّلِ وَهْلَةِ مَوْضِعِ النُّكْتَةِ فِي مَسْأَلَةِ الْخَرْقِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الْمُتَفَرِّجَةِ، وَلَوْ كَانَ غَرَضُهُ غَيْرَ التَّنْكِيتِ لَقَالَ: «لَمْ يَقُلْ مِثْلَهَا الشُّعْرَاءُ» وَلَمْ يَقُلْ: «لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ فِي الْإِسْلَامِ» فَحَمَلَهَا الشَّاعِرُ الْفَاضِلُ بِسَلَامَةِ نِيَّتِهِ مَحْمَلِ التَّقْرِيطِ وَالْإِطْرَاءِ.

وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ مَا نَقَلَهُ عَنِ الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ عَلِيَّ اللَّيْثِيَّ أَيْضاً عِنْدَ تَكْلُمِهِ عَلَى اخْتِلَالِ أَغْصَابِ بَصَرِهِ: «وَكَانَ الْمَرْحُومُ الشَّيْخُ عَلِيَّ اللَّيْثِيَّ كُلَّمَا أَلْتَقَتْ عَيْنُهُ بِعَيْنِي يُنْشِدُ هَذَا الْمِضْرَاعَ لِلْمُتَنَبِّي:

[الطويل]

مَحَاجِرُ مِسْكِ رُكْبَتِ فَوْقَ زُنْبَقِ

وَأَمَّا الْحَشْوُ فِي كَلَامِهِ، فَتَذَكُّرُ مِنْهُ شَيْئاً يَدُلُّ عَلَيْهِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ عِنْدَ ذِكْرِ اسْتِدْعَاءِ الْمَرْحُومِ تَوْفِيقَ بَاشَا لَهُ مِنْ سَاحَةِ عَابِدِينَ: «فَخَرَجْتُ قُبَيْلَ الْأَصِيلِ فِي حَاجَةٍ لِي عَلَى حِمَارٍ أَبْيَضَ كَانَ لِيَوَالِدِي».

وَمِنْ قَوْلِهِ عِنْدَ الْكَلَامِ عَنْ دِرَاسَتِهِ فِي بَارِيس:

«أُصِبتُ بِمَرَضٍ شَدِيدٍ كُنْتُ فِيهِ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ،
فَاسْتَخْدَمْتُ مُمَرِّضَةً تَسْهَرُ عَلَيَّ وَتَعْمَلُ بِإِشَارَتِي فِي الْحَرَكَةِ
وَالسَّكْنَةِ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهَا، وَأَنَا فِي سَكَرَاتِ الْحُمَى، تَقُولُ:
أَفِي مِثْلِ هَذَا الشَّبَابِ تَذْهَبُونَ؟ ثُمَّ تُكْفِكِفُ الدَّمَعَ؛ لَكِنَّ
اللَّهَ خَيَّبَ ظُنُونَهَا، وَمَنْ عَلَيَّ بِالشِّفَاءِ».

وَمِنْ أَمْثَالِ هَذَا الْحَشْوِ كَثِيرٌ مِمَّا لَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْقَارِئُ
وَلَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُ السَّامِعُ وَيَضِيقُ بِنَا الْمَقَامُ عَنْ سَرْدِهِ. وَقَدْ
أَنَّ لَنَا أَنْ نَنْتَهِيَ مِنْ نَقْدِ الْمُقَدِّمَةِ، وَنَبْتَدِئَ بِنَقْدِ الشُّعْرِ،
وَمَوْعِدُنَا الْأَعْدَادُ الْآتِيَةُ.

(٤)

أَخْتَفَتْ عَادَةُ الْإِنْتِقَادِ لِلْكَتُبِ عَنِ النَّاسِ، وَأَلْفَتْ
أَذْهَانُهُمُ التَّقْرِيطَ مَذْحًا وَإِطْرَاءً، فَصَارَ الْإِنْتِقَادُ مَهْجُورًا
بَيْنَهُمْ، غَرِيبًا فِيهِمْ، حَتَّى ظَنُّوهُ دَامًا، وَحَسِبُوهُ عَابًا، وَلَمَّا
وَضَعْنَا دِيوَانَ حَضْرَةِ الشَّاعِرِ الْفَاضِلِ شَوْقِي بِكَ مَوْضِعَ
الْعِنَايَةِ وَالْاهْتِمَامِ بِهِ، وَشَرَعْنَا فِي انْتِقَادِهِ قِيَامًا بِخِدْمَةِ الْأَدَبِ
عَلَى عَادَةِ الْجَرَائِدِ الْغَرِيبَةِ فِي هَذَا الْبَابِ، وَهَمَّ النَّاسُ فِي
أَنَّا قَصَدْنَا ذَلِكَ مِنْ وَجْهِ التَّحَامُلِ، وَلَقَدْ أَخْطَوْا فِي
وَفِيمِهِمْ، فَإِنَّ صُحْبَتَنَا مَعَ هَذَا الصَّاحِبِ الْفَاضِلِ لَمْ تَزَلْ

عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الصَّفَاءِ، وَلَمْ يُؤَثِّرْ عَلَيْهَا الْإِنْتِقَادُ
 شَيْئاً، لِعِلْمِهِ وَلِعِلْمِنَا بِأَنَّ الْإِنْتِقَادَ دَائِرٌ عَلَى مَا قِيلَ لَا عَلَى
 مَنْ قَالَ، وَلِذَلِكَ اسْتَغْرَبْنَا قِيَامَ مَنْ قَامَ لِلرَّدِّ عَلَيْنَا مُسْتَتِرٍ
 الْأَسْمِ تَحْتَ الْأَلْفِ وَالرَّاءِ، وَكِدْنَا نُسِيءُ الظَّنَّ بِصَاحِبِنَا،
 وَهَمَمْنَا بِالرَّدِّ عَلَيْهِ لَوْلَا أَنْ جَمَعَنَا وَإِيَّاهُ مَجْلِسٌ، فَسَأَلْنَاهُ
 عَنْ ذَلِكَ الْكَاتِبِ، فَتَبَيَّنَ لَنَا مِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ، وَأَنَّهُ لَا
 يَقُولُ بِقَوْلِهِ، وَأَنَّ مَا كَتَبَهُ كَانَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَا
 يَزَالُ يَقْدِرُ الْإِنْتِقَادَ قَدْرَهُ وَيَحْمِلُهُ عَلَى حُسْنِ الْأَهْتِمَامِ
 بِدِيَوَانِهِ، فَمِنْ أَجْلِ هَذَا عَدَلْنَا عَنِ النَّقْدِ عَلَى الرَّدِّ،
 وَطَرَحْنَاهُ فِي جَانِبِ الْمُسَامَحَةِ وَالْإِغْضَاءِ كَمَا جَرَتْ عَلَيْهِ
 عَادَتُنَا مَعَ مَنْ يَتَهَافَتُ عَلَيْنَا، وَيَتَحَرَّشُ بِنَا، لِأَنَّنَا لَا نَرَى
 فِي الْكَلَامِ مَعَهُ مِنْ فَائِدَةٍ لِلْقُرَّاءِ، بَلْ نَجِدُ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ
 نَمُرَّ بِلُغْوِهِ مَرَّ الْكِرَامِ تَأْدِباً بِأَدَبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ
 وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [٢٥ الفرقان/ الآية: ٧٢].

وَالآنَ نَأْخُذُ فِي نَقْدِ الشُّعْرِ سَائِلِينَ حَضْرَةَ الشَّاعِرِ
 الْفَاضِلِ أَنْ يَكُونَ دَائِمَ الْإِعْتِقَادِ فِي مَخْضِ نُضْحِنَا وَصَفَاءِ
 مَوَدَّتِنَا، وَأَنْ لَا يَحْمِلَ شَيْئاً مِنْ كَلَامِنَا مَحْمَلِ السُّوءِ، وَقَدْ
 قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: «لَا تَظُنَّنْ بِكَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ
 فَمِ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ سُوءاً وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلاً».

قال حَضْرَةُ الشَّاعِرِ الْفَاضِلِ فِي أَوَّلِ الدِّيَوَانِ مِنْ بَابِ
«الْأَدَبِ وَالتَّارِيخِ»:

[الخفيف]

خَدَعُوهَا بِقَوْلِهِمْ حَسَنَاءُ
وَالْغَوَانِي يَغُرُّهُنَّ الثَّنَاءُ

قوله: «خَدَعُوهَا» يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ الْمُشَبَّ بِهَا غَيْرُ
حَسَنَاءَ، لِأَنَّ الْخِدَاعَ لَا يَكُونُ بِالْحَقِيقَةِ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ
تَخْدَعَ الشُّوَهَاءَ فَقُلْ لَهَا: حَسَنَاءُ، وَهُوَ يُنَافِي قَوْلَهُ فِي الْبَيْتِ
الثَّانِي:

مَا تَرَاهَا تَنَاسَتْ أَسْمِي لِمَا
كَثُرَتْ فِي غَرَامِهَا الْأَسْمَاءُ

وَ«خَدَعُوهَا» بِمَعْنَى: خَتَلُوهَا، وَأَرَادُوا بِهَا الْمَكْرُوهَ
مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُهُ، وَيُعْجِبُنَا مِنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ قَوْلُهُ:

يَوْمَ كُنَّا وَلَا تَسَلْ كَيْفَ كُنَّا
نَتَّهَادِي مِنَ الْهَوَى مَا نَشَاءُ

وَعَلَيْنَا مِنَ الْعَفَافِ رَقِيبٌ
تَعِبَتْ فِي مِرَاسِهِ الْأَهْوَاءُ

جَاذَبْتَنِي ثَوْبِي الْعَصِيَّ وَقَالَتْ
 أَنْتُمْ النَّاسُ أَيُّهَا الشُّعْرَاءُ
 فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي خِدَاعِ الْعَذَارَى
 فَالْعَذَارَى قُلُوبُهُنَّ هَوَاءُ
 وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ الْكَلَامِ وَجَيْدِ الشُّعْرِ.
 وَمِمَّا نَعُدُّهُ مِنْ مَحَاسِنِهِ وَنَرَاهُ مِنَ الْمَعَانِي الْمُبْتَكِرَةِ
 [من الوافر]:

سَعَتْ لَكَ صُورَتِي وَأَتَاكَ شَخْصِي
 وَسَارَ الظِّلُّ نَحْوَكَ وَالْجِهَاتُ
 لِأَنَّ الرُّوحَ عِنْدَكَ وَهِيَ أَضَلُّ
 وَحَيْثُ الْأَضَلُّ تَسْعَى الْمُلْحَقَاتُ
 وَهَبَهَا صُورَةً مِنْ غَيْرِ رُوحٍ
 أَلَيْسَ مِنَ الْقَبُولِ لَهَا حَيَاةُ

وَمِمَّا نَعِيْبُهُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ مِنْ أَيْبَاتِ [من الطويل]:
 وَقِطْعَةٌ خَدُّ بَيْنَمَا هِيَ جَنَّةُ
 لِعَيْنَيْكَ يَا رَائِي إِذَا هِيَ نَارُ

لَأَنَّ الْقِطْعَةَ بِغَيْرِ الْخَدِّ أَنْسَبَ، وَلَوْ قَالَ: صَفْحَةُ خَدٍّ
لَكَانَ التَّغْيِيرُ أَحْسَنَ وَأَجْمَلَ.

أَمَّا بَقِيَّةُ الْأَبْيَاتِ فَهِيَ مِنْ رَائِقِ الشُّعْرِ وَرَقِيقِهِ، وَهِيَ:
إِذَا بَرَزْتَ وَدَّ النَّهَارُ قَمِيصَهَا
يُغَيِّرُ بِهِ شَمْسَ الضُّحَى فَتَغَارُ
وَإِنْ نَهَضْتَ لِلْمَشْيِ وَدَّ قَوَامَهَا
نِسَاءً طَوَالَ حَوْلَهَا وَقِصَارُ
لَهَا مَبْسَمٌ عَاشَ الْعَقِيقُ لِأَجْلِهِ
وَعَاشَتْ لِآلٍ فِي الْعَقِيقِ صِفَارُ
وَمِمَّا يُنْتَقَدُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي أَبْيَاتٍ [من مخلع البسيط]:
وَكُلُّ ذِي هِمَّةٍ شَرِيفٍ
يَقُومُ لِلْخَلْقِ بِالْخِدَامَةِ
لَأَنَّ لَفْظَةَ «خِدَامَةٌ» لَيْسَتْ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي شَيْءٍ.

(٥)

قَالَ حَضْرَةُ الشَّاعِرِ الْفَاضِلِ شَوْقِي بَك مِنْ قَصِيدَةٍ
فِي بَابِ الْوَصْفِ، مِنْ دِيَوَانِهِ يَصِفُ لَيْلَةً رَاقِصَةً فِي سَرَايِ
عَابِدِينَ [من المقتضب]:

أَقْبَلَتْ شُمُوسُ ضُحَى
مَا لَهُنَّ مُنْتَقِبُ
الظَّلَامُ رَايْتُهَا.....

وَهِيَ جَيْشُ اللَّجِبِ

تَشْبِيهُ الظَّلَامِ بِالرَّايَةِ لِهَذَا الْجَيْشِ اللَّطِيفِ، جَيْشِ
شُمُوسِ الضُّحَى، لَا مُنَاسَبَةَ لَهُ إِلَّا إِذَا أَرَادَ أَنْ يُشَبِّهَهُ
بِجَيْشِ خُرَاسَانِيِّ يَقُودُهُ أَبُو مُسْلِمٍ تَحْتَ الرَّايَةِ السَّوْدَاءِ،
وَالْعَجَبُ لِهَذِهِ الشُّمُوسِ الْمِسْفِرَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مُنْتَقِبُ
كَيْفَ أَنَّهَا لَمْ تُمَزَّقْ هَذِهِ الرَّايَةُ؟!

وَقَالَ مِنْهَا فِي وَصْفِ الْعَزِيزِ:

فَهُوَ بَيْنَهُمْ عَمَرُ
وَالْوُقُودُ تَنْتَدِبُ

تَشْبِيهُ الْعَزِيزِ بِعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي هَذَا
الْمَجْلِسِ، مَجْلِسِ الطَّرَبِ وَالْعَزْفِ وَالرَّقْصِ وَالْقَصْفِ
وَالْقُدُودِ وَالْخُدُودِ وَالصُّدُورِ وَالنُّهُودِ وَالنُّحُورِ وَالْعُقُودِ،
غَيْرُ لَائِقٍ بِالْمَقَامِ، إِلَّا إِذَا أَرَادَ الشَّاعِرُ بِعُمَرَ عُمَرَ ابْنَ
أَبِي رَيْعَةَ.

وَقَالَ مِنْهَا:

فَهِيَ آتَةٌ صَعْدُ

وَهِيَ آتَةٌ صَبَبُ

لا يُقَالُ فِي اللُّغَةِ: «آتَةٌ» بَلْ يُقَالُ: «آوَنَةٌ» وَهِيَ جَمْعُ:
«الْأَوَانِ» أَوْ الْوَقْتِ وَالْحِينِ، يُقَالُ: هُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ آوَنَةً،
وَأَنَا آتِيهِ آوَنَةً بَعْدَ آوَنَةٍ.

وَمِنْ قَوْلِهِ بَعْدَ أَنْ وَصَفَ الْمَائِدَةَ «الْبُوفِيَّة»:

وَالطَّعَامُ خَاضِرُهُ

وَالْمَزِيدُ مُنْتَهَبُ

بَارِدٌ وَمِنْ عَجَبِ

يُشْتَهَى وَيُطْلَبُ

كَذَا الْبَيْتُ، وَلَيْسَ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يُشْتَهَى الْبَارِدُ
وَيُطْلَبُ.

وَقَالَ مِنْهَا:

وَالْخُضُورُ وَاهِيَةٌ

بِالْبَنَانِ تَنْجَذِبُ

سَأَلْتُ الْأُكُفَّ بِهَا
فَهِيَ أَغْضُنُ نُهْبُ
الْغُضُنُ لَا يُجْمَعُ فِي اللُّغَةِ إِلَّا عَلَى غُصُونٍ وَغِصَنَةٍ وَأَغْصَانٍ.
وَمَطْلَعُ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ مِنَ الْمَطَالِيعِ الْبَدِيعَةِ، وَهُوَ:
خَفَّ كَأَسْهَى الْحَبَبُ
فَهِيَ فِضَّةٌ ذَهَبُ
وَمِنْ مَحَاسِنِهِ فِيهَا قَوْلُهُ فِي الْخَمْرِ:
رَاحَةُ النُّفُوسِ وَهَلْ
عِنْدَ رَاحَةٍ تَعَبُ
يَا نَدِيمُ خَفَّ بِهَا
لَا كَبَّابِكَ الطَّرَبُ
وَمِنْ الْمَحَاسِنِ أَيْضاً قَوْلُهُ:
تَنْجَلِي وَلِي خُلُقُ
يَنْجَلِي وَيَنْسَكِبُ
وَمِنْهَا فِي وَصْفِ «السَّرَايِ» [أي: القصر]:
أَشْرَقَتْ نَوَافِذُهُ
فَهِيَ مَنَظَرٌ عَجَبُ

وَأَسْتَنَارَ رَفْرَفُهُ
وَالسُّجُوفُ وَالْحُجُبُ
تَفْجَبُ الْعُيُونُ لَهُ
كَيْفَ تَسْكُنُ الشُّهُبُ

البيان

«لأحد الأدباء المعاصرين»^(١)

قَالَ لِي أَحَدُ الْوُزَرَاءِ الْأَذْكِيَاءِ ذَاتَ يَوْمٍ: إِنِّي لَتَأْتِيَنِي
أَخِيَانًا رِقَاعُ الْاسْتِغْطَافِ فَأَكَادُ أَهْمِلُهَا لَمَّا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ
الْأَسَالِيبِ الْمُنْفَرَّةِ، لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُلْهِمُنِي نِيَّاتِ كَاتِبِهَا
وَأَيَّنَ يَذْهَبُونَ. وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ.

ذلك ما يراه القارىء في أكثر المخطوطات التي
يخطها كاتبوها في رسائل الصحف ورقاع الشكوى
والكتب الخاصة والمؤلفات العامة.

(١) [هو مصطفى لطفى المنفلوطي نفسه، راجع كتابه: «النظرات»
أول الجزء الثاني صفحة: ٥؛ والنص هنا يختلف عن ما نشرته
في «النظرات» طبعة الجفان والجابي، ليماسول، قبرص؛ يختلف
بعض العبارات لا غير، وأبقيت ما نشر هنا على حاله وهناك
على ما استقر عليه].

هَزَلٌ فِي مَوْضِعِ الْجِدِّ، وَجِدٌّ فِي مَوْضِعِ الْهَزْلِ؛
وَأِسْهَابٌ فِي مَكَانِ الْإِيْجَازِ، وَإِيْجَازٌ فِي مَكَانِ الْإِسْهَابِ؛
وَجَهْلٌ يَفْرُقُ مَا بَيْنَ الْعِتَابِ وَالتَّأْنِيْبِ، وَالْإِنْتِقَامِ وَالتَّأْدِيْبِ،
وَالْإِسْتِغْطَافِ وَالْإِسْتِخْفَافِ؛ وَقُصُورٌ عَنْ إِدْرَاكِ مَنَازِلِ
الْخِطَابِ وَمَوَاقِفِهِ بَيْنَ الشُّوْقَةِ وَالْأُمْرَاءِ؛ وَالْعُلَمَاءِ وَالْجُهْلَاءِ؛
حَتَّى أَنْ الْكَاتِبَ لَيُقِيْمُ فِي الشُّوْكَةِ يُشَاكُّهَا مَنَاحَةً لَا يُقِيْمُهَا
فِي الْفَاجِعَةِ يُفْجِعُ بِهَا، وَيَكْتُبُ فِي الْحَوَادِثِ الصَّغَارِ مَا
يُكْبِرُ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَهُ فِي الْحَوَادِثِ الْكِبَارِ، وَيُخَاطِبُ صَدِيقَهُ
بِمَا يَخَاطِبُ بِهِ عَدُوَّهُ، وَيُنَاجِي أَجِيرَهُ بِمِثْلِ مَا يُنَاجِي بِهِ
أَمِيرَهُ.

ذَهَبَ النَّاسُ فِي مَعْنَى الْبَيَانِ مَذَاهِبَ مُتَفَرِّقَةً،
وَأَخْتَلَفُوا فِي شَأْنِهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَلَا أَذْرِي عِلَامَ يَخْتَلِفُونَ،
وَالِىْ أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ وَهَذَا لَفْظُهُ دَالٌّ عَلَى مَعْنَاهُ دَلَالَةٌ
وَاضِحَةٌ لَا تَشْتَبِهُ وُجُوْهُهَا، وَلَا تَشْعَبُ مَسَالِكُهَا.

لَيْسَ الْبَيَانُ إِلَّا الْإِبَانَةُ عَنْ الْمَعْنَى الْقَائِمِ فِي النَّفْسِ،
وَتَضْوِيرُهُ فِي نَظَرِ الْقَارِئِ أَوْ مَسْمَعِ السَّامِعِ تَضْوِيرًا
صَحِيحًا لَا يَتَجَاوَزُهُ، وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ. فَإِنْ عَلِقَتْ بِهِ آفَةٌ مِنْ
تَيْنِكَ الْآفَتَيْنِ فَهُوَ الْعَيُّ وَالْحَصْرُ.

جَهْلُ الْبَيَانِ قَوْمٌ فَظَنُوا أَنَّهُ الْإِسْتِكْثَارُ مِنْ غَرِيبِ اللُّغَةِ

ونادر الأساليب، فأغصوا بها صدور كتاباتهم، وحشوها في
 خلوقها حشواً يقبض أوداجها، ويحبس عليها أنفاسها، فإذا
 قدر لك أن تقرأها وكنت ممن وهبهم الله صدرًا رخبًا،
 وفؤادًا جلدًا، وجنانًا يَحْتَمِلُ ما حُمِلَ عليه من آفات
 الدهور ورزاياه، قرأت متنا مشوشاً من متون اللغة، أو
 كتاباً مضطرباً من كتب المترادفات.

وجعله آخرون فطنوا أنه الهذر في القول، والتبسط
 في الحديث، واقعاً ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث
 وقع، فلا يزالون يجتزون بالكلمة اجترار الناقة بجرتها^(١).
 ويتلطمظون بها تلمظ الشفاء بريقتها، حتى تسفل وتتبدل،
 وحتى ما تكاد تسيغها الحلو، ولا تطرف عليها العيون،
 وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ولقد يخيل لي أن أكثر الكتاب في هذا العصر
 يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس، وأن كتابتهم
 أشبه شيء بالأحاديث النفسية التي تتلجلج في نفس
 الإنسان حينما يخلو بنفسه، ويأنس بوحدته، فإني لا أكاد
 أرى بينهم من يحسن أن يضع فمه على أذن السامع

(١) الجرّة: ما يجتره الحيوان.

وَضِعَاءٌ مُّحْكَمًا، فَيَنْفُثُ فِي رُوعِهِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَنْفُثَ مِنْ
خَوَاطِرِ قَلْبِهِ، وَهُوَ أَحْسَنُ نَفْسِهِ.

الْبَيَانُ صِلَةٌ بَيْنَ مُتَكَلِّمٍ يُفْهِمُ، وَسَامِعٍ يَفْهَمُ؛ فَبِمُقْدَارِ
تِلْكَ الصِّلَةِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ تَكُونُ مَنَزِلَةُ الْكَاتِبِ مِنَ
الرَّفْعَةِ وَالسُّقُوطِ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَاتِبًا فَاجْعَلْ هَذِهِ
الْقَاعِدَةَ فِي الْبَيَانِ قَاعِدَتَكَ، وَأَحْرِصِ الْحِرْصَ كُلَّهُ عَلَى الْأَنْ
يَخْدَعَكَ عَنْهَا خَادِعٌ فَتَسْقُطَ مَعَ السَّاقِطِينَ.

مَا أَصِيبَ الْبَيَانُ الْعَرَبِيُّ بِمَا أَصِيبَ بِهِ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ
الْجَهْلِ بِأَسَالِيبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ وَلَا أَذْرِي كَيْفَ يَسْتَطِيعُ
الْكَاتِبُ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا عَرَبِيًّا قَبْلَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى أُسَالِيبِ
الْعَرَبِ فِي أَوْصَافِهِمْ وَنُعُوتِهِمْ، وَمَذَاهِبِهِمْ وَهَجْوِهِمْ،
وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَمُسَاجَلَاتِهِمْ، وَقَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ كَانُوا
يُعَاتِبُونَ وَيُؤَنِّبُونَ، وَيَعْظُونَ وَيَنْصَحُونَ، وَيَتَغَزَّلُونَ وَيَنْسَبُونَ،
وَيَسْتَغْطِفُونَ وَيَسْتَرْحِمُونَ، وَيَأْيِي لُغَةً يُحَاوِلُ أَنْ يَكْتُبَ
كِتَابَتَهُ إِنْ لَمْ يَسْتَمِدَّ تِلْكَ الرُّوحَ الْعَرَبِيَّةَ اسْتِمْدَادًا يَمْلَأُ مَا
بَيْنَ جَوَانِحِهِ حَتَّى يَتَدَفَّقَ مَعَ الْمِدَادِ مِنْ أَنْبُوبِ يِرَاعِهِ عَلَى
صَفَحَاتِ قِرْطَاسِهِ.

إِنِّي لَأَقْرَأُ مَا كَتَبَهُ الْجَاحِظُ وَابْنُ الْمُقَفَّعِ وَالصَّاحِبُ
وَالصَّابِيُّ وَالْهَمْدَانِيُّ وَالْخَارَزْمِيُّ وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ كُتَّابِ الْعَرَبِيَّةِ

الأولى، ثُمَّ أَقْرَأَ مَا خَطَّهُ هَؤُلَاءِ الْكَاتِبُونَ فِي هَذِهِ الصُّحُفِ
وَالْأَسْفَارِ فَأَشْعُرُ بِمَا يَشْعُرُ بِهِ الْمُثْقَلُ دَفْعَةً وَاحِدَةً مِنْ
غُرْفَةٍ مُحْكَمَةٍ نَوَافِذُهَا مُسْبِلَةٌ سُتُورُهَا إِلَى جَوْ يَسِيلُ قَرَأَ
وَصَبْرًا، وَيَتَرَقَّرُ ثَلَجًا وَبَرْدًا.

ذَلِكَ لِأَنِّي أَقْرَأُ لُغَةً لَا هِيَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَأَغْتَبِطُ بِهَا، وَلَا
هِيَ بِالْعَامِيَّةِ فَاتَّفَكَّةَ بِأَحْمَاضِهَا وَمُجَوِّنِهَا.

رَأَيْتُ أَكْثَرَ الْكَاتِبِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ بَيْنَ اثْنَيْنِ: إِمَّا
رَجُلٌ يَسْتَمِدُّ رُوحَ كِتَابَتِهِ مِنْ مُطَالَعَةِ الصُّحُفِ وَمَا يَشَاكِلُهَا
فِي أَسَالِيبِهَا مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ الْحَدِيثَةِ وَالرُّوَايَاتِ الْمُتَرَجِّمَةِ،
وَرُبَّمَا كَانَ كُتَّابُ تِلْكَ الْمَخْطُوطَاتِ أَخْوَجَ إِلَى الْإِسْتِمْدَادِ
مِنْ قَارِيئِهَا. فَإِذَا عَلِقَتْ بِنَفْسِهِ تِلْكَ الْمَلَكَةُ الصُّحَافِيَّةُ أَلْقَى
بِهَا فِي رُوعِ قَارِيءِ كِتَابَتِهِ أَذْوَنَ مِمَّا أَخَذَهَا فَيُذَلِّي بِهَا
أَخِذَهَا كَذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ أَسْمَجَ صُورَةً وَأَكْثَرَ تَشْوِيهًا،
وَهَكَذَا حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهَا مِنْ رُوحِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا كَمَا يَبْقَى
مِنَ الْأَطْلَالِ الْبَالِيَةِ بَعْدَ كَرِّ الْغَدَاةِ وَمَرِّ الْعَشِيِّ؛ وَإِمَّا طَالِبٌ
قُصَارَى مَا يَأْخُذُهُ عَنْ أَسْتَاذِهِ نَحْوُ اللَّغَةِ وَصَرْفِهَا وَبَدِيعِهَا
وَبَيَانِهَا وَرَسْمِهَا وَإِمْلَاؤُهَا وَمُفْرَدَاتِهَا وَمَثَوْنِهَا وَمُؤْتَلِفَاتِهَا
وَمُخْتَلِفَاتِهَا وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنْ آلَاتِهَا وَأَدَوَاتِهَا؛ أَمَّا رُوحُهَا
وَجَوْهَرُهَا، فَإِنَّ أَكْثَرَ أَسَاتِذَةِ الْبَيَانِ عُلَمَاءَ غَيْرِ أَدَبَاءَ! وَحَاجَةُ

طَالِبِ اللُّغَةِ إِلَى أَسْتَاذٍ يُفِيضُ عَلَيْهِ رُوحَ اللُّغَةِ وَيُوجِي لَهُ
بَسْرَهَا، وَيُفْضِي إِلَيْهِ بِلَبُّهَا وَجَوْهَرَهَا أَكْثَرُ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَى
أَسْتَاذٍ يُعَلِّمُهُ وَسَائِلَهَا وَآلَاتِهَا. وَعِنْدِي أَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَسْتَاذِ
الْأَخْلَاقِ وَأَسْتَاذِ الْبَيَانِ. فَكَمَا أَنَّ طَالِبَ الْأَخْلَاقِ لَا
يَسْتَفِيدُهُ إِلَّا مِنْ أَسْتَاذٍ كَمَلَتْ أَخْلَاقُهُ، وَحَسُنَتْ آدَابُهُ،
كَذَلِكَ طَالِبُ الْبَيَانِ لَا يَسْتَفِيدُهُ إِلَّا مِنْ أَسْتَاذٍ مُبِينٍ.

وَلَا يُقْذَفَنَّ فِي رُوحِ الْقَارِيءِ أَنِّي أَحَاوِلُ اسْتِغْلَابَ
فَضْلِ الْفَاضِلِينَ، أَوْ أَنِّي أَنْكَرُ عَلَى فُصَحَاءِ هَذِهِ اللُّغَةِ مَا
وَهَبَهُمُ اللَّهُ مِنْ نِعْمَةِ الْبَيَانِ؛ فَمَا هَذَا أَرَدْتُ، وَلَا إِلَيْهِ
ذَهَبْتُ؛ وَإِنَّمَا أَقُولُ: إِنَّ عَشْرَةَ مِنَ الْكُتَّابِ الْمُجِيدِينَ،
وَخَمْسَةَ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْبَارِعِينَ، قَلِيلٌ فِي بَلَدٍ يَقُولُونَ عَنْهُ:
إِنَّهُ مَهْدُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمَرْعَاهَا الْخَصِيبُ.

وَبَعْدُ؛ فَإِنِّي لَا أَرَى لَكَ يَا طَالِبَ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ
سَبِيلًا إِلَيْهِ إِلَّا مُزَاوَلَةَ الْمُنَشَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ مَشُورَهَا وَمَنْظُومِهَا،
وَالْوُقُوفَ بِهَا وَقُوفَ الْمُتَشَبِّهِ الْمُتَفَهِّمِ، لَا وَقُوفَ الْمُتَنَزِّهِ
الْمُتَفَرِّجِ، فَإِذَا رَأَيْتَ أَنَّكَ قَدْ شَغِفْتَ بِهَا، وَكَلِفْتَ
بِمُعَاوَدَتِهَا، وَالْاِخْتِلَافِ إِلَيْهَا، وَأَنَّ قَدْ لَدَّ لَكَ مِنْهَا مَا يَلْذُّ
لِلْعَاشِقِ مِنْ زُورَةِ الطَّيْفِ فِي غُرَّةِ الظَّلَامِ، فَأَعْلَمْ أَنَّكَ قَدْ
أَخَذْتَ مِنَ الْبَيَانِ بِنَصِيبٍ، فَأَمْضِ لِشَأْنِكَ، وَلَا تَلَوْ عَلَى

شَيْءٍ مِّمَّا وَرَاءَكَ، حَتَّى تَبْلُغَ مِنْ طَلَبَتِكَ مَا تُرِيدُ.

وَلَا تُحَدِّثَنَّكَ نَفْسُكَ أَنِّي أَخْمِلُكَ عَلَى مَطَالَعَةِ
الْمُنَشَّاتِ الْعَرَبِيَّةِ لِأَسْلُوبِ تَسْتَرْقُفِهِ، أَوْ تَرْكِيْبِ تَخْتَلِسُهُ، فَإِنِّي
لَا أَحِبُّ أَنْ تَكُونَ سَارِقًا وَلَا مُخْتَلِسًا عَلَى أَنَّكَ إِنِ ذَهَبْتَ
إِلَى مَا ظَنَنْتَ أَنِّي أَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي نَصِيحَتِكَ لَمْ يَكُنْ دَرَكُكَ
دَرَكًا، وَلَا بَيَانُكَ بَيَانًا، وَكَانَ كُلُّ مَا أَفَدْتَهُ^(١) مِنْ ذَلِكَ أَنْ
تُخْرِجَ لِلنَّاسِ مِنَ الْبَيَانِ صُورَةً مُشَوَّهَةً لَا تَنَاسُبَ بَيْنَ
أَجْزَائِهَا، وَبُرْدَةً مُرَقَّعَةً لَا تَشَابَهَ بَيْنَ أَلْوَانِهَا؛ وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ
تُحْصَلَ لِنَفْسِكَ مَلَكَةٌ فِي الْبَيَانِ رَاسِخَةٌ تَصْدُرُ عَنْهَا آثَارُهَا
بِصُورَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى لَا يَكُونَ شَأْنُكَ شَأْنَ أَوْلِيِّكَ الَّذِينَ قَدْ
عَلِقَتْ ذَاكِرَتُهُمْ بِطَائِفَةٍ مِنْ مَثُورِ الْعَرَبِ وَمَنْظُومِهِمْ فَقَنَعُوا
بِهَا، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا مِنَ اللَّغَةِ مَا أَرَادُوا؛ فَإِذَا جَدَّ
الْجِدُّ وَأَرَادُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْإِفْصَاحِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ هَوَاجِسِ
نُفُوسِهِمْ رَجَعُوا إِلَى تِلْكَ الْمَحْفُوظَاتِ وَنَبَشُوا عَنْ دَفَائِنِهَا،
فَإِنْ وَجَدُوا بَيْنَهَا مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي يُرِيدُونَهُ
أَنْتَزَعُوهُ مِنْ مَكَانِهِ أَنْتِزَاعًا، وَحَشَرُوهُ فِي كِتَابَتِهِمْ حَشْرًا،
وَالْأَفْأَمَّا أَنْ يَتَبَدَّلُوا بِاسْتِعْمَالِ التَّرَاكِيْبِ السَّاقِطَةِ الْمَشْنُوعَةِ،

(١) أفاد وأستفاد بمعنى.

أَوْ يَهْجُرُوا تِلْكَ الْمَعَانِي إِلَى أُخْرَى لَا عِلَاقَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
سَابِقَاتِهَا وَلَا حِقَاقَتِهَا، فَهُمْ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ إِحْدَى السَّوَاءَتَيْنِ:
إِمَّا فَسَادُ الْمَعَانِي وَأَضْطِرَابُهَا، أَوْ هُجْنَةُ التَّرَاكِبِ وَبَشَاعَتُهَا.

فَاخْرَصَ الْحِرْصَ كُلَّهُ عَلَى أَلَّا تَكُونَ وَاحِدًا مِنْهُمْ،
وَإِخْذَرُ أَنْ تُصَدِّقَ مَا يَقُولُونَهُ فِي تَلْمِيسِ الْعُذْرِ لَأَنْفُسِهِمْ
عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ أَضْيَقُ مِنْ أَنْ تَتَّسِعَ لِجَمِيعِ
الْمَعَانِي الْمُسْتَخْدَثَةِ، وَأَنَّهُمْ مَا لَجَوْا إِلَى التَّبَدُّلِ فِي
التَّرَاكِبِ إِلَّا لَاسْتِحَالَةِ التَّرَفُّعِ فِيهَا. فَاللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ أَرْحَبُ
صَدْرًا مِنْ أَنْ تَضِيقَ بِهَذِهِ الْبَسَائِطِ مِنَ الْمَعَانِي بَعْدَ مَا
وَسِعَتْ مِنْ دَقَائِقِ الْعُلُومِ مَا لَا قِبَلَ لِغَيْرِهَا بِاحْتِمَالِهِ،
وَقَدَّرَتْ مِنْ هَوَاجِسِ الصُّدُورِ وَأَحَادِيثِ النُّفُوسِ وَضُمَائِرِ
السَّرَائِرِ عَلَى الَّذِي عِثَّ بِهِ اللُّغَاتُ الْقَادِرَاتُ.

وَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي عَجْزِ اللُّغَةِ وَضِيقِهَا، وَإِنَّمَا الشَّأْنُ
فِي عَجْزِ الْمُشْتَغِلِينَ بِهَا عَنْ الْأَضْطِرَابِ فِي أَرْجَائِهَا،
وَالْتَّغْلُغِ فِي طَيَّاتِهَا، وَاقْتِنَاعِهِمْ مِنْ بَخْرِهَا بِهَذِهِ الْبِلَّةِ الَّتِي
لَا تُثَلِّجُ صَدْرًا، وَلَا تَشْفِي أَوَامًا^(١).

وَكُلُّ مَا يُؤْخَذُ عَلَيْهَا مِنَ الذُّنُوبِ أَنَّهَا لَا تَشْتَمِلُ

(١) [الأوام: حرّ العطش].

عَلَى أَعْلَامٍ لِهَذِهِ الْهَنَاتِ الْمُسْتَحْدَثَةِ، وَهُوَ فِي مَذْهَبِي أَقْلُ
الذُّنُوبِ جُزْماً وَأَضْعَفُهَا شَأْناً، مَا دُمْنَا نَعْرِفُ وَجْهَ الْحِيلَةِ
فِي عِلَاجِهِ بِالِاشْتِقَاقِ إِنْ وَجَدْنَا السَّبِيلَ إِلَيْهِ، أَوِ التَّغْرِيبِ
وَالْوَضْعِ إِنْ عَجَزْنَا عَنِ الْاشْتِقَاقِ، فَلَا أَمْرَ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ
نَحَارَ فِيهِ وَأَضْعُرَّ مِنْ أَنْ نَقْضِيَ أَعْمَارَنَا فِي الْوُقُوفِ بِبَابِهِ،
وَالْأَخْذِ وَالرَّدِّ فِي شَأْنِهِ، وَالْمُسَاجَلَةِ وَالْمُنَاطَرَةِ فِي اخْتِيَارِ
أَقْرَبِ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ وَأَجْدَاهَا عَلَيْهِ.

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ حُسْنِ الْاخْتِيَارِ فِيمَا تُرِيدُ
أَنْ تُزَاوِلَهُ مِنَ الْمُنْشَأَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، فَلَيْسَ كُلُّ مُتَقَدِّمٍ يَنْفَعُكَ،
وَلَا كُلُّ مُتَأَخِّرٍ يَضُرُّكَ، وَلَا أَحْسَبُكَ إِلَّا وَاقِفاً بَيْنَ يَدَيِ
هَذَا الْأَمْرِ مَوْقِفَ الْحَيِّرَةِ وَالْأَضْطِرَابِ، لِأَنَّ حُسْنَ الْاخْتِيَارِ
طَلَبَةٌ تَتَعَرَّ بَيْنَ يَدَيْهَا الْأَمَالُ، وَتُقَطَّعُ دُونَهَا أَعْنَاقُ الرِّجَالِ،
فَالْجَأُ فِي ذَلِكَ إِلَى فَطَاحِلِ الْأَدْبَاءِ الَّذِينَ تَعْرِفُ وَيَعْرِفُ
النَّاسُ لَهُمْ ذَوْقاً سَلِيماً، وَقَرِيحَةً صَافِيَةً، وَمَلَكَةً فِي الْأَدَبِ،
كَأَنَّهَا مِصْفَاءُ الذَّهَبِ، فَإِنْ فَعَلْتَ وَكُنْتَ مِمَّنْ وَهَبَهُمُ اللَّهُ
ذِكَاً وَفِطْنَةً وَقَرِيحَةً خِصْبَةً لَيْتَةً، صَالِحَةً لِنَمَاءِ مَا يُلْقَى فِيهَا
مِنَ الْبُذُورِ الطَّيِّبَةِ، عُدْتَ وَبَيْنَ جَنْبِكَ مَلَكَةٌ فِي الْبَيَانِ
رَاسِخَةٌ، يَتَنَاطَرُ مِنْهَا مَثُورُ الْأَدَبِ وَمَنْظُومُهُ، تَنَاطَرُ الْوُرُودِ
وَالْأَنْوَارِ، مِنْ حَدِيقَةِ الْأَزْهَارِ.

المُوازنة بين الشعراء

«للشيخ محمد المهدي»^(١)

قَدْ رَأَيْتُ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ مِنَ الْمُفَضَّلِينَ مُتَسَرِّعاً فِي
الْحُكْمِ جَائِراً، فَقَدْ يَحْكُمُ لِلشَّاعِرِ بِالسَّبْقِ وَهُوَ لَمْ يَرِ مِنْ
كَلَامِهِ إِلَّا الْقَصِيدَةَ أَوْ الْقَصِيدَتَيْنِ مِمَّا اسْتُجِيدَ مِنْ كَلَامِهِ،
وَقَدْ يَحْكُمُ عَلَى غَيْرِهِ بِالتَّأَخُّرِ عَنْهُ لِأَنَّ الَّذِي رَأَاهُ مِنْ كَلَامِهِ
كَانَ دُونَ الَّذِي رَأَى مِنْ كَلَامِ السَّابِقِ، وَلَوْ أَطْلَعَ عَلَى كُلِّ
مَا قَالَ الشَّاعِرَانِ، وَعَلَى أَسْبَابِ قَوْلِهِمَا، وَقَارَنَ بَيْنَ
مَعَانِيهِمَا الْمُتَّحِدَةِ الْمَوْضُوعِ، وَأَسَالِيهِمَا، وَمَقْدَارِ تَأَثُّرِهِمَا
بِالْحَوَادِثِ الَّتِي قَالَا فِيهَا الشُّعْرَ، وَحَادِثِي الْبَدِيعَةِ بِالْبَدِيعَةِ،
وَالرُّوِيَّةَ بِالرُّوِيَّةِ، لَعَدَلَ عَنْ حُكْمِهِ، وَلَمَّا أَطْلَقَ الْقَوْلَ فِي
التَّفْضِيلِ، بَلْ قَالَ: فَلَانُ أَشْعَرُ فِي قَصِيدَةٍ كَذَا وَمَعْنَى كَذَا،

(١) «الشيخ محمد المهدي» [١٢٨٥ - ١٣٤٢ هـ = ١٨٦٨ -

١٩٢٤ م].

هُوَ أَحَدُ عُلَمَاءِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَكَبِيرٌ مِنْ كِبَارِ
أَدْبَائِهَا، وَفَرَدٌ مِنْ أَفْرَادِ مُؤَرِّخِيهَا؛ وَيَمْتَّازُ بِحُسْنِ الذَّوْقِ، وَدِقَّةِ
النَّظَرِ فِي الْإِنْتِقَادِ. وَهُوَ وَإِنْ كَانَ لَا يَكْتُبُ إِلَّا قَلِيلاً فَإِلَيْهِ يُنْسَبُ
الْفَضْلُ فِي تَخْرِيجِ كَثِيرٍ مِنْ كُتَابِ هَذَا الْعَصْرِ وَتَقْوِيمِ مَلَكَاتِهِمْ
وَتَهْذِيبِ أَذْوَاقِهِمْ.

وَالْآخِرُ أَجْوَدُ فِي كَيْتٍ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى أَوْ الدِّيبَاجَةِ أَوْ
حُسْنِ التَّصْوِيرِ. وَلَا يُسَوَّغُ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا
بَعْدَ أَنْ يَسْتَفْرِىءَ الْمَحَاسِنَ وَالْمَسَاوِيَّ، وَيُقَارِنَ بَيْنَ مَا
لِكُلٍّ مِنَ الشَّاعِرَيْنِ مِنْهُمَا حَتَّى إِذَا مَا وَجَدَ أَحَدَهُمَا أَنْضَرَ
دِيبَاجَةً، وَأَبْلَجَ مَعْنَى، وَأَغْزَرَ فُنُونًا، وَأَخْضَرَ بَدِیهَةً، وَأَقْلَّ
سَقَطًا، وَأَكْثَرَ غَوْصًا عَلَى الْمَعَانِي، وَأَجْمَلَ أَخْذًا، وَأَوْفَرَ
مَادَّةً، حَكَمَ لَهُ عَلَى الْآخِرِ حُكْمًا يُؤَيِّدُهُ الدَّلِيلُ الصَّحِيحُ
وَالذَّوْقُ السَّلِيمُ، لَا كَحُكْمِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفْضِلِينَ الْفُضُولِيِّينَ.
وَمِنْهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ النُّحَاةِ عَرَضُوا قَوَائِنَهُمْ عَلَى بَعْضِ
الشُّعْرِ الذَّائِعِ كَشَعْرِ النَّابِغَةِ، فَلَمْ يَتَّفِقْ مَعَ بَعْضِهَا، فَغَضُّوا
مِنْ فَضْلِهِ وَنَسُوا أَنَّ قَوَاعِدَهُمْ مَخْكُومَةٌ بِشِعْرِهِ لَا حَاكِمَةٌ
عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ آخَرُونَ حَمَلَتْهُمْ الْمُعَاصِرَةُ وَالْمُنَافَسَةُ عَلَى
الْحَطِّ مِنْ شِعْرِ أَقْرَانِهِمْ، وَقَدْ قَلَّدَهُمْ فِي ذَلِكَ بَعْضُ
الْمُؤَلِّفِينَ، فَخَاضُوا فِي أَقْدَارِهِمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَقَدْ
يَنْتَقِدُ الْحَضَرِيُّ الْبَدَوِيَّ فَيَعِيبُهُ لِاخْتِلَافِ الذُّوقَيْنِ، وَرُبَّمَا
كَانَ الْبَدَوِيُّ فِي بَادِيَّتِهِ أَشْعَرَ مِنَ الْحَضَرِيِّ فِي حَضَارَتِهِ.

وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْوَازِنُ مِنْ أَهْلِ الذُّوقِ الصَّحِيحِ
وَالْإِطْلَاعِ الْوَاسِعِ، مُحِيطًا بِكُلِّ مَا قَالَ الشَّاعِرَانِ، بَعِيدًا عَنِ
الْهَوَى وَالتَّقْلِيدِ، دَقِيقَ النَّظَرِ فِي الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْمَعَانِي

وَالْأَلْفَاظِ، فَيُقَارَنُ الْمُفْرَدَاتِ وَالْأَسَالِيبَ وَالْمَعَانِي الْمُخْتَرَعَةَ
وَحُسْنَ الْخِيَالِ وَقُبْحَهُ وَالْبَرَاعَاتِ وَالْمَخَالِصَ وَالْمَقَاطِعَ
وَالْأَخْذَ وَالْإِبْتِدَاعَ؛ وَأَنْ يَذْكَرَ تَعْلِيلَ كُلِّ تَخْسِينٍ أَوْ تَقْبِيحٍ
بِمَا يُقْنِعُ حَتَّى يَرُسَمَ لِلنَّظَرِ مَا يُهَيِّئُ لَهُ الْحُكْمَ، فَلَا يَسَعُهُ
قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى آخِرِ الْمُوَازَنَةِ إِلَّا النُّطْقُ بِالْحُكْمِ قَبْلَ
سَمَاعِهِ كَمَا فَعَلَ أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ بِشْرِ بْنِ يَحْيَى
الْأَمْدِيُّ فِي كِتَابِ «الْمُوَازَنَةِ بَيْنَ أَبِي تَمَّامٍ وَالْبُخْتَرِيِّ» فَإِنَّهُ
قَالَ: لَسْتُ أَفْصَحُ بِتَفْضِيلِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ، لَكِنِّي
أُقَارِنُ بَيْنَ قَصِيدَتَيْنِ مِنْ شِعْرِهِمَا إِذَا اتَّفَقَتَا فِي الْوَزْنِ
وَالْقَافِيَةِ وَإِعْرَابِ الْقَافِيَةِ وَبَيْنَ مَعْنَى وَمَعْنَى، فَأَقُولُ: أَيُّهُمَا
أَشْعَرُ فِي تِلْكَ الْقَصِيدَةِ وَذَلِكَ الْمَعْنَى؟ ثُمَّ أَحْكُمُ أَنْتَ
عَلَى جُمْلَةٍ مَا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِذَا اسْتَطَعْتَ عِلْمًا بِالْجَيِّدِ
وَالرَّدِيِّ.

ثُمَّ ذَكَرَ مَسَاوِيءَ الشَّاعِرَيْنِ، فَسَرَدَ سَرِقَاتِ أَبِي تَمَّامٍ
وَأَحَالَاتِهِ وَغَلَطَهُ وَسَاقِطَ شِعْرِهِ وَقُبْحَ اسْتِعَارَاتِهِ وَتَجْنِيسِهِ
وَأَضْطِرَابِ وَزْنِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا وَجَدَهُ مِنْ ذَلِكَ لِلْبُخْتَرِيِّ،
وَقَارَنَ بَيْنَ مَا افْتَتَحَ بِهِ الْقَوْلَ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى الدِّيَارِ
وَوَضْفِهَا وَالسَّلَامِ عَلَيْهَا وَالِدُعَاءِ لَهَا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَنَبَّهَ
عَلَى الْجَيِّدِ وَفَضْلِهِ عَلَى الرَّدِيِّ، وَبَيَّنَّ عِلْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ:

وَبَقِيَ مَا لَمْ يُمَكِّنْ إِخْرَاجُهُ إِلَى الْبَيَانِ، وَهُوَ مَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالدُّزْبَةِ، ثُمَّ ضَرَبَ الْمَثَلَ بِالْفَارِسِيِّنَ وَالْجَارِيَتَيْنِ، تَسَاوِيَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ، وَمَعَ هَذَا يُفْضَلُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى الْمُجَرَّبُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ بَيَانَ ذَلِكَ، ثُمَّ ذَكَرَ مِيزَانَ الْمُوازَنَةِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْحَابِ الذَّوْقِ السَّلِيمِ، فَحَقَّقَهُ النَّظَرُ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي فَضَّلَ بِهَا الْأَيْمَةُ شِعْرَ أَوْسِ بْنِ حَجْرٍ عَلَى النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ مَثَلًا، فَإِنْ عَرَفَهَا فَضَّلَ عَلَى مُقْتَضَاهَا، وَحَكَمَ حُكْمًا مَقْبُولًا، وَإِلَّا فَحَسْبُهُ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْجُمْهُورِ.

أَمَّا فَايِدَةُ الْمُقَارَنَاتِ فَتَخْصِيلُ مَلَكَهَ الْأَدَبِ وَصِحَّةُ النَّقْدِ وَكَشْفُ الْقِنَاعِ عَنِ الْمَحَاسِنِ لِتُحْتَذَى، وَالْمَقَابِحِ لِتُجْتَنَّبَ، وَكَمَا أَنَّ اللِّسَانَ لَا يَمُرُّ عَلَى النُّطْقِ بِالصَّوَابِ إِلَّا بِالمُحَاكَاةِ كَذَلِكَ الذَّهْنُ لَا يَمُرُّ عَلَى الْفَهْمِ الصَّحِيحِ، وَلَا يَجُولُ فِي مَيْدَانِ فَسِيحٍ مِنَ الْمَعَانِي، وَلَا يَقْدُرُ الْأَشْيَاءُ قَدْرَهَا إِلَّا بِالمُقَارَنَاتِ الَّتِي تُمَثِّلُ فِي النَّفْسِ لِكُلِّ شَاعِرٍ صُورَةً، وَتُقَرَّرُ لَهُ حُكْمًا غَيْرَ مُزْعَزِعٍ وَلَا مُدَافِعٍ، وَلَوْ أَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ عُنُوا بِهَذَا الْمَوْضُوعِ عِنَايَتَهُمْ بِسِوَاهُ لِمَا بَقِيَ كَثِيرٌ مِنَّا مُضْطَرِبًا أَضْطِرَابَهُمْ فِي مَقَادِيرِ الشُّعْرَاءِ.

ضُرُورَةُ التَّغْرِيبِ

«للشيخ محمد الحُضْرِي»^(١)

يَقُولُونَ: إِنَّ الْحَقَّ فِي التَّغْرِيبِ إِنَّمَا كَانَ لِأُمَّةٍ سَلَفَتْ
وَبَادَتْ فَلَمْ يَبْقَ لَهَا مِنْ أَثَرٍ، وَإِنَّ مَا كَانَ يُبَاحُ لِلْأَعْرَابِ
فِي بَوَادِيهِمْ عَلَى قِلَّةِ حَاجِهِمْ لَا يُبَاحُ مِثْلُهُ لَنَا فِي الْقُرُونِ
الْمُتَأَخِّرَةِ عَلَى كَثَرَةِ الْحَاجِ؛ وَهَذَا كُلُّهُ بَنُوهُ عَلَى قَاعِدَةٍ لَا
أَسَاسَ لَهَا، وَهِيَ تَشْبِيهُ اللُّغَةِ بِالذِّينِ فِي التَّمَامِ، فَكَمَا أَنَّ
اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَتَمَّ دِينَهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَذَلِكَ الْعَرَبُ قَدْ أَتَمَّتْ وَضَعَ لُغَتِهَا، وَلَمْ
يَبْقَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ يَحِقُّ لَهُ أَنْ يُضِيفَ إِلَيْهَا كَلِمَةً جَدِيدَةً،
كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُضِيفَ عَلَى دِينِهِ حُكْمًا جَدِيدًا.

(١) «الشيخ محمد [بن عَفِيفِي البَاجُورِي] الحُضْرِي» [١٢٨٩ -

١٣٤٥هـ = ١٨٧٢ - ١٩٢٧م]

شَيْخٌ مِنْ جِلَّةِ شُبُوحِ الْعَصْرِ، وَعَالِمٌ مِنْ أَكْبَرِ الْعُلَمَاءِ بِالشَّرِيعَةِ
وَالتَّارِيخِ وَالْأَدَبِ، وَكَاتِبٌ مِنْ أَفْرَادِ الْكُتَّابِ، مَعْرُوفٌ بِالْمَتَانَةِ
وَالدَّقَّةِ وَجَمَالِ الْأُسْلُوبِ وَقُوَّةِ الْحُجَّةِ، وَيَمْتَّازُ بِاسْتِنَارَةِ ذَهْنِهِ
وَحُبِّهِ لِلِإِصْلَاحِ وَبُغْضِهِ لِلْجُمُودِ عَلَى كُلِّ قَدِيمٍ فِي الْعِلْمِ أَوْ
الدِّينِ، وَلَهُ فِي الْأَجْتِمَاعِيَّاتِ وَالْمَبَاحِثِ الدِّينِيَّةِ مِنَ الرِّسَالِ مَا
يَسْمُو بِهِ إِلَى مَنَزَلَةِ الْمُصْلِحِينَ.

لَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ظَاهِرٌ، فَإِنَّ الدِّينَ وَضَعَ
إِلَهِي شَرَّعَهُ مَنْ لَهُ حَقُّ التَّشْرِيعِ وَالْإِلْزَامِ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى، وَأَتَمَّ وَضَعَهُ عَلَى قَوَاعِدَ رَاسِخَةٍ وَأَسَاسٍ ثَابِتٍ،
فَلَمْ يَتَّقِ لِأَحَدٍ مَجَالَ أَنْ يَزِيدَ عَلَى هَذِهِ الْقَوَاعِدِ أَوْ يَنْقُصَ
مِنْهَا، أَمَّا اللُّغَةُ، فَالْمَقْصِدُ مِنْهَا الْإِبَانَةُ وَالْإِفْصَاحُ، وَهِيَ مِنْ
وَضْعِ الْأَفْرَادِ، تَتَجَدَّدُ بِتَجَدُّدِ الْحَاجَاتِ.

وَلَيْسَ مِنْ قَضِيٍّ أَنْ أُبَحِّثَ الْآنَ فِي أَمْرِ اللُّغَاتِ
أَهِيَ تَوْقِيفِيَّةٌ أَمْ وَضْعِيَّةٌ؟ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا فَرَّغَ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ
وَأَنْتَهَى بِهِمُ الْبَحْثُ إِلَى الرَّأْيِ الثَّانِي حَتَّى أَنْ كَثِيرًا مِنْ
أَصْحَابِ الرَّأْيِ الْأَوَّلِ قَالُوا: إِنَّ الْمُرَادَ بِمَا وَضَعَ أَوَّلًا هُوَ
الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى مِثْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ مِمَّا
هُوَ مَوْجُودٌ مُنْذُ وُجِدَ الْإِنْسَانُ، أَمَّا ادِّعَاءُ أَنَّ الْأَلْفَاظَ الدَّالَّةَ
عَلَى الْمُخْتَرَعَاتِ وَالْمُحَدَّثَاتِ مِمَّا عَلِمَهُ الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ أَدُمُ
صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَهُوَ مُكَابَرَةٌ لِلْمَحْسُوسِ.

وَمَتَى ثَبَتَ أَنَّهَا تَتَجَدَّدُ بِتَجَدُّدِ الْحَاجَةِ، فَالْمُحْتَاجُ مِنَ
الْمُتَمَسِّكِينَ بِهَا مَتَى عَلِمَ أَصُولُهَا وَلَهْجَتُهَا لَهُ حَقُّ التَّغْرِيبِ
بِالضَّرُورَةِ كَمَا كَانَ هَذَا الْحَقُّ لِسَلَفِهِ.

وَلَا أَذِرِي مَا الْفَرْقُ بَيْنَ مَنْ عَلَّمَ اللُّغَةَ تَلْقِينًا مِنْ أَبِيهِ
وَأُمِّهِ وَبَيْنَ مَنْ عَلَّمَهَا مِنْ مُعَلِّمٍ غَيْرِهِمَا، وَأَعْتَادَهَا بَعْدَ ذَلِكَ

فِي كَلَامِهِ وَكِتَابَتِهِ حَتَّى صَارَتْ لَهُ مَلَكَةٌ بِحَيْثُ يُمَكِّنُهُ أَنْ
يَقِفَ سَاعَةً فَيَخْطُبُ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحِيدَ عَنْ طَرِيقِهَا،
وَيَكْتُبُ كِتَابًا صَحِيحًا يُقْرَأُ فِي سَاعَاتٍ أَوْ أَيَّامٍ.

إِنَّ الَّذِينَ يُخَالِفُونِي فِي الرَّأْيِ وَيَقُولُونَ بِالتَّوَسُّعِ فِي
اسْتِعْمَالِ الْمُفْرَدَاتِ لَا يَنْجُونَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَوْضَاعِ
وَالدَّلَالَاتِ الْعَرَبِيَّةِ.

هُم بِلا شَكٍّ يَتَفَقُّونَ مَعِيَ أَنَّ حَقَّ التَّغْيِيرِ لِلْحَاجَةِ
ثَابِتٌ لَنَا، وَمَتَى اتَّفَقْنَا عَلَى نَيْلِ هَذَا الْحَقِّ لَمْ يَبْقَ إِلَّا
التَّخْيِيرُ بَيْنَ سَهْلٍ وَأَسْهَلٍ وَمُفِيدٍ وَتَامٍ الْإِفَادَةِ. وَلَا مِرَاءَ فِي
أَنَّ اللَّفْظَ الَّذِي وَضَعَهُ وَاضِعُهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى شَيْءٍ اخْتَرَعَهُ
أَسْهَلُ فِي الدَّلَالَةِ وَأَتَمُّ فِي الْإِفَادَةِ، لِأَنَّهُ وَضَعَ بِإِزَائِهِ تَمَامًا،
كَمَا وَضَعَ لَفْظَ الْإِبْرِيْقِ بِإِزَاءِ تِلْكَ الْأَدَاةِ الَّتِي نَعْرِفُهَا،
بِخِلَافِ الْكَلِمَةِ الَّتِي نَتَصَيَّدُهَا مِنْ مَوَاتِ اللُّغَةِ، فَإِنَّهَا إِمَّا أَنْ
تَكُونَ مَوْضُوعَةً لِشَيْءٍ هُوَ أَعَمُّ، فَتُخَصِّصُهَا، وَيُلْزَمُنَا إِيجَادُ
الْقَرِينَةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا نُرِيدُ، فَتَحْتَاجُ إِلَى لَفْظٍ وَقَرِينَةٍ، وَأَمَّا
أَنْ تَكُونَ مُسْتَعْمَلَةً فِي شَيْءٍ فِيهِ مُجَرَّدُ مُشَابَهَةٍ، كَمَا بَيْنَ
الْأَوْتُمِيزِ وَالسَّيَّارَةِ، فَتَحْتَاجُ لاسْتِعْمَالِ لَفْظٍ وَاحِدٍ لِلدَّلَالَةِ
عَلَى مَعْنَيْنِ أَوْ مَعَانٍ كَثِيرَةٍ، فَالسَّيَّارَةُ اسْتُعْمِلَتْ لِلدَّلَالَةِ
عَلَى مَعْنَى هُوَ الْقَافِلَةُ أَوْ الرُّكْبُ، فَإِذَا قُلْتُ: جَاءَتْ سَيَّارَةٌ،

مَنْ يَفْهَمُنِي الْمُخَاطَبُ بِمُجَرَّدِ لَفْظِي؟ أَظُنُّ لَا. بَلْ لَا بُدَّ
مَعَ ذَلِكَ مِنْ كَلِمَةٍ أُخْرَى مَبِينَةٍ لِلْمُرَادِ.

لَا أَذِرِي مَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ فِي اللُّغَةِ تُرَام،
وَيُقَالُ: أَتَرَمَ وَمُتَرَمٌ؛ كَمَا قَالُوا: لِحَامٌ وَأَلْجَمَ وَمُلْجَمٌ.

إِنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي نُرِيدُ أَصْطِيَادَهَا قَدْ وَضَعَهَا وَاضِعُهَا
بِالضَّرُورَةِ لِتَدُلَّ عَلَى مَعْنَى خَاصَّةٍ، فَإِذَا نَحْنُ أَخَذْنَاهَا
وَأَسْتَعْمَلْنَاهَا فِي شَيْءٍ جَدِيدٍ لَمْ نَكُنْ قَدْ جَرَيْنَا عَلَى لُغَةِ
الْعَرَبِ، لِأَنَّنَا خَالَفْنَا أَوْضَاعَهُمْ وَمَقَاصِدَهُمْ، فَهُمْ وَضَعُوا
بَشَكْيٍ وَجَمَزُوا مَثَلًا لِلنَّاقَةِ السَّرِيعَةِ، فَإِذَا جَعَلْنَا كَلِمَةً مِنْهُمَا
بِإِزَاءِ التُّرَامِ نَكُونُ بِلا شَكٍّ وَضَعْنَا وَضْعاً جَدِيداً لَمْ يَسْبِقْنَا
إِلَيْهِ سَابِقٌ. وَاجْتِلَابُ مِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ بِالنِّسْبَةِ لِمَحْفُوظِ
اللُّغَةِ كَوَضْعِ الْأَفَافِ جَدِيدَةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ أَحْرَفِ اللُّغَةِ، فَسَيَّانِ
فِي الْاِغْتِرَاضِ عَلَى رَأْيِهِمْ أَنْ نَقُولَ لِلتُّرَامِ: بَشَكْيٍ، وَأَنْ
نَقُولَ لَهُ: تُرَامٌ؛ لِأَنَّهُمَا كِلَاهِمَا اسْتِبْدَادُ بِوَضْعِ اسْمٍ لِمُسَمًّى
لَمْ يَكُنْ لَهُ وُجُودٌ قَبْلَ الْآنِ، إِلَّا أَنْ وَجَهَ الضَّرَرُ فِي الْأَوَّلِ
ظَاهِرٌ كَمَا يَتَّضِحُ وَجْهُ الْمَنْفَعَةِ فِي الثَّانِي، فَإِنَّا فِي الْأَوَّلِ
نَجْرِي عَلَى خُطَّةٍ لَا أَسَاسَ لَهَا مَعَ وَضْعِ الْخُرُوجِ عَنْ
أَوْضَاعِ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَفِي الثَّانِي نَجْرِي عَلَى خُطَّةٍ اتَّبَعَهَا
سَلَفُنَا مَعَ الْوَضَاحَةِ التَّامَّةِ فِي الْأَسْمِ وَالْمُسَمًّى، وَلَا أَذِرِي

بَعْدَ ذَلِكَ مَا الَّذِي يَدْعُونَا إِلَى تَعَسُّفِ الطَّرِيقِ، وَلَعَلَّهُمْ
يَرَوْنَ فِي ذَلِكَ رَأْيًا، فَيَقُولُونَ: إِنَّا بِاتِّبَاعِ الطَّرِيقِ الْأَوَّلِ
حَافِظُونَ عَلَى مَا بَيْنَ دَفْتِي الْقَوَامِيسِ، فَلَمْ نَحِذْ عَنْهُ قِيْدَ
شِبْرِ، وَلَمْ نَخْرُجْ عَمَّا نَطَقَ بِهِ الْعَرَبُ فِي بَوَادِيهِمْ، وَفِي
ذَلِكَ مِنْ اخْتِرَامِ الْأَبَاءِ وَإِقْنَاعِ النَّاسِ بِغِنَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
وَوَثَرَوْتِهَا حَتَّى لَا يَهْزَأُ بِنَا هَازِيٌّ، فَيَقُولُ: إِنَّ لُغَةً تَرَبُّو عِدَّةُ
كَلِمَاتِهَا عَلَى الثَّمَانِينَ أَلْفًا مُخْتَاجَةٌ إِلَى مَا يُكْمِلُهَا وَيُسَدُّ
ثُلْمَةً فِيهَا.

أَمَّا دَعْوَى أَنَّ هَذَا مُحَافَظَةٌ عَلَى مَا هُوَ عِنْدَنَا، فَغَيْرُ
صَحِيحَةٍ، لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَكُونُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَى الْأَسْمِ وَالْمُسَمَّى
الَّذِي وُضِعَ اللَّفْظُ بِإِزَاتِهِ، وَإِذَا لَمْ نَفْعَلْ ذَلِكَ كُنَّا قَدْ خَلَلْنَا
عَلَى النَّاسِ تَخْيِيلًا لَا قِيَمَةَ لَهُ، وَأَرْتَكَبْنَا فِي التَّغْيِيرِ مِنْ
أَوْضَاعِ الْقَوَامِيسِ مَا لَا يَخْفَى، لِأَنَّنَا إِذَا كَتَبْنَا لَفْظًا مِنْ هَذِهِ
الْأَلْفَاظِ الَّتِي اخْتَرْنَا التَّوَسُّعَ فِيهَا وَاسْتَعْمَالَهَا لِشَيْءٍ جَدِيدٍ،
أَنذَكُرُ فِي قَوَامِيسِنَا مَعْنِيَّهَا الْقَدِيمَ وَالْحَدِيثَ، فَتَكُونُ قَدْ
أَبْتَدَعْنَا، وَأَوْقَعْنَا السَّامِعَ وَالمُتَعَلِّمَ فِي حَيْرَةٍ؛ أَمْ نَتْرُكُ ذِكْرَ
المَعْنَى الْقَدِيمِ وَنَقْتَصِرُ عَلَى الْحَدِيثِ؟! وَوَصَفُ هَذَا
بِالْإِفْسَادِ فِي لُغَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَاضِحٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ،
وَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ نَذْكُرَ لَفْظَ تُرَامَ مَثَلًا بَعْدَ الْإِتِّفَاقِ عَلَى لَفْظِهَا،

وَنَذَكَّرُ بِجَانِبِهَا مَعْنَاهَا، وَأَنَّهَا مِمَّا عُرِبَ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، وَبَيَّنَّ تَأْرِخَ تَغْرِيبِهَا، فَيَكُونُ مَا وَضَعَهُ الْمُتَقَدِّمُونَ مَعْرُوفًا وَخَدَهُ، وَمَا أَلْحَقَهُ بِاللُّغَةِ الْمُتَأَخِّرُونَ مَعْرُوفًا وَخَدَهُ، وَهَذِهِ هِيَ الْمُحَافَظَةُ الْحَقِيقِيَّةُ عَلَى مَا وَرِثَاهُ مِنْ سَلَفِنَا.

وَأَمَّا أَنْ يَغْتَرَّ مُغْتَرٌّ بِكَثْرَةِ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ حَتَّى لَا يَخْتَاجُ إِلَى مَزِيدٍ فِيهِ غَلْطَانِ كُبْرَيَانِ، فَإِنَّ الثَّرْوَةَ الْمَرْغُومَةَ لَا نَقُولُ بِهَا، لِأَنَّا إِنْ طَرَحْنَا مِنْهَا الْمُتَرَادِفَ مَا وَجَدَ مَعْنَا بَعْدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنَ الثُّلْثِ بِهَذَا الْعَدَدِ، فَكَثِيرًا مَا نَجِدُ الْمَعْنَى الْوَاحِدَ لَهُ اسْمَانِ فَأَكْثَرَ إِلَى خَمْسِ مِثَّةِ أَسْمٍ، كَمَا قَالُوا فِي السَّيْفِ وَالْخَمْرِ وَالْهَرِّ وَالْعَسَلِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ لَيْسَتْ بِثَّرْوَةٍ.

وَالثَّرْوَةُ الَّتِي أُسْلِمَ بِهَا إِنَّمَا هِيَ فِي أَسْمَاءِ الْمَعَانِي، وَلَيْسَتْ دَاخِلَةً فِي مَوْضُوعِ بَحْثِنَا.

وَأَمَّا عَدَمُ الْحَاجَةِ إِلَى مَزِيدٍ فَهَذَا لَا تَدَّعِيهِ لُغَةٌ مِنْ لُغَاتِ الْأُمَمِ الْحَيَّةِ، لِأَنَّ الْأُمَّمَ كُلَّمَا كَثُرَتْ حَاجَاتُهَا، وَتَجَدَّدَتْ أَضْطَرَّتْ إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَةِ، وَهَذَا هُوَ سِرُّ الْحَرَكَةِ الدَّائِمَةِ فِي لُغَاتِ الْإِفْرَنْجِ، بِحَيْثُ تَرَوْنَ مَجَامِعَهُمْ فِي شُغْلٍ دَائِمٍ لَا يَأْنِفُونَ أَنْ يَجِدُوا يَوْمًا مَا فِي لُغَتِهِمْ كَلِمَةً زَائِدَةً دَلَّتْ عَلَى مَعْنَى جَدِيدٍ، وَأَكْثَرَ أَحْوَالِهِمْ

الاستِعَارَةُ مِنْ غَيْرِ لُغَتِهِمْ. وَإِذَا كُنَّا نَرَى عُقُولَنَا قَدْ وَقَفَتْ
عَنِ الْأَخْتِرَاعِ فَإِنَّا نَرَى أَنْفُسَنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى اسْتِغْمَالِ
مُخْتَرَعَاتِ الْمُخْتَرِعِينَ وَالتَّغْيِيرِ عَنْهَا.

أَذْوَارُ الشُّغْرِ الْعَرَبِيِّ

«لِلْأَحَدِ الْأُدْبَاءِ الْمُعَاَصِرِينَ»^(١)

كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا أُمَّةً هَائِمَةً مُتَبَدِّئَةً عَلَى
الْفِطْرَةِ الْبَيْضَاءِ النَّقِيَّةِ لَا تَغْبُثُ الْحَضَارَةَ بِجَمَالِهَا، وَلَا
تُغْبِرُ الْمَدِينَةَ فِي وَجْهِهَا، تَطْلُعُ الشَّمْسُ فِي آفَاقِهَا فَتَبْسِطُ
عَلَى سُهُولِهَا وَحُزُونِهَا، وَنَجَادِهَا وَوَهَادِهَا، مِنْ حَيْثُ لَا
تَغْتَرِضُ فِي سَبِيلِهَا مِنَ الْمَظِلَّاتِ سُحُبٌ، وَلَا مِنْ
السُّقُوفِ حُجُبٌ، وَيَنْبُتُ نَبَاتُهَا حَيْثُ يَجْرِي مَآوِهَا، لَا
تَغْبُثُ فِيهِ الْأَيْدِي بِتَرْبِيعٍ وَلَا تَذْوِيرٍ، وَلَا تَقْوِيسٍ وَلَا
تَغْرِيجٍ، وَيَجْرِي مَآوِهَا فِي سَبِيلِهِ مُتَدَفِّقًا حَيْثُ يَنْسَابُ بِهِ
تَسْلُسُلُهُ وَأَطْرَادُهُ، لَا تَلْوِي بِهِ عَنْ قَضْدِهِ الْحَفَائِرُ، وَلَا
تَنْتَصِبُ فِي وَجْهِهِ الْقَنَاطِرُ، وَيَهِيمُ وَخْشُهَا فِي جِبَالِهَا،
وَطَيْرُهَا فِي أَجْوَانِهَا، مِنْ حَيْثُ لَا يَخْبِسُ الْأَوَّلُ عَرِينُ

(١) [هو مصطفى لطفى المنفلوطي نفسه، راجع «النظرات»، الجزء

مَوْصُودٌ، وَلَا الْآخَرَ قَفْصٌ مَخْدُودٌ؛ وَالشُّعْرُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ
كُلُّهُ مِزَاجَةٌ مَجْلُوءَةٌ تَتَمَثَّلُ فِيهَا تِلْكَ الْمَنَاطِرُ الْفِطْرِيَّةُ عَلَى
طَبِيعَتِهَا وَجَوْهَرِهَا.

يَنْطِقُ الْعَرَبِيُّ بِمَا يَعْلَمُ، وَيَقُولُ مَا يَفْهَمُ، وَيُصَوِّرُ مَا
يَرَى، وَيُحَدِّثُ عَمَّا تَمَثَّلَ فِي نَفْسِهِ حَدِيثًا صَادِقًا لَا
تَكْلُفَ فِيهِ وَلَا تَعَمُّلَ، لِأَنَّ كُلَّ مَا هُوَ مُحِيطٌ بِهِ مِنْ هَوَاءٍ
وَمَاءٍ، وَأَرْضٍ وَسَمَاءٍ، وَطَعَامٍ وَشَرَابٍ، وَمَرَافِقٍ وَأَدَوَاتٍ،
عَلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ الْخَالِصَةِ فَأُخْرِجُ أَنْ يَكُونَ شِعْرُهُ
كَذَلِكَ.

ذَلِكَ كَانَ شَأْنُ شِعْرِ الْعَرَبِيِّ وَالْعَرَبِ عَلَى فِطْرَتِهِمْ،
وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: الشُّعْرُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ؛ لِأَنَّهُ صُورَةُ
حَيَاتِهِمْ الْأَجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ، وَتَمَثُّلُ خَوَاطِرِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ
وَالْخَيَالِيَّةِ، فَإِنْ ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ التَّمَاثِيلَ وَالنُّصُبَ،
وَالْمَخْطُوطَاتِ وَالْمَنْسُوجَاتِ، وَالصُّوَرَ وَالتَّهَاوِيلَ، وَبَقَايَا
الْآثَارِ، وَقِطَعِ الْأَخْجَارِ، الَّتِي نَرَاهَا فِي خَرَائِبِ الْيُونَانِ
وَالرُّومَانِ وَالْفِينِيقِيِّينَ وَالْفَرَاعِنَةَ، أَدَلُّ عَلَى تَوَارِيخِ أَوْلِيكَ
الْأَقْوَامِ مِنَ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ عَلَى تَارِيخِ الْعَرَبِ، قُلْنَا لَهُ: مَا
مِنْ دِيْوَانٍ مِنْ دَوَاوِينِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ إِلَّا وَتَحَدَّثَ
الْمُؤَرِّخُونَ بِعَبَثِ الْأَيْدِي بِهِ، وَلَعِبِهَا بِسُطُورِهِ وَسِجْلَاتِهِ، أَمَّا

الديوانُ العربيُّ فُصُورَةٌ صَحِيحَةٌ، وَآيَةٌ مُقَدَّسَةٌ، لَا تَغْيِيرَ فِيهَا
وَلَا تَبْدِيلَ.

ثُمَّ جَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ جَوَارٍ بِالسَّعْدِ وَالنَّحْسِ، فَأَنْتَقَلَتْ
الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْ بَدَاوَتِهَا إِلَى حَضَارَتِهَا، وَهَاجَرَ مَعَهَا
شِعْرُهَا بِهَجَرَتِهَا، فَطَلَعَ جَيْشُ الْمُؤَلَّدِينَ يَحْمِلُ لَوَاءَهُ
الشَّاعِرَانِ الْجَلِيلَانِ: بَشَّارٌ وَأَبُو نُوَّاسٍ، فَطَرَقُوا مَعَانِي لَمْ
تَكُنْ مَطْرُوقَةً، وَنَهَجُوا مَنَاهَجَ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً، فَقُلْنَا: لَا
بَأْسَ! فَالشُّعْرُ الْعَرَبِيُّ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَضِيقَ بِحَاجَاتِ أُمَّتِهِ فِي
جَمِيعِ شُؤُونِهَا وَحَالَاتِهَا، حَتَّى جَاءَ أَبُو تَمَّامٍ شَنِخُ
الْمُحَسَّنَاتِ اللَّفْظِيَّةِ، فَسَلَكَ إِلَى أَكْثَرِ مَعَانِيهِ الْبَدِيعَةِ طَرِيقَ
الْلَفْظِ الْمَصْنُوعِ، وَالْأُسْلُوبِ الْمُزَخْرَفِ، فَثَغَّرَ فِي الشُّعْرِ
الْعَرَبِيِّ ثَغْرَةً أَلَحَّ عَلَيْهَا السَّائِرُونَ عَلَى إِثْرِهِ مِنْ بَعْدِهِ
بِأَظْفَارِهِمْ وَأَنْيَابِهِمْ حَتَّى صَيَّرُوهَا بَاباً أَقْوَى، لَا يَمْنَعُ مَا
وَرَاءَهُ، وَلَا يَدْفَعُ مَا أَمَامَهُ، فَأَصْبَحَ الشُّعْرُ عَلَى عَهْدِ ابْنِ
حِجَّةٍ وَابْنِ الْفَارِضِ وَابْنِ مَلِيكَ وَالصَّفْدِيِّ وَالسَّرَاجِ
وَالجَزَّارِ وَالْحَلِيِّ وَأَمْثَالِهِمْ، أَشْبَهَ شَيْءٍ بِتِلْكَ الْآيَةِ الْفِضِّيَّةِ
أَوْ الصَّيْنِيَّةِ الَّتِي يَضَعُهَا الْمُتَرْفُونَ فِي زَوَايَا مَجَالِسِهِمْ وَعَلَى
أَطْرَافِ مَوَائِدِهِمْ، ظَهَرًا زَاهِيًا، وَبَطْنًا خَاوِيًا، لَا تَشْفِي غُلَّةً،
وَلَا تَبْضُ بِقَطْرَةٍ، وَلَا تُسَمِّنُ وَلَا تُغْنِي مِنْ جُوعٍ. ثُمَّ جَاءَ

عَلَى إِثْرِ هَوْلَاءِ مَنْ تَدَلَّى إِلَى مَنَزِلَةٍ أَدَوْنَ مِنْ هَذِهِ الْمَنَزِلَةِ،
فَجَاؤُوا بِشَيْءٍ هُوَ أَشْبَهُ الْأَشْيَاءِ بِتِلْكَ الْمَقَائِسِ وَالتَّفَاعِيلِ
الَّتِي وَضَعَهَا الْخَلِيلُ مِيزَانًا لِلشُّعْرِ، لَا يَرُوقُ لَفْظُهَا، وَلَا
يُفْهَمُ مَعْنَاهَا.

وَعَلَى هَذَا الْمَوْرِدِ الْوَبِيلِ وَقَفَ الشُّعْرُ بِضَعَةِ قُرُونٍ
وَقَفَّةٌ لَا يَتَزَخَّرُ عَنْهَا وَلَا يَتَحَلَّحِلُ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ
مِنْ مَلَائِكَةِ الْبَيَانِ رُسُلًا فِي هَذَا الْعَهْدِ الْأَخِيرِ أَخَذُوا بِيَدِهِ،
وَنَشَرُوهُ مِنْ قَبْرِهِ، وَنَفَضُوا عَنْهُ غُبَارَهُ، فَأَصْبَحْنَا نَرَى فِي
أَبْرَادِ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ أَجْسَامَ أَبِي نُوَاسٍ وَأَبِي عُبَادَةَ وَأَبِي تَمَامٍ
وَالشَّرِيفِ وَبَشَّارٍ، لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ إِلَّا أَنَّ هَوْلَاءِ
مُقَلَّدُونَ يَتَّبِعُونَ الْآثَارَ، وَأُولَئِكَ مُبْتَدِعُونَ يَفْتَرِعُونَ الْأَبْكَارَ.

وَصَفُ كِتَابِ النُّظَرَاتِ

«لِحَافِظِ إِبْرَاهِيمَ»

[مُحَمَّدُ حَافِظُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فَهْمِي الْمُهَنْدِسُ]

(وَهُوَ كِتَابٌ أَرْسَلَهُ الْكَاتِبُ إِلَى الْمُؤَلِّفِ)

قَدِمَ أَحَدُ أَقْبَالِ الْيَمَنِ إِلَى دَارِ النَّدْوَةِ، فَبَصَرَ فِيهَا
بِصَاحِبِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَهُوَ إِذْ ذَاكَ غُلَامٌ مُرَاهِقٌ، فَقَالَ
لِمَنْ حَضَرَ مِنَ الْقَوْمِ: إِنَّ هَذَا الْغُلَامَ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيِ

لَبُوءَ وَتَارَةً بِغَيْنِي عَذْرَاءَ خَفِرَةٍ، فَلَوْ أَنَّ نَظَرَتُهُ الْأُولَى كَانَتْ
 سَهْمًا لَأَنْتَظَمْتُ أَفِيدَتَكُمْ فُوَادًا فُوَادًا، وَلَوْ أَنَّ الثَّانِيَةَ كَانَتْ
 نَسِيمًا لَأَنْشَرْتُ أَمْوَاتَكُمْ. وَكَذَلِكَ أَرَاكَ فِي «نَظَرَاتِكَ» إِلَى
 قَوْمِكَ أَيُّهَا الْكَاتِبُ الْكَبِيرُ! فَلَوْلَا أَنَّكَ غَيْرُ مَعْصُومٍ، وَأَنَّ
 اللَّهَ قَدْ أَجَلَ مَقَامَ النُّبُوَّةِ عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالنَّظَائِرِ، لَقُلْتُ: مَا
 أَشْبَهَ هَذِهِ بِتِلْكَ؛ وَالسَّلَامُ.

الإنشاء والعصر

«إبراهيم بك المويلحي»^(١)

سَمِعْنَا كَلَامًا يَجْرِي فِي كَثِيرٍ مِنْ مَجَالِسِ الْبَاحِثِينَ
 الْمُدَقِّقِينَ أُولِي الْأَدَبِ وَالْفَضْلِ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي وَقَفَ
 بِصِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ وَالتَّخْرِيرِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ مِنَ الضَّعْفِ

(١) «إبراهيم بك [بن عبد الخالق] المويلحي» [١٢٦٢ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٦ - ١٩٠٦ م].

لَا أَكُونُ مبالغاً إِنْ قُلْتُ: إِنَّ الْمَرْحُومَ إِبْرَاهِيمَ بَكَّ الْمُوَيْلِحِي هُوَ
 شَيْخُ الْكِتَابَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي عَلَّمَ الْكِتَابَ
 كَيْفَ يَرْقُونَ بِلُغَتِهِمْ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهَا الْيَوْمَ، وَكَيْفَ
 يُودِعُونَ كِتَابَاتِهِمْ النُّكَاتَ الْبَدِيعَةَ وَالْمَعَانِي الْمُسْتَطَرِفَةَ،
 وَيَخْرِجُونَ بِهَا مِنْ ذَلِكَ الْجُمُودِ الْقَدِيمِ.

وَالْخُمُولِ مَعَ تَزَايِدِ الْمَدَارِسِ وَأَنْتِشَارِ التَّعْلِيمِ وَكَثْرَةِ الْمَطَابِعِ
وَأَتْسَاعِ دَائِرَةِ الْمَطْبُوعَاتِ وَإِطْلَاقِ حُرِّيَةِ الْقَوْلِ وَتَعَدُّدِ فُنُونِ
الْمَطَالِبِ وَالْمَوَاضِيْعِ فِي هَذَا الْعَصْرِ خَاصَّةً. وَمَا بَالُنَا نَرَى
دَوَائِرَ بَقِيَّةِ الصَّنَاعَاتِ الْعَالِيَةِ تَتَّسِعُ وَتَنْمُو عَلَى نِسْبَتِهَا
وَدَوَائِرَ الْكِتَابَةِ وَالْإِنْشَاءِ تَضِيقُ وَتَنْكَمِشُ وَتَنْحَطُّ وَلَا تَرْتَفِعُ،
فَلَا يَمْضِي عَامٌ وَلَا يَمُرُّ حَوْلٌ إِلَّا وَنَجِدُ دَائِرَةَ الطَّبِّ أَوْ
الْهَنْدَسَةِ أَوْ الْمُحَامَاةِ قَدْ دَخَلَ فِيهَا عَدَدٌ لَيْسَ بِقَلِيلٍ مِنَ
الْأَطِبَّاءِ أَوْ الْمُهَنْدِسِينَ أَوْ الْمُحَامِلِينَ، وَيَنْقُضِي الْعَامُ فِي إِثْرِ
الْعَامِ وَلَا نَسْمَعُ بِظُهُورِ كَاتِبٍ وَاحِدٍ يَنْضَمُّ إِلَى دَائِرَةِ
التَّخْرِيرِ مِنْ بَيْنِ أَوْلِيكَ الْأُلُوفِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنْ طَلَبَةِ الْعُلُومِ
الْعَرَبِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ وَغَيْرِهَا. وَمَا لَنَا نَجِدُ أَهْلَ تِلْكَ
الصَّنَاعَاتِ يَسْلُكُونَ سَبِيلَ الْإِثْقَانِ وَالْإِحْسَانِ فِي دَائِرَتِهِمْ
عَلَى كُلِّ حَالٍ بِمُمَارَسَةِ الْعَمَلِ وَمُزَاوَلَةِ الصَّنْعَةِ، وَنَجِدُ أَهْلَ
صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ قَدْ وَقَفُوا عِنْدَ حَدٍّ مَخْدُودٍ وَنُقْطَةٍ مُعَيَّنَةٍ لَا
يَتَعَدَّوْنَهَا وَلَا يَتَخَطُّوْنَهَا، وَأَرْتَضَوْا لِهَذِهِ الصَّنَاعَةِ الْعَالِيَةِ
وَذَلِكَ الْعِلْمِ النَّفِيسِ أَنْ يَبْقَى عَلَى الضَّعْفِ وَالْخُمُولِ،
وَيُقِيمَ عَلَى التُّزُولِ وَالْهُبُوطِ.

وَلَا يُقَالُ هُنَا: إِنَّ قِلَّةَ الْفَائِدَةِ الْمَادِّيَّةِ مِنْ هَذِهِ
الصَّنَاعَةِ هِيَ الَّتِي تَصْرِفُ بِوُجُوهِ الطَّلَبَةِ عَنْ طَرِيقِ الْإِثْقَانِ

فِيهَا وَالتَّضَلُّعِ مِنْهَا، فَإِنَّهَا صِنَاعَةٌ عَامَّةٌ تُطَلَّبُ لِذَاتِهَا،
وَيَزْدَادُ بِهَا غَيْرُهَا مِنَ الصَّنَاعَاتِ، وَحُسْنُ النُّطْقِ وَالتَّغْيِيرِ
أَمْرٌ يَرْغَبُ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ، وَأَعْظَمُ وَجْوهِ التَّفَاضُلِ بَيْنَ
البَشَرِ تَنْصَرِفُ إِلَى قُوَّةِ الْبَيَانِ وَحُجَّةِ اللِّسَانِ.

وَلَيْسَ الاِشْتِغَالُ بِالصَّنَاعَاتِ الْآخَرَى الَّتِي يُطَلَّبُ بِهَا
الرِّزْقُ وَيُسْتَعَانُ بِهَا عَلَى كَسْبِ الْمَالِ لِسَدِّ حَاجَاتِ
الْمَعِيشَةِ مِمَّا يَمْنَعُ مِنْ مُمَارَسَةِ تِلْكَ الصَّنَاعَةِ الشَّرِيفَةِ
وَيُشْغِلُ النَّفْسَ عَنِ التَّحَلِّي بِمَزَايَاهَا الْجَلِيلَةِ، فَالْقَاضِي
يَحْتَاجُ إِلَيْهَا، وَالْمُحَامِي يَنْتَفِعُ بِهَا، وَالْحَاكِمُ لَا يَسْتَغْنِي
عَنْهَا، وَجَمِيعُ أَرْبَابِ الْوُظَائِفِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَالْمَنَاصِبِ
الْمُخْتَلِفَةِ لَا يَخْلُونِ مِنَ الرَّغْبَةِ فِيهَا، بَلْ لَوْ نَزَّلْنَا إِلَى بَقِيَّةِ
أَهْلِ الْحِرَفِ وَالْمِهَنِ مِنَ التُّجَّارِ وَالصُّنَّاعِ وَبَاعَةِ الْأَسْوَاقِ
لَوَجَدْنَاهُمْ يَتَطَلَّعُونَ إِلَى الْمُشَارَكَةِ فِيهَا وَيَتَمَنَّوْنَ الْحُظُوءَ
بِهَا، وَهُمْ فِي هَمِّ الْحِرْفَةِ وَكَدِّ الْمِهْنَةِ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ
الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْعُصُورِ السَّالِفَةِ يَكُونُ خَبَّازاً وَشَاعِراً
مُجِيداً، وَيَكُونُ جَزَّاراً، وَكَاتِباً أَدِيباً، وَيَكُونُ حَدَّاداً وَخَطِيباً
بَلِيغاً.

فَلَا يَكُونُ السَّبَبُ إِذْنٌ فِي أَنْحِطَاطِ صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ
وَالْتَّخْرِيرِ وَقَلَّةِ عَدَدِ الْمُشْتَغِلِينَ بِهَا؛ رَاجِعاً أَبَداً إِلَى ضَعْفِ

الفائدة المادية منها وتحويل النفوس عنها لالتماس الربح من وجوه الصناعات الأخرى، ولا لفقد الرغبة فيها لذاتها، فإنها زينة كل صانع، وحلية كل ناطق، وغرة كل علم وفن؛ وإنما السبب عند جمهور الباحثين هو سوء طريقة التعليم والتلقين للعلوم العربية بين طلبة المدارس وضعف العناية في اختيار الكتب النافعة للتدريس. وليس هذا في نظرنا السبب الوحيد لما نشاهد من التأخر والانحطاط في صناعة الإنشاء والتحرير وقلة العاملين فيها، فإنك مهما جئت به من التحسين والتعديل لطريقة التعليم لا ينفع في تربية ملكة الإنشاء في أذهان التلاميذ التي عليها المعول في حُسن الصناعة، لأن المدة لدرس اللغة العربية في المدارس لا تكفي لغير الحصول على أصول اللغة وقواعدها ولا تُفيد في تكوين الملكة لشيء صالح، ولا يخفى عن علمك أن الطالب يتجرع هذه القواعد والأصول في الدرس ولا يكاد يسيغها ولا يتناولها إلا كما يتناول المخموم مر الدواء، ولا تمكث في صدره إلا ريثما يمُجها عند أخذ الشهادة، وإن هي ثبتت في حفظه ورسخت في فكره، فلا تكون على صفحات قلبه إلا كما هي على صفحات الكتب، لا يذكرك وجوه استعمالاتها، ولا

يَعْلَمُ أَبْوَابَ التَّصَرُّفِ بِهَا وَالتَّطْبِيقِ عَلَيْهَا، فَإِذَا جِثَّتْ لَهُ
بِصَحِيفَةٍ مِنْ كِتَابٍ لَمْ يَتَوَقَّفْ فِي إِعْرَابِ أَلْفَاظِهَا عَلَى
وَجْهِ الإِحْكَامِ وَالصَّوَابِ، وَلَكِنَّكَ إِذَا طَلَبْتَ مِنْهُ أَنْ يَقْرَأَهَا
لَكَ سَرْدًا لَمْ يَسْلَمْ عَلَى لِسَانِهِ سَطْرٌ وَاحِدٌ فِيهَا مِنَ اللَّحْنِ،
وَإِذَا أَخَذَتْهُ عَلَى كِتَابَةٍ بِضَعَةٍ أَسْطُرٍ فِي أَيِّ شَأْنٍ كَانَ لَمْ
تَخْرُجْ مِنْ يَدِهِ خَالِيَةً مِنَ الْخَطَا.

عَلَى مِثْلِ هَذَا يَخْرُجُ الْمُتَخَرِّجُونَ فِي الْمَدَارِسِ،
سَوَاءَ الْفَائِزُ مِنْهُمْ بِالشَّهَادَةِ وَالْخَائِبُ فِيهَا، ثُمَّ يَنْصَرِفُ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَا يَنْصَرِفُ نَحْوُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَشْغَالِ
الَّتِي تُلْهِمُهُ عَنْ كُلِّ صَحِيفَةٍ وَكِتَابٍ، وَلَا يَجِدُ أَمَامَهُ مَجَالًا
لِنُمُو مَلَكَهَ الْإِنْشَاءِ، وَلَا فِي وَقْتِهِ مُتَسَعًا لِلانكِبابِ عَلَى
مُطَالَعَةِ الْكُتُبِ النَّافِعَةِ فِي إِتْقَانِ الصَّنَاعَةِ، وَلَا يَرَى بَيْنَ
يَدَيْهِ مَا يَبْعَثُ فِيهِ الشُّوقَ وَيُخَيِّبُ الرَّغْبَةَ لِمُمَارَسَتِهَا
وَمُزَاوَلَتِهَا، فَإِذَا هُوَ انْتَهَى فِي يَوْمِهِ مِنْ عَمَلِهِ إِلَى بَيْتِهِ
أَشْتَغَلَ فِيهِ بِأَهْلِهِ، وَإِذَا خَرَجَ إِلَى السُّوقِ أَشْتَغَلَ فِيهِ
بِالنَّاسِ، وَالنَّاسُ قَدْ أَضْبَحُوا جَمِيعًا فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ، وَهُمْ
مُتَوَاصِلِينَ مِنْ ضُرُوبِ هَذِهِ الْمَعِيشَةِ الْحَدِيثَةِ وَفُنُونِ الْمَدِينَةِ
الْحَاضِرَةِ، فَقَلَّ أَنْ تَرَى فِيهِمْ مَنْ يَجْلِسُ لِمُطَالَعَةِ
كِتَابٍ، أَوْ يَلْتَفِتُ إِلَى مُحَاضَرَةٍ فِي آدَبٍ، أَوْ يَخْفُلُ بِمُنَاطَرَةٍ

في فنٍّ، فيأخذ معهم في طريقهم، ويسير على نهجهم،
فتتلاشى منه ملكة العلوم بدل أن تنمو وتنقص رغبته فيها
بدل أن تزيد. والفكر إذا لم يجد ما ينبهه خمد، والذهن
إذا لم يصادف ما يحركه جمد.

أما إذا ما ابتلاه الله بالدخول في خدمة الحكومة،
فقل: يا ضيعة العلم والأدب! ويا بؤس صناعة الإنشاء
والتحرير! ويا زوال ملكة الإفصاح والتعبير! إذ يتلقى هناك
لساناً جديداً ولغةً حديثة لا يهتدي فيها إلى قاعدة ولا
ترتبط برابطة، ولا تفضل لغة البرابرة إلا بأنها تُسطر دونها
وتدوّن؛ فيضطر المسكين أن يمحو من ذهنه جميع ما
تعلمه وتلقاه من قواعد اللغة وأصولها، ويخمد الله في
نفسه على زوال الحاجة إليها وحسن خلاصه من عناء
التذكير لها وطول الاشتغال بها. ولو أنه ذهل يوماً وجاء
في بغض عمل بجملة صحيحة وعبارة مستقيمة في اللغة،
وانحرف عن ذلك اللسان المضطّح عليه شيئاً قليلاً
لأصبح عرضةً للتهكم عليه والاستهزاء به بين العمال،
فيعمد إلى التوبة من الذنب، ويمتنع عن معاودة الإثم،
ولا يجد له من سبيل إلا أن يجري معهم في مضمارهم،
ويأخذ بلسانهم، فيأمن من مكرهم.

فَأَنْتَ تَرَى عَلَى هَذِهِ الْحَالِ أَنَّ السَّبِيلَ إِلَى تَرْبِيَةِ
 مَلَكَهَ الْإِنْشَاءِ قَبْلَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ غَيْرُ مُيسَّرَةٍ، وَبَعْدَ
 الْخُرُوجِ مِنْهَا مُتَعَذِّرَةٌ، وَأَنَّ مُزَاوَلَةَ الْأَعْمَالِ وَمُخَالَطَةَ النَّاسِ
 تُعِينُ عَلَى زَوَالِهَا وَتَبْعَثُ عَلَى خُمُودِهَا. إِلَّا أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ
 لَدَيْنَا مَعَ ذَلِكَ بَابٌ كَانَ يُرْجَى مِنْهُ النَّجَاحُ فِي نُمُوِّ تِلْكَ
 الْمَلَكَهَ، وَالتَّدْرُجُ إِلَى إِتْقَانِ صِنَاعَةِ التَّخْرِيرِ، وَهُوَ بَابُ
 الصُّحُفِ وَالْجَرَائِدِ، فَإِنَّ النَّاسَ إِنْ كَانُوا قَدْ غَفَلُوا عَنْ
 مُطَالَعَةِ الْكُتُبِ وَأَهْمَلُوا النَّظَرَ فِي بُطُونِ الدَّفَائِرِ، فَإِنَّهُمْ
 اسْتَبَدَّلُوهَا فِي أَوْقَاتِ فَرَغِهِمْ بِمُطَالَعَةِ الْجَرَائِدِ الْمُنتَشِرَةِ
 عَلَى الْأَيْدِي فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَأَصْبَحَتِ الثُّفُوسُ مُتَوَلِّعَةً شَدِيدَةً
 التَّوَلُّعِ بِالْوُقُوفِ عَلَى أَخْبَارِهَا وَالتَّسَامُرِ بِأَقْوَالِهَا، وَصَارَتْ
 بَيْنَهُمْ شَيْئاً مِنْ لَوَازِمِ الْمَعِيشَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، لَا يَضْبِرُونَ
 عَنْهَا وَلَا يَسْتَغْنُونَ عَنْ تِلَاوَتِهَا، وَأَقَامُوهَا لَدَيْهِمْ مَقَامَ كُلِّ
 سِفْرِ وَكِتَابٍ، وَتَعَلَّقَتْ نُفُوسُهُمْ بِهَذَا الشَّيْءِ الْحَاضِرِ عَلَى
 الدَّوَامِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَكَانَ الْمَأْمُولُ أَنَّ طُولَ
 انْكِبَابِهِمْ عَلَى مُطَالَعَتِهَا عِنْدَ كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ يَنْتَهِي عَلَى
 مُرُورِ الزَّمَنِ فِيهِمْ بِاِكْتِسَابِ مَلَكَهَ الْإِنْشَاءِ وَسُرْعَةِ الْوُصُولِ
 إِلَى الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ فِي حُسْنِ التَّغْيِيرِ وَالتَّخْيِيرِ، وَلَكِنْ مِنْ
 سُوءِ الْحَظِّ أَنَّ الْجَرَائِدَ السَّائِرَةَ لَمْ تَلْتَفِتْ إِلَى هَذَا الْغَرَضِ

الجليل، وَلَمْ تَعْمَلْ لِهَذَا الْمَقْصِدِ النَّبِيلِ، وَلَمْ يَرِ أَرْبَابُهَا أَنْ
يَتَعَبُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَكْذُبُوا خَوَاطِرَهُمْ لِلتَّفَنُّنِ فِي بَلَاغَةِ الْقَوْلِ
وَفَصَاحَةِ التَّعْبِيرِ وَانْتِقَاءِ الْأَلْفَاظِ وَتَنْوِيعِ التَّرْكِيبِ وَتَجْدِيدِ
الْأُسْلُوبِ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ الَّتِي
تُشَوِّقُ النُّفُوسَ، وَتَطْرِبُ إِلَيْهَا الْقُلُوبَ، وَتَأْخُذُ بِمَجَامِعِ
اللُّبِّ، وَيَلْطَفُ تَنَاوُلُهَا عَلَى الْمَلَكَاتِ، وَتَحْنُ الْقَرَائِحُ إِلَى
اِقْتِبَاسِهَا وَتَخْرِصُ الْأَذْهَانَ عَلَى اقْتِنَائِهَا، فَتَتَوَلَّعُ النُّفُوسُ
بِمَحَبَّةِ الاِشْتِغَالِ بِهَا، وَتَنْصَرِفُ الْأَفْكَارُ إِلَى التَّرَقِّي فِي
مَرَاقِبِهَا، وَتَتَكَوَّنُ فِيهَا مِنْ إِذْمَانِ الْمُطَالَعَةِ بِضَاعَةً نَفِيسَةً
تَذْهَبُ بِالنَّاسِ إِلَى طَلَبِ التَّزْيِيدِ مِنْهَا، فَيَخْلُو لَهُمُ الرُّجُوعُ
إِلَى مُرَاجَعَةِ كُتُبِ الْأَقْدَمِينَ وَيَلْذُّ لَهُمْ صَرْفُ أَوْقَاتِهِمْ فِي
اجْتِنَاءِ ثَمَرَاتِهَا، وَيَنْتَهِي بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى التَّوَعُّلِ فِي أَبْوَابِ
الصَّنَاعَةِ وَالْوُصُولِ إِلَى جَمِيلِ الْإِحْسَانِ، وَالِإِثْقَانِ فِيهَا،
فَيَنْبَغُ فِيهِمُ النَّوَابِغُ مِنَ الْفُصَحَاءِ وَالْبُلْغَاءِ، وَيَكْثُرُ بَيْنَنَا عَدِيدُ
الْكِتَابِ وَالْأَدْبَاءِ.

بَلْ رَأَيْنَا أَرْبَابَ الْجَرَائِدِ قَدْ وَقَفُوا هُمْ أَيْضًا فِي بَابِ
التَّخْرِيرِ عِنْدَ حَدِّ مَخْدُودٍ، وَقَعَدُوا عِنْدَ نُقْطَةِ مُعَيَّنَةٍ، وَدَارُوا
بِأَقْلَامِهِمْ فِي دَائِرَةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَلَا يَتَوَسَّعُونَ
فِيهَا، وَكَادُوا يَصِلُونَ فِي وَخْدَةِ التَّعْبِيرِ، وَاضْطِلَاحِ التَّخْرِيرِ،

وَتَكَرِيرِ الْجُمَلِ وَالْأَلْفَاظِ بِعَيْنِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَفِي كُلِّ
بَابٍ، إِلَى مُصْطَلَحٍ مِنَ اللُّغَةِ يُشَابِهُ مُصْطَلَحَ لُغَةِ الْحُكُومَةِ،
وَإِنَّمَا يَفْضُلُهُ بِسَلَامَتِهِ مِنَ اللَّحْنِ وَخَذَهُ عَلَى وَجْهِ عَامٍّ. وَقَدْ
صَارَتْ تِلْكَ الْجُمَلُ وَالتَّرَاكِيِبُ الْمُعَيَّنَةُ لِطُولِ إِعَادَتِهَا
وَتَكَرُّرِهَا رَاسِخَةً ثَابِتَةً فِي جَمِيعِ الْأَذْهَانِ، فَلَا يَشْتَغِلُ فِكْرُ
كَاتِبِهَا فِي تَسْطِيرِهَا، وَلَا يَخْتَاجُ جَامِعُ حُرُوفِهَا إِلَى
مَرَاجَعَتِهَا، وَلَا يُمْعِنُ قَارِئُهَا بِنَظَرِهِ فِي مُطَالَعَتِهَا، فَهِيَ
مُشْتَرَكَةٌ فِي الْأَذْهَانِ، وَمُتَمَثِّلَةٌ لِلْأَنْظَارِ، وَقَدْ أَهْتَدَى بَعْضُ
أَصْحَابِ الْمَطَابِعِ إِلَى سَبْكِ كَثِيرٍ مِنْ تِلْكَ الْجُمَلِ
وَالْمُرَكَّبَاتِ قِطْعَةً وَاحِدَةً فِي قَوَالِبٍ مِنْ نُحَاسٍ تَخْفِيفاً
لِلْعَمَلِ وَاسْتِزْبَاحاً لِلْوَقْتِ. وَإِذَا شَعَرَ أَرْبَابُ الْجَرَائِدِ يَوْماً
بِهَذَا الْإِخْلَالِ وَالْإِفْسَادِ فِي الصَّنَاعَةِ، قَالُوا: إِنَّ لَنَا فِيهِ عُذْراً
وَاضِحاً وَشَفِيعاً ظَاهِراً، وَهُوَ أَنَّنَا إِذَا سَلَكْنَا طَرِيقَ التَّفَقُّنِ
وَالْإِبْدَاعِ فِي التَّخْرِيرِ وَالْإِنْشَاءِ عَسَرَ عَلَى الْقُرَّاءِ فَهَمُّ مَا
نَكْتُبُهُ لَهُمْ، فَلَا يَسْتَرِيحُونَ إِلَى الْمُطَالَعَةِ، وَلَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ
الْمَوَاضِعِ، فَتَنَحْنُ مُضْطَرُّونَ إِلَى الْوُقُوفِ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ
الْبَسِيطِ. وَفَاتَهُمْ أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْكُتَّابِ الْمُجِيدِينَ الَّذِينَ
يَضَعُونَ أَنْفُسَهُمْ أَمَامَ الْقَارِئِ فِي مَوْضِعِ الْهَادِي وَالْمُرْشِدِ
وَمَقَامِ الْمُرَبِّيِّ وَالْمُعَلِّمِ أَنْ يَرْتَفِعُوا بِذِهْنِ الْقَارِئِ إِلَى دَرَجَةِ

أَذْهَانِهِمْ، لَا أَنَّهُمْ يَنْزِلُونَ بِأَفْكَارِهِمْ إِلَى دَرَجَةِ أَفْكَارِهِ.

نَقْدُ الدُّرَّةِ الْيَتِيمَةِ

«للشيخ إبراهيم [بن ناصيف] اليازجي»

[١٢٦٣ - ١٣٢٤ هـ - ١٨٤٧ - ١٩٠٦ م]

أُهِدِيَتْ إِلَيْنَا نُسخةٌ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْأَيُّقَةِ، وَهِيَ مِنْ تَأْلِيفِ الْكَاتِبِ الْبَلِيعِ الْمَشْهُورِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ، أَوْدَعَهَا فُنُونًا مِنَ الْحِكْمَةِ وَآدَابِ الْمُخَالَقَةِ وَالْمُعَاشَرَةِ، وَمَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَزَيَّا بِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ فِي مُصَاحَبَةِ الْحُكَّامِ، وَمَخَالَةِ الْأَصْدِقَاءِ، وَمُدَارَةِ الشَّائِئِينَ وَالْحُسَّادِ، وَمَا يَسْلُكُهُ مِنَ الطَّرِيقِ لِاتِّقَاءِ الْأَعْدَاءِ وَأَصْحَابِ الطَّوَائِلِ، وَالتَّسَبُّبِ إِلَى النَّيْلِ مِنْهُمْ، وَرَدِّ كَيْدِهِمْ إِلَيْهِمْ. وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا لَقَّنَتْهُ التَّجَرِبَةُ، وَأَعَانَتْهُ عَلَيْهِ الْحِنَكَةُ، وَأَرْشَدَهُ إِلَيْهِ ذِكَاؤُ قَلْبِهِ، وَتَوَصَّلَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ النَّقْدِ وَالِاعْتِبَارِ، وَتَتَبَعَ الْأُمُورَ بِالنَّظَرِ الصَّادِقِ وَالْقَلْبِ الْحَافِظِ، بَحَيْثُ كَانَ لَا تَمُرُّ بِهِ وَاقِعَةٌ وَلَا يَجْرِي أَمَامَهُ أَمْرٌ إِلَّا تَمَثَّلَ فِيهِ عِبْرَةٌ، وَانْتَزَعَ مِنْهُ حِكْمَةً، وَاسْتَفَادَ بِهِ بَصِيرَةً، فَأَتَى فِي عَامَّةِ الْكِتَابِ بِمَا لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَجْمَعْهُ مِنْ قَبْلِهِ جَامِعٌ. وَلَا غَرْوَ أَنْ يَصْدُرَ مِثْلُ ذَلِكَ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الْكَبِيرِ عَلَى مَا أَشْهُرَ بِهِ مِنْ سَعَةِ

عَقْلِهِ، وَيُبْعِدُ نَظْرَهُ، وَغَزَارَةَ عِلْمِهِ، وَقُوَّةَ عَارِضَتِهِ، وَمَا عُرِفَ بِهِ مِنْ بِلَاغَةِ الْكَلَامِ، وَسِحْرِ الْبَيَانِ، وَالْحِكْمَةِ الرَّائِعَةِ؛ وَكَيْفَ لَا وَهُوَ مُعَرَّبُ كِتَابِ «كَلِيلَةِ وَدِمْثَةِ» الْمَشْهُورِ الَّذِي لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ كَسَاهُ مِنْ دِيبَاجَةٍ لَفُظِهِ وَوَشْيِ بَيَانِهِ مَا كَانَ بِهِ نَسِيجَ وَخْدِهِ فِي التَّصَانِيفِ الْعَرَبِيَّةِ فَضْلاً عَنِ الْمُعَرَّبَةِ، وَمَا لَا يَزَالُ بِهِ عَلَى الدَّهْرِ جَدِيداً لَا تَبْلِيهِ اللَّيَالِي وَلَا تُغَيِّرُهُ الْأَيَّامُ لَكِفَاهُ دَلِيلاً عَلَى غَزَارَةِ فَضْلِهِ وَرَاسَتِهِ بَيْنَ أَرْبَابِ الْبِلَاغَةِ وَأُمَرَاءِ الْإِنْشَاءِ.

وَلَا بَأْسَ أَنْ نُورِدَ هُنَا لَمَعَةً يَسِيرَةً فِي الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ كَلَامِهِ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَعِبَارَتِهِ فِي تَغْرِيبِ «كَلِيلَةِ وَدِمْثَةِ» لَا نَقْصِدُ بِذَلِكَ غَيْرَ فَائِدَةِ النَّقْدِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ اسْتِخْرَاجِ الْحَقَائِقِ وَإِرْشَادِ الْبَصَائِرِ، فَإِنَّ مَنْ تَتَبَعَ الْكِتَابَيْنِ بِالنَّظَرِ النَّقَّادِ، وَتَصَفَّحَ أُسْلُوبَهُمَا بِالدُّهْنِ الشَّفَافِ، وَاعْتَبَرَ بَعْضَهُمَا بِبَعْضٍ، فَلَا جَرَمَ أَنَّهُ يَرَى كَلَامَهُ فِي «كَلِيلَةِ وَدِمْثَةِ» أَخْلَصَ أَلْفَظاً، وَأَنْقَى دِيبَاجَةً، وَأَنْصَعَ أَلْوَاناً، وَأَشَدَّ أَنْسِجَاماً، حَتَّى تَرَى عِبَارَتَهُ هُنَاكَ جَوْهَراً صَافِياً، وَنَسْقاً مُطَرِّداً لَا يَتَوَقَّفُ دُونَهَا الْفَهْمُ، وَلَا تُجْهَدُ عِنْدَهَا الرُّوْيَةُ، وَلَا يَغْتَرِضُ بَيَانُهُ فِيهَا لَبْسٌ وَلَا إِشْكَالٌ. وَإِذَا أَعْتَبَرَ كَلَامَهُ فِي «الدُّرَّةِ» وَجَدَ كَثِيراً مِنْهُ غَيْرَ خَالِصٍ مِنَ التَّعْقِيدِ

وَالْأَضْطِرَابِ، قَلِقَ الْأُسْلُوبُ، صَغِبَ الْاسْتِخْرَاجُ، غَيْرَ
نَضِيجٍ عَلَى الْجُمْلَةِ، وَلَا مُنْقَحِ الْعِبَارَةِ. بَلَى! إِنَّ النَّسِيجَ فِي
كِلَا الْكِتَابَيْنِ وَاحِدٌ، وَطَبَقَةُ الْكَلَامِ لَا تَخْتَلِفُ، وَلَكِنَّ هُنَاكَ
مِنْ الْإِنْدِمَاجِ وَالسَّلَاسَةِ وَاتِّقْيَادِ الْأَغْرَاضِ وَأَضْطِرَادِ السَّبَبِ
مَا لَا تَجِدُهُ هُنَا. وَلَعَلَّ ذَلِكَ إِذَا تَتَبَّعْتَ أَسْبَابَهُ وَارِدٌ مِنْ
كَثْرَةِ تَدَاوُلِ الْأَيْدِي لِذَاكَ دُونَ هَذَا، فَكَانَ مِثْلُهُ مِثْلَ الدِّينَارِ
الَّذِي كَثُرَ التَّعَامُلُ بِهِ وَطَالَ تَنَقُّلُهُ مِنْ يَدٍ إِلَى يَدٍ حَتَّى
أَزَالَتْ الْأَيْدِي حُرْشَتَهُ وَعَادَ أَمْلَسَ نَاعِمًا. وَذَلِكَ أَنَّ كِتَابَ
«كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ» قَدْ رُزِقَ مِنَ الشُّهُرَةِ وَالْأَسْتِخْسَانِ وَإِجْمَاعِ
الْعُقُولِ عَلَى إِثَارِهِ مَا لَمْ يُرْزَقْهُ كِتَابٌ فِي بَابِهِ، وَهُوَ إِلَى
الْيَوْمِ أَشْهُرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمٍ. وَلَا تَكَادُ تَرَى مُتَأَدِّبًا إِلَّا
وَقَدْ أَطْلَعَ عَلَيْهِ وَشَغِفَ بِهِ، وَطَالَمَا كَانَ مَوْضِعَ أَرْتِيَاكِ
لِلْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْأَدَبَاءِ، وَقَدْ كَثُرَتْ عِنَايَتُهُمْ بِهِ،
وَحَدِّمُوهُ خِدْمَةً لَمْ يُخْدَمْهَا كِتَابٌ، فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ
أَنْتَسَخَهُ أَوْ اسْتَنْسَخَهُ، فَضَلًّا عَمَّنْ نَظَّمَهُ مِنْ شُعْرَائِهِمْ، فَكَانَ
النَّاسِخُ مِنْ أَهْلِ الذَّوْقِ وَالْبَصْرِ بِالْإِنْشَاءِ إِذَا رَأَى فِيهِ مَنْقَفًا
أَزَالَهُ أَوْ أَوْدَأَ أَقَامَهُ، فَلَمْ يُغَادِرُوا فِيهِ عِبَارَةً نَافِرَةً وَلَا لَفْظَةً
قَلِيقَةً وَلَا تَرْكِيبًا ثَقِيلًا، بِحَيْثُ إِنَّهُ عَلَى تَمَادِي الزَّمَنِ وَتَكَرُّرِ
النُّسخِ تَمَّ تَهْذِيبُهُ وَتَنْقِيحُهُ. وَالَّذِي يَدُلُّكَ عَلَى صِحَّةِ مَا

نَقُولُ أَنَّكَ لَا تَكَادُ تَجِدُ نُسخَتَيْنِ مِنْهُ تَتَوَاطَأَنِ عَلَى لَفْظٍ
وَاحِدٍ، حَتَّى أَنْ دُسَاسِي كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ سَبْعُ نُسخٍ مِنْهُ، كُلُّ
وَاحِدَةٍ مَبَايِنَةٌ لِلْأُخْرَى. وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ هَذَا
الْكِتَابِ وَلَا يَغُضُّ مِنْ قَدْرِ مُعَرِّبِهِ شَيْئاً، إِذِ الْكَلَامُ لَا يَزَالُ
كَلَامَهُ، وَالْأُسْلُوبُ أُسْلُوبَهُ، وَبِمُقَابَلَتِهِ «الدُّرَّة» الَّتِي نَحْنُ فِي
الْكَلَامِ عَلَيْهَا يَظْهَرُ لَكَ مُصَدِّقُ ذَلِكَ، وَتَرَى أَنَّ دِيبَاجَتَهُ
مَعَ مَا تَبَدَّلَ عَلَيْهَا مِنَ النُّقُوشِ وَالزُّخَارِفِ لَمْ يَتَبَدَّلْ مَثْنُهَا
وَلَا تَتَكَرَّرَ لَوْنُهَا، وَلَكِنَّهَا مَا زَالَتْ تُعَرِّفُ لِأَوَّلِ لَمَحَةٍ لَا
تَغِيبُ عَنْ مَعْرِفَةِ النَّاقِدِ وَتُمَيِّزُ الْعَارِفِ.

عَلَى أَنَا لَا تُنْكِرُ أَنَّ أَكْثَرَ مَا فِي عِبَارَةِ «الدُّرَّة» مِنْ
السُّقْمِ وَالْأَضْطِرَابِ إِنَّمَا وَرَدَ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ النُّسَاحِ، وَشَتَّى
مَا بَيْنَ صَنِيعِهِمْ هُنَا وَصَنِيعِهِمْ هُنَاكَ، وَلَكِنْ كُلُّ نَاسِخٍ إِنَّمَا
فَعَلَ بِمِقْدَارِ عِلْمِهِ، فَإِنَّ الَّذِينَ نَسَخُوا هَذِهِ الرُّسَالَهَ لَمْ
يَعْدُوا فِي الْأَكْثَرِ حَالَ سَائِرِ النَّاسِخِينَ مِمَّنْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِمَا
يَنْسَخُونَ. وَالَّذِينَ تَوَلَّوْا نَسْخَ «كَلِيلَةِ وَدِئْنَةِ» كَانَ الْكَثِيرُونَ
مِنْهُمْ مِنْ فُحُولِ أَهْلِ الْإِنْشَاءِ وَالْمَعْرِفَةِ بِأَسْرَارِ اللُّغَةِ
وَأَسَالِيبِ الْكَلَامِ، فَلَا عَجَبَ أَنْ جَاءَ كُلُّ مَنْ نَسَخَ الْكِتَابَيْنِ
عَلَى مَا وَصَفْنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَإِبْتِائاً لِمَا ذَكَرَ، وَتَنْزِيهاً لِعَهْدِ الْمُؤَلِّفِ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا

جاء في هذه الرسالة، ننقل هنا بعض المواضع التي أشرنا إليها مما أفسده تحريف النساخ وما لعله اجتمع إليه من أغلاط الطبع التي هي فاشية في كتبنا العربية، لا يكاد يسلم منها كتاب. والتي هي ولا جرم أعظم ضربة على المصنفين والكتاب.

فمن ذلك ما جاء في صفحة ٩، وهي الصفحة الأولى من الرسالة: «غير أن الذي نجد في كتبهم هو المنتحل في آرائهم والمنتقى من أحاديثهم» فإن قوله: «المنتحل في آرائهم» غريب في هذا الموضع، لا يستقيم له معنى، ولا هو مما يَحْتَمِلُهُ سياق الكلام، وصوابه: «المتخل» بالخاء المعجمة، وهو بمعنى المنتقى الوارد بعد مع تبديل لفظ «في» بلفظ «من»، وهو الوجه السديد الذي لا غبار عليه كما ترى.

ومن ذلك في صفحة ١٠: «في تحرير صنوف العلم وتقسيم أقسامه وتجزئة أجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مآخذهم» فإن هذه المخالفة في صيغ الضمائر لا وجه لها، بل منها ما يفسد المعنى كما ترى، والوجه إيرادها جميعاً بلفظ التذكير والإفراد عوداً على العلم.

وفي صفحة ١١: «وَأَعْلَمَ أَنَّ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يُبْتَلَى
الرَّجُلُ بِهَا (أي: بِالْإِمَارَةِ)، فَيُرِيدُ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ سَاعَاتِ
نَصَبِهِ وَعَمَلِهِ، فَيَزِيدُهَا فِي سَاعَاتِ دَعْتِهِ وَشَهْوَتِهِ» فَقَوْلُهُ:
«مِنَ الْعَجَبِ» لَا مَعْنَى لَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ كَمَا تَرَى، وَلَا مَا
ذَكَرَهُ بَعْدَهُ مِمَّا فِيهِ عَجَبٌ، إِذْ أَكْثَرَ النَّاسِ عَلَى هَذَا السَّبِيلِ
مِنْ إِشَارَةِ الدَّعَةِ وَاللَّذَةِ. بَلِ الْأَظْهَرُ أَنَّ الْأَصْلَ: «مِنَ
الْعَجْزِ» فَأَبْدَلَهُ النَّاسِخُ سَهْوَاً أَوْ عَمْدًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَى
الْعَجْزِ هُنَا، وَهُوَ نَقِيضُ الْجُرْأَةِ. فَأَنْثَلَمَ بِذَلِكَ الْمَعْنَى،
وَتَشَوَّهَتْ صُورَتُهُ كَمَا تَرَى.

وفي صفحة ١٣: لِثَلَا يَنْتَشِرُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَجْتَرِيءُ بِهِ
سَفِيهٌ أَوْ يَسْتَخِفُّ لَهُ شَأْنٌ، وَلَا مَعْنَى لِلشَّانِ هُنَا كَمَا تَرَى،
وَالصَّوَابُ: «شَانِيءٌ».

وفي الصَّفْحَةِ نَفْسِهَا: «وَأَعْلَمَ أَنَّكَ مَا شُغِلْتَ مِنْ
رَأْيِكَ بِغَيْرِ الْمُهِمِّ أَزَرَى بِالْمُهِمِّ» شُكِّلَتْ الشَّيْنُ مِنْ
«شُغِلْتَ» بِالضَّمِّ فَتَنَكَّرَ الْمَعْنَى وَأَضْطَرَبَتْ سِلْسَلَةُ الْكَلَامِ،
لَأَنَّ «مَا» صَارَتْ عَلَى هَذَا شَرْطِيَّةً زَمَانِيَّةً، وَالْمَقْصُودُ أَنْ
تَكُونَ أَسْمًا مَوْصُولًا يَرْجِعُ إِلَيْهِ ضَمِيرٌ مَحذُوفٌ بَعْدَ
«شُغِلْتَ» وَذَلِكَ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ بَعْدُ: «وَمَا صَرَفْتُ مِنْ
مَالِكَ بِالْبَاطِلِ فَقَدْتَهُ حِينَ تُرِيدُهُ لِلْحَقِّ، وَمَا عَدَلْتُ بِهِ مِنْ

كَرَامَتِكَ إِلَى أَهْلِ النَّقْصِ أَضَرَّ بِكَ فِي الْعَجْزِ عَنْ أَهْلِ
الْفَضْلِ».

وَفِي صَفْحَةِ ١٦ : «لَا يُلُومَنَّ الْوَالِي عَلَى الزَّلَّةِ مَنْ
لَيْسَ بِمُتَّبِعِهِمْ عَلَى الْحِرْصِ عَلَى رِضَا» وَالصَّوَابُ : «فِي
الْحِرْصِ».

وَفِي صَفْحَةِ ١٨ : «لَا يَعْرِفَنَّ الْوَلَاةُ بِالْهَوَى فِي بَلَدَةٍ
مِنَ الْبُلْدَانِ وَلَا قَبِيلَةٍ مِنَ الْقَبَائِلِ، فَيُوشِكُ أَنْ تَحْتَاجَ فِيهَا
إِلَى حِكَايَةٍ، أَوْ مُشَاهَدَةٍ، فَتُتَّهَمُ فِي ذَلِكَ» وَفِيهِ خَطَأٌ يَعْلَمُ
أَلَّهُ مَكَانَهُ، وَإِلَّا فَهَذَا الْكَلَامُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَصْدُرَ عَنْ قَلَمِ
الْمُؤَلِّفِ. ثُمَّ إِنَّ قَوْلَهُ : «فِي بَلَدَةٍ مِنَ الْبُلْدَانِ» فِيهِ تَخْرِيفٌ
بِزِيَادَةِ التَّاءِ عَلَى «بَلَدَةٍ» لِأَنَّ فَعْلَةً لَا تَجْمَعُ عَلَى فُعْلَانِ،
وَإِنَّمَا الْبُلْدَانُ جَمْعُ بَلَدٍ، مِثْلُ حَمَلٍ وَحُمْلَانِ، وَجَمْعُ الْبَلَدَةِ
بِلَادٌ.

وَفِي صَفْحَةِ ٢٠ : «لَا تَخْضِرَنَّ عِنْدَ الْوَالِي كَلَاماً لَا
يَغْنِي وَلَا يُؤْمَرُ بِحُضُورِهِ إِلَّا لِعِنَايَةٍ بِهِ أَوْ يَكُونُ جَوَاباً
بِالشَّيْءِ سُئِلَتْ عَنْهُ» وَفِي هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْاضْطِرَابِ
وَالِإِبْهَامِ مَا لَا يَخْفَى، وَلَا تُعَيِّنُ حُرُوفُهُ عَلَى مَعْرِفَةِ أَصْلِهِ،
بَيِّنَ أَنْ قَوْلَهُ : «جَوَاباً بِالشَّيْءِ» فِيهِ تَكَرُّرُ حَرْفَيْنِ، وَصَوَابُهُ :
«جَوَاباً لِشَيْءٍ».

وَمِثْلُهُ فِي صَفْحَةِ ٢٢: «إِذَا قَالَ لَكَ السَّائِلُ: مَا إِيَّاكَ سَأَلْتُ، أَوْ قَالَ لَكَ الْمَسْئُولُ عِنْدَ الْمَسْأَلَةِ يُعَادِلُهُ بِهَا دُونُكَ».

وَفِي صَفْحَةِ ٢٤: «فَلَيْسَتْ عَلَيْهِ مَوْوَنَةٌ فِي تَبَدُّلٍ يَتَبَدَّلُ لَهُ عِنْدَهُ» وَفِيهِ زِيَادَةٌ لَامٍ، وَالصَّوَابُ: «يَتَبَدَّلُ عِنْدَهُ»..
وَفِي الصَّفْحَةِ نَفْسِهَا بَعْدَ مَا ذَكَرَ: «أَوْ رَأَى يَسْتَنْزِلُهُ مِنْهُ» وَالصَّوَابُ: «يَسْتَنْزِلُهُ».

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي الْكِتَابِ ذَاهِبَةٌ كُلُّ مَذْهَبٍ مَا بَيْنَ نَقْصٍ وَتَبْدِيلٍ وَإِحَالَةٍ لِبَعْضِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ مِمَّا تَنَكَّرَتْ بِهِ صُورُ التَّرَاكِبِ وَالتَّبَسُّتِ وَجُوهُ الْمَعَانِي وَذَهَبَ مَا فِيهِ مِنَ الْفَصَاحَةِ وَالسَّبْكِ. وَأَنْتَ خَبِيرٌ بِأَنَّ مَا يَوْصَفُ مِنَ الْكُتُبِ بِالسُّقْمِ وَالْغَثَائَةِ أَوْ بِالتَّكْلُفِ وَالتَّعْقِيدِ، لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ تَكُونَ كُلُّ عِبَارَةٍ فِيهِ كَذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْجُمْلَةَ الْوَاحِدَةَ، بَلْ اللَّفْظَةَ الْوَاحِدَةَ فِي الصَّفْحَةِ إِذَا نَزَلَتْ فِي غَيْرِ مَنَزِلِهَا، فَقَدْ تَكُونُ كَافِيَةً لِأَنْ تَخْدِشَ رَوْنَقَهَا وَتُسَوِّهَ سَائِرَ مَا فِيهَا مِنَ الْمَحَاسِنِ، كَالْوَجْهِ الْجَمِيلِ إِذَا كَانَ عَلَى إِحْدَى عَيْنَيْهِ كَوَكَبٌ، أَوْ فِي إِحْدَى وَجْنَتَيْهِ قَرْحَةٌ، فَقَدْ تَنَبَّرَ الْعَيْنُ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ سَائِرُهُ سَلِيمًا لَا عَيْبَ فِيهِ.

لَا جَرَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمِمَّا يَشْعُرُ لَهُ بِالْأَسْفِ كُلُّ مَنْ

عَانِي هَذَا الشَّأْنَ، أَيْ شَأْنَ الْكِتَابَةِ وَالتَّأْلِيفِ، وَتُمَثِّلُ مَا بَدَلَ
 الْمُؤَلَّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْإِغْرَاقِ فِي النَّظَرِ وَتَحَرُّيْ مِنْ
 الصُّحَّةِ وَالْإِحْكَامِ فِي وَضْعِ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي هُوَ نَتِيجَةُ
 تَجَارِبِهِ وَثَمَرَةُ عَقْلِهِ وَمَعْرِضُ بَيَانِهِ. وَكَمْ مِثْلُهُ مِنَ السَّلَفِ
 مِمَّنْ لَوْ عَادُوا الْيَوْمَ وَعَايَنُوا مَا صَارَتْ إِلَيْهِ مُصَنَّفَاتُهُمْ، وَمَا
 مُنِيتَ بِهِ مِنْ صُنُوفِ الْجَدْعِ وَالصَّلَمِ لَتَمَنَّوْا أَنَّهُمْ لَمْ يُجْرُوا
 فِيهَا قَلَمًا وَلَمْ يُعْمَلُوا فِيهَا فِكْرًا.

قَالَ اللَّهُ أَيُّهَا النَّاسُ فِي أَمَانَاتِ أَوْلِيكَ الْأَقْوَامِ! إِنَّكُمْ كُنْتُمْ
 عَلَيْهَا أَنْتُمْ الْمُؤْتَمَنِينَ، وَإِنَّهُمْ لَيَسُوا بِشَاهِدِي أَمْرِكُمْ،
 فَأَرْحَمُوهُمْ! إِنَّهُمْ كَانُوا لِلرَّحْمَةِ أَهْلًا، وَكَانُوا مِنَ الْمُحْسِنِينَ.
 وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا وَقَعَ إِلَيْكُمْ مِنْ تِلْكَ الْأَوْرَاقِ لَيْسَ بِمَا أَنْبَتَهُ
 التُّرَابُ، وَسَقَاهُ السَّحَابُ، وَأَنْضَجَتْهُ الشَّمْسُ وَالضَّبَابُ.
 وَلَكِنَّهُ بِمَا أُضْنِيَتْ فِيهِ الْأَجْسَادُ، وَأُفْنِيَتْ الْعُيُونُ بِالسُّهَادِ،
 وَصُدِّعَتْ لِأَجَلِهِ الرُّؤُوسُ، وَأُذِيَّتِ الْأَذْمِغَةُ عَلَى صَفْحَاتِ
 الطُّرُوسِ. وَإِنَّهُ لِمِمَّا بِيَعَتْ بِهِ الْأَعْمَارُ، فَلَا تَبِيعُوهُ بِنِعِ
 الرَّخِيسِ؛ وَبُذِلَتْ لِأَجَلِهِ الدُّنْيَا، وَهِيَ أَحَقُّ مَا ضَنَّ بِهِ
 حَرِيصٌ. وَإِنَّمَا فَعَلَ أَرْبَابُهُ ذَلِكَ بُغْيَةَ الذِّكْرِ حَتَّى إِذَا فَنِيَتْ
 أَغْيَانُهُمْ عَاشُوا بِالْأَثَرِ. وَلَكِنِّي يُعْرِفُوا بِصُورِ عُقُولِهِمْ إِذَا
 ذَهَبَتِ الْأَجْسَادُ وَبَقِيَتْ بَيْنَ أَيْدِينَا مِنْهُمْ تِلْكَ الصُّورُ. تَاللَّهِ مَا

الْأَرْضَةُ الَّتِي تَأْكُلُ الْكِتَابَ فَتُمَزَّقُهُ بَدَادًا، وَلَا النَّارُ الَّتِي تَحْرِقُهُ
فَتُصِيرُهُ إِلَى الرَّمَادِ، وَلَا الْمَاءُ الَّذِي يُغْرِقُهُ فَيَضْرِبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْوُجُودِ بِالْأَسْدَادِ؛ بِأَضَرَّ عَلَيْهِ مِمَّنْ يُحَرِّفُ عِبَارَاتِهِ، وَيُبَدِّلُ
حَسَنَاتِهِ، وَيَنْسُخُ مُحَاسِنَ آيَاتِهِ. وَإِنَّ ذَهَابَ الْكِتَابِ جُمْلَةً
بِدَاهِيَةٍ مِنْ نَوَازِلِ الْقَدَرِ، وَضِيَاعَ فَضْلِ مُؤَلِّفِهِ وَمَا يَرْجُو أَنْ
يُبْقِيَ بِهِ مِنْ جَمِيلِ الْأَثَرِ؛ لَأَهْوَنُ عَلَى قَلْبِهِ مِنْ أَنْ يُنْشَرَ بَعْدَهُ
بَيْنَ أَيْدِي النَّاقِدِينَ، وَقَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُيُوبِ مَا يَجْعَلُهُ
عُرْضَةً لِلْمُفَنِّدِينَ، وَغَرَضًا لِسِهَامِ الْمُتَنَدِّدِينَ.

عَصَمَنَا اللَّهُ مِمَّا تَزِلُّ بِهِ أَقْلَامُنَا، إِنَّهَا الزَّلَّةُ الْبَاقِيَةُ
عَلَى كُرُورِ اللَّيَالِ؛ وَكَفَانَا شَرَّ مَنْ يُفْسِدُ آثَارَنَا مِنْ بَعْدِنَا،
إِنَّهُ كَفَى الْعَبْدَ مَا يَتَوَقَّعُ مِنْ فُسَادِ كَيَانِهِ وَمَصِيرِهِ إِلَى
الْإِنْجِلَالِ؛ وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَكِيلًا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

جَوْهَرُ الشُّعْرِ

«لأبراهيم بك [ابن عبد الخالق] المونيلجي»

[١٢٦٢ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٦ - ١٩٠٦ م]

تَمْضِي الْقُرُونُ وَالْدُّهُورُ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ الشُّعْرَ
وَيَنْشُدُونَهُ وَيَسْمَعُونَهُ وَيَشْرَحُونَهُ وَيَنْقُدُونَهُ، وَهُمْ مَذَاهِبُ
شَتَّى فِي تَغْرِيفِهِ، فَإِذَا بَحَثَ الْبَاحِثُ فِي أَقْوَالِهِمْ لَمْ يَقِفْ

مِنْهَا عَلَى تَعْرِيفٍ لِلشُّعْرِ تَرْتَاخُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ. وَالْبَاحِثُونَ
الْمُدَقِّقُونَ يَنْظُرُونَ إِلَى الشُّعْرِ وَتَأْثِيرِ وَقْعِهِ فِي النَّفْسِ مِنْ
وَجْهَيْنِ: مِنْ حَيْثُ هُوَ كَلَامٌ مَوْزُونٌ، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ حَالَةٌ
مِنْ حَالَاتِ النَّفْسِ.

أَمَّا الْوَزْنُ، فَهُوَ تَأْلِيفُ عِدَّةِ أَصْوَاتٍ عَلَى نَمَطٍ نَحْسُ
بِهَا الْأَذُنُ صَوْتًا إِثْرَ صَوْتٍ، حَتَّى إِذَا آتَتْ عَلَى الْآخِرِ
مِنْهَا تَذَكَّرَتْ أَوَّلَهَا، وَاسْتَخْلَصَتْ مِنْ هَذَا وَخْدَةً تَلْتَقِطُهَا
دَفْعَةً وَاحِدَةً، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ فِي عُرْفِ الْمُوسِيقِيِّينَ
بِالتَّنْسِيقِ وَالْإِنْسِجَامِ. وَهُوَ فِي تَأْلِيفِ الْأَصْوَاتِ لِحَاسَةِ
الْأَذُنِ يُمَاطِلُ التَّعَادُلَ وَالتَّوَافُقَ بَيْنَ أَشْكَالِ الْأَجْسَامِ لِحَاسَةِ
الْبَصَرِ؛ فَالْبَيْتُ الْمَوْزُونُ ظَرْفٌ مُوسِيقِيٌّ فِي الشُّعْرِ كَقَصَبَةِ
النَّافِخِ فِي آلَاتِ الطَّرَبِ.

وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ هُوَ حَالَةٌ مِنْ حَالَاتِ النَّفْسِ، فَنَقُولُ:
إِنَّ فِي النَّفْسِ مَسْحَةً عُلوِيَّةً هِيَ الْجَمَالُ وَالْبَهَاءُ الْبَاطِنِيُّ
تَظْهَرُ عَلَيْهَا عِنْدَ صَفَاءِ النَّفْسِ وَخُلُوعِهَا مِنْ شَوَائِبِ الْأَكْدَارِ،
وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ لَا يَنْتَابُهَا إِلَّا حِينًا بَعْدَ حِينٍ ظَنَّتْهُ شَيْئًا
طَارِئًا عَلَيْهَا مِنَ الْخَارِجِ، فَلِهَذَا نَسَبَ الْقُدَمَاءُ تَجَلِّيَ ذَلِكَ
الْبَهَاءِ وَالْجَمَالِ إِلَى أَرْوَاحِ أُخْرَى تَمْتَرِجُ بِالنَّفْسِ. فَكَانَ
شُعْرَاءُ الْيُونَانِيِّينَ وَالرُّومَانِيِّينَ يُسَمُّونَهَا (الموز) (Les)

(Muses) وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْهَةِ الشُّعْرِ، وَطالما كانوا يَسْتَدْعُونَهَا
عِنْدَ إِرَادَةِ قَوْلِ الشُّعْرِ، وَهَذَا (هومير) و(ازيوت)
و(سيمونيد) و(سفوكل) و(أوريبيد) و(فرجيل) و(الكريس)
و(هوراس): كُلُّهُمْ يُنَادُونَ تِلْكَ الْآلِهَةَ وَيَسْتَعِينُونَ بِهَا عَلَى
زَعْمِهِمْ فِي مَطَالِحِ قَصَائِدِهِمْ كَمَا تَرَاهُ فِي شِعْرِهِمْ.

وَمَذْهَبُ الْعَرَبِ فِي أَنَّ لِكُلِّ شَاعِرٍ شَيْطَانًا يُلْقِي إِلَيْهِ
الشُّعْرَ مَذْهَبٌ مَشْهُورٌ، وَالشُّعْرَاءُ كَافَّةً عَلَيْهِ. قَالَ بَعْضُهُمْ
[من الرجز]:

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ صَغِيرَ السِّنِّ
وَكَانَ فِي الْعَيْنِ نُبُوٌّ عَنِّي
فَإِنَّ شَيْطَانِي أَمِيرُ الْجِنِّ
يَذْهَبُ بِي فِي الشُّعْرِ كُلِّ فَنٍّ
وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ شَاعِرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ [من المتقارب]:

إِذَا مَا تَرَعَرَعَ فِينَا الْغُلَامُ
فَمَا إِنْ يُقَالَ لَهُ مَنْ هُوَ
إِذَا لَمْ يَسُدَّ قَبْلَ شَدِّ الْإِزَارِ
فَذَلِكَ فِينَا الَّذِي لَا هُوَ

وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي الشَّيْصَبَانِ
فَطَوَّراً أَقُولُ وَطَوَّراً هُوَّةُ

وَكَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ أَسْمَ شَيْطَانِ الْأَعْشَى : مِسْحَلٌ
وَأَسْمَ شَيْطَانِ الْمُخَبَّلِ : عَمْرُو، قَالَ الْأَعْشَى [من الطويل]:
دَعَوْتُ خَلِيلِي مِسْحَلًا وَدَعُّوا لَهُمْ
جِهَنَّمَ جَذْعًا لِلْهَجِينِ الْمُذَمِّمِ

وَقَالَ آخَرُ [من الطويل]:
لَقَدْ كَانَ جَنِّي الْفِرَزْدَقِ قُدْوَةً
وَمَا كَانَ فِينَا مِثْلُ فَخْلِ الْمُخَبَّلِ
وَلَا فِي الْقَوَافِي مِثْلُ عَمْرُو وَشَيْخِهِ
وَلَا بَعْدَ عَمْرُو شَاعِرٌ مِثْلُ مِسْحَلِ

وَقَالَ أَبُو النَجْمِ [من الطويل]:
إِنِّي وَكُلُّ شَاعِرٍ مِنَ الْبَشَرِ
شَيْطَانُهُ أَنْثَى وَشَيْطَانِي ذَكَرٌ

وَأَنشَدَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ الرَّجَّازِ [من الرجز]:
إِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتُونِي أَرْبَعَةً
فِي غَلَسِ اللَّيْلِ وَفِيهِمْ زَوْبَعَةٌ

وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ يَصِفُ قَصِيدَةً لَهُ [من البسيط]:

كَأَنَّهَا الذَّهَبُ الْعِقْيَانُ حَبَّرَهَا

لِسَانُ أَشْعَرٍ خَلَقَ اللَّهُ شَيْطَانًا

فَإِذَا تَجَلَّى جَمَالُ الرُّوحِ فِي الْإِنْسَانِ، وَصَفَتْ نَفْسُهُ،
وَكَانَتْ مُمْتَلِئَةً مِنْ قَبْلِ بِأَطْرَافِ الْمَعَارِفِ وَالْفُنُونِ مُطْلَعَةً
عَلَى التَّوَارِيخِ وَالْحَوَادِثِ وَالْقِصَصِ وَالْمُحَاضِرَاتِ وَالنُّكَاتِ
وَبَدَائِعِ الْمَشَاهِدِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالصَّنَاعِيَّةِ، وَكَانَ لَهَا مِنَ التَّجَارِبِ
نَصِيبٌ وَافِرٌ، وَكَانَ لَهَا وَقُوفٌ عَلَى مُخْتَلِفِ الطُّبَاعِ
وَالْأَخْلَاقِ؛ فَاضَتْ مِنْهَا الْمَعَانِي الْبَدِيعَةُ، فَإِذَا وَضَعَهَا فِي
الْأَلْفَافِ الْمُحْكَمَةِ الَّتِي لَا تَطُولُ الْمَعْنَى وَلَا تَقْصُرُ عَنْهُ،
فَأَفْرَعَهَا فِي قَالِبِ الْوِزْنِ، اجْتَمَعَ حُسْنُ الْمَعْنَى مَعَ انْسِجَامِ
الْلَفْظِ فِي انْسِجَامِ الْوِزْنِ، فَذَلِكَ هُوَ بَيْتُ الشُّعْرِ.

وَالشُّعْرُ هُوَ إِظْهَارُ مَا خَفِيَ مِنَ الْحَقَائِقِ الْمَعْنَوِيَّةِ
وَتَوْضِيحُهَا لِلْسَّامِعِ تَوْضِيحًا يُجَلِّيْهَا عَلَيْهِ بِوُجُوهِ مُخْتَلِفَةٍ
وَتَجْدِيدِ مَا أُخْلِقَ تَكَرَّارَ النَّظَرِ إِلَيْهِ بِهَاءَهُ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ
كَمَا قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ فِي وَضْفِ الْأَسِنَّةِ الَّتِي يَرَاهَا الْإِنْسَانُ
كُلَّ سَاعَةٍ [من الطويل]:

وَمَسْنُونَةٍ زُرْقٍ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالٍ

فَكَسَاهَا كِسَاءً قَشِيباً مِنَ التَّائِيرِ، وَجَعَلَ لِبَهِائِهَا فِي
النَّفْسِ سُلْطَاناً جَدِيداً. وَلَوْ خَيْرَتِ الْحَقِيقَةُ أَنْ تُشْرِفَ عَلَى
النَّاسِ مِنْ أَجْمَلِ مَكَانٍ لَمَا اخْتَارَتْ إِلَّا أَنْ تُشْرِفَ عَلَيْهِمْ
مِنْ بَيْتِ الشَّعْرِ [مِنَ الْبَسِيطِ]:

وَالْحُسْنُ يَظْهَرُ فِي شَيْئَيْنِ رَوْنَقُهُ

بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ

وعلى ذلك، فالشَّعْرُ مَوْجُودٌ فِي غَرِيزَةٍ كُلِّ إِنْسَانٍ،
وَكُلِّ إِنْسَانٍ شَاعِرٍ، وَلَيْسَ كُلُّ نَازِمٍ شَاعِراً، وَيُوجَدُ الشَّعْرُ
فِي الْمَثُورِ كَمَا يُوجَدُ فِي الْمَنْظُومِ إِذَا نَشَأَ عَنْهُ تَأْثِيرٌ فِي
النَّفْسِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا نَرَاهُ مِنَ الشَّعْرِ فِي كَلَامِ الْبَدَوِيِّ،
وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مِقْدَارِ غَرَامِهِ بِصَاحِبَتِهِ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَرَى
الْقَمَرَ عَلَى جِدَارِهَا أَحْسَنَ مِنْهُ عَلَى جُذُرَانِ النَّاسِ. وَكَقَوْلِ
الْآخَرِ: مَا زِلْتُ أَرِيهَا الْقَمَرَ حَتَّى إِذَا غَابَ أَرْتِنِيهِ. وَكَمَا
نَرَاهُ فِي قِصَّةِ مُحَمَّدٍ الْغَزْنَويِّ، وَقَدْ فَتَحَ بِلْدَاءً، فَجَاءَ أَهْلُهَا
يَطْلُبُونَ مِنْهُ أَنْ لَا يَكْسِرَ أَصْنَامَهُمْ، وَعَرَضُوا عَلَيْهِ مَالاً
عَظِيماً، فَاسْتَشَارَ بَعْضَ خَاصَّتِهِ، فَأَشَارُوا عَلَيْهِ أَنْ يَبِيعَهَا
مِنْهُمْ إِلَّا وَاحِداً قَالَ لَهُ: أَتَرِيدُ أَنْ يَقَالَ بَعْدُكَ أَنْ إِبْرَاهِيمَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ كَاسِرُ الْأَصْنَامِ وَمَخْمُودَ بَائِعُ الْأَصْنَامِ؟ فَقَعَلْتُ
هَذِهِ الْكَلِمَةَ فِي نَفْسِهِ فِعْلاً رَفَضَ بِهِ مَا كَانَ مُحْتَاجاً إِلَيْهِ

مِنْ تِلْكَ الْكُنُوزِ الَّتِي عَرَضُوهَا عَلَيْهِ.

وَمِنْ الْمَوْزُونِ مَا لَيْسَ بِشَعِيرٍ كَمَا نَرَاهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ
الْقَصَائِدِ الَّتِي يُقَيَّدُ فِيهَا أَرْبَابُهَا أَلْفَاظًا بِقُيُودِ الْوَزْنِ، فَيَضَعُونَ
فِي ذَلِكَ الظَّرْفِ الْمُسِيْقِي مَا يَذْهَبُ بِحُسْنِ أَنْسِجَامِهِ، كَمَا
يَتَوَضَّحُ ذَلِكَ جَلِيًّا فِي أَشْعَارِ الْمُتُونِ الَّتِي رَبَطُوا بِهَا قَوَاعِدَ
الْعُلُومِ بِالْوَزْنِ لِيَسْهَلَ حِفْظُهَا وَسِوَاهَا مِنْ نَظْمِ الشُّعْرَاءِ
الَّذِينَ لَمْ يَكْمُلِ الْاِسْتِعْدَادُ فِي نُفُوسِهِمْ لِسُلْطَانِ الشَّعْرِ.

وَضَفُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ

«لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ عَبْدُهُ»^(١)

أَوْفَى لِي حُكْمُ الْقَدَرِ بِالْإِطْلَاعِ عَلَى كِتَابِ «نَهْجِ
الْبَلَاغَةِ» صُدْقَةً بِلاَ تَعْمَلِ، أَصَبَتْهُ عَلَى تَغْيِيرِ حَالِ، وَتَبَلُّلِ

(١) «الشيخ محمد عبده [حسن خير الله] [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ =

١٨٤٩ - ١٩٠٥ م].

هُوَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَكْتُبُ الْعُلَمَاءِ، وَأَعْلَمُ الْكِتَابِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، بَلْ
لَا أَعْرِفُ فَقِيهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ دَوْلَةِ الْأُتَمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي صَدْرِ
الْإِسْلَامِ أَقْدَرُ مِنْهُ عَلَى الْكِتَابَةِ الْأَدَبِيَّةِ، وَلَهُ فِي كِتَابَتِهِ مَزِيَّةُ الْعُلُوِّ
وَالْمَتَانَةِ وَسَعَةُ الْمَادَةِ اللَّغَوِيَّةِ وَالْاِقْتِدَارُ عَلَى الْحِجَّةِ الَّتِي لَا
تُدْفَعُ.

بال، وتزاحم أشغال، وعطلة من أعمال. فحسبته تسليّة،
وحيلة للتخليّة؛ فتصفحت بغض صفحاته، وتأملت جملاً
من عباراته؛ من مواضع مختلفات، ومواضيع متفرقات،
وكان يخيل لي في كل مقام أن حروباً شبت، وغارات
شنت، وإنّ للبلاغة دولة، ولل فصاحة صولة؛ وإنّ للآوهم
عرامة^(١)، وللريب دعارة^(٢)؛ وإنّ جحافل الخطابة، وكتائب
الذّابة؛ في عقود النظام، وصفوف الانتظام؛ تنافح بالصفيح
الأبلج^(٣)، والقويم الأملج^(٤)؛ وتمتليج^(٥) المهج، بروائع
الحجج؛ وتفلّ دعارة الوسوس، وتصيب مقاتل
الخوائس^(٦)؛ فما أنا إلاّ والحق منتصر، والباطل منكسر؛
ومرج الشك في خمود، وهزج الريب في ركود؛ وأنّ مدبر
تلك الدولة، وباسل تلك الصولة؛ هو حامل لوائها
الغالب، أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب؛ بل كنت كلّما

(١) العرامة: الشراسة.

(٢) الدعارة: سوء الخلق.

(٣) الصفيح: السيف؛ والأبلج: اللامع البياض.

(٤) الرّمح الأملج: الأسمر.

(٥) تمتليج: تمتص.

(٦) الخوائس: خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء.

أَنْتَقَلْتُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ أَحْسُ بِتَغْيِيرِ الْمَشَاهِدِ،
 وَتَحَوُّلِ الْمَعَاهِدِ؛ فَتَارَةً كُنْتُ أَجِدُنِي فِي عَالَمٍ يَغْمُرُهُ مِنَ
 الْمَعَانِي أَرْوَاحٌ عَالِيَةٌ، فِي حُلَلٍ مِنَ الْعِبَارَاتِ الزَّاهِيَةِ؛
 تَطُوفُ عَلَى النُّفُوسِ الزَّاكِيَةِ، وَتَذْنُو مِنَ الْقُلُوبِ الصَّافِيَةِ؛
 تُوجِي إِلَيْهَا رَشَادَهَا، وَتُقَوِّمُ مِنْهَا مُنَادَهَا؛ وَتَنْفِرُ بِهَا عَنْ
 مَدَاحِصِ الْمَزَالِ، إِلَى جَوَادِّ الْفَضْلِ وَالْكَمَالِ؛ وَطَوْرًا كَانَتْ
 تَتَكَشَّفُ لِي الْجُمْلُ عَنْ وُجُوهِ بَاسِرَةٍ، وَأَنْيَابٍ كَاشِرَةٍ
 وَأَرْوَاحٍ فِي أَشْبَاحِ النُّمُورِ، وَمَخَالِبِ النُّسُورِ؛ وَقَدْ تَحَفَّزَتْ
 لِلِوَثَابِ، ثُمَّ انْقَضَتْ لِلاِخْتِلَابِ؛ فَخَلَبَتْ الْقُلُوبَ عَنْ
 هَوَاهَا، وَأَخَذَتْ الْخَوَاطِرَ دُونَ مَرَمَاهَا؛ وَأَغْتَالَتْ فَاسِدَ
 الْأَهْوَاءِ، وَبَاطَلَ الْأَرَائِ؛ وَأَخْيَانًا كُنْتُ أَشْهَدُ أَنَّ غَفْلًا
 نُورَانِيًّا، لَا يُشْبِهُ خَلْقًا جَسَدَانِيًّا؛ فَصَلَ عَنِ الْمَوَكِبِ الْإِلَهِيِّ،
 وَاتَّصَلَ بِالرُّوحِ الْإِنْسَانِيِّ؛ فَخَلَعَهُ عَنْ عَاشِيَاتِ الطَّبِيعَةِ
 وَسَمَا بِهِ إِلَى الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى، وَنَمَا بِهِ إِلَى مَشْهَدِ النُّورِ
 الْأَجَلِيِّ؛ وَسَكَنَ بِهِ إِلَى عَمَارِ جَانِبِ التَّقْدِيرِ، بَعْدَ
 اسْتِخْلَاصِهِ مِنْ شَوَائِبِ التَّلَاسِيسِ؛ وَأَنَاتٍ كَأَنِّي أَسْمَعُ خَطِيبَ
 الْحِكْمَةِ، يُنَادِي بِأَعْلِيَاءِ الْكَلِمَةِ، وَأَوْلِيَاءِ أَمْرِ الْأُمَّةِ؛ يُعَرِّفُهُمْ
 مَوَاقِعَ الصُّوَابِ، وَيُبَصِّرُهُمْ مَوَاضِعَ الْارْتِيَابِ، وَيُحَذِّرُهُمْ

مَزَالِقَ الاضطرابِ؛ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى دَقَائِقِ السِّيَاسَةِ، وَيَهْدِيهِمْ
طَرِيقَ الْكِيَاسَةِ، وَيَرْتَفِعُ بِهِمْ إِلَى مِنْصَّاتِ الرَّأْسَةِ؛ وَيُضْعِدُهُمْ
شَرَفَ التَّدْبِيرِ، وَيُشْرِفُ بِهِمْ عَلَى حُسْنِ الْمَصِيرِ.

بَابُ الْأَخْبِ وَالْإِثْمَةِ

قِسْمُ الْمَنْظُومِ

الكَرَمُ

«لحاتم الطائي»^(١)

[الطويل]

أَمَاوِيَّ إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحُ
 وَيَبْقَى مِنَ الْمَالِ الْأَحَادِيثُ وَالذُّكْرُ
 أَمَاوِيَّ إِنِّي لَا أَقُولُ لِسَائِلٍ
 إِذَا جَاءَ يَوْمًا حَلٌّ فِي مَالِنَا النَّذْرُ
 أَمَاوِيَّ إِمَّا مَانِعٌ فَمُبَيِّنٌ
 وَإِمَّا عَطَاءٌ لَا يُنْهِنُهُ الرَّجْرُ
 أَمَاوِيَّ إِنَّ يُضْبِحَ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ
 مِنَ الْأَرْضِ لَا مَاءَ لَدَيَّ وَلَا خَمْرُ
 تَرَى أَنَّ مَا أَنْفَقْتُ لَمْ يَكْ ضَرَّرَنِي
 وَأَنَّ يَدِي مِمَّا بَخِلْتُ بِهِ صِفْرُ

(١) «حاتم [بن عبد الله] الطائي» [.... - ٤٦ ق.هـ = - ٥٧٨ م.].

هُوَ أَحَدُ شُعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ الْمُجِيدِينَ، وَأَكْثَرُ شِعْرِهِ فِي تَأْيِيدِ ذَلِكَ
 الْخُلُقِ الْعَظِيمِ، خُلُقِ الْجُودِ وَالْإِحْسَانِ الَّذِي كَانَ مُتَجَمِّلاً بِهِ.

الإيثارُ

«لحاتم الطائي أيضاً»

[الطويل]

وَمَا أَنَا بِالسَّاعِي بِفَضْلِ زَمَامِهَا
لِتَشْرَبَ مَاءَ الْحَوْضِ قَبْلَ الرِّكَايِبِ

وَمَا أَنَا بِالطَّائِي حَقِيبَةً رَخِلَهَا
لَأُبْعَثَهَا خَفًا^(١) وَأَتْرُكَ صَاحِبِي

إِذَا كُنْتُ رَبًّا لِلْقُلُوصِ فَلَا تَدْعُ
رَفِيقَكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبٍ

أَنْخَهَا فَأَزْدِفُهُ فَإِنْ حَمَلْتُكُمْ
فَذَاكَ وَإِنْ كَانَ الْعِقَابُ^(٢) فَعَايِبِ

(١) يُقَالُ: خَفَّ فِي سَفَرِهِ خَفًّا: إِذَا قَلَّ ثِقْلُهُ.

(٢) يُقَالُ: عَاقَبَ فُلَانٌ فُلَانًا فِي الرَّاحِلَةِ: إِذَا رَكِبَ هُوَ مَرَّةً وَرَكِبَ
الْآخَرُ أُخْرَى.

ذَمُّ الْغَيْبَةِ

«كَغَبِ بْنِ زُهَيْرٍ»^(١)

[السريع]

مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا
 أَسْرَعُ مِنْ مُنْخَذِرِ سَائِلِ
 وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ
 ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ^(٢)

ذَمُّ الْغَيْرَةِ

«لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ»

[السريع]

مَا أَحْسَنَ الْغَيْرَةَ فِي حِينِهَا
 وَأَقْبَحَ الْغَيْرَةَ فِي كُلِّ حِينٍ

(١) «كَغَبِ بْنِ زُهَيْرٍ» [...] - ٢٦هـ = [...] - ٦٤٥م].

هُوَ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ الْمُخَضَّرِمِينَ، وَصَاحِبُ اللَّامِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي
 مَدَحَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَهِيَ إِخْدَائُ الْمَشُوبَاتِ، وَقَدْ وَرِثَ الشُّعْرَ
 عَنْ أَبِيهِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ أَحَدِ أَصْحَابِ الْمُعَلَّقَاتِ.

(٢) [وتنسب هذه الأبيات أيضاً إلى عبد الله بن محمد، ابن المعتز]

[٢٤٧ - ٢٩٦هـ = ٨٦١ - ٩٠٩م].

مَنْ لَمْ يَزَلْ مُتَّهِماً عِرْسَهُ
 مُنَاصِباً فِيهَا لِرَيْبِ الظُّنُونِ
 أَوْشَكَ أَنْ يُغْرِبَهَا بِالَّذِي
 يَخَافُ أَنْ يُبْرِزَهَا لِلْعُيُونِ
 حَسْبُكَ مِنْ تَخْصِيْنِهَا وَضَعُهَا
 مِنْكَ إِلَى عِرْضِ صَاحِبِ وَدَيْنِ
 لَا تَطْلِعْ مِنْكَ عَلَى رَيْبَةٍ
 فَيَتَّبَعَ الْمَقْرُونُ حَبْلَ الْقَرِينِ^(١)

فَضْلُ الْأَنَاةِ

«الْقُطَامِي»^(٢)

[البسيط]

لَيْسَ الْجَدِيدُ مُقِيماً فِي بَشَاشَتِهِ
 إِلَّا قَلِيلاً وَلَا ذُو خُلَّةٍ يَصِلُ

(١) جَمَعَتْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ الْقَلِيلَةَ جَمِيعَ مَا تَفَرَّقَ فِي كِتَابَاتِ الْكِتَابِ
 الْاجْتِمَاعِيِّينَ الَّذِينَ يُنْشِئُونَ الْمَقَالَاتِ وَيُدَوِّنُونَ الْكُتُبَ فِي هَذَا
 الْمَعْنَى الصَّغِيرِ، وَهُوَ أَنَّ السَّبِيلَ الْوَحِيدَ إِلَى عِفَّةِ الْمَرْأَةِ
 وَاسْتِقَامَتِهَا عِفَّةُ زَوْجِهَا وَاسْتِقَامَتُهُ، وَأَنَّ سُوءَ الظَّنِّ بِهَا أَكْبَرُ
 بَاعِثٍ لَهَا عَلَى الْوُقُوعِ فِيهَا أَتَاهَتْ بِهِ.

(٢) «الْقُطَامِي» [يَفْتَحِ الْقَافَ وَضَمُّهَا] [...] - ... - نَحْوُ ١٣٠ هـ = ... -

وَالْعَيْشُ لَا عَيْشَ إِلَّا مَا تَقَرُّ بِهِ
عَيْنٌ وَلَا حَالٌ إِلَّا سَوْفَ تَنْتَقِلُ

وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَائِلُونَ لَهُ
مَا يَشْتَهِي وَلِأَمِّ الْمُخْطِئِ الْهَبْلُ^(١)

قَدْ يُذْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ
وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

= هو عمرو بن نُيَيْم [بل عُمَيْر بن سُيَيْم] التَّغْلِبِيُّ، كَانَ نَضْرَانِيًّا،
مُعَاصِرًا لِلْأَخْطَلِ، وَلَهُ شِعْرٌ يُعَدُّ مِنَ الطَّبَقَةِ الْأُولَى، وَهُوَ أَحَدُ
أَصْحَابِ الْمَشُوبَاتِ، وَمَشُوبَتُهُ مَطْلَعُهَا:

إِنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الظَّلَلُ

وَإِنْ بَلِيَّتْ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطُّوَلُ

(١) يَتَضَمَّنُ هَذَا الْبَيْتُ أَصْدَقَ حَقِيقَةٍ مِنْ حَقَائِقِ رُوحِ الْاجْتِمَاعِ،
وَهِيَ أَنَّ النَّاسَ يَجْرُونَ فِي الْحُكْمِ عَلَى الرِّجَالِ عَلَى أَحْكَامِ
الْمَصَادِفَاتِ وَالْإِتِّفَاقَاتِ، فَمَنْ سَاعَدَهُ الْحِظُّ فَتَنَجَّحَ فَهُوَ عِنْدَهُمْ
أَعْقَلُ النَّاسِ، وَإِنْ كَانَ أَجْهَلَهُمْ؛ وَمَنْ هَفَا فِي حَيَاتِهِ هَفْوَةً فَخَابَ
فِي عَمَلِهِ فَهُوَ عِنْدَهُمْ أَجْهَلُ النَّاسِ، وَإِنْ كَانَ أَعْقَلَهُمْ.

السَّعَادَةُ

«لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ»

[لِسَبِّهِ بَغْضُهُمْ لِحِصَانِ بْنِ ثَابِتٍ]

[الطويل]

وَلَيْسَ الْغِنَى وَالْفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَى
وَلَكِنْ أَحَاطَ قُسْمَتْ وَجُدُودُ

إِذَا الْمَرْءُ أَغْيَثَهُ الْمُرُوءَةُ نَاشِئاً
فَمَطْلَبُهَا كَهْلًا عَلَيْهِ شَدِيدٌ^(١)

وَكَأَيُّ^(٢) رَأَيْنَا مِنْ غِنَى مُذَمَّمٍ
وَصُغْلُوكِ قَوْمَ مَاتَ وَهُوَ حَمِيدُ

وَإِنَّ أَمْرًا يُنْسِي وَيُضْبِحُ سَالِمًا
مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَعِيدُ

(١) يُشِيرُ فِي هَذَا الْبَيْتِ إِلَى قَاعِدَةٍ مِنْ قَوَاعِدِ التَّرْبِيَةِ، وَهِيَ أَنَّ التَّرْبِيَةَ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ فِي زَمَنِ الصِّغَرِ فَقَلَمًا تُفِيدُ بَعْدَ ذَلِكَ.

(٢) [فِي الْأَصْلِ: وَكَائِنْ].

كَرَمُ الضِّيَافَةِ

«لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ»

[الطويل]

أُضَاجِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ
وَيَخْضُبُ عِنْدِي وَالْمَحَلُّ جَدِيدُ
وَمَا الْخِضْبُ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَى
وَلَكِنَّمَا وَجْهُ الْكَرِيمِ خَصِيبُ

التَّجَلُّدُ

«لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ»

[البسيط]

قَدْ عِشْتُ فِي النَّاسِ أَطْوَاراً عَلَى طُرُقِ
شَتَّى وَقَاسَيْتُ فِيهَا اللَّيْنَ وَالْفِظْعَا
لَا يَمْلَأُ الْهَوَلَ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ
وَلَا أَضِيقُ بِهِ دَرْعاً إِذَا وَقَعَا

القنَاعَةُ

«لِلْعَتَّابِي»^(١)

[الطويل]

تَلُومٌ عَلَى تَرْكِ الْغِنَى بِاهِلِيَّةٍ
 زَوَى^(٢) الْفَقْرُ عَنْهَا كُلَّ طَرْفٍ وَتَالِدٍ
 رَأَتْ حَوْلَهَا النُّسْوَانَ يَرْفُلْنَ فِي الثَّرَى
 مُقَلَّدَةً أَغْنَاقُهَا بِالْقَلَائِدِ
 أَسْرَكَ أَنِّي نِلْتُ مَا نَالَ جَفَفَرٌ
 مِنْ الْعَيْشِ أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ
 وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْصَنِي^(٣)
 مُغْصَّهْمَا بِالْمُرْهَفَاتِ الْبَوَارِدِ
 دَعَيْنِي تَجْنِنِي مِيتَتِي مُظْمِنَةٌ
 وَلَمْ أَتَجَسَّمْ هَوْلَ تِلْكَ الْمَوَارِدِ

(١) «العتَّابي» [.... - ٢٢٠هـ = - ٨٣٥م].

هو كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو، أَحَدُ مَشْهُورِي الشَّعْرَاءِ فِي عَصْرِ الرَّشِيدِ
 الْعَبَّاسِيِّ وَأَوْلَادِهِ، وَشِعْرُهُ لَا يَرْتَقِي إِلَى الْجِيدِ وَلَا يَنْحَطُّ إِلَى
 الرَّدِيِّ.

(٢) زَوَى الشَّيْءَ عَنْهُ: نَحَاهُ وَصَرَفَهُ.

(٣) أَغْصَنَهُ بِكَذَا: جَعَلَهُ يَغْصُ بِهِ.

رَأَيْتُ رَفِيعَاتِ الْأُمُورِ مَشُوبَةً

بِمُسْتَوْدَعَاتِ فِي بُطُونِ الْأَسَاوِدِ^(١)

مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ

«لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ»

[الطويل]

يُعَاتِبُنِي فِي الدِّينِ قَوْمِي وَإِنَّمَا

دُيُونِي فِي أَشْيَاءٍ تُكْسِبُهُمْ حَمْدًا

أَسْدُ بِهِ مَا قَدْ أَخْلَوْا وَضَيَّعُوا

تُغَوِّرَ حُقُوقِي مَا أَطَاقُوا لَهَا سَدًّا

وَفِي جَفْنَةٍ مَا يُغْلَقُ الْبَابُ دُونَهَا

مُكَلَّلَةٍ لَحْمًا مُدْفَقَةً ثُرْدَا^(٢)

وَفِي فَرَسٍ نَهْدٍ عَتِيقٍ^(٣) جَعَلْتُهُ

حِجَابًا لِبَيْتِي ثُمَّ أَخْدَمْتُهُ عَبْدًا

وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي

وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جَدًّا

(١) الأساود: نوعٌ من الحيات.

(٢) الجفنة: القصة؛ والثرد، جمع ثريد.

(٣) الفرس النهْد: القوي؛ والعتيق: الكريم.

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لِحُومَهُمْ
وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا

وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ
وَإِنْ هُمْ هَوُوا غَيْبِي هَوَيْتُ لَهُمْ رُشْدًا

وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَخْسٍ تَمُرُّ بِي
زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدًا^(١)

وَلَا أَخِمْ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ
وَلَيْسَ رَئِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا

لَهُمْ جُلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غَنَى
وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أَكْلِفْهُمْ رِفْدًا^(٢)

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ نَازِلًا
وَمَا شِيْمَةٌ لِي غَيْرُهَا تُشْبِهُ الْعَبْدَا

(١) يريد أنهم إذا أرادوا به شرّاً أراد بهم خيراً.

(٢) الرّفْدُ: العطاء.

الصَّفْحُ وَالْإِغْضَاءُ

«الشَّارِيفُ الرَّضِيُّ»^(١)

[الطويل]

وَكَمْ صَاحِبٍ كَالرُّمَحِ زَاغَتْ كُغُوبُهُ^(٢)

أَبَى بَعْدَ طُولِ الْغَمْرِ أَنْ يَتَقَوَّما

تَقَبَّلْتُ مِنْهُ ظَاهِرًا مُتَبَلِّجًا

وَأَذْمَجَ دُونِي بَاطِنًا مُتَجَهِّمًا^(٣)

وَلَوْ أَنَّنِي كَشَفْتُهُ عَنْ ضَمِيرِهِ

أَقَمْتُ عَلَى مَا بَيْنَنَا الْيَوْمَ مَأْتَمًا

(١) «الشَّارِيفُ الرَّضِيُّ» [محمد بن الحسين] [٣٥٩ - ٤٠٦ هـ =

٩٧٠ - ١٠١٥ م].

هُوَ أَحَدُ شُعْرَاءِ الطَّبَقَةِ الْأُولَى، وَلَهُ فِي شِعْرِهِ مَذْهَبٌ خَاصٌّ بِهِ
لَمْ يَتَّبِعْ فِيهِ أَحَدًا، قَدْ جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْبَدَاوَةِ وَالْحَضَارَةِ وَالْجَلَالِ
وَالْجَمَالِ، وَإِنْ صَحَّ أَنَّ لَهُ فِي كِتَابِ «نَهْجِ الْبَلَاغَةِ»، شَيْئًا كَثِيرًا،
كَانَ أَكْتَبَ الْكِتَابِ، كَمَا أَنَّهُ أَشْعَرُ الشُّعْرَاءِ.

(٢) زَاغَ: مَالٌ؛ وَكُغُوبُ الرُّمَحِ: عُقْدُهُ.

(٣) تَجَهَّمَهُ: اسْتَقْبَلَهُ بِوَجْهِ كَرِيهٍ.

دَعِ الْمَرْءَ مَظْهُوياً عَلَى مَا ذَمَّتْهُ
وَلَا تَنْشُرِ الدَّاءَ الْعُضَالَ فَتَنْدَمَا
إِذَا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْلَمَكَ إِلَّا قَطَعْتَهُ
عَلَى مَضَضٍ لَمْ تُبْقِ لَحْماً وَلَا دَمَا

أَدَبُ الْحَدِيثِ

«لَأَبِي تَمَامٍ»

[الكامل]

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبْتُهُ
وَجَهِلْتُ كَانَ الْجِلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ
وَإِذَا طَرَبْتُ إِلَى الْمُدَامِ شَرِبْتُ مِنْ
أَخْلَاقِهِ وَسَكِرْتُ مِنْ آدَابِهِ
وَتَرَاهُ يُضْغِي لِلْحَدِيثِ بِقَلْبِهِ
وَيَسْمَعُهُ وَلَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ^(١)

(١) في هذا البيت أدب رقيق من آداب العشرة قل من الناس من يستطيع الصبر عليه، ولا أعرف في الرياء نوعاً مستحسناً غير هذا النوع.

الرِّيَاءُ

«لَا تَبِ الرُّومِي»

[السريع]

أَعْلَمُ بِأَنَّ النَّاسَ مِنْ طِينَةٍ
يَضْدُقُ فِي الثَّلَبِ لَهَا الثَّالِبُ
لَوْلَا عِلَاجُ النَّاسِ أَخْلَاقُهُمْ
إِذَا لَفَّاحَ الْحَمَأُ اللَّازِبُ^(١)

الْعِفَّةُ

«لَيْلَى الْأَخْيَلِيَّة»^(٢)

[الطويل]

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لَا تَبُخْ بِهَا
فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَّتْ سَبِيلُ

(١) الْحَمَأُ: الطِّينُ الْمُتَتِنُ؛ وَاللَّازِبُ: اللَّاصِقُ الْمُتَدَاخِلُ.

(٢) «لَيْلَى [بنت عبد الله] الْأَخْيَلِيَّة» [...] نحو ٨٠ هـ = ... - نحو

[٧٠٠ م].

لا شكَّ أَنَّهَا وَالْخَنَسَاءُ أَشْعَرُ الشَّوَاعِرِ، وَلَلَّيْلَى مِنَ الشُّعْرِ فِي
الْمَدِيحِ وَالْغَزَلِ مَا يُشْبِهُ شِعْرَ الرِّجَالِ أَخِيَانًا.

لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ
وَأَنْتَ لِأُخْرَى صَاحِبٌ وَخَلِيلٌ^(١)

القَنَاعَةُ

«لابنِ الرُّومِي»

[الخفيف]

مَرْحَباً بِالْكَفَافِ يَأْتِي عَفِيًّا
وَعَلَى الْمُتَعِبَاتِ ذَيْلُ الْعَفَاءِ^(٢)
ضِلَّةٌ لِأَمْرِي يُشْمَرُ فِي الْجَمِّ
بِحِ لِعَيْشٍ مُشْمَرٌ لِلْفَنَاءِ
يَخْسَبُ الْحَظُّ كُلَّهُ فِي يَدَيْهِ
وَهُوَ مِنْهُ عَلَى مَدَى الْجَوَازِ
لَيْسَ فِي أَجْلِ النَّعِيمِ لَهُ حَظٌّ
وَمَا ذَاقَ عَاجِلُ النَّعْمَاءِ

(١) لا أعرفُ كنايةً أفضلَ من هذه الكِنَايَةِ في قولها: وذِي حَاجَةٍ؛
والبيتُ الثاني أفضلُ مقالٍ يُؤَتَّى بِهِ دَلِيلًا عَلَى شَرَفِ أَخْلَاقِ
المرأةِ العَرَبِيَّةِ وَمَعْرِفَتِهَا بِالْأَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْ أَصُولِ حُقُوقِ
الزَّوْجِيَّةِ، وَإِنَّهَا إِنْ لَمْ تَنْفِرْ مِنَ الْفَحْشَاءِ عِفَّةً فَإِنَّهَا تَجْتَنِيهَا وَفَاءً.

(٢) عَفِيًّا، أَي: عَفْوًا.

ذَلِكَ الْخَائِبُ الشَّقِيُّ وَإِنْ كَا
 نَ يَرَى أَنَّهُ مِنَ السُّعْدَاءِ
 حَسْبُ ذِي إِزْبَةٍ^(١) وَرَأَى جَلِيَّ
 نَظَرَتْ عَيْنُهُ بِلا غُلُوءٍ^(٢)
 صِحَّةُ الْجِسْمِ وَالْجَوَارِحِ وَالْعِرْ
 ضِ وَإِخْرَازِ مُسْكَةِ الْحَوْبَاءِ^(٣)

الْقَنَاعَةُ

«لِيَغْضُ الشُّعْرَاءُ الْمُتَقَدِّمِينَ»

[وَيُنْسَبُ لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ]

[الطويل]

أَحَبُّ الْفَتَى يَنْفِي الْفَوَاحِشَ سَمْعُهُ
 كَأَنَّ بِهِ عَنْ كُلِّ فَاحِشَةٍ وَقَرَأَ
 سَلِيمَ دَوَاعِي الصَّدْرِ لَا بِاسِطًا أَذَى
 وَلَا مَانِعًا خَيْرًا وَلَا قَائِلًا هُجْرًا

(١) الإزبة: الذَّهَاءُ وَالْحِيلَةُ.

(٢) الغُلُوء: الغُلُوءُ.

(٣) المُسْكَةُ: مَا يُنْسِكُ النَّفْسَ مِنْ غِذَاءٍ، وَغَيْرِهِ؛ وَالْحَوْبَاءُ: النَّفْسُ.

إِذَا مَا أَتَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ
فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالاً لِزَلَّتِهِ عُذْرًا

غَنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ
فَإِنْ زَادَ شَيْئاً عَادَ ذَاكَ الْغِنَى فَقُرّاً

حُبُّ الْبَنِينَ

«لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ»

[البسيط]

لَوْلَا أَمْنِمَةٌ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْعَدَمِ
وَلَمْ أَجُبْ فِي اللَّيَالِي حِنْدِسَ الظُّلَمِ

وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْعَيْشِ مَعْرِفَتِي
أَنَّ الْيَتِيمَةَ يَجْفُوهَا ذُوو الرِّجَمِ

أَحَازِرُ الْفَقْرَ يَوْماً أَنْ يُلِمَّ بِهَا
فَيَهْتِكَ السُّتْرَ عَنْ لَحْمٍ عَلَى وَضَمِ

تَهْوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقاً
وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَالٍ عَلَى الْحُرَمِ

كِتْمَانُ السِّرِّ

«لِمُسْكِينِ الدَّارِمِيِّ»^(١)

[الطويل]

وَفِتْيَانُ صِدْقٍ لَسْتُ مُظْلِعَ بَغْضِهِمْ

عَلَى سِرِّ بَغْضٍ غَيْرَ أَنِّي جَمَاعُهَا^(٢)

لِكُلِّ أَمْرٍ شِغْبٌ مِنَ الْقَلْبِ فَارِغٌ

وَمَوْضِعُ نَجْوَى لَا يُرَامُ اِطْلَاعُهَا^(٣)

يَظْلُونَ شَتَّى فِي الْبِلَادِ وَسِرُّهُمْ

إِلَى صَخْرَةٍ أَغْيَى الرِّجَالِ انْصِدَاعُهَا

(١) «مُسْكِينُ [ربيعة بن عامر] الدَّارِمِيِّ» [...] - ٨٩ هـ = ... -
[٧٠٨ م].

كَانَ شَاعِرًا فَخْلًا مُجِيدًا، وَكَانَ شَرِيفًا، عَالِي الْهِمَّةِ، يَتَشَبَّهُ
لِمَعَاوِيَةَ وَيَنْصُرُهُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ سَهَّلَ عَلَيْهِ مِفْتَاحَةَ النَّاسِ بِبَيْعَةِ
وَلَدِهِ يَزِيدَ مِنْ بَعْدِهِ، إِذْ قَالَ:
إِذَا الْمُنْبَرُ الْقَرْيَبِيُّ خَلَاهُ رَبُّهُ
فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ

(٢) يُقَالُ: الْخَمْرُ جِمَاعُ الْإِثْمِ، لِأَنَّهَا جَامِعَةٌ لِكُلِّ أَضْنَافِهِ.

(٣) اِطْلَعِ الْأَمْرَ: عَلِمَهُ.

الشُّورَى

«لبشار بن بزيد»

[الطويل]

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ النَّصِيحَةَ فَاسْتَعِزْ
 بِعَزْمِ نَصِيحٍ أَوْ بِتَأْيِيدِ حَازِمٍ
 وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً
 مَكَانَ الْخَوَافِي نَافِعٍ لِلْقَوَادِمِ^(١)
 وَخَلِّ الْهُوَيْنَا لِلضَّعِيفِ وَلَا تَكُنْ
 نَوْوَمَا فَإِنَّ الْحَزْمَ لَيْسَ بِنَائِمٍ
 وَمَا خَيْرُ كَفِّ أَمْسِكَ الْغِلُّ أُخْتَهَا
 وَمَا خَيْرُ سَيْفٍ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقَائِمٍ
 وَحَارِبٍ إِذَا لَمْ تُغَطِّ إِلَّا ظِلَامَةً
 شَبَا الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ الْمَظَالِمِ

(١) غَضَاضَةٌ: مَذَلَّةٌ؛ والخوافي: صِغَارُ الرِّيشِ فِي مُؤَخَّرِ الْجَنَاحِ؛
 وَالْقَوَادِمِ: كِبَارُهُ فِي مُقَدِّمِهِ. يَرِيدُ أَنَّ الْمُسْتَشِيرَ لَا يَجْمَلُ بِهِ أَنَّ
 يَزْدَرِي بِرَأْيِ الْمُسِيرِ، قُرْبَ صَغِيرٍ يُخْتِاجُ إِلَيْهِ كَمَا تَخْتِاجُ الْقَوَادِمُ
 إِلَى الْخَوَافِي. [وفي رواية: فَإِنَّ الْخَوَافِي قُوَّةٌ لِلْقَوَادِمِ].

وَأَذِنَ عَلَى الْقُرْبَى الْمُقَرَّبِ نَفْسَهُ
 وَلَا تُشْهِدِ الشُّورَى أَمْرًا غَيْرَ كَاتِمٍ
 فَإِنَّكَ لَا تَسْتَظِرُّدُ الِهَمَّ بِالْمُنَى
 وَلَا تَبْلُغُ الْعَلِيَا بِغَيْرِ الْمَكَارِمِ
 إِذَا كُنْتَ فَرْدًا هَرَّكَ^(١) الْقَوْمُ مُقْبِلًا
 وَإِنْ كُنْتَ أَذْنَى لَمْ تَفُزْ بِالْعَنَائِمِ
 وَمَا قَرَعَ الْأَقْوَامَ مِثْلُ مُشَيِّعٍ^(٢)
 أَرِيبٍ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمٍ

الْمَغْفِرَةُ

«لَأَبِي الْعَتَاهِيَّة»^(٣)

[الكامل]

إِنِّي شَكَرْتُ لِظَالِمِي ظَلَمِي
 وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِلْمِي

(١) يقال: هَرَّه الكلب: إذا نَبَحَه.

(٢) الْمُشَيِّع: الشُّجَاع.

(٣) «أَبُو الْعَتَاهِيَّة» [١٣٠ - ٢١١ هـ = ٧٤٨ - ٨٢٦ م].

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم، شاعرٌ مَطْبُوعٌ رَفِيقٌ مُجِيدٌ
 فِي الزُّهْدِ وَالْمَدِيحِ وَالْحِكْمَةِ، وَيَعُدُّ فِي طَبَقَةِ بَشَّارِ وَأَبِي نَوَاسٍ،
 وَلَا أَحْسَبُهُ يَبْلُغُ هَذَا الْمَبْلَغَ كُلَّهُ.

وَرَأَيْتُهُ أَسَدِي إِلَى يَدَا
لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِي
رَجَعْتُ إِسَاءَتُهُ عَلَيْهِ وَإِخَا
سَانِي فَعَادَ مُضَاعَفَ الْجُرْمِ
وَعَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَخَمَدَةٍ
وَعَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِثْمِ
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ
وَأَنَا الْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
مَا زَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحُمُهُ
حَتَّى يَكُنْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

إِكْرَامُ النَّفْسِ

«لَا بُدَّ مُطِيرٍ»^(١)

[الطويل]

وَمَنْ يَتَّبِعْ مَا يُعْجِبُ النَّفْسَ لَمْ يَزَلْ
مُطِيعاً لَهَا فِي فِعْلِ شَيْءٍ يَضِيرُهَا

(١) «ابن مُطِيرٍ» [...] ١٦٩ هـ = [...] ٧٨٥ م].

هو الحسين بن مُطِيرٍ، من مُخَضَّرَمِي الدولتين الأموية والعباسية، وشِعْرُهُ عَلَى قَلْتِهِ غَايَةٌ فِي الْمَتَانَةِ وَالْعَذُوبَةِ، وَلَهُ فِي النَّسِيبِ أَرْقُ الشُّعْرِ وَأَسْلَسُهُ.

فَنَفْسِكَ أَكْرِمَ مِنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَهَا تَسْتَعِيرُهَا

السَّعَادَةُ النَّفْسِيَّةُ

«لِبَشَارِ»

[الطويل]

وَمَا خَابَ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ عَامِلٌ
لَهُ فِي الثَّقَلِ أَوْ فِي الْمَحَامِدِ سُوقُ
وَلَا ضَاقَ فَضْلُ اللَّهِ عَنْ مُتَعَفِّفٍ
وَلَكِنَّ أَجْلَاقَ الرُّجَالِ تَضِيقُ

الْحُرِّيَّةُ

«لَأَبِي تَمَامٍ»

[الطويل]

سَأَصْرِفُ وَجْهِي عَنْ بِلَادٍ غَدَا بِهَا
لِسَانِي مَغْفُولاً وَقَلْبِي مُقْفَلًا
وَأِنْ صَرِيحَ الْحَزْمِ وَالرَّأْيِ لَأَمْرِي
إِذَا بَلَغَتْهُ الشُّمُسُ أَنْ يَتَحَوَّلَا

عاقبة الجهالة

«لأبي نواس»^(١)

[الكامل]

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَاةِ بِدَلْوِهِمْ
وَأَسَمْتُ^(٢) سَرَحَ اللَّهْوِ حَيْثُ أَسَامُوا
وَبَلَّغْتُ مَا بَلَغَ أَمْرُؤُ بِشَبَابِهِ
فَإِذَا غُصَّارَةٌ كُلُّ ذَاكَ أَثَامُ

الصداقة الكاذبة

«لأبي تمام»

[الكامل]

إِنْ شِئْتَ أَنْ يَسْوَدَّ ظَنُّكَ كُلُّهُ
فَأَجِلْهُ فِي هَذَا السَّوَادِ الْأَعْظَمِ

(١) «أبو نواس» [١٤٦ - ١٩٨ هـ = ٧٦٣ - ٨١٤ م].

هو الحسن بن هانيء الحَكَمي، سَيِّدُ الْمُحَدِّثِينَ، وَالْمُبْتَكِرُ الْأَوَّلُ
لِحَضَارَةِ الشُّعْرِ وَمَدَنِيَّتِهِ، وَصَاحِبُ الْمَعَانِي الْغَرِيبَةِ الَّتِي لَمْ يُسَبِّقْ
إِلَيْهَا فِي الْأَثَوَابِ الرَّقِيقَةِ الَّتِي لَا يُجَارَى فِيهَا.

(٢) أسام ناقته: أزعاجها.

لَيْسَ الصَّدِيقُ بِمَنْ يُعِيرُكَ ظَاهِرًا
مُتَبَسِّمًا عَنْ بَاطِنٍ مُتَجَهِّمٍ

الثُّقَةُ

«لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُخْدَثِينَ»

[المنسرح]

فِي انْقِبَاضٍ وَحِشْمَةٍ فَإِذَا
صَادَقْتُ أَهْلَ الْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ
أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَى سَجِيَّتِهَا
وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمٍ

مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ

«لِلشُّرَيْفِ الرُّضِيِّ»

[الطويل]

يَصُورُ عَلَيَّ الْجَاهِلُونَ وَاعْتَلِي
وَيُعْجِمُ فِي الْقَائِلُونَ وَأُغْرِبُ
يَرَوْنَ اخْتِمَالِي غُصَّةً وَيَزِيدُهُمْ
لَوَاعِجُ ضِغْنٍ أَنَّنِي لَسْتُ أَغْضَبُ
وَقُورُ فَلَا الْأَلْحَانَ تَأْسِيرُ عَزَمَتِي
وَلَا تَمَكُّرُ الصَّهْبَاءِ بِي حِينَ أَشْرَبُ

وَلَا أَغْرِفُ الْفَخْشَاءَ إِلَّا بِوَضْفِهَا
وَلَا أَنْطِقُ الْعَوْرَاءَ وَالْقَلْبُ مُغْضَبُ
تَحْلُمُ عَنْ كَرِّ الْقَوَارِضِ شِيَمَتِي
كَأَنَّ مُعِيدَ الذَّمِّ بِالْمَدْحِ مُطْنِبُ
لِسَانِي حَصَاةٌ يَفْرَعُ الْجَهْلَ بِالْحِجَا
إِذَا نَالَ مِنِّي الْعَاضِيَةُ^(١) الْمُتَأَوُّبُ
وَلَسْتُ بِرَاضٍ أَنْ تَمَسَّ عَزَائِمِي
فُضَالَاتٍ مَا يُعْطِي الزَّمَانُ وَيَسْلُبُ
غَرَائِبُ آدَابٍ حَبَانِي بِحِفْظِهَا
زَمَانِي وَصَرَفُ الدَّهْرِ نِعَمَ الْمُؤَدَّبُ

القَنَاعَةُ

«لَأُبَيِّ نَعَامُ»

[الكامل]

مَنْ زَاخَفَ الْأَيَّامَ ثُمَّ عَبَا^(٢) لَهَا
غَيْرَ الْقَنَاعَةِ لَمْ يَزَلْ مَفْلُولًا

(١) العاضية: الكاذبة.

(٢) عَبَا: أَعَدَّ وَهَيَّأَ.

مَنْ كَانَ مَرْعَى عَزْمِهِ وَهُمُومِهِ رَوْضُ
الْأَمَانِي لَمْ يَزَلْ مَهْزُولاً
لَوْ جَازَ سُلْطَانُ الْقُنُوعِ وَحُكْمُهُ
فِي الْأَرْضِ مَا كَانَ الْقَلِيلُ قَلِيلاً

الصَّدِيقُ

«لَأَبِي الْعَتَاهِيَّةِ»

[الطويل]

عَذِيرِي مِنَ الْإِنْسَانِ لَا إِنْ جَفَوْتُهُ
صَفَا لِي وَلَا إِنْ صِرْتُ طَوْعَ يَدَيْهِ
وَإِنِّي لَمُشْتَاقٌ إِلَى ظِلِّ صَاحِبِ
يَرُوقُ وَيَضْفُو إِنْ كَدَرْتُ عَلَيْهِ

كَلِمَاتُ فِي الْحِكْمَةِ

«لِلْمَعْرِيِّ»^(١)

[الطويل]

أَيَّاتِي نَبِيٌّ يَجْعَلُ الْخَمْرَ طَلْقَةً^(٢)
فَتَحْمِلُ شَيْئاً مِنْ هُمُومِي وَأُخْزَانِي

(١) «الْمَعْرِيُّ» [٣٦٣ - ٤٤٩ هـ = ٩٧٣ - ١٠٥٧ م].

هو أحمد [ابن عبد الله] بن سليمان، الشاعر الفيلسوف المشهور،
غَلَبَ عِلْمُهُ عَلَى شِعْرِهِ فَلَمْ يَجِءْ مَطْبُوعاً إِلَّا نَادِراً، عَلَى أَنَّهُ أَقْدَرُ
مَنْ نَظَّمَ الْحِكْمَةَ فِي الشَّعْرِ، وَقُلَّ أَنْ يُجِيدَ ذَلِكَ أَحَدٌ.

(٢) طَلْقَةٌ: حَلَالاً.

وَهَيْهَاتَ لَوْ حَلَّتْ لَمَّا كُنْتُ شَارِباً
مُخَفِّفَةً فِي الْجِلْمِ^(١) كَفَّةً مِيزَانِي

الْمَلِكُ أَجِيرُ الرِّعِيَّةِ

[الكامل]

مُلُّ الْمَقَامِ فَكَمْ أَعَاشِرُ أُمَّةٍ
أَمَرْتُ بِغَيْرِ صَلاَحِهَا أَمْرَاؤُهَا
ظَلَمُوا الرِّعِيَّةَ وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا
فَعَدَوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا

رِيَاءُ الْوُعَاطِ

[الوافر]

رُؤَيْدَكَ قَدْ غُرِزَتْ وَأَنْتَ حُرٌّ
بِصَاحِبِ حِيلَةٍ يَعِظُ النِّسَاءَ
يُحَرِّمُ فِيكُمْ الصُّهُبَاءَ صُبْحاً
وَيَشْرِبُهَا عَلَى عَمْدٍ مَسَاءً

(١) الْجِلْمُ هنا: الْعَقْلُ.

يَقُولُ لَكُمْ غَدَوْتُ بِلا كِسَاءٍ
وَفِي لَذَائِهَا رَهْنُ الْكِسَاءِ
إِذَا فَعَلَ الْفَتَى مَا عَنْهُ يَنْهَى
فَمِنْ جِهَتَيْنِ لَا جِهَةَ أَسَاءِ

لا علاج لِشُرُورِ الْعَالَمِ

[الطويل]

إِذَا كَانَ عِلْمُ النَّاسِ لَيْسَ بِنَافِعٍ
وَلَا دَافِعٍ فَالْخُسْرُ لِلْعُلَمَاءِ
قَضَى اللَّهُ فِينَا بِالَّذِي هُوَ كَائِنٌ
فَتَمَّ وَضَاعَتْ حِكْمَةُ الْحُكَمَاءِ

سُلْطَانُ الْعَقْلِ

[الخفيف]

يَرْتَجِي النَّاسُ أَنْ يَقُومَ إِمَامٌ
نَاطِقٌ فِي الْكُتَيْبَةِ الْخُرَسَاءِ
كَذَبَ الظَّنُّ لَا إِمَامَ سِوَى الْعَقْلِ
لُ مُشِيرًا فِي صُبْحِهِ وَالْمَسَاءِ

إِنَّمَا هَذِهِ الْمَذَاهِبُ أَشْبَا
بُ لِحْلَبِ الدُّنْيَا إِلَى الرُّؤْسَاءِ

رِيَاءُ الْعِبَادِ

[الطويل]

لَعَلَّ أَنْاساً فِي الْمَحَارِبِ خُوفُوا
بِأَيِّ كُنَاسٍ فِي الْمَشَارِبِ أَظْرَبُوا
إِذَا رَامَ كَيْدًا بِالصَّلَاةِ مُقِيمُهَا
فَتَارِكُهَا عَمْدًا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبُ

شُرُورُ الْعَالَمِ

[السريع]

يَخْسُنُ مَرَأَى لِبَنِي آدَمَ
وَكُلُّهُمْ فِي الذُّوقِ لَا يَغْدُبُ
مَا فِيهِمْ بَرٌّ وَلَا نَاسِكٌ
إِلَّا إِلَى نَفْعٍ لَهُ يَجْذُبُ
أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ
لَا تَظْلِمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

الْمَوْتُ طَهَارَةٌ مِنَ الْحَيَاةِ

[المتقارب]

أَيَا جَسَدَ الْمَرءِ مَاذَا دَهَاكَ
وَقَدْ كُنْتَ مِنْ غُنْصِرٍ طَيِّبٍ
تَصِيرُ ظُهُوراً إِذَا مَا رَجَعْتَ
إِلَى الْأَضَلِّ كَالْمَطَرِ الصَّيْبِ

قِسْمَةُ الْأَزْزَاقِ

[الطويل]

لَقَدْ جَاءَنَا هَذَا الشِّتَاءُ وَتَحْتَهُ
فَقِيرٌ مُعَرَّى أَوْ أَمِيرٌ مُدَوِّجٌ
وَقَدْ يُرْزَقُ الْمَجْدُودُ أَقْوَاتَ أُمَّةٍ
وَيُخْرَمُ قُوْتاً وَاحِداً هُوَ أَخْوَجُ

ذَمُّ الْبِطَالَةِ

[الطويل]

وَيُفْجِبُنِي ذَابُّ الَّذِينَ تَرَمَّبُوا
سِوَى أَكْثَلِهِمْ كَذُّ النُّفُوسِ الشَّحَائِحِ

فَمَا حَبَسَ النَّفْسَ الْمَسِيحُ تَعَبُداً
وَلَكِنْ مَشَى فِي الْأَرْضِ مَشِيَّةً سَائِحِ

الرَّفَقُ بِالْحَيَوَانِ

[الطويل]

لَقَدْ رَأَيْتُ مَغْدَى الْفَقِيرِ بِجَهْلِهِ
عَلَى الْعَيْرِ ضَرْباً سَاءَ مَا يَتَّقَلُّدُ
يَحْمِلُهُ مَا لَا يَطِيقُ فَإِنْ وَنَى
أَحَالَ عَلَى ذِي فَتْرَةٍ يَتَجَلَّدُ

أَيْنَ الْحَقِيقَةُ؟

[البسيط]

نُفَارِقُ الْعَيْشَ لَمْ نَنْظُرْ بِمَعْرِفَةٍ
أَيُّ الْمَعَانِي بِأَهْلِ الْأَرْضِ مَقْصُودُ
لَمْ تُغَطِّنَا الْعِلْمَ أَخْبَارٌ يَجِيءُ بِهَا
نَقْلُ وَلَا كَوَكَبٌ فِي الْأَرْضِ مَرْصُودُ
وَأَبْيَضَ مَا أَخْضَرَ مِنْ نَبْتِ الزَّمَانِ بِنَا
وَكُلُّ زَرْعٍ إِذَا مَا هَاجَ مَخْصُودُ

حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ

[البسيط]

مَا الْخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصَّائِمُونَ لَهُ
وَلَا صَلَاةٌ وَلَا صُوفٌ عَلَى الْجَسَدِ
وَأِنَّمَا هُوَ تَرْكُ الشَّرِّ مُطَّرِحاً
وَنَفْضُكَ الصَّدْرَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدِ

خُرَافَاتُ النِّسَاءِ

[الكامل]

سَأَلْتُ مُنْجِمَهَا عَنِ الطُّفْلِ الَّذِي
فِي الْمَهْدِ كَمْ هُوَ عَائِشٌ مِنْ دَهْرِهِ
فَأَجَابَهَا: مِئَةٌ لِيَأْخُذَ دِرْهَمًا
وَأَتَى الْحِمَامُ وَلَيْدَهَا فِي شَهْرِهِ

رَاحَةُ الْمَوْتِ

[الكامل]

قَدِمَ الْفَتَى وَمَضَى بِغَيْرِ تَبِيَّةٍ
كَهَلَالِ أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِهِ
لَقَدْ اسْتَرَاخَ مِنَ الْحَيَاةِ مُعَجِّلٌ
لَوْ عَاشَ كَابَدَ شِدَّةً فِي دَهْرِهِ

العِفَّةُ

[الكامل]

أَحْسِنَ جَوَاراً لِّلْفَتَاةِ وَعُدَّهَا
 أُخْتَ السَّمَاءِ عَلَى دُنُو الدَّارِ
 كَتَجَاوَرَ الْعَيْنَيْنِ لَنْ تَتَلَاقِيَا
 وَحِجَازُ بَيْنَهُمَا قَصِيرُ جِدَارِ

بَقَاءُ الْمَادَّةِ

[البسيط]

مَضَى الْأَنَامُ فَلَوْلَا عِلْمُ حَالِهِمْ
 لَقُلْتُ قَوْلَ زُهَيْرٍ آيَةً سَلَكُوا
 فِي الْمُلْكِ لَمْ يَخْرُجُوا عَنْهُ وَلَا أَنْتَقَلُوا
 مِنْهُ فَكَيْفَ أَعْتِقَادِي أَنَّهُمْ هَلَكُوا

الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى

[الطويل]

إِذَا قَالَ فِيكَ النَّاسُ مَا لَا تُحِبُّهُ
 فَصَبْرًا يَفِيءُ وَدَّ الْعَدُوَّ إِلَيْكََا
 وَقَدْ نَطَقُوا مِينًا عَلَى اللَّهِ وَأَفْتَرُوا
 فَمَالَهُمْ لَا يَفْتَرُونَ عَلَيْكََا

الدِّينُ الْمُعَامَلَةُ

[الكامل]

سَبَّحْ وَصَلْ وَطُفْ بِمَكَّةَ زَائِرًا
سَبْعِينَ لَا سَبْعًا فَلَسْتَ بِنَاسِكٍ
جَهْلَ الدِّيَانَةِ مَنْ إِذَا عَرَضَتْ لَهُ
أَظْمَاعُهُ لَمْ يُلَفَّ بِالْمُتَمَاسِكِ

تَأْوِيلُ الْفُقَهَاءِ

[الطويل]

جَهَلْتُ، أَقَاضِي الزَّيِّ أَكْثَرُ مَأْتَمًا
بِمَا نَصَّه أَمْ شَاعِرٌ يَتَغَزَّلُ
فَكَمْ مِنْ فَقِيهِ خَاطِبٍ فِي ضَلَالَةٍ
وَحُجَّتُهُ فِيهَا الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ
فَمَا لِعَذَابٍ فَوْقَكُمْ لَا يَعْمُكُمْ
وَمَا بَالُ أَرْضٍ تَحْتَكُمْ لَا تُزَلُّ

تَغْلِيمُ الْمَرْأَةِ

[السريع]

إِنْ نَشَأَتْ بِنُتُكَ فِي نِعْمَةٍ
فَالزَّمْنُهَا الْبَيْتَ وَالْمِغْزَلَا

ذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ سِوَارِ لَهَا
وَمِنْ عَطَايَا وَالِدِ أَجْزَلَا

الرَّفْقُ بِالْعَمِيَانِ

[الكامل]

عَمِيَانُكُمْ قَرَأْتُ عَلَى أَجْدَائِكُمْ
وَأَتُّوا لَكُمْ بِالْبِرِّ مَنْ آتَاكُمْ
أَخْيَاؤُكُمْ بَخِلْتُ عَلَيْهِمْ بِالنَّدَى
فَبَغَوْهُ بِالْفُرْقَانِ مِنْ مَوْتَاكُمْ

مُسَاعَدَةُ الضُّعَفَاءِ

[الطويل]

تَصَدَّقْ عَلَى الْأَعْمَى بِأَخَذِ يَمِينِهِ
لِتَهْدِيَهُ وَأَمْنُنْ بِإِفْهَامِكَ الصُّمَّا
وَلَا تَكُ مِمَّنْ قَرَّبَ الْعَبْدَ شَارِحاً^(١)
وَضَيَّعَهُ إِذْ صَارَ مِنْ كِبَرٍ هِمًّا^(٢)

(١) الشَّارِحُ: الْفَتَى فِي أَوَّلِ صِبَاهٍ.

(٢) الْهِمُّ: الشُّنْخُ الْفَانِي.

حُكْمُ الْعَادَةِ

[الطويل]

إِذَا أَلِفَ الشَّيْءُ اسْتَهَانَ بِهِ الْفَتَى
فَلَمْ يَرَهُ بُؤْسَى يُعَدُّ وَلَا نُغْمَى
كَإِنْفَاقِهِ مِنْ عُمْرِهِ وَمَسَاغِهِ
مِنْ الرِّيقِ عَذْباً لَا يُحِسُّ لَهُ طُعْمَا

الْجَرَائِمُ

[البسيط]

لَا تُخْدِثِ الْقَتْلَ فِي كَفٍّ وَلَا قَدَمٍ
وَلَا تُغْرِضْ مَدَى الدُّنْيَا لِسَفْكِ دَمٍ
وَحَلٌّ مَنْ صَوَّرَ الْأَشْبَاحَ مُقْتَدِرًا
يُجِلُّهَا فَهُوَ رَبُّ الدَّهْرِ وَالْقَدَمِ

خُرَافَةُ الرَّمَائِلِ

[الوافر]

أَمَّا لِأَمِيرِ هَذَا الْمِضَرِّ عَقْلٌ
يُقِيمُ عَنِ الطَّرِيقِ ذَوِي النُّجُومِ
فَكَمْ قَطَعُوا السَّبِيلَ عَلَى ضَعِيفٍ
وَلَمْ يُغْفُوا النَّسَاءَ مِنَ الْهُجُومِ

إِذَا أَفْتَكَّرَ اللَّيِّبُ رَأَى أُمُورًا
تَرُدُّ الضَّاحِكَاتِ إِلَى الْوُجُومِ

ذَمُّ الشَّرَابِ

[الوافر]

يَقُولُ النَّاسُ إِنَّ الْخَمْرَ تُودِي
بِمَا فِي الصَّدْرِ مِنْ هَمٍّ قَدِيمٍ
وَلَوْلَا أَنَّهَا بِاللُّبِّ تُودِي
لَكُنْتُ أَخُ الْمَدَامَةِ وَالنَّدِيمِ

تَبَرُّجُ النِّسَاءِ

[الرجز]

شَرُّ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ حَمَامِهَا
إِذَا سَأَلَكَ الْفَاضِلُ مِنْ زِمَامِهَا
وَمَشِيئُهَا تَضَرُّبُ فِي أَكْمَامِهَا
يَفُوحُ رِيًّا الطَّيِّبِ مِنْ أَمَامِهَا
زَائِرَةُ الْمَسْجِدِ فِي إِمَامِهَا
تَأْتِمُ وَالْخَيْبَةُ فِي أَتِمَامِهَا

ذَمُّ النَّسْلِ

[المنسرح]

يَا أُمَّةً فِي الثُّرَابِ هَامِدَةً
تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْ سَرَائِرِكُمْ
يَا لَيْتَكُمْ لَمْ تَطَّوْا إِمَاءَكُمْ
وَلَا دَنَوْتُمْ إِلَى حَرَائِرِكُمْ
إِنْ أَسْتَرَحْتُمْ مِمَّا نُكَابِدُهُ
فَنَخُنْ مِنْ بَعْدُ فِي جَرَائِرِكُمْ

حِكْمَةُ الزَّكَاةِ

[البسيط]

يَا قُوتُ مَا أَنْتَ يَا قُوتُ وَلَا ذَمُّ
فَكَيْفَ تُغْجِرُ أَقْوَاماً مَسَاكِينَا
وَأَحْسَبُ النَّاسَ لَوْ أَغْطَوْا زَكَاتَهُمْ
لَمَا رَأَيْتَ بَنِي الْإِعْدَامِ شَاكِينَا

الحِلْمُ

«لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ»

[وَيُنْسَبُ لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ]

[الطويل]

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّنِي
وَلَا جَازِعٍ مِنْ صَرْفِهِ الْمُتَقَلَّبِ
وَلَا أَتَمَنَّى الشَّرَّ وَالشَّرُّ تَارِكِي
وَلَكِنْ مَتَى أُحْمَلُ عَلَى الشَّرِّ أَرْكَبِ

أَلَمُ الْمَوْتِ

«لِلْمُتَنَبِّيِّ»

[الخفيف]

إِلْفُ هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الْأَنـ
فُسٍ أَنَّ الْجِمَامَ مُرُّ الْمَذَاقِ
وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزُ
وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ

حُبُّ الْحَيَاةِ

«لِلْمُتَنَبِّي أَيْضاً»

[الطويل]

أَرَى كُنَّا يَبْغِي الْحَيَاةَ بِسَفِيهِ
 حَرِيصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَبّاً
 فَحُبُّ الْجَبَانِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ التُّقَى
 وَحُبُّ الشُّجَاعِ النَّفْسَ أَوْرَدَهُ الْحَرَبَا
 وَيَخْتَلِفُ الرُّزْقَانِ وَالْفِعْلُ وَاحِدٌ
 إِلَى أَنْ يُرَى إِحْسَانُ هَذَا لِذَا ذَنْبَا

الشُّجَاعَةُ

«لِلْمُتَنَبِّي أَيْضاً»

[الخفيف]

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ
 فَمِنْ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا
 كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنْزِ
 فُسٍ سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا

الأشرارُ حزبُ الأخيارِ

«لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ»

[الطويل]

لَقَدْ زَادَنِي حُباً لِنَفْسِي أَنَّنِي
بَغِيضٌ إِلَى كُلِّ أَمْرٍ غَيْرِ طَائِلٍ
إِذَا مَا رَأَنِي قَطَعَ الطَّرْفَ دُونَهُ
وَدُونِي فَعَلَ الْعَارِفِ الْمُتَجَاهِلِ
مَلَأْتُ عَلَيْهِ الْأَرْضَ حَتَّى كَانَهَا
مِنَ الضِّيقِ فِي عَيْنِهِ كَفَّةُ حَابِلٍ
وَإِنِّي شَقِيٌّ بِاللُّثَامِ وَلَا تَرَى
شَقِيّاً بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ الشَّمَائِلِ

تَحْنُ الْفُرْصَةِ

«لَأَبِي الْعَتَاهِيَةِ»

[الكامل]

كَمْ مِنْ مُؤَخَّرِ غَايَةٍ قَدْ أَمَكَنْتَ
لِغَدٍ وَلَيْسَ غَدٌ لَهُ بِمُوَاتٍ
حَتَّى إِذَا فَاتَتْ وَفَاتَ طِلَابُهَا
ذَهَبَتْ عَلَيْهَا نَفْسُهُ حَسَرَاتٍ

تَأْتِي الْمَكَارِهِ حِينَ تَأْتِي جُمْلَةً
وَأَرَى السُّرُورَ يَجِيءُ فِي الْفَلَتَاتِ

الِإِبَاءُ

«لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُخْذَثِينَ»

[الكامل]

لَا تَشْكُونَ لِعَاذِلٍ أَوْ عَاذِرٍ
حَالِيكَ فِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ
فَلِرَحْمَةِ الْمُتَوَجِّعِينَ غَضَاضَةٌ
فِي النَّفْسِ مِثْلُ شَمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ

الْحُبُّ الْمُفْتَدِلُ

«لِلشُّرَيْفِ الرُّضِيِّ»

[الطويل]

أَحْبَبُكَ بِالطَّبَعِ الْبَعِيدِ مِنَ الْحَجَا
وَأَقْلَاكَ بِالْعَقْلِ الْبَرِيِّ مِنَ الْخَبَلِ
فَأَنْتَ صَدِيقِي إِنْ ذَهَبْتُ إِلَى الْهَوَى
وَأَنْتَ عَدُوِّي إِنْ رَجَعْتُ إِلَى الْعَقْلِ

عِزَّةُ النَّفْسِ

«لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ»

[الطويل]

تُكَلِّفُنِي إِذْلالَ نَفْسِي لِعِزِّهَا
وَهَانَ عَلَيْهَا أَنْ أَهَانَ لِتَكْرُمَا
تَقُولُ سَلِ الْمَعْرُوفَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ
فَقُلْتُ سَلِيهِ رَبِّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَا

كَلِمَاتُ

«لِمَحْمُودِ بَاشَا سَامِي الْبَارُودِيِّ»^(١)

دَخَائِلُ الْقُلُوبِ

[الطويل]

تَحَمَّلْتُ خَوْفَ الْمَنْ كُلِّ رَزِيئَةٍ
وَحَمَلُ رَزَايَا الدَّهْرِ أَخْلَى مِنَ الْمَنْ
وَعَاشَرْتُ أَخْدَانًا فَلَمَّا بَلَوْتُهُمْ
تَمَنَّيْتُ أَنْ أَبْقَى وَحِيدًا بِلا خِذْنِ

(١) «[محمود سامي بن حسن حسني] البارودي» [١٢٥٥ -

١٣٢٢هـ = ١٨٣٩ - ١٩٠٤م].

هُوَ شَيْخُ شُعْرَاءِ هَذَا الْعَصْرِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَحْيَا سُنَّةَ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ
بَعْدَ مَا دَارَتْ بِهِ الْأَيَّامُ دَوْرَتَهَا.

إِذَا عَرَفَ الْمَرْءُ الْقُلُوبَ وَمَا أَنْطَوَتْ
 عَلَيْهِ مِنَ الْبَغْضَاءِ عَاشَ عَلَى ضِغْنٍ
 يَرَى بِصَرِي مَنْ لَا أَوْدَ لِقَاءَهُ
 وَتَسْمَعُ أُذُنِي مَا تَعَاثُ مِنَ اللَّحْنِ

تَقْلِبَاتُ الْأَيَّامِ

[الكامل]

وَلَقَدْ تَبَيَّنَتْ الْأُمُورَ بِغَيْرِهَا
 وَأَتَى عَلَى النَّفْضِ وَالْإِبْرَامُ
 فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرُّكَ وَإِذَا الْخُمُ
 دُ تَلَهَّبَ وَإِذَا السُّكُوتُ كَلَامُ
 وَإِذَا الْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ مَنِيَّةُ
 تَخَيُّ بِهَا الْأَجْسَادُ وَهِيَ رِمَامُ
 هَذَا يَحُلُّ وَذَاكَ يَرْحَلُ كَارِهَاً
 عَنْهُ فَضْلُحُ تَارَةً وَخِصَامُ
 فَالنُّورُ لَوْ بَيَّنْتَ أَمْرَكَ ظُلْمَةً
 وَالْبَدْءُ لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ خِتَامُ

جَرَيَانُ الْمَقَادِيرِ

[الطويل]

يَوَدُّ الْفَتَى مَا لَا يَكُونُ ظَمَاعَةً
وَلَمْ يَذِرْ أَنَّ الدَّهْرَ بِالنَّاسِ قُلْبُ
وَلَوْ عَلِمَ الْإِنْسَانُ مَا فِيهِ نَفْعُهُ
لَأَبْصَرَ مَا يَأْتِي وَمَا يَتَجَنَّبُ
وَلَكِنَّهَا الْأَقْدَارُ تَجْرِي بِحُكْمِهَا
عَلَيْنَا وَأَمْرُ الْغَيْبِ سِرٌّ مُحَجَّبُ

شُرُورُ الْعَالَمِ

«لأحمد شوقي بك»^(١)

[الطويل]

أَنَاسٌ كَمَا تَذِرِي وَدُنْيَا بِحَالِهَا
وَدَهْرٌ رَخِيٌّ تَارَةً وَعَسِيرُ

(١) «[أحمد] شوقي [بن علي] [١٢٨٥ - ١٣٥١ هـ = ١٨٦٨ -

١٩٣٢ م].

أشهر شعراء العربية في العصر الحاضر وأقدرهم على
التصورات البديعة والخيالات الشعرية العالية، وهو يشبه المتنبي
في أنه يرتقي حتى لا يساويه أحد، وقد يصل أحياناً إلى منزلة
لا يرضى بها من هو في منزلته.

وَأَخْوَالُ خَلْقٍ غَابِرٍ مُتَجَدِّدٍ
تَشَابَهَ فِيهَا أَوَّلٌ وَأَخِيرُ

تَمُرُّ تَبَاعاً فِي الْحَيَاةِ كَأَنَّهَا
مَلَاعِبُ لَا تُرْخَى لَهُنَّ سُتُورُ

وَحِرْصٌ عَلَى الدُّنْيَا وَمَيْلٌ مَعَ الْهَوَى
وَعِشٌّ وَإِفْكٌَ فِي الْحَيَاةِ وَزُورُ

وَقَامَ مَقَامَ الْفَرْدِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ
عَلَى الْحُكْمِ جَمٌّ يَسْتَبِيدُ غَفِيرُ

وَحُورَ قَوْلِ النَّاسِ: مَوْلَى وَعَبْدُهُ
إِلَى قَوْلِهِمْ مُسْتَأْجَرٌ وَأَجِيرُ

كَلِمَاتُ

«إسماعيل باشا صبري»^(١)

الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ

[الخفيف]

إِنَّ سَيِّئَتِ الْحَيَاةِ فَأَرْجِعْ إِلَى الْأَرْضِ
 ضِ تَنْمُ آمِنًا مِنَ الْأَوْصَابِ
 تِلْكَ أُمَّ أَخْنَى عَلَيْكَ مِنَ الْأُ
 مِّ الْيَ خَلَفَتْكَ لِلْأَعَابِ
 لَا تَخَفْ فَالْمَمَاتُ لَيْسَ بِمَاحٍ
 مِنْكَ إِلَّا مَا تَشْتَكِي مِنْ عَذَابِ
 كُلُّ مَيِّتٍ بَاقٍ وَإِنْ خَالَفَ الْعُنْدَ
 حَوَانَ مَا نُصِّ فِي غُضُونِ الْكِتَابِ
 وَحَيَاةِ الْمَرْءِ أَضْطِرَابٌ فَإِنْ مَا
 تَ فَقَدْ عَادَ سَالِمًا لِلتُّرَابِ

(١) «إسماعيل باشا صبري» [١٢٧٠ - ١٣٤١ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٢٣ م]

أحدُ شعراءِ الطَّبَقَةِ الْأُولَى فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَيَمْتَّازُ بِجَمَالِ
 مُقَطَّعَاتِهِ وَعَذُوبَةِ أَسْلُوبِهِ إِلَى مَا لَا يُجَارِيهِ فِيهِ مُجَارٍ، وَحُسْنِ
 تَصَوُّرَاتِهِ وَخِلَابَةِ خِيَالَتِهِ، وَهُوَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ إِذَا نَطَقَ بِكَلِمَةٍ
 الْحِكْمَةِ أَوْ أُرْسَلَ يَبْتَ النَّسِيبَ.

رَاحَةُ الْمَوْتِ

[مجزوء الكامل]

يَا مَوْتُ خُذْ مَا أَبْقَيْتِ الـ
 أَيَّامُ وَالسَّاعَاتُ مِنِّي
 بَيْنِي وَبَيْنَكَ خُطْوَةٌ
 إِنْ تَخْطُهَا فَرَّجْتَ عَنِّي

الْوَفَاءُ

[الطويل]

إِذَا خَانَنِي خِلٌ قَدِيمٌ وَعَقَّنِي
 وَفَوَّقْتُ يَوْمًا فِي مَقَاتِلِهِ سَهْمِي
 تَعَرَّضَ طَيْفُ الْوَدِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
 فَكَسَّرَ سَهْمِي فَأَنْشَنَيْتُ وَلَمْ أَزِمِ

سَجْنُ الْفَضِيلَةِ

«لحافظ إبراهيم»

[المتقارب]

نَعِمَنْ بِنَفْسِي وَأَشَقَّيْنِي
 فَيَا لَيْتَهُنَّ وَيَا لَيْتَنِي

جِلَالٌ نَزَلَنَ بِخَضْبِ النُّفُو
 سِ فَرَوَيْتُهُنَّ وَأَظْمَأَنِي
 تَعَوَّذَنَ مِنِّي إِبَاءَ الْكَرِيمِ
 وَصَبَرَ الْحَلِيمِ وَتِيَهُ الْغَنِي
 وَعَوَّذْتُهُنَّ نِزَالَ الْخُطُوبِ
 فَمَا يَنْثَنِينَ وَمَا أَنْثَنِي
 إِذَا مَا لَهَوْتُ بِلَيْلِ الشَّبَابِ
 أَهْبَنَ بِعَزْمِي فَنَبَّهَنِي
 فَمَا زِلْتُ أَمْرُحُ فِي قَدَّهِنَ
 وَيَمْرُحَنَ مِنِّي بِرَوْضِ جَنِي
 إِلَى أَنْ تَوَلَّى زَمَانُ الشَّبَابِ
 وَأَوْشَكَ عُودِي أَنْ يَنْحَنِي
 فَيَا نَفْسُ إِنْ كُنْتَ لَا تُوقِنِينَ
 بِمَغْفُودِ أَمْرِكَ فَاسْتَيْقِنِي
 نَهْذِي الْفَضِيلَةَ سِجْنُ النُّفُوسِ
 وَأَنْتِ الْجَدِيرَةُ أَنْ تُسَجَّنِي

قِسْمُ الْمَنْثُورِ

وَصَايَا حِكْمِيَّة

«من أغرابيَّة لولدها»

أَيُّ بُنَيَّ! إِيَّاكَ وَالنَّمِيمَةَ، فَإِنَّهَا تَزْرَعُ الضُّغِينَةَ وَتُفَرِّقُ
 بَيْنَ الْمُحِبِّينَ. وَإِيَّاكَ وَالتَّعَرُّضَ لِلْعُيُوبِ فَتُتَّخَذَ غَرَضاً،
 وَخَلِيقٌ أَنْ لَا يَثْبُتَ الْغَرَضُ عَلَى كَثْرَةِ السَّهَامِ، وَقَلَمًا
 اُعْتَوَرَتِ السَّهَامُ غَرَضاً إِلَّا كَلَمَتُهُ حَتَّى يَهِيَ^(١) مَا أَشَدَّ مِنْ
 قُوَّتِهِ. وَإِيَّاكَ وَالْجُودَ بِدِينِكَ وَالْبُخْلَ بِمَالِكَ. وَإِذَا هَزَزْتَ
 فَأَهْزُزْ كَرِيماً يَلْنُ لِهَزَّتِكَ، وَلَا تَهْزُزْ لِيِّمًا، فَإِنَّ الصَّخْرَةَ لَا
 يَنْفَجِرُ مَاؤُهَا. وَمَثَلُ لِنَفْسِكَ مِثَالُ مَا اسْتَحْسَنْتَ مِنْ غَيْرِكَ
 فَأَعْمَلْ بِهِ، وَمَا اسْتَقْبَحْتَ مِنْ غَيْرِكَ فَاجْتَنِبْهُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ لَا
 يَرَى عَيْبَ نَفْسِهِ. وَمَنْ كَانَتْ مَوَدَّتُهُ بِشَرِّهِ وَخَالَفَ ذَلِكَ مِنْهُ
 فَعَلُهُ كَانَ صَدِيقُهُ مِنْهُ عَلَى مِثْلِ الرِّيحِ فِي تَصَرُّفِهَا. وَالْغَدْرُ
 أَقْبَحُ مَا تَعَامَلَ بِهِ النَّاسُ بَيْنَهُمْ. وَمَنْ جَمَعَ الْجِلْمَ وَالسَّخَاءَ
 فَقَدْ أَجَادَ الْحُلَّةَ رِيْطَتَهَا وَسِرْبَالَهَا^(٢).

(١) وَمَيَّ: ضَعُفَ.

(٢) الرِّيْطَةُ: كُلُّ ثَوْبٍ رَقِيقٍ يُشْبِهُ الْمِلْحَفَةَ؛ وَالسِّرْبَالُ: الْقَمِيصُ.

أَدَبُ الزَّوْجَةِ

«لَأَعْرَابِيَّةٌ تُوصِي أَبْنَتَهَا لَيْلَةً الْبِنَاءِ بِهَا»

أَيُّ بُنَيَّةُ! إِنَّ الْوَصِيَّةَ لَوْ تُرِكَتْ لِفَضْلِ أَدَبٍ تَرَكْتُهَا
لِذَلِكَ مِنْكَ، وَلَكِنَّهَا تَذِكْرَةُ الْغَافِلِ، وَمَعُونَةُ الْعَاقِلِ. أَيُّ بُنَيَّةُ!
إِنَّكَ فَارَقْتَ بَيْتَكَ الَّذِي مِنْهُ خَرَجْتَ، وَعُشُّكَ الَّذِي فِيهِ
دَرَجْتَ، إِلَى وَكْرٍ لَمْ تَعْرِفِيهِ، وَقَرِينَ لَمْ تَأْلِفِيهِ؛ فَكُونِي لَهُ
أُمَةً يَكُنْ لَكَ عَبْدًا، وَأَخْفِظِي لَهُ خِصَالًا عَشْرًا؛ أَمَّا الْأُولَى
وَالثَّانِيَّةُ فَاضْحِيهِ بِالْقَنَاعَةِ، وَعَاشِرِيهِ بِحُسْنِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،
وَأَمَّا الثَّالِثَةُ وَالرَّابِعَةُ فَالْتَفَقْدُ لِمَوْضِعِ عَيْنِهِ وَأَنْفِهِ، فَلَا تَقْعُ
عَيْنُهُ مِنْكَ عَلَى قَبِيحٍ، وَلَا يَشُمُّ مِنْكَ إِلَّا أَطْيَبَ رِيحٍ؛ وَأَمَّا
الْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ فَالْتَفَقْدُ لَوَقْتِ مَنَامِهِ وَطَعَامِهِ، فَإِنْ تَوَاتَرُ
الْجُوعِ مَلْهَبَةً، وَتَنْغِيصُ النَّوْمِ مَغْضَبَةً؛ وَأَمَّا السَّابِعَةُ وَالثَّامِنَةُ
فَالْاِحْتِرَاسُ بِمَالِهِ، وَالْإِرْعَاءُ عَلَى حَشَمِهِ وَعِيَالِهِ، وَمِلاكَ
الْأَمْرِ فِي الْمَالِ حُسْنُ التَّقْدِيرِ، وَفِي الْعِيَالِ حُسْنُ التَّذْيِيرِ؛
وَأَمَّا التَّاسِعَةُ وَالْعَاشِرَةُ فَلَا تَغْصِينَ لَهُ أَمْرًا، وَلَا تُفْشِينَ لَهُ
سِرًّا، فَإِنَّكَ إِنْ خَالَفْتِهِ أَوْغَرْتَ صَدْرَهُ، وَإِنْ أَفْشَيْتَ سِرَّهُ لَمْ
تَأْمَنِ غَدْرَهُ. ثُمَّ إِيَّاكَ وَالْفَرَحَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا كَانَ مُهْتَمًّا،
وَالْكَآبَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا كَانَ فَرِحًا، فَإِنَّ الْخَصْلَةَ الْأُولَى مِنَ
التَّقْصِيرِ، وَالثَّانِيَّةُ مِنَ التَّكْدِيرِ. وَكُونِي أَشَدَّ النَّاسِ لَهُ

إِعْظَامًا، يَكُنْ أَشَدَّهُمْ لَكَ إِكْرَامًا. وَأَعْلَمِي أَنَّكَ لَا تَصِلِينَ
إِلَى مَا تُحِبِّينَ حَتَّى تُؤْثِرِي رِضَاهُ عَلَى رِضَاكَ وَهَوَاهُ عَلَى
هَوَاكَ، فِيمَا أُحِبِّتِ وَكَرِهْتِ، وَاللَّهُ يَخِيرُ لَكَ.

كَلِمَاتُ فِي الْأَخْلَاقِ

«عَلِي بْنُ أَبِي طَالِبٍ»^(١)

عُلُوُّ الْهِمَّةِ

أَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرِّغَائِبِ،
فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضًا، وَلَا تَكُنْ
عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا، وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا
بِشَرٍّ، وَيُسَرِّ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ^(٢)
مَطَايَا الطَّمَعِ فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ، وَإِنْ أَسْتَطَعْتَ إِلَّا

(١) «علي ابن أبي طالب» [٢٣ق.هـ - ٤٠هـ = ٦٠٠ - ٦٦١م]. [هو

أمير المؤمنين، رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين،
وابن عم النبي محمد ﷺ وصهره، وأحد الشجعان الأبطال،
ومن أكابر الخطباء والعلماء بالقضاء، وأول الناس إسلاماً بعد
السيدة خديجة].

هو أفصح قرشي إذا خطب أو كتب، ولصدق ولإخلاصه أثر في
تأثير كتاباته عامة وزهدياته خاصة.

(٢) وَجَفَ البعير: عدا وأسرع.

يَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَأَفْعَلْ، فَإِنَّكَ مُذِرُكَ
قِسْمَكَ، وَآخِذُ سَهْمِكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَنْ عِنْدِهِ.

حُسْنُ الْعِشْرَةِ

أَخِمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرَمِهِ عَلَى الصَّلَاةِ،
وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللَّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى
الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُودِهِ عَلَى الدُّنُو، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللَّيْنِ،
وَعِنْدَ جُزْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ؛ حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو
نِعْمَةٍ عَلَيْكَ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ
تَضَعَهُ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ.

الِاغْتِدَالُ

أَعْجَبُ مَا فِي الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ، وَلَهُ مَوَادُّ مِنَ الْحِكْمَةِ
وَأَضْدَادٌ مِنْ خِلَافِهَا، فَإِنْ سَنَحَ لَهُ الرَّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ، وَإِنْ
هَاجَهُ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الْحِرْصُ، وَإِنْ مَلَكَهُ الْيَأْسُ قَتَلَهُ
الْأَسْفُ، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ الْغَضَبُ أَشَدَّ بِهِ الْغَيْظُ، وَإِنْ سَعِدَ
بِالرِّضَا نَسِيَ التَّحَفُّظَ، وَإِنْ أَتَاهُ الْخَوْفُ شَغَلَهُ الْحَذَرُ، وَإِنْ
اتَّسَعَ لَهُ الْأَمْنُ اسْتَلَبَتْهُ الْغِرَّةُ^(١)، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَتْهُ

(١) الْغِرَّةُ: الْغَفْلَةُ.

الْجَزَعُ، وَإِنْ اسْتَفَادَ مَالاً أَطْفَأَهُ الْغِنَى، وَإِنْ عَصَّتهُ فَاقَّةٌ بَلَغَ بِهِ الْبَلَاءُ، وَإِنْ جَهَدَ بِهِ الْجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ، وَإِنْ أَفْرَطَ فِي الشَّبَعِ كَطَنَتُهُ الْبِطْنَةُ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ، وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ قَاتِلٌ.

أَدَبُ الْحَاشِيَةِ

«لَاخِذِ الْأُمْرَاءَ الْعَبَامِيِّينَ»

فِي وَصِيَّتِهِ إِلَى أَحَدِ رِجَالِ خَاصَّتِهِ

يَا عَبْدَ اللَّهِ! كُنْ عَلَى الْتِمَاسِ الْحِظِّ بِالسُّكُوتِ
أَحْرَصَ مِنْكَ عَلَى الْتِمَاسِهِ بِالْكَلَامِ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا: إِذَا
أَعْجَبَكَ الْكَلَامُ فَأَضْمُتْ، وَإِذَا أَعْجَبَكَ الصَّمْتُ فَتَكَلَّمْ.
وَأَعْلَمْ أَنَّ أَضْعَبَ الْمُلُوكِ مُعَامِلَةَ الْجَبَّارِ الْفِطْنُ الْمُتَفَقِّدُ،
فَإِنْ أَبْتُلِيَتْ بِصُخْبَتِهِ فَأَخْتَرِسْ، وَإِنْ عُوفِيَتْ فَاشْكُرِ اللَّهَ
عَلَى السَّلَامَةِ، فَإِنَّ السَّلَامَةَ أَضْلُ كُلِّ نِعْمَةٍ. لَا تُسَاعِدْنِي
عَلَى مَا يَقْبُحُ بِي وَلَا تَرُدَّنَّ عَلَيَّ خَطَأً فِي مَجْلِسٍ، وَلَا
تُكَلِّفْنِي جَوَابَ التَّشْمِيَةِ وَالتَّهْنِئَةِ، وَدَعْ عَنْكَ: كَيْفَ أَصْبَحَ
الْأَمِيرُ؟ وَكَيْفَ أَمْسَى؟ وَكَلِّمْنِي بِقَدَرِ مَا أَسْتَطِيقُكَ، وَاجْعَلْ
بَدَلَ التَّقْرِيطِ لِي صَوَابَ الْاسْتِمَاعِ مِنِّي. وَأَعْلَمْ أَنَّ صَوَابَ
الْاسْتِمَاعِ أَحْسَنُ مِنْ صَوَابِ الْقَوْلِ، وَإِذَا سَمِعْتَنِي أَتَحَدَّثُ

فَلَا يَفُوتَنَّكَ مِنْهُ شَيْءٌ، وَأَرِنِي فَهَمَّكَ إِيَّاهُ فِي طَرْفِكَ
وَوَجْهِكَ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْمَلِكِ وَقَدْ أَحَلَّكَ مَحَلَّ الْمُعْجَبِ بِمَا
يُسْمِعُكَ إِيَّاهُ وَأَخْلَلْتَهُ بِمَحَلِّ مَنْ لَا تَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَلَا تَسْتَدْعِ
الزِّيَادَةَ مِنْ كَلَامِي بِمَا تُظْهِرُ مِنْ اسْتِحْسَانِ مَا يَكُونُ مِنِّي،
فَمَنْ أَسْوَأَ حَالًا مِمَّنْ يَسْتَلِذُّ الْمُلُوكَ بِالْبَاطِلِ؟!

كَلِمَاتٌ فِي الْأَدَابِ

«لَا تَبِ الْمُقَفِّعُ»^(١)

دَعْوَى الْعِلْمِ

أَسْتَخِي الْحَيَاءَ كُلَّهُ مِنْ أَنْ تُخْبِرَ صَاحِبَكَ أَنَّكَ عَالِمٌ
وَأَنْتَ جَاهِلٌ، مُصَرِّحًا أَوْ مُعَرِّضًا، وَإِنْ أَسْتَطَلْتَ عَلَى الْأَكْفَاءِ
فَلَا تَثِقَنَّ مِنْهُمْ بِالصِّفَاءِ، فَإِنْ آنَسْتَ مِنْ نَفْسِكَ فَضْلًا
فَتَحَرَّجْ أَنْ تَذْكُرَهُ أَوْ تُبْدِيَهُ. وَأَعْلَمْ أَنَّ ظُهُورَهُ مِنْكَ بِذَلِكَ

(١) «ابن المُقَفِّع» [١٠٦ - ١٤٢ هـ = ٧٢٤ - ٧٥٩ م].

هو عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفِّعِ، أَكْتُبُ كُتَابَ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْأَدَبِ
وَالْحِكْمَةِ، وَمَذْهَبُهُ فِي الْكِتَابَةِ أَغْدُلُ الْمَذَاهِبِ وَأَقْوَمُهَا لِطُلُوتِهِ
وَسَلَاسَتِهِ وَبُعْدِهِ عَنِ الْأَسْجَاعِ وَالتَّكَالِيفِ، وَلَا يُوجَدُ لَهُ نَظِيرٌ فِي
طَرِيقَتِهِ إِلَّا الْجَاحِظُ وَعَبْدُ الْحَمِيدِ وَسَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَقَلِيلٌ مِنْ
أَمْثَالِهِمْ.

الْوَجْهَ يُقَرَّرُ لَكَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنَ الْعَيْبِ أَكْثَرُ مِمَّا يُقَرَّرُ
لَكَ مِنَ الْفَضْلِ. وَأَعْلَمَ أَنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ وَلَمْ تَعَجَلْ ظَهَرَ
ذَلِكَ مِنْكَ بِالْوَجْهِ الْجَمِيلِ الْمَعْرُوفِ. وَلَا يَخْفَيْنَ عَلَيْكَ أَنَّ
حِرْصَ الرَّجُلِ عَلَى إِظْهَارِ مَا عِنْدَهُ وَقِلَّةَ وَقَارِهِ فِي ذَلِكَ
بَابٌ مِنَ الْبُخْلِ وَاللُّؤْمِ، وَأَنَّ مِنْ خَيْرِ الْأَغْوَانِ عَلَى ذَلِكَ
السَّخَاءُ وَالتَّكْرُمُ.

أُصُولُ الْأَخْلَاقِ

يَا طَالِبَ الْأَدَبِ! أَعْرِفِ الْأُصُولَ وَالْفُصُولَ، فَإِنَّ
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَطْلُبُونَ الْفُصُولَ مَعَ إِضَاعَةِ الْأُصُولِ، فَلَا
يَكُونُ دَرَكُهُمْ دَرَكًا. وَمَنْ أَخْرَزَ الْأُصُولَ أَكْتَفَى بِهَا عَنِ
الْفُصُولِ، وَإِنْ أَصَابَ الْفَضْلَ بَعْدَ إِخْرَازِ الْأَصْلِ فَهُوَ
أَفْضَلُ. فَأَصْلُ الْأَمْرِ فِي الدِّينِ أَنْ تَعْتَقِدَ الْإِيمَانَ عَلَى
الصَّوَابِ، وَتَجْتَنِبَ الْكِبَائِرَ، وَتُوَدِّيَ الْفَرِيضَةَ؛ فَالزَّمْ ذَلِكَ
لِزُومِ مَنْ لَا غِنَاءَ بِهِ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ أَنْ
حُرِمَهُ هَلَكَ. ثُمَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُجَاوِزَ ذَلِكَ إِلَى التَّفَقُّهِ فِي
الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ. وَأَصْلُ الْأَمْرِ فِي إِصْلَاحِ
الْجَسَدِ أَلَّا تَحْمِلَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْبَاهِ إِلَّا
خِفَافًا، وَإِنْ قَدَرْتَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ جَمِيعَ مَنَافِعِ الْجَسَدِ
وَمَضَارِهِ وَالْإِنْتِفَاعِ بِذَلِكَ فَهُوَ أَفْضَلُ. وَأَصْلُ الْأَمْرِ فِي

الْبَاسِ أَلَّا تُحَدِّثَ نَفْسَكَ بِالْإِذْبَارِ وَأَصْحَابِكَ مُقْبِلُونَ عَلَى
عَدُوِّهِمْ، ثُمَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ حَامِلٍ وَآخِرَ مُنْصَرِفٍ
مِنْ غَيْرِ تَضْيِيعٍ لِلْحَذَرِ فَهُوَ أَفْضَلُ. وَأَصْلُ الْأَمْرِ فِي الْجُودِ
أَلَّا تَضِنَّ بِالْحُقُوقِ عَلَى أَهْلِهَا، ثُمَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تَزِيدَ ذَا
الْحَقِّ عَلَى حَقِّهِ وَتَطُولَ عَلَى مَنْ لَا حَقَّ لَهُ فَاَفْعَلْ، فَهُوَ
أَفْضَلُ. وَأَصْلُ الْأَمْرِ فِي الْكَلَامِ أَنْ تَسْلَمَ مِنَ السَّقَطِ
بِالتَّحَفُّظِ، ثُمَّ إِنْ قَدَرْتَ عَلَى بَارِعِ الصَّوَابِ فَهُوَ أَفْضَلُ.
وَأَصْلُ الْأَمْرِ فِي الْمَعِيشَةِ أَلَّا تَنِيَّ عَنْ طَلَبِ الْحَلَالِ وَأَنْ
تُحَسِّنَ التَّقْدِيرَ لِمَا تَفِيدُ^(١)، وَمَا تُنْفِقُ، وَلَا يَغُرَّتْكَ مِنْ ذَلِكَ
سَعَةٌ تَكُونُ فِيهَا، فَإِنَّ أَغْظَمَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا خَطَرًا
أَخْوَجُهُمْ إِلَى التَّقْدِيرِ. وَالْمُلُوكُ أَخْوَجُ إِلَى التَّقْدِيرِ مِنَ
السُّوقَةِ، لِأَنَّ السُّوقَةَ قَدْ يَعِيشُ بِغَيْرِ مَالٍ، وَالْمُلُوكُ لَا قِوَامَ
لَهُمْ إِلَّا بِالْمَالِ، ثُمَّ إِنْ قَدَرْتَ عَلَى الرِّفْقِ وَاللُّطْفِ فِي
الطَّلَبِ وَالْعِلْمِ بِالْمَطَالِبِ فَهُوَ أَفْضَلُ.

شَرَفُ الْمَرْوَةِ

لَا يَعْجَبَنَّكَ إِكْرَامُ مَنْ يُكْرِمُكَ لِمَنْزِلَةٍ أَوْ سُلْطَانٍ، فَإِنَّ
السُّلْطَنَةَ أَوْشَكَ أُمُورَ الدُّنْيَا زَوَالًا، وَلَا يَعْجَبَنَّكَ إِكْرَامُهُمْ

(١) تَفِيدُ، أَي: تَسْتَفِيدُ.

إِيَّاكَ لِلنَّسَبِ، فَإِنَّ الْأَنْسَابَ أَقْلُ مَنَاقِبِ الْخَيْرِ غَنَاءَ عَنْ أَهْلِهَا فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَلَكِنْ إِذَا أُكْرِمْتَ عَلَى دِينٍ أَوْ مُرُوءَةٍ، فَذَلِكَ فَلْيُعْجِبْكَ، فَإِنَّ الْمُرُوءَةَ لَا تُزَايِلُكَ فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ لَا يُزَايِلُكَ فِي الْآخِرَةِ.

سِيَّاسَةُ الْاِقْتِصَادِ

أَعْلَمْ أَنَّ رَأْيَكَ لَا يَتَّسِعُ لِكُلِّ شَيْءٍ فَفَرِّغْهُ لِلْمُهِّمِ، وَإِنَّ مَالَكَ لَا يُغْنِي النَّاسَ كُلَّهُمْ فَأَخْتَصَّ بِهِ ذَوِي الْحُقُوقِ، وَإِنَّ كَرَامَتَكَ لَا تُطِيقُ الْعَامَّةَ فَتَوَجَّ بِهَا أَهْلَ الْفَضَائِلِ، وَإِنَّ لَيْلَكَ وَنَهَارَكَ لَا يَسْتَوْعِبَانِ حَاجَاتِكَ وَإِنْ دَأَبْتَ فِيهَا، وَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ إِلَى أَذَانِهَا سَبِيلٌ مَعَ حَاجَةِ جَسَدِكَ إِلَى نَصِيْبِهِ مِنْهُمَا، فَأَخْسِنْ قِسْمَتَهُمَا بَيْنَ دَعَتِكَ وَعَمَلِكَ، وَأَعْلَمْ أَنَّكَ مَا شَغَلْتَ مِنْ رَأْيِكَ بِغَيْرِ الْمُهِّمِ أَزْرَى بِالْمُهِّمِ، وَمَا صَرَفْتَ مِنْ مَالِكَ بِالْبَاطِلِ فَقَدْتَهُ حِينَ تُرِيدُهُ لِلْحَقِّ، وَمَا عَدَلْتَ بِهِ مِنْ كَرَامَتِكَ إِلَى أَهْلِ النَّقْصِ أَضَرَّ بِكَ فِي الْعَجْزِ عَنْ أَهْلِ الْفَضْلِ، وَمَا شَغَلْتَ مِنْ لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ فِي غَيْرِ الْحَاجَةِ أَزْرَى بِكَ فِي الْحَاجَةِ.

الشُّورَى

لَا يُقْذَفَنَّ فِي رُوعِكَ أَنَّكَ إِنْ اسْتَشَرْتَ الرُّجَالَ ظَهَرَ لِلنَّاسِ مِنْكَ الْحَاجَةُ إِلَى غَيْرِكَ، فَإِنَّكَ لَسْتَ تُرِيدُ الرَّأْيَ

للافتِخارِ بِهِ، وَلَكِنْ تُرِيدُهُ لِلانْتِفَاعِ بِهِ، وَلَوْ أَنَّكَ مَعَ ذَلِكَ
أَرَدْتَ الذُّكْرَ كَانَ أَحْسَنَ الذُّكْرَيْنِ وَأَفْضَلَهُمَا عِنْدَ أَهْلِ
الْفَضْلِ أَنْ يُقَالَ: لَا يَتَفَرَّدُ بِرَأْيِهِ دُونَ اسْتِشَارَةِ ذَوِي الرَّأْيِ.

رِضَى النَّاسِ

إِنَّكَ إِنْ تَلْتَمِسَ رِضَاءَ جَمِيعِ النَّاسِ تَلْتَمِسُ مَا لَا
يُذَرُّكَ، وَكَيْفَ يَتَّفِقُ لَكَ رَأْيُ الْمُخْتَلِفِينَ؟ وَمَا حَاجَتُكَ إِلَى
رِضَاءِ مَنْ رِضَاهُ الْجَوْرُ؟ وَإِلَى مُوَافَقَةِ مَنْ مُوَافَقَتُهُ الضَّلَالَةُ
وَالْجَهَالَةُ؟ فَعَلَيْكَ بِالتَّمَاسِ رِضَاءِ الْأَخْيَارِ مِنْهُمْ وَذَوِي
الْعَقْلِ، فَإِنَّكَ مَتَى تُصِيبَ ذَلِكَ تَضَعُ عَنْكَ مَوْوَنَةً مَا سِوَاهُ.

الصَّدَاقَةُ

أَبْذِلْ لِصَدِيقِكَ دَمَكَ وَمَالَكَ، وَلِمَعْرِفَتِكَ رِفْدَكَ
وَمَحْضَرَكَ، وَلِلْعَامَّةِ بِشْرَكَ وَتَحْنُنَكَ، وَلِعَدُّوكَ عَذْلَكَ،
وَأَضْنُ بِدِينِكَ وَعِزِّضْكَ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ.

الصَّبْرُ

ذَلَّلْ نَفْسَكَ بِالصَّبْرِ عَلَى جَارِ السُّوءِ وَجَلِيسِ السُّوءِ،
فَإِنَّ ذَلِكَ مَا لَا يَكَادُ يُخْطِئُكَ، فَإِنَّ الصَّبْرَ صَبْرَانِ: صَبْرُ
الرَّجُلِ عَلَى مَا يَكْرَهُ، وَصَبْرُهُ عَمَّا يُحِبُّ؛ فَالصَّبْرُ عَلَى
الْمَكْرُوهِ أَكْثَرُهُمَا وَأَشْبَهُهُمَا أَنْ يَكُونَ صَاحِبُهُ مُضْطَرًّا.

وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّثَامَ أَضْبَرُ أَجْسَادًا، وَالْكَرَامَ أَضْبَرُ نُفُوسًا، وَلَيْسَ الصَّبْرُ الْمَمْدُوحُ أَنْ يَكُونَ جَلْدُ الرَّجُلِ وَقَاحًا، أَوْ رِجْلُهُ قَوِيَّةً عَلَى الْمَشْيِ، أَوْ يَدُهُ قَوِيَّةً عَلَى الْعَمَلِ، فَإِنَّمَا هَذَا مِنْ صِفَاتِ الْحَمِيرِ، وَلَكِنْ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ غُلُوبًا، وَلِلْأُمُورِ مُحْتَمَلًا، وَفِي الضَّرِّ مُتَجَمِّلًا، وَلِنَفْسِهِ عِنْدَ الرَّأْيِ وَالْحِفَاطِ مُرْتَبِطًا، وَلِلْحَزَمِ مُؤِيرًا، وَلِلْهَوَى تَارِكًا، وَلِلْمَشَقَّةِ الَّتِي يَرْجُو عَاقِبَتَهَا مُسْتَخَفًّا، وَعَلَى مُجَاهَدَةِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ مُوَظَّبًا.

سُكْرُ الرِّضَى وَالْغَضَبِ

أَعْلَمَ أَنَّ مِنَ النَّاسِ نَاسًا كَثِيرًا يُبْلَغُ مِنْ أَحَدِهِمُ الْغَضَبُ إِذَا غَضِبَ أَنْ يُحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى الْكُلُوحِ وَالتَّقْطِيبِ فِي وَجْهِ غَيْرٍ مِنْ أَغْضَبِهِ، وَسُوءِ اللَّفْظِ لِمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، وَالْعُقُوبَةِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ يَهُمُّ بِعُقُوبَتِهِ وَسُوءِ الْمُعَاقَبَةِ بِالْيَدِ وَاللِّسَانِ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ بِهِ إِلَّا دُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْلَغُ بِهِ الرِّضَى إِذَا رَضِيَ أَنْ يَتَبَرَّعَ بِالْأَمْرِ ذِي الْخَطَرِ^(١) لِمَنْ لَيْسَ بِمَنْزِلَةِ ذَلِكَ عِنْدَهُ، وَيُعْطَى مَنْ لَمْ يَكُنْ يُعْطِيهِ، وَيُكْرَمَ مَنْ لَا حَقَّ لَهُ وَلَا مَوَدَّةَ؛ فَاحْذَرْ هَذَا الْبَابَ كُلَّهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ

(١) الْخَطَرُ: الْمَنْزِلَةُ وَالْقَدْرُ.

أَحَدُ أَسْوَأَ حَالاً مِنْ أَهْلِ الْقُدْرَةِ الَّذِينَ يُفْرِطُونَ بِاِقْتِدَارِهِمْ
فِي غَضَبِهِمْ وَسُرْعَةِ رِضَاهُمْ، فَإِنَّهُ لَوْ وُصِفَ بِصِفَةٍ مَنْ
يُتَلَبَّسُ بِعَقْلِهِ أَوْ يَتَخَبَّطُهُ الْمَسُّ مَنْ يُعَاقِبُ فِي غَضَبِهِ غَيْرَ
مَنْ أَغْضَبَهُ وَيَخْبُو عِنْدَ رِضَاهُ غَيْرَ مَنْ أَرْضَاهُ، لَكَانَ جَائِزاً
فِي صِفَتِهِ.

الْأَخْتِمَالُ

أَعْلَمَ أَنَّكَ سَتُبْتَلَى مِنْ أَقْوَامٍ بِسَفَهٍ، وَإِنْ سَفَهَ السَّفِيهِ
سَيَطْلُعُ لَكَ مِنْهُ، فَإِنْ عَارَضْتُهُ أَوْ كَافَأْتُهُ بِالسَّفَهِ، فَكَأَنَّكَ قَدْ
رَضِيتَ مَا أَتَى بِهِ، فَاجْتَنِبْ أَنْ تَحْتَذِيَ مِثَالَهُ، فَإِنْ كَانَ
ذَلِكَ عِنْدَكَ مَذْمُوماً فَحَقِّقْ ذَمَّكَ إِيَّاهُ بِتَرْكِ مُعَارَضَتِهِ، فَأَمَّا
أَنْ تَذُمَّهُ وَتَمَثِّلَهُ فَلَيْسَ ذَلِكَ لَكَ.

الرَّفْعَةُ فِي التَّوَاضُّعِ

إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُنْزِلَ نَفْسَكَ دُونَ غَايَتِكَ فِي كُلِّ
مَجْلِسٍ وَمَقَامٍ وَمَقَالٍ وَرَأْيٍ وَفِعْلٍ فَأَفْعَلْ، فَإِنَّ رَفْعَ النَّاسِ
إِيَّاكَ فَوْقَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي تَحُطُّ إِلَيْهَا نَفْسُكَ وَتَقْرِبُهُمْ إِيَّاكَ فِي
الْمَجْلِسِ الَّذِي تَبَاعَدَتْ عَنْهُ، وَتَعْظِيمَهُمْ مِنْ أَمْرِكَ مَا لَمْ
تُعْظُمْ، وَتُزَيِّنُهُمْ مِنْ كَلَامِكَ وَرَأْيِكَ مَا لَمْ تُزَيِّنْ؛ هُوَ
الْجَمَالُ.

الْحَسَدُ

لِيَكُنْ مِمَّا تَصْرِفُ بِهِ الْأَذَى وَالْعَذَابَ عَنْ نَفْسِكَ أَلَّا
تَكُونَ حَسُودًا، فَإِنَّ الْحَسَدَ خُلُقٌ لَيْثٌ، وَمِنْ لُؤْمِهِ أَنْ يُوَكَّلَ
بِالْأَذَى فَلَا أَذَى مِنَ الْأَقَارِبِ وَالْأَكْفَاءِ الْخُلَطَاءِ، فَلْيَكُنْ مَا
تُقَابِلُ بِهِ الْحَسَدَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ خَيْرَ مَا تَكُونُ حِينَ تَكُونُ مَعَ
مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَأَنْ غُنْمًا لَكَ أَنْ يَكُونَ عَشِيرُكَ
وَخَلِيطُكَ أَفْضَلَ مِنْكَ فِي الْعِلْمِ فَتَقْتَسِمَ مِنْ عِلْمِهِ، وَأَفْضَلَ
مِنْكَ فِي الْقُوَّةِ فَيَدْفَعُ عَنْكَ بِقُوَّتِهِ، وَأَفْضَلَ مِنْكَ فِي الْمَالِ
فَتَقْفِدَ^(١) مِنْ مَالِهِ، وَأَفْضَلَ مِنْكَ فِي الْجَاهِ فَتُصِيبُ حَاجَتَكَ
بِجَاهِهِ، وَأَفْضَلَ مِنْكَ فِي الدِّينِ فَتَزْدَادُ صَلاَحًا بِصَلاَحِهِ.

الصَّدَقُ

لِيَعْرِفَ إِخْوَانُكَ وَالْعَامَّةُ أَنَّكَ إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ
إِلَى أَنْ تَفْعَلَ مَا لَا تَقُولُ أَقْرَبُ مِنْكَ إِلَى أَنْ تَقُولَ مَا لَا
تَفْعَلُ فَعَلْتَ، فَإِنَّ فَضْلَ الْقَوْلِ عَلَى الْفِعْلِ عَازٌّ وَهُجْنَةٌ،
وَفَضْلُ الْفِعْلِ عَلَى الْقَوْلِ زِينَةٌ.

فُضُولُ النَّظَرِ

أَعْلَمَ أَنَّ مِنْ أَوْقَعِ الْأُمُورِ فِي الدِّينِ وَأَنْهَكِهَا لِلْجَسَدِ

(١) تَقْفِدُ، أَي: تَسْتَفِيدُ.

وَأَتْلَفَهَا لِلْمَالِ وَأَضَرَّهَا بِالْعَقْلِ وَأَسْرَعَهَا فِي ذَهَابِ الْجَلَالَةِ
وَالْوَقَارِ الْغَرَامَ بِالنِّسَاءِ، وَمِنْ الْبَلَاءِ عَلَى الْمُغْرَمِ بِهِنَّ أَنَّهُ لَا
يَنْفَكُ يَأْجِمُ مَا عِنْدَهُ وَتَطْمَحُ عَيْنَاهُ إِلَى مَا لَيْسَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ،
وَإِنَّمَا النِّسَاءُ أَشْبَاهُ، وَمَا يُرَى فِي الْعُيُونِ وَالْقُلُوبِ مِنْ فَضْلِ
مَجْهُولَاتِهِنَّ عَلَى مَعْرُوفَاتِهِنَّ بَاطِلٌ وَخِدْعَةٌ، بَلْ كَثِيرٌ مِمَّنْ
يَرْغَبُ عَنْهُ الرَّاعِبُ مِمَّا عِنْدَهُ أَفْضَلُ مِمَّا تَتَوَقَّعُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ،
وَإِنَّمَا الْمُتَرَعِّبُ عَمَّا فِي رَحْلِهِ مِنْهُنَّ إِلَى مَا فِي رِحَالِ
النَّاسِ كَالْمُتَرَعِّبِ عَنْ طَعَامِ بَيْتِهِ إِلَى مَا فِي بُيُوتِ النَّاسِ،
بَلِ النِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ أَشْبَهُ مِنَ الطَّعَامِ بِالطَّعَامِ، وَمَا فِي رِحَالِ
النَّاسِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ أَشَدُّ تَفَاضُلًا وَتَفَاوُتًا مِمَّا فِي رِحَالِهِمْ
مِنَ النِّسَاءِ. وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَا بَأْسَ فِي لُبِّهِ
يَرَى الْمَرْأَةَ مِنْ بَعِيدٍ مُتَلَفِّفَةً فِي ثِيَابِهَا، فَيُصَوِّرُ لَهَا فِي قَلْبِهِ
الْحُسْنَ وَالْجَمَالَ حَتَّى تَعْلَقَ بِهَا نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَا وَلَا
خَبَرٍ مُخْبِرٍ، ثُمَّ لَعَلَّهُ يَهْجُمُ مِنْهَا عَلَى أَقْبَحِ الْقُبْحِ، وَأَدَمُّ
الدَّمَامَةِ، فَلَا يَعِظُهُ ذَلِكَ عَنْ أَمْثَالِهَا، وَلَا يَزَالُ مَشْغُوفًا بِمَا
لَمْ يَذُقْ حَتَّى لَوْ لَمْ يَتَّقِ فِي الْأَرْضِ غَيْرَ أَمْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ لَظَنَّ
أَنَّ لَهَا شَأْنًا غَيْرَ شَأْنِ مَا ذَاقَ، وَهَذَا هُوَ الْحُمَقُ وَالشَّقَاءُ.

الثقة بالأصدقاء

إِنْ رَأَيْتَ صَاحِبَكَ مَعَ عَدُوِّكَ فَلَا يُغْضِبَنَّكَ ذَلِكَ،

فَإِنَّمَا هُوَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ، إِنْ كَانَ رَجُلًا مِنْ إِخْوَانِ الثِّقَةِ فَانْفَعُ
مَوَاطِنُهُ لَكَ أَقْرَبُهَا مِنْ عَدُوِّكَ، لِشَرِّ يَكْفِيهِ عَنْكَ، وَعَوْرَةُ
يَسْتُرُهَا مِنْكَ، وَغَائِبَةُ يَطْلُعُ عَلَيْهَا لَكَ؛ فَأَمَّا صَدِيقُكَ فَمَا
أَغْنَاكَ أَنْ يَحْضُرَهُ ذُو ثِقَتِكَ، وَإِنْ كَانَ رَجُلًا مِنْ غَيْرِ
خَاصَّةِ إِخْوَانِكَ فَبِأَيِّ حَقٍّ تَقْطَعُهُ عَنِ النَّاسِ وَتَكْلِفُهُ أَنْ لَا
يُصَاحِبَ وَلَا يُجَالِسَ إِلَّا مَنْ تَهْوَى.

غَرَائِزُ النَّاسِ

إِذَا أَقْبَلَ إِلَيْكَ مُقْبِلٌ بِوَدِّهِ فَسَرَّكَ أَلَّا يُذِيرَ عَنْكَ، فَلَا
تُنْعِمَ الْإِقْبَالَ عَلَيْهِ وَالتَّفَتُّحَ لَهُ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ طُبِعَ عَلَى
ضَرَائِبٍ لُؤْمٍ، فَمِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَرْحَلَ عَمَّنْ لَصِقَ بِهِ، وَيَلْصَقَ
بِمَنْ رَحَلَ عَنْهُ.

آفَةُ الْفَقْرِ

إِذَا افْتَقَرَ الرَّجُلُ أَتَاهُمُ مَنْ كَانَ لَهُ مُؤْتَمِنًا، وَأَسَاءَ بِهِ
الظَّنُّ مَنْ كَانَ يَظُنُّ بِهِ حَسَنًا، فَإِذَا أَذْنَبَ غَيْرُهُ ظَنُّوهُ وَكَانَ
لِلثُّهْمَةِ وَسُوءِ الظَّنِّ مَوْضِعًا، وَلَيْسَ مِنْ خَلَّةٍ هِيَ لِلْغَنِيِّ
مَذْحٌ إِلَّا وَهِيَ لِلْفَقِيرِ غَيْبٌ، فَإِنْ كَانَ شُجَاعًا سُمِّيَ أَهْوَجَ،
وَإِنْ كَانَ جَوَادًا سُمِّيَ مُفْسِدًا، وَإِنْ كَانَ حَلِيمًا سُمِّيَ
ضَعِيفًا، وَإِنْ كَانَ وَقُورًا سُمِّيَ بَلِيدًا، وَإِنْ كَانَ لَسِنًا سُمِّيَ
مِهْذَارًا، وَإِنْ كَانَ صَمُوتًا سُمِّيَ عَيْيًا.

المَوَدَّةُ

المَوَدَّةُ بَيْنَ الْأَخْيَارِ سَرِيعٌ اتِّصَالُهَا بِطِيٍّ أَنْقِطَاعُهَا،
وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ كُوبِ الذَّهَبِ الَّذِي هُوَ بِطِيٍّ الْإِنْكَسَارِ
هَيْنُ الْإِضْلَاحِ؛ وَالْمَوَدَّةُ بَيْنَ الْأَشْرَارِ سَرِيعٌ أَنْقِطَاعُهَا بِطِيٍّ
اتِّصَالُهَا، كَالْكُوزِ مِنَ الْفَخَّارِ يَكْسُرُهُ أَذْنَى عَبَثٍ، ثُمَّ لَا
وَصَلَ لَهُ أَبَدًا؛ وَالْكَرِيمُ يَمْنَحُ مَوَدَّتَهُ عَنْ لُفْيَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ
مَعْرِفَةٍ يَوْمٍ، وَاللَّئِيمُ لَا يَصِلُ أَحَدًا إِلَّا عَنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ.

الْحِقْدُ

مَثَلُ الْحِقْدِ فِي الْقَلْبِ إِذَا لَمْ يَجِدْ مُحَرِّكَاً مَثَلُ الْجَمْرِ
الْمَكْنُونِ، إِذَا لَمْ يَجِدْ حَطْباً فَلَيْسَ يَنْفَكُ الْحِقْدُ مُتَطَلِّعاً إِلَى
الْعِلَلِ كَمَا تَبْتَغِي النَّارُ الْحَطْبَ، فَإِذَا وَجَدَ عِلَّةً اسْتَعَرَتْ، فَلَا
يُطْفِئُهُ حُسْنُ كَلَامٍ وَلَا لِينٌ وَلَا رِفْقٌ وَلَا خُضُوعٌ وَلَا
تَضَرُّعٌ وَلَا مَصَانَعَةٌ وَلَا شَيْءٌ دُونَ تَلَفِ الْأَنْفُسِ وَذَهَابِ
الْأَرْوَاحِ.

الْحَزْمُ

الرُّجَالُ ثَلَاثَةٌ: حَازِمٌ وَأَخْزَمٌ مِنْهُ وَعَاجِزٌ. فَالْحَازِمُ مَنْ
إِذَا نَزَلَ بِهِ الْأَمْرُ لَمْ يَذْهَبْ لَهُ، وَلَمْ يَذْهَبْ قَلْبُهُ شُعَاعاً، وَلَمْ
تَعْيَ بِهِ حِيلَتُهُ وَمَكِيدَتُهُ الَّتِي يَرْجُو بِهَا الْمَخْرَجَ مِنْهُ. وَأَخْزَمٌ
مَنْ هَذَا الْمِقْدَامُ ذُو الْعُدَّةِ الَّذِي يَعْرِفُ الْإِبْتِلَاءَ قَبْلَ وَقْعِهِ

فَيُعْظِمُهُ إِعْظَامًا، وَيَخْتَالُ لَهُ حِيلَةٌ حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ لَزِمَهُ، فَيَخْسِمُ الدَّاءَ قَبْلَ أَنْ يُبْتَلَى بِهِ، وَيَدْفَعُ الْأَمْرَ قَبْلَ وَقُوعِهِ. وَأَمَّا الْعَاجِزُ فَهُوَ فِي تَرَدُّدٍ وَتَمَنٍّ وَتَوَانٍ حَتَّى يَهْلِكَ.

الْمَوَدَّةُ الْكَاذِبَةُ

إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا يَتَعَاطُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ وَيَتَوَاصِلُونَ عَلَيْهِمَا، وَهُمَا ذَاتُ النَّفْسِ وَذَاتُ الْيَدِ. فَالْمُتَبَادِلُونَ ذَاتَ النَّفْسِ هُمُ الْأَصْفِيَاءُ. وَأَمَّا الْمُتَبَادِلُونَ ذَاتَ الْيَدِ فَهُمْ الْمُتَعَاوِنُونَ الَّذِينَ يَلْتَمِسُ بَعْضُهُمُ الْإِنْتِفَاعَ بِبَعْضٍ، وَمَنْ كَانَ يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ بِبَعْضِ مَنَافِعِ الدُّنْيَا فَإِنَّمَا مَثَلُهُ فِيمَا يَبْذُلُ وَيُعْطِي كَمَثَلِ الصَّيَّادِ وَالْقَائِمِ الْحَبِّ لِلطَّيْرِ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ نَفْعَ الطَّيْرِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ نَفْعَ نَفْسِهِ.

أَدَبُ الْحَدِيثِ

لَا تَخْلِطَنَّ بِالْجِدِّ هَزْلًا وَلَا بِالْهَزْلِ جِدًّا، فَإِنَّكَ إِنْ خَلَطْتَ بِالْجِدِّ هَزْلًا هَجَنْتَهُ، وَإِنْ خَلَطْتَ بِالْهَزْلِ جِدًّا كَذَرْتَهُ، غَيْرَ أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ مَوْطِنًا وَاحِدًا إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ فِيهِ الْجِدَّ بِالْهَزْلِ أَصَبْتَ الرَّأْيَ وَظَهَرَتْ عَلَى الْأَقْرَانِ، وَذَلِكَ أَنْ يَتَوَرَّدَكَ مُتَوَرِّدٌ بِالسَّفَهِ وَالْغَضَبِ فَتُجِيبُهُ إِجَابَةَ الْهَازِلِ الْمُدَاعِبِ بِرُخْبٍ مِنَ الذُّرْعِ وَطَلَاقَةٍ مِنَ الْوَجْهِ وَثَبَاتٍ مِنَ الْمَنْطِقِ.

الهوى

إِذَا بَدَهَكَ أَمْرَانِ لَا تَذَرِي أَيُّهُمَا أَضُوبُ، فَانْظُرِي أَيُّهُمَا
أَقْرَبُ إِلَى هَوَاكَ فَخَالِفِيهِ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الصَّوَابِ فِي خِلَافِ
الْهَوَى.

الكَمَالُ الْإِنْسَانِي

إِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ صَاحِبِ كَانَ أَغْظَمَ النَّاسِ فِي عَيْنِي،
وَكَانَ رَأْسَ مَا أَغْظَمَهُ عِنْدِي صِغَرُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ. كَانَ
خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ فَلَا يَشْتَهِي مَا لَا يَجِدُ، وَلَا يُكْثِرُ
إِذَا وَجَدَ؛ وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ فَرْجِهِ فَلَا يَدْعُو إِلَيْهِ
مُؤَوَّنَةً وَلَا يَسْتَخِفُّ لَهُ رَأْيًا وَلَا بَدَنًا. وَكَانَ خَارِجاً مِنْ
سُلْطَانِ الْجَهَالَةِ فَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَلَى ثِقَةٍ أَوْ مَنَفَعَةٍ؛ وَكَانَ أَكْثَرَ
دَهْرِهِ صَامِتًا، فَإِذَا قَالَ بَدًّا^(١) الْقَائِلِينَ؛ وَكَانَ يُرَى مُتَضَعِّفًا
مُسْتَضَعِّفًا، فَإِذَا جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ اللَّيْثُ عَادِيًا، وَكَانَ لَا
يَدْخُلُ فِي دَعْوَى وَلَا يَشْرِكُ فِي مِرَاءٍ وَلَا يُذْلِي بِحُجَّةٍ
حَتَّى يَجِدَ قَاضِيًا فَهَمًّا وَشُهُودًا عُذُولًا، وَكَانَ لَا يَلُومُ أَحَدًا
عَلَى مَا قَدْ يَكُونُ الْعُذْرُ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَعْلَمَ مَا أَعْتَذَرَهُ،
وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعًا إِلَّا إِلَى مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ الْبَرَاءَ، وَلَا

(١) بَدًّا: غَلَبَ.

يَضْحَبُ إِلَّا مَنْ يَرْجُو عِنْدَهُ النَّصِيحَةَ، وَكَانَ لَا يَتَبَرَّمُ وَلَا
يَتَسَخَّطُ وَلَا يَتَشَهَّى وَلَا يَتَشَكَّى وَلَا يَنْتَقِمُ مِنَ الْوَلِيِّ، وَلَا
يَغْفُلُ عَنِ الْعَدُوِّ، وَلَا يَخْصُ نَفْسَهُ دُونَ إِخْوَانِهِ بِشَيْءٍ مِنْ
أَهْتِمَامِهِ وَحِيلَتِهِ وَقُوَّتِهِ. فَعَلَيْكَ بِهَذِهِ الْأَخْلَاقِ إِنْ أَطَقْتَ،
وَلَنْ تُطِيقَ، وَلَكِنْ أَخَذَ الْقَلِيلَ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ الْجَمِيعِ.

الْأَقْسَامُ

إِنَّمَا يَحْمِلُ الرَّجُلَ عَلَى الْحَلْفِ إِحْدَى هَذِهِ الْخِلَالِ:
إِمَّا مَهَانَةٌ يَجِدُهَا فِي نَفْسِهِ، وَضَرَعٌ وَحَاجَةٌ إِلَى تَصْدِيقِ
النَّاسِ إِيَّاهُ؛ وَإِمَّا عَيٌّْ بِالْكَلَامِ حَتَّى يَجْعَلَ الْإِيمَانَ لَهُ حَشَوًا
وَوَضَلًا، وَإِمَّا تُهُمَةٌ قَدْ عَرَفَهَا مِنَ النَّاسِ لِحَدِيثِهِ فَهُوَ يُنْزِلُ
نَفْسَهُ مَنْزِلَةً مَنْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُ قَوْلٌ إِلَّا بَعْدَ جَهْدِ الْيَمِينِ،
وَإِمَّا عَبَثٌ فِي الْقَوْلِ أَوْ إِرسَالُ اللِّسَانِ عَلَى غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا
تَقْدِيرٍ.

أَدَبُ التَّرْبِيَةِ

«إِلَهَارُوتُ الرُّشِيدِ»

فِي وَصِيَّةٍ لَهُ إِلَى مُؤَدِّبٍ وَلَدِهِ:

يَا أَحْمَرُ! إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مُهْجَةً
نَفْسِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَصَيِّرْ يَدَكَ عَلَيْهِ مَبْسُوطَةً، وَطَاعَتَهُ لَكَ

وَاجِبَةً، وَكُنْ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَقْرِئْهُ
الْقُرْآنَ، وَعَرِّفْهُ الْأَخْبَارَ، وَرَوِّهِ الْأَشْعَارَ، وَعَلِّمَهُ السُّنَنَ،
وَبَصِّرْهُ بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ، وَأَمْنَعُهُ مِنَ الضَّحِكِ إِلَّا فِي أَوْقَاتِهِ،
وَخُذْهُ بِتَعْظِيمِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ، وَرَفِعِ مَجَالِسِ
الْقَوَادِ إِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَهُ. وَلَا تَمُرَّنْ بِكَ سَاعَةً إِلَّا وَأَنْتَ
مُغْتَنِمٌ فِيهَا فَايِدَةً تُفِيدُهُ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخْزِنَهُ فَتُمِيتَ ذَهْنَهُ
أَوْ تُنَمِّعَ فِي مُسَامَحَتِهِ فَيَسْتَحْلِيَ الْفَرَاغَ وَيَأْلَفَهُ. وَقَوِّمَهُ مَا
اسْتَطَعْتَ بِالْقُرْبِ وَالْمُلَائِنَةِ فَإِنْ أَبَاهُمَا فَعَلَيْكَ بِالشَّدَةِ
وَالْغِلْظَةِ.

الاقتصاد

«بَدِيعُ الْهَمْدَانِي»^(١)

وَهُوَ كِتَابٌ أَرْسَلَهُ إِلَى أَحَدِ الْوَارِثِينَ:

وَصَلَّتْ رُقْعَتُكَ يَا سَيِّدِي وَالْمُصَابُ لَعَمْرُ اللَّهِ كَبِيرٌ،

(١) بَدِيعُ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِي، [أحمد بن الحسين] [٣٥٨ - ٣٩٨ هـ =
٩٦٩ - ١٠٠٨ م].

هُوَ مِنْ أَوَائِلِ الْكِتَابِ فِي عَضْرِهِ وَأَغْزَرِهِمْ مَادَّةً فِي اللُّغَةِ
وَالْأَدَبِ، وَأَحْسَنُ مَا كَتَبَ مَقَامَاتُهُ، فَهِيَ أَفْضَلُ مِنْ أَكْثَرِ رَسَائِلِهِ
كَمَا أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ مَا كَتَبَ الْكِتَابُ مِنَ الْمَقَامَاتِ بَعْدَهَا.

وَأَنْتَ بِالْجَزَعِ جَدِيرٌ، وَلَكِنَّكَ بِالصَّبْرِ أَجْدَرُ؛ وَالْعَزَاءُ عَنِ
 الْأَعِزَّةِ رُشْدٌ كَأَنَّهُ الْغَيُّ، وَقَدْ مَاتَ الْمَيْتُ فَلْيَحْيِ الْحَيُّ؛
 فَأَشْدُدْ عَلَى مَالِكَ بِالْخَمْسِ، فَأَنْتَ الْيَوْمَ غَيْرُكَ بِالْأَمْسِ؛ قَدْ
 كَانَ ذَلِكَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَكَيْلَكَ، تَضَحَكَ وَيَبْكِي لَكَ؛
 وَقَدْ مَوَّلَكَ مِمَّا أَلْفَ بَيْنَ سُرَاهُ وَسَيْرِهِ^(١)، وَخَلَّفَكَ فَقِيرًا
 إِلَى اللَّهِ غَنِيًّا عَنْ غَيْرِهِ؛ وَسَيَعْجُمُ الشَّيْطَانُ عُودَكَ^(٢)، فَإِنْ
 اسْتَلَانَهُ رَمَاكَ بِقَوْمٍ يَقُولُونَ: خَيْرُ الْمَالِ مَا أُتْلِفَ بَيْنَ
 الشَّرَابِ وَالشَّبَابِ، وَأُنْفِقَ بَيْنَ الْحَبَابِ^(٣) وَالْأَخْبَابِ؛
 وَالْعَيْشِ بَيْنَ الْأَقْدَاحِ وَالْقِدَاحِ^(٤)؛ وَلَوْلَا الاسْتِعْمَالُ، لَمَا
 أُرِيدَ الْمَالُ؛ فَإِنْ أَطَعْتَهُمْ فَالْيَوْمَ فِي الشَّرَابِ، وَغَدًا فِي
 الْخَرَابِ؛ وَالْيَوْمَ وَاطْرَبَا لِلْكَاسِ، وَغَدًا وَاحْزَبَا مِنْ
 الْإِفْلَاسِ؛ يَا مَوْلَايَ! ذَلِكَ الْخَارِجُ مِنَ الْعُودِ يُسَمِّيهِ الْعَاقِلُ
 فَقْرًا، وَالْجَاهِلُ نَقْرًا؛ وَذَلِكَ الْمَسْمُوعُ مِنَ النَّايِ هُوَ الْيَوْمَ

(١) مَوَّلَكَ: جَعَلَكَ ذَا مَالٍ؛ وَالسَّرَى: الْمَشْيُ بِاللَّيْلِ؛ وَالسَّيْرُ: الْمَشْيُ
 بِالنَّهَارِ.

(٢) يَعْجُمُ: يَعْضُ. فِي الْأَصْلِ يُقَالُ: عَجَمَ عُودَهُ: إِذَا عَضَّهُ بِأَسْنَانِهِ
 لِيُغْرِفَ شِدَّتَهُ مِنْ لِينِهِ، وَالْمَرَادُ هُنَا: سَيَخْتَبِرُكَ الشَّيْطَانُ.

(٣) حَبَابُ الشَّرَابِ: فِقَاقِيْعُهُ الَّتِي تَعْلُو سَطْحَهُ.

(٤) الْقِدَاحُ: سِهَامُ الْمَيْسِرِ، وَيُرِيدُ هُنَا لُغَبَ الْقِمَارِ.

فِي الْأَذَانِ زَمْرٌ، وَغَدَاً فِي الْأَبْوَابِ سَمْرٌ؛ وَالْعُمُرُ مَعَ هَذِهِ
الْآلَاتِ سَاعَةٌ، وَالْقِنْطَارُ فِي هَذَا الْعَمَلِ بَضَاعَةٌ؛ وَإِنْ لَمْ
يَجِدِ الشَّيْطَانُ مَغْمَزاً فِي عُودِكَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ رَمَاكَ
بِآخِرِينَ يُمَثِّلُونَ الْفَقْرَ حِذَاءَ عَيْنِكَ، فَتُجَاهِدُ قَلْبَكَ،
وَتُحَاسِبُ بَطْنَكَ؛ وَتُنَاقِشُ عَيْنَكَ، وَتَمْنَعُ نَفْسَكَ، وَتَبُوءُ فِي
دُنْيَاكَ بِوِزْرِكَ، وَتَرَاهُ فِي الْآخِرَةِ فِي مِيزَانٍ غَيْرِكَ. لَا وَلَكِنْ
قَصْداً بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ، وَمَيْلاً عَنِ الْفَرِيقَيْنِ؛ لَا مَنَعَ وَلَا
إِسْرَافَ؛ وَالْبُخْلُ فَقْرٌ حَاضِرٌ، وَضَيْرٌ عَاجِلٌ؛ وَإِنَّمَا يَبْخُلُ
الْمَرْءُ خِيْفَةً مَا هُوَ فِيهِ؛ فَلْيَكُنْ لِلَّهِ فِي مَالِكَ قِسْطٌ،
وَلِلْمَرْوَةِ قِسْمٌ؛ فَصِلِ الرَّجِمَ مَا اسْتَطَعْتَ، وَقَدِّرْ إِذَا
قَطَعْتَ؛ فَلَا أَنْ تَكُونَ فِي جَانِبِ التَّقْدِيرِ^(١)، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ
تَكُونَ فِي جَانِبِ التَّبْدِيرِ.

أَيُّهَا الْمَخْزُونُ

«لِمُحَمَّدٍ بِكَ الْمُؤَلَّجِي»

(١)

لَا جَدَالَ فِي أَنَّ الْحُزْنَ مِنْ أَشَدِّ أَدْوَاءِ النَّفْسِ
وَأَعْظَمِ أَمْرَاضِهَا، فَهُوَ إِذَا نَشَبَ بِأَظْفَارِهِ فِي النَّفْسِ لَا يَلْبَثُ

(١) التَّقْدِيرُ: التَّقْدِيرُ.

أَنْ يُمَزَّقَهَا تَمَزِيقًا، وَيُسْتَتَّهَا تَسْتِيتًا، فَتَرْتَبِكُ عَلَى الْإِنْسَانِ
مَعِيشَتُهُ، وَتَضْطَرِبُ عَلَيْهِ حَيَاتُهُ، وَيُؤَثِّرُ حُزْنُهُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ
جُزْئِيَّةٍ وَكُلِّيَّةٍ حَتَّى يَرَى الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ أَظْلَمَ مِنَ الدُّجَى
وَأَضْيَقَ مِنْ سَمِّ الْخِيَاطِ، وَتَكُونُ نَفْسُهُ كَأَنَّهَا سَمَكَةُ الْجَبْرِ
فَوْقَ صَفْحَةِ الْمَاءِ تُسَوِّدُ بِمَا تَمُجُّهُ مِنْ جَوْفِهَا كُلَّ مَا دَنَا
مِنْهَا، وَالْحَزِينُ يُسَوِّدُ بِيَاضِ عَيْنَيْهِ بِمَا يَمُجُّهُ عَلَيْهِ مِنَ
الْأَحْزَانِ وَالْأَكْذَارِ، وَلِهَذَا تَرَاهُمْ يُشَاكِلُونَ بَيْنَ النَّفْسِ
الْحَزِينَةِ وَالْبَدَنِ بِمَا يَلْبَسُونَهُ مِنْ ثِيَابِ الْحَدَادِ. وَلَمَّا كَانَ دَاءُ
الْحُزَنِ دَاءً يَشْتَمِلُ عَلَى النَّفْسِ كُلِّهَا، وَكَانَ عَصِيَّ الْعِلَاجِ
أَبِي الْمَرَاسِ وَجَبَ أَنْ يَعْمَدَ الْحَكِيمُ فِي عِلَاجِهِ إِلَى أَقْوَى
مَا يَكُونُ لَدَيْهِ مِنَ الْأَدْوِيَةِ الْمُتَنَوِّعَةِ كَمَا يَفْعَلُ الطَّبِيبُ
بِالْأَمْرَاضِ الْمُسْتَعْصِيَةِ فِي الْبَدَنِ، وَأَوَّلُ شَرْطٍ فِي نَفْعِ
الدَّوَاءِ لِلْبَدَنِ أَنْ يُوَاطَبَ الْمَرِيضُ عَلَى تَنَاوُلِهِ لِيُكْمَلَ سَرِيَانُهُ
فِيهِ، فَلَا نَفْعَ لِمَا نَعْرِضُهُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْمَخْزُونُ مِنْ عِلَاجِ
الْأَحْزَانِ إِنْ لَمْ تَأْخُذْ فِيهِ بِطَوِيلِ الْمُوَاطَبَةِ عَلَى التَّذْيِيرِ
وَالْتَفَكِيرِ وَكَثْرَةِ الْإِمْعَانِ وَتَكَرَّرِ النَّظَرِ وَالْأَخْذِ بِالتَّمَرُّنِ حَتَّى
يَسْرِيَ فِي النَّفْسِ وَتَتَغَذَّى بِهِ. وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ قَادِرًا بِقُوَّةِ
التَّكْرَارِ عَلَى أَنْ يَصُدَّرَ عَنْهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الْعَجِيبَةِ الْجِسْمَانِيَّةِ
وَالنَّفْسَانِيَّةِ مَا يُذهِشُ الْأَلْبَابَ كَالَّذِي كَانَ يَحْمِلُ ثَوْرًا عَلَى

عَاتِقِهِ وَيَعْدُو بِهِ أَمْيَالاً فِي أَعْيَادِ أَثِينَةٍ. وَكَأَلَّذِي كَانَ يَلْعَبُ
 عَلَى ثَمَانِي رِقَاعٍ لِلشَّطْرَنْجِ فِي آيٍ وَاحِدٍ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا
 يَلْعَبُ نَوْعاً آخَرَ مِنَ اللَّعَبِ فِي أُنْدِيَةِ أَمْرِيكَةِ، فَمَا أَوْلَاهُ
 بَأَن يَرُوضَ فِكْرَهُ وَيُمَرِّنَهُ عَلَى أَحْكَامِ الْفَضِيلَةِ وَيُعَوِّدَهُ
 الْعَمَلَ بِهَا حَتَّى تَصِلَ بِهِ إِلَى الْغَايَةِ الْمَقْصُودَةِ مِنَ السَّعَادَةِ.
 وَلَكِنَّكَ إِذَا قَرَأْتَ وَلَمْ تَتَدَبَّرْ، وَنَظَرْتَ وَلَمْ تَتَبَصَّرْ، وَحَفِظْتَ
 وَلَمْ تَعْتَبِرْ؛ لَمْ تَنْتَفِعْ بِكَثْرَةِ الْمُطَالَعَاتِ وَطُولِ الْمُعَالَجَاتِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَدَنَ مُرْتَبِطٌ بِالنَّفْسِ، وَالنَّفْسُ مُرْتَبِطَةٌ
 بِالْبَدَنِ، وَإِنَّ مَرَضَ النَّفْسِ يُؤَثِّرُ عَلَى الْبَدَنِ فَيُمرِضُهُ،
 وَمَرَضَ الْبَدَنِ يُؤَثِّرُ عَلَى النَّفْسِ فَيُمرِضُهَا. وَقَبْلَ أَنْ نَدْخُلَ
 مَعَكَ فِي شَرْحِ شِفَاءِ النَّفْسِ مِنْ أَحْزَانِهَا نَبْدَأُ بِالْكَلامِ فِي
 وَجُوبِ صِحَّةِ الْبَدَنِ الَّذِي تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ صِحَّةُ النَّفْسِ. وَغَايَةُ
 اجْتِهَادِ الْحَكِيمِ الَّذِي يُرْشِدُ الْإِنْسَانَ إِلَى بُلُوغِ السَّعَادَةِ أَنْ
 تَكُونَ لَكَ نَفْسٌ سَلِيمَةٌ فِي جِسْمٍ سَلِيمٍ. وَيَلْزَمُ لِصِحَّةِ
 الْبَدَنِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْإِنْسَانُ كُلَّ إِفْرَاطٍ فِي الشَّهَوَاتِ وَفِي كُلِّ
 مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُعْقِبَ أَضْطِرَاباً فِي الْفِكْرِ، وَأَنْ يُعَوِّدَ
 الْإِنْسَانُ بَدَنَهُ عَلَى الرِّيَاضَةِ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَاعَتَيْنِ عَلَى الْأَقْلَى
 فِي الْهَوَاءِ النَّقِيِّ، وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الْاسْتِحْمامِ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ،

وَأَنْ يَتَعَهَّدَ إِفْرَازَ الْأَخْلَاطِ الزَّائِدَةِ عَلَى الْقَانُونِ الْمَطْلُوبِ،
وَأَنْ يُكْثِرَ مِنَ الْحَرَكَةِ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ فِي الْحَرَكَةِ، وَإِذَا نَظَرْتَ
إِلَى الْبَدَنِ مِنْ دَاخِلِهِ وَجَدْتَ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْشَاءِ وَالْأَعْضَاءِ
فِي حَرَكَةٍ مُسْتَدِيمَةٍ، فَتَرَى الْقَلْبَ يَقْذِفُ مَجْمُوعَ مَا فِي
الْجِسْمِ مِنَ الدَّمِ إِلَى الْأَوْعِيَةِ الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ فِي ثَمَانِي
وَعِشْرِينَ ضَرْبَةً مِنْ ضَرْبَاتِهِ، وَتَجِدُ الرُّئَةَ تَعْلُو وَتَنْخَفِضُ
بِحَرَكَةٍ سَرِيعَةٍ دُونَهَا حَرَكَةُ آلَةِ الْبُخَارِ، وَتُشَاهِدُ الْأَمْعَاءَ
تَنْبَسِطُ وَتَنْقَبِضُ. وَكَذَلِكَ فِي الْجِسْمِ أَغْضَاءٌ وَظِيْفَتُهَا
الْامْتِصَاصُ وَالْإِفْرَازُ فِي آنٍ وَاحِدٍ عَلَى الدَّوَامِ. وَلِلْمُخِّ
حَرَكَتَانِ عِنْدَ كُلِّ ضَرْبَةٍ مِنْ ضَرْبَاتِ الْقَلْبِ وَعِنْدَ كُلِّ
اسْتِنْشَاقٍ لِلنَّفْسِ، فَإِذَا ضَعُفَتْ حَرَكَةُ الْبَدَنِ مِنْ ظَاهِرِهِ كَمَا
هِيَ الْحَالُ عِنْدَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ عَيْشَةَ الرَّفَةِ لَمْ يَتِمَّ التَّوَازُنُ
بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحَرَكَاتِ الَّتِي فِي بَاطِنِهِ، وَوَقَعَ الْبَدَنُ فِي
الْاِخْتِلَالِ لِأَنَّ حَرَكَةَ الْبَاطِنِ تَحْتَاجُ إِلَى الْمُسَاعَدَةِ بِحَرَكَةِ
الظَّاهِرِ، وَالْحَرَكَةُ فِي الْبَاطِنِ تَطْلُبُ الْحَرَكَةَ فِي الظَّاهِرِ
لِيَسْتَقِيمَ النُّظَامُ وَلَا يَخْتَلَّ فِي الْبَدَنِ وَالنَّفْسِ مَعًا. وَلَا نَذُوقُ
طَعْمِ الْحَيَاةِ وَلَا نَصِلُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ السَّعَادَةِ الَّتِي سَخَّرَهَا لَنَا
الْخَالِقُ فِي حَيَاتِنَا إِلَّا بِهَذَا النُّظَامِ. وَقَدْ تَرَى الرَّجُلَ سَاكِنَ
الْجِسْمِ وَصَدْرُهُ يَغْلِي بِالْغَيْظِ وَيَفُورُ بِالْحَقْدِ، فَإِذَا دَامَ عَلَى

السُّكُونِ لَمْ تَأْمَنْ عَلَيْهِ سُوءَ الْعَاقِبَةِ مِنْ ذَلِكَ الْاِخْتِلَالِ،
وَلِهَذَا فَإِنَّهُمْ يَنْصَحُونَ الْإِنْسَانَ إِذَا غَضِبَ أَنْ يَأْتِيَ بِحَرَكَةٍ فِي
بَدَنِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ»
[أبو داود، رقم: ٤٧٨٤] وَفِي كَلَامِ أَرِسْطُو: «فَلْيَسْتَحِمَّ
بِالْمَاءِ الْبَارِدِ». وَتَرَى الْأَشْجَارَ لَا تَسِيرُ سَيْرَهَا الطَّبِيعِيِّ فِي
النُّمُو إِذَا لَمْ تُعَرِّضْهَا لِلْهَوَاءِ لِتَهْتَرَّ أَغْصَانُهَا فَتُسَاعِدَ الْحَرَكَةَ
فِي ظَاهِرِهَا حَرَكَةَ نُمُوها فِي بَاطِنِهَا.

فَتَعَهُدُ الْبَدَنُ بِمَا يُضْلِحُهُ مِنَ الْغِذَاءِ وَالنَّظَافَةِ وَالْحَرَكَةِ
وَسِوَاهَا وَاجِبٌ، وَالسَّيْرُ بِهِ عَلَى قَانُونِ الصُّحَّةِ مُتَعَيَّنٌ
لِسَلَامَتِهِ وَسَلَامَةِ النَّفْسِ مَعَهُ. وَلَا تَعْجَبْ لِلْإِشْهَابِ مِنَّا فِي
هَذَا الْبَابِ، فَإِنَّهُ أَضَلُّ مِنْ أَصُولِ مُعَالَجَةِ النَّفْسِ، وَمِمَّا
يَذُكُّكَ عَلَيْهِ أَنَّكَ تَرَى الشَّيْءَ فِي حَالِ انْتِظَامٍ صِحَّتِكَ
فَتَرْتَاحُ إِلَيْهِ نَفْسُكَ وَتَسْتَلِذُّهُ، وَلَكِنَّهَا إِذَا رَأَتْهُ فِي حَالَةٍ مِنْ
حَالَاتِ الْجِسْمِ الْمُغْتَلَّةِ انْقَبَضَتْ مِنْهُ وَكَرِهَتْهُ، وَالشَّيْءُ
وَاحِدٌ بِذَاتِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ، وَإِنَّمَا تَغَيَّرَ نِظَامُ النَّفْسِ بِاِخْتِلَالِ نِظَامِ
الْجِسْمِ. وَمِنْ هُنَا تَتَّضِحُ لَكَ صِحَّةُ الْقَاعِدَةِ الْمَشْهُورَةِ بِأَنَّ
الْأَشْيَاءَ الْخَارِجَةَ عَنِ الْإِنْسَانِ لَا قِيَمَةَ لَهَا فِي ذَاتِهَا، وَأَنَّ
طَرِيقَةَ نَظَرِنَا إِلَيْهَا وَكَيْفِيَّةَ قَبُولِنَا إِيَّاهَا هِيَ الَّتِي تُلْبِسُهَا لِبَاسَ
الْحُسْنِ أَوْ الْقُبْحِ.

وَقَدْ أَجْمَعَ جِلَّةُ عُلَمَاءِ الْأَخْلَاقِ عَلَى أَنَّ تِسْعَةَ
 أَغْشَارِ السَّعَادَةِ لِلْإِنْسَانِ قَائِمَةٌ عَلَى أَعْتِدَالِ صِحَّةِ الْبَدَنِ
 وَحُسْنِ الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ سُلْطَانَهُ عَلَى النَّفْسِ عَظِيمٌ،
 تَغْتَلُّ بِاِغْتِلَالِهِ، وَتَصِحُّ بِصِحَّتِهِ. وَتَرَى كَثِيرًا مِنْ أَمْرَاضِ
 الْبَدَنِ تُؤَثِّرُ عَلَى الصِّفَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ أَغْظَمَ مِنْ تَأْثِيرِهَا عَلَى
 ظَاهِرِ الْبَدَنِ، فَيَخْتَلُ التَّصَوُّرُ وَيَتَبَلَّدُ الذَّهْنُ وَتَتَغَيَّرُ الطَّبَاعُ.
 وَمِنْ الْجُنُونِ الْمَخْضِ وَسُوءِ عَمَلِ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ وَتَعَمُّدِ
 الْإِيذَاءِ لِنَفْسِهِ وَالضَّرَرِ بِذَاتِهِ أَنْ يُهْمَلَ أَمْرَ بَدَنِهِ، وَيَشْتَغَلَ
 عَنْهُ بِسَفَاسِفِ الْأُمُورِ، وَيُنْهَكُهُ فِي سَبِيلِ الْمَطَالِبِ الْبَاطِلَةِ
 وَيَجْعَلُهُ فِدْيَةً لِلسَّعْيِ وَرَاءَ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالْعِلْمِ الْعَقِيمِ
 وَالْمَجْدِ الزَّائِلِ وَاللَّذَّةِ الْوَقْتِيَّةِ.

(٢)

أَعْلَمُ أَنَّ مَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ مِنْ مُعَالَجَةِ الْأُخْزَانِ يَنْقَسِمُ
 إِلَى قِسْمَيْنِ: مَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ فِي ذَاتِهَا وَمَعْرِفَةِ مَا
 تَلَبَّسَ بِالْأَذْهَانِ مِنَ الْأَوْهَامِ الْبَاطِلَةِ فَأَخْطَأَتْ كُنْهَ الْحَقِيقَةِ،
 فَانْقَلَبَتْ بِنَا أَنْقِلَابًا أَوْرَثَنَا الشَّقَاءَ وَالْبَلَاءَ، وَرَمَانَا فِي
 الْأُخْزَانِ وَالْأَكْثَادِ. وَنَتِيجَةُ أَرْتِفَاعِ الْأُخْزَانِ هِيَ حُصُولُ
 رَاحَةِ الْحَيَاةِ، فَقَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْنَا الْبَحْثُ أَوَّلًا عَنْ مَاهِيَّةِ هَذِهِ
 الرَّاحَةِ فِي مَعِيشَتِنَا، وَعَنْ مَاهِيَّةِ الْأَلَمِ، وَعَنْ حَقِيقَةِ الْخَيْرِ

وَحَقِيقَةُ الشَّرِّ، وَهَلْ هَذِهِ الدَّارُ دَارُ أَلَمٍ وَشَقَاءٍ خَالِيَةٍ مِنْ
أَسْبَابِ السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ، أَمْ فِيهَا رَاحَةٌ لِلْعَيْشِ وَسَعَادَةٌ
لِلْحَيَاةِ؟ فَنَقُولُ:

إِنَّ اللَّهَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ لَمْ يُرْذِ بِمَخْلُوقَاتِهِ شَرًّا فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا، وَلَمْ يَجْعَلْهَا مُسْتَقَرًّا لِلْأَلَمِ، وَمَطْمُورَةً لِلْعَذَابِ،
وَتَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، بَلْ جَعَلَهَا لِأَوْلِيَائِهِ دَارَ
سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ فَإِنَّهُ، يَرْحَلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارِ سَعَادَةٍ وَهَنَاءٍ
بَاقِيَةٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٠ سورة يونس/ الآية: ٦٢] وَإِنَّمَا نَحْنُ
الَّذِينَ نَجْلُبُ الشَّرَّ لِأَنْفُسِنَا وَنُسَوِّدُ عَيْشِنَا بِأَيْدِينَا، وَمَا فَسَدَ
الزَّمَانُ وَإِنَّمَا نَحْنُ الْفَاسِدُونَ.

[الخفيف]

كُلَّمَا أَتَيْتَ الزَّمَانَ قَنَاءً
رَكِبَ الْمَرءُ فِي الْقَنَاءِ سِنَانًا
أَشْتَبَهَتْ عَلَيْنَا الْأُمُورُ، وَاخْتَلَطَتِ الْأَشْيَاءُ، وَأَخْطَأْنَا
الْحُكْمَ، وَأَخِذْنَا بِتَضْلِيلِ الْمُضِلِّينَ وَأَبَاطِيلِ الْمُبْطِلِينَ، فَصِرْنَا
لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ الطَّيِّبِ وَالْخَبِيثِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْأَلَمِ وَاللَّذَّةِ
وَالضَّرِّ وَالنَّافِعِ، بَلْ أَخِذْنَا هَذَا مَكَانَ ذَلِكَ، وَصَبَغْنَا الضُّدَّ
بِصَبْغَةِ ضِدِّهِ، فَحَوَّلْنَاهُ عَنْ أَصْلِهِ، فَوَقَعْنَا فِي شَرِّ الْعَذَابِ،
وَمَنْ خَالَفَ الْحَقِيقَةَ - يَغْنِي: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

عَلَيْهَا - وَخَرَجَ عَنْهَا، فَأَجْدِرُ بِهِ أَنْ لَا يَلْقَى فِي دُنْيَاهُ رَاحَةً
وَلَا فِي حَيَاتِهِ سَعَادَةً.

وَكَمَا أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ لِلطَّبِيبِ أَنْ يَعْرِفَ عِلَاجَ
الْأَمْرَاضِ وَشِفَاءَهَا إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ تَرْكِيبِ الْجِسْمِ وَالْوُقُوفِ
عَلَى وَظِيفَةِ كُلِّ عَضْوٍ مِنْهُ، كَذَلِكَ لَا بُدَّ لِحَكِيمِ النَّفْسِ
مِنْ تَشْرِيحِ الْأَفْكَارِ وَمَعْرِفَةِ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ فِيهَا لِإِنْظَامِ
صِحَّةِ النَّفْسِ.

وَقَدْ مَضَى بِنَا الْكَلَامُ عَنْ تَأْثِيرِ اخْتِلَالِ صِحَّةِ الْجِسْمِ
فِي الْفِكْرِ وَمَا يَجِبُ الْأَخْذُ بِهِ فِي تَذْيِيرِ صِحَّةِ الْبَدَنِ،
وَنَتَكَلَّمُ الْآنَ عَنْ تَأْثِيرِ اخْتِلَالِ صِحَّةِ النَّفْسِ فِي الْفِكْرِ
وَالْجِسْمِ مَعًا، وَمَا هُوَ الْوَاجِبُ أَنْ تَأْخُذَ نَفْسُكَ بِهِ فِي
تَذْيِيرِ الصُّحَّةِ الرُّوحَانِيَّةِ، فَأَعْلَمُ أَنَّ اخْتِلَالَ صِحَّةِ الْفِكْرِ
مَبْعَثُهُ الْخَطَأُ فِي الْحُكْمِ عَلَى حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ، وَالْغَلْطُ فِي
تَقْدِيرِهَا، وَضَعْفُ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ؛ وَصِحَّةُ
التَّمْيِيزِ وَتَوَازُنُ الْفِكْرِ وَمَعْرِفَةُ الْأَشْيَاءِ فِي ذَاتِهَا مُجَرَّدَةٌ عَمَّا
يَشُوبُهَا مِنَ الْخَطَأِ وَالْوَهْمِ هُوَ مَا نُسَمِّيهِ عَقْلًا، وَهُوَ أَحَدُ
الْأَرْكَانِ الْأَرْبَعَةِ لِلْفَضِيلَةِ الَّتِي لَا تُنَالُ السَّعَادَةُ بِدُونِهَا.

وَقَبْلَ أَنْ نَدْخُلَ فِي بَيَانِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي غَلَبَ
عَلَيْهَا وَهْمُ النَّاسِ، فَاعْتَبَرُوا الضَّارَّ مِنْهَا نَافِعًا، وَالنَّافِعَ

ضَارًّا، يَلْزِمُ لَنَا الْكَلَامُ عَنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ
 الْحَيَاةِ، وَهَذَا الْغَرَضُ هُوَ الَّذِي أَشْتَغَلَ بِهِ الْفَلَاسِفَةُ مُنْذُ
 الدَّهْرِ الْأَوَّلِ، وَذَهَبُوا فِيهِ مَذَاهِبَ شَتَّى، وَأَخْتَلَفُوا بَيْنَهُمْ
 اخْتِلَافًا بَيِّنًا، دَعَا إِلَيْهِ حُبُّ الْجَدَلِ وَمَيْلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
 إِلَى الْإِنْتِصَارِ لِرَأْيِهِ، حَتَّى بَلَغَ بِهِمُ الْأَمْرُ أَنْ جَعَلُوا لِلْسَّعَادَةِ
 الْعُظْمَى مِثَّتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَجْهًا، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَخْتَلِفُ عَنِ
 الْآخَرِ. وَالرَّأْيَانِ الْغَالِبَانِ بَيْنَ تِلْكَ الْأَرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ أَحَدُهُمَا:
 أَنَّ سَعَادَةَ الْحَيَاةِ هِيَ ذَاتُ الْفَضِيلَةِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ
 يَسْعَى إِلَيْهَا بِكُلِّ وَسِيلَةٍ، سَوَاءٌ وَصَلَ إِلَيْهَا مِنْ طَرِيقِ الْأَلَمِ
 أَوْ مِنْ طَرِيقِ اللَّذَّةِ؛ وَثَانِيهِمَا: أَنَّ السَّعَادَةَ الْعُظْمَى هِيَ فِي
 اللَّذَّةِ يَبْلُغُهَا الْإِنْسَانُ مِنْ طَرِيقِ الْفَضِيلَةِ - هُنَا وَاسِطَةٌ وَهُنَاكَ
 غَايَةٌ - وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي هَذَيْنِ الرَّأْيَيْنِ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ
 بِالْأَقْرَبِ مِنْهُمَا إِلَى الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ.

إِنَّا إِذَا تَأَمَّلْنَا فِي أَطْوَارِ كُلِّ ذِي رُوحٍ وَجَدْنَاهُ يَأْتِسُّ
 إِلَى اللَّذَّةِ مُنْذُ نَشَأَتِهِ فِي الْوُجُودِ وَيَمِيلُ بِطَبْعِهِ إِلَى التَّمَتُّعِ
 وَيَجِدُّهَا خَيْرًا عَظِيمًا، ثُمَّ هُوَ يَنْقُرُ مِنَ الْأَلَمِ وَيَتَّقِيهِ، وَيَسْعَى
 جُهْدَهُ فِي دَفْعِهِ عَنْهُ، وَيَرَاهُ مِنْ أَكْبَرِ الشُّرُورِ عَلَيْهِ. هَذَا فِي
 حَالَةِ صِحَّةِ الْحُكْمِ الَّذِي فَطَرْتُهُ عَلَيْهِ الطَّبِيعَةُ قَبْلَ اخْتِلَاطِ
 الْفِكْرِ وَفَسَادِهِ. وَلَا مَحَلَّ هُنَا لِتَعَدُّدِ الْبَرَاهِينِ وَطُولِ

الْجِدَالِ، فَالْأَمْرُ مَحْسُوسٌ لَا نِزَاعَ فِيهِ، وَمَا كَانَ مَحْسُوسًا
لَمْ يَخْتَجِ إِلَى بُرْهَانٍ، وَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ بَيْنَ الْاِخْتِیَاجِ عِنْدَ بَيَانِ
الْحَقِيقَةِ إِلَى تَرْتِيبِ الْمُقَدَّمَاتِ وَاسْتِخْرَاجِ النَّتَائِجِ وَبَيْنَ عَدَمِ
الْاِخْتِیَاجِ لِغَيْرِ الشَّرْحِ وَالْوَصْفِ فِي بَسْطِهَا، وَالْحِسُّ هُوَ
الْحَاكِمُ الْأَوَّلُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي جَمِيعِ أَحْكَامِهِ، فَلَوْ نَزَعْنَاهُ
عَنْهُ لَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قُوَّةِ الْحُكْمِ، وَلَمْ يُدْرِكِ التَّمْيِيزَ
بَيْنَ مَا هُوَ مُوَافِقٌ لِلطَّبِيعَةِ وَمَا هُوَ مُخَالِفٌ لَهَا.

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي الْعَالَمِ مَنْ يَخْتَقِرُ اللَّذَّةَ
وَيَكْرَهُهَا وَيَنْفِرُ عَنْهَا، لِأَنَّهَا لَذَّةٌ فِي ذَاتِهَا، بَلْ لِأَنَّهُ قَدْ تَشَجُّعُ
عَنْهَا الْأَلَمُ لِمَنْ لَمْ يُعِدَّ لَهَا وَيَأْخُذْ فِيهَا بِحَسَبِ أَحْكَامِ
الْفَضِيلَةِ، كَمَا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ إِنْسَانٌ يُحِبُّ الْأَلَمَ وَيَبْحَثُ عَنْهُ
لِلْوُقُوعِ فِيهِ لِكُونِهِ أَلَمًا فِي ذَاتِهِ، بَلْ لِأَنَّهُ قَدْ تَشَجُّعُ عَنْهُ لَذَّةٌ.
فَتَرَى الْإِنْسَانَ يَحْتَمِلُ كَثِيرًا مِنَ الْأَلَامِ لِأَجْلِ أَنْ يَتَوَصَّلَ
بِهَا إِلَى نَتِيجَةٍ نَافِعَةٍ. وَأَيُّ الرَّجُلَيْنِ يَكُونُ فِي حُكْمِ الْعَقْلِ
مَلُومًا؟ أَذَلِكَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ اللَّذَّةِ الَّتِي لَا ضَرَرَ فِي
عَاقِبَتِهَا أَمْ ذَلِكَ الَّذِي يَبْحَثُ عَنِ الْأَلَمِ الَّذِي لَا تَكُونُ فِي
عَاقِبَتِهِ لَذَّةٌ؟ لَا شَكَّ أَنَّنَا نَلُومُ كُلَّ مَنْ غَرَّتْهُ جَاذِبَةُ اللَّذَّةِ
الْوَقْتِيَّةِ، فَعَمِيَ عَمَّا يَلْحَقُهَا مِنَ الْأَلَامِ وَالْأَكْثَادِ الَّتِي تَشْجُّعُ
لِلنَّفْسِ عَنِ اسْتِسْلَامِهَا فِي قِيَادَةِ الشَّهَوَاتِ، كَمَا أَنَّنَا نَلُومُ

أُولَئِكَ الَّذِينَ تَذَهَبُ بِهِمْ رَخَاوَتُهُمْ وَتَرْفُهُمْ إِلَى اتِّقَاءِ الْأَلَمِ بِإِخْلَالِ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ عَلَيْهِمْ. وَشَأْنُ الْعَاقِلِ فِي اللَّذَّةِ أَنَّهُ إِذَا كَانَ حُرّاً فِي تَنَاوُلِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مُمَانِعٌ عَنْهَا أَنْ يَتَمَتَّعَ بِهَا وَيَتَخَلَّصَ مِنَ الْأَلَامِ، وَلَكِنْ إِذَا اعْتَرَضَهُ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ وَاجِبٌ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَضُرُورَةٌ مِنْ ضَرُورِيَّاتِ نِظَامِ الْمَعَايِشِ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْفُضَ لَذَّتَهُ وَيَتَقَدَّمَ لِتَحْمُلِ التَّعَبِ وَالْأَلَمِ، فَإِنَّ رَفْضَ اللَّذَاتِ الْعَظِيمَةِ وَأَخْتِمَالَ الْأَلَامِ الْخَفِيفَةِ لِدَفْعِ الْأَلَامِ الشَّدِيدَةِ هُوَ مَا يَقْضِي بِهِ الْعَقْلُ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَيَكُونُ عَقْلُهُ مِيزَانًا يَزِنُ بِهِ الرَّاجِحَ مِنَ الْمَرْجُوحِ. وَلَيْسَتْ اللَّذَّةُ هُنَا بِالْمَعْنَى الْمَشْهُورِ بَيْنَ النَّاسِ، بَلْ هِيَ مَا يُلَانِمُ الْجِسْمَ وَالنَّفْسَ، وَيَصِلُ بِهِمَا إِلَى سَعَادَةِ الْحَيَاةِ مِنْ طَرِيقِ الْفَضِيلَةِ كَمَا سَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي تَتِمَّةِ تَعْرِيفِهَا.

(٣)

إِنَّ اللَّذَّةَ الْكَامِلَةَ الَّتِي نَشُدُّهَا مِنْ طَرِيقِ الْفَضِيلَةِ وَنَجْتَهِدُ فِي تَعْرِيفِهَا لَكَ لَيْسَتْ هِيَ ذَلِكَ الْإِخْسَاسَ الَّذِي تُحِسُّ بِهِ فِي أَثْنَاءِ سَدِّ الْحَاجَةِ، بَلْ هِيَ الْحَالَةُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الْجِسْمُ قَبْلَ حُدُوثِ الْأَلَمِ. وَبَعْدَ إِزَالَةِ الْأَلَمِ، فَلَا يُقَالُ لِلْجَائِعِ وَهُوَ يَلْتَقِمُ طَعَامَهُ لُقْمَةً بَعْدَ لُقْمَةٍ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ اللَّذَّةَ، وَإِنَّمَا يَبْلُغُهَا عِنْدَ الْإِنْتِهَاءِ مِنَ الطَّعَامِ، لِأَنَّهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ سَائِرٌ فِي طَرِيقِ رَفْعِ الْأَلَمِ لَمْ يَصِلْ إِلَى غَايَتِهِ وَلَمْ

يَبْلُغُهَا إِلَّا بِالشُّبْعِ الَّذِي يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ لِأَجْلِهِ، فَاللَّذَّةُ إِذَا فِي
تَمَامِ رَفْعِ الْأَلَمِ لَا فِي مُبَاشَرَةِ رَفْعِهِ، لِأَنَّهَا فِي مُبَاشَرَةِ رَفْعِهِ
غَيْرُ تَامَةٍ، وَاللَّذَّةُ التَّامَةُ هِيَ الرَّاحَةُ الَّتِي يَجِدُهَا الْجَائِعُ عِنْدَ
الشُّبْعِ، وَالْعَطْشَانُ عِنْدَ الْإِرْتَوَاءِ، وَالسَّهْرَانُ عَقِبَ الْمَنَامِ؛
وَلَكِنَّ النَّاسَ بِمَعْزِلٍ عَنْ مَعْرِفَةِ قَدْرِ هَذِهِ اللَّذَّةِ الَّتِي هِيَ
سَلَامَةُ الْجِسْمِ مِنَ الْأَلَمِ، وَالنَّفْسِ مِنَ الْاضْطِرَابِ. وَمِنْ
جَهْلِهِمْ بِهَا أَنَّهُمْ لَا يُذَرِّكُونَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ تِلْكَ الرَّاحَةِ إِلَّا
إِذَا زَالَتْ عَنْهُمْ، وَلَا يَتَمَتَّعُونَ بِهَا وَهُمْ فِيهَا، وَلَا يَتَوَهَّمُونَهَا
إِلَّا فِي أَثْنَاءِ الْمَسِيرِ إِلَيْهَا، فَتَرَى صَاحِبَ الْجِسْمِ السَّلِيمِ مِنْ
كُلِّ عِلَّةٍ لَا يُذَرِّكُ أَنَّهُ فِي أَعْظَمِ لَذَّةٍ مِنَ الصَّحَّةِ إِلَّا إِذَا حَلَّ
بِهِ مَرَضٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ يَصْرِفُ عَنْهُ الْحَالَةَ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا
مِنَ الرَّاحَةِ، فَإِذَا تَدَرَّجَ فِي أَذْوَارِ النَّقَاحَةِ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ
تَوَهَّمَ فِيهَا لَذَّةً، وَإِنَّمَا حَقِيقَةُ اللَّذَّةِ هِيَ الرُّجُوعُ إِلَى حَالَتِهِ
الْأُولَى الَّتِي كَانَ غَافِلًا عَنْهَا. وَكَذَلِكَ لَا تَكُونُ الرَّاحَةُ
لِلْمُقَيَّدِ فِي الْحَدِيدِ عِنْدَ فَكِّ الْقَيْدِ عَنْهُ، بَلْ عِنْدَمَا يَرْجِعُ
جِسْمُهُ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا قَبْلَ وَضْعِ رِجْلِهِ فِي
الْقَيْدِ، وَهَذَا الْوَهْمُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَسْبَابِ الَّتِي سَوَّدَتْ حَيَاةَ
النَّاسِ بِالْأَحْزَانِ، وَجَعَلَتْهُمْ يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي شَقَاءِ وَهُمْ
فِي نَعِيمٍ، وَيَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ فِي نَعِيمٍ وَهُمْ فِي شَقَاءٍ، غَافِلِينَ
عَنْ نِعْمَةِ تِلْكَ الرَّاحَةِ الَّتِي هِيَ مُنْتَهَى السَّعَادَةِ وَالَّتِي قِيلَ

فيها: «لَيْسَ لِلرَّاحَةِ قِيَمَةٌ»، فَهِيَ فَوْقَ كُلِّ قِيَمَةٍ فِي الدُّنْيَا.

فَقَدْ تَقَرَّرَ إِذَا أَنَّ الْمَسَافَةَ الَّتِي يَغِيبُ فِيهَا الْأَلَمُ لَا الْمَسَافَةَ الَّتِي يَرْتَفِعُ فِي أَثْنَائِهَا هِيَ اللَّذَّةُ الْمَقْصُودَةُ لَدَى الْحُكَمَاءِ. وَالْعَاقِلُ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَنْ يُذْرِكَ الرَّاحَةَ فِي حَيَاتِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَلَوْ كَانَ وَاقِعًا فِي الْأَلَمِ، فَإِنَّ الْأَلَمَ إِنْ كَانَ طَوِيلَ الْمُدَّةِ كَانَ ذَا فَتَرَاتٍ تَكُونُ فِيهَا الرَّاحَةُ، وَإِنْ كَانَ شَدِيدًا كَانَ قَصِيرَ الْمُدَّةِ لِسُرْعَةِ الْخَلَاصِ مِنْهُ. فَالَّذِي يَهُونُ عَلَى نَفْسِهِ تَحْمَلُ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنَ الْأَلَمِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ عَلَى مُوجِبِ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ، إِمَّا بِتَحْمُلِهَا وَالتَّمَتُّعِ بِرَّاحَةِ فَتَرَاتِهَا فِي حَالَةِ خِفَّتِهَا أَوْ بِتَرْقُبِ الْخَلَاصِ مِنْهَا فِي حَالَةِ شِدَّتِهَا؛ هُوَ مَنْ يَمْلِكُ رَاحَةَ الْحَيَاةِ وَسَعَادَةَ الدُّنْيَا.

وَهَذِهِ الرَّاحَةُ هِيَ الَّتِي لَا يَتَعَلَّقُ الْإِنْسَانُ بِذَاتِ الْفَضِيلَةِ وَلَا يَزْغِبُ فِيهَا إِلَّا لِلْوُضُولِ إِلَيْهَا كَمَا أَنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِصِنَاعَةِ الطَّبِّ لِذَاتِ الطَّبِّ، بَلْ لِلتَّوَصُّلِ بِهِ إِلَى الصُّحَّةِ الَّتِي تَنْشَأُ عَنْهُ، كَمَا أَنَّ صِنَاعَةَ الْمِلَاحَةِ لَا تُطْلَبُ لِذَاتِهَا وَلَكِنْ لِلانْتِفَاعِ بِهَا فِي السَّلَامَةِ. وَالْحِكْمَةُ الَّتِي هِيَ صِنَاعَةُ الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا رَاحَةٌ لِلْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ، فَهِيَ غَيْرُ مَرْغُوبٍ فِيهَا، وَلَا مَطْلُوبَةٌ لِذَاتِهَا.

هَذَا هُوَ تَغْرِيفُ اللَّذَّةِ الَّذِي يُخْطِئُ النَّاسُ فِيهِ وَلَا
يُذَرِّكُونَ حَقِيقَتَهُ، وَلَا وُضُوعَ إِلَيْهِ إِلَّا بِالْحِكْمَةِ الَّتِي تَكْشِفُ
غِطَاءَ الْأَوْهَامِ وَتُمْكِّنُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْحُكْمِ الصَّحِيحِ عَلَى
أُمُورِ الْحَيَاةِ وَتَنْزِعُ عَنْهُ غِشَاوَةَ الْغَبَاوَةِ الَّتِي اسْتَحْكَمَتْ فِيهِ،
حَتَّى صَارَ يَتَخَوَّفُ مِمَّا لَا خَوْفَ مِنْهُ، وَيَحْزَنُ مِمَّا لَا حُزْنَ
فِيهِ، وَهِيَ الَّتِي تُرْشِدُهُ إِلَى تَقْلِيلِ الرِّغَبَاتِ وَتَرْفَعُ عَنْهُ
الْاِعْتِدَادَ بِأَحْكَامِ النَّاسِ وَآرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ الْمُتَوَلِّدَةِ فِيهِمْ مِنْ
جَهْلِهِمْ بِالْحَقَائِقِ وَتَقْلِيدِهِمْ عَلَى الْعَمَى، فَتَنْطَفِئُ مِنْهُ نَارُ
الطَّمَعِ وَالشَّرِّهِ الَّتِي أَوْدَتْ بِالْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ وَبِالْأُمَمِ بِمَا
وَلَدَتْهُ فِيهِمْ مِنَ الْأَحْقَادِ وَالْأَضْغَانِ، وَمَا أَسْعَرَتْهُ مِنْ نِيرَانِ
الْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ، فَجَعَلَتِ النَّاسَ فِي أَلَمٍ دَائِمٍ لَا يَجِدُونَ
مِنْهُ مَخْلَصًا. فَالْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَنْفِي عَنْهُ أَسْبَابَ الْخَوْفِ،
وَيُقَلِّلُ مِنَ الرِّغَبَاتِ، وَيَرْضَى بِالْكَفَافِ، وَيَقْصُرُ هَمَّهُ عَلَى
مَا تُقْضَى بِهِ الْحَاجَةُ الضَّرُورِيَّةُ أَوْ الطَّبِيعِيَّةُ، فَلَا يَتَوَلَّدُ فِيهِ
الشَّرُّ وَالطَّمَعُ الَّذِي هُوَ مَجْلَبَةُ الْأَحْزَانِ وَالْآلَامِ، وَمَنْبَعُ
الْمَخَافِ وَالشُّرُورِ، وَقَدْ أَلَمَ بِذَلِكَ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ فِي قَوْلِهِ:

[الخفيف]

مَرْحَبًا بِالْكَفَافِ يَأْتِي عَفِيًّا

وَعَلَى الْمُتَعَبَاتِ ذَيْلُ الْعَفَاءِ

ضِلَّةٌ لِأَمْرِي يُشْمَرُ فِي الْجَمِّ
 عِ لِعَيْشٍ مُشْمَرٍ لِلْفَنَاءِ
 يَحْسَبُ الْحَظُّ كُلَّهُ فِي يَدَيْهِ
 وَهُوَ مِنْهُ عَلَى مَدَى الْجَوَازِ
 لَيْسَ فِي أَجْلِ النَّعِيمِ لَهُ حَظٌّ
 حُظٌّ وَمَا ذَاقَ عَاجِلَ النَّعْمَاءِ
 ذَلِكَ الْخَائِبُ الشَّقِيقُ وَإِنْ كَا
 نَ يَرَى أَنَّهُ مِنَ السُّعَدَاءِ
 حَسْبُ ذِي إِرْبَةِ وَرَأْيٍ جَلِيٍّ
 نَظَرَتْ عَيْنُهُ بِلا غُلُوءٍ
 صِحَّةُ الْجِسْمِ وَالْجَوَارِحِ وَالْعِزِّ
 ضِ وَإِخْرَازُ مُسْكَةِ الْحَوْبَاءِ
 وَقَدْ آنَ أَنْ تُبَيِّنَ غَلَطَ النَّاسِ فِي حُكْمِهِمْ عَلَى
 الْأَشْيَاءِ وَأَعْتِبَارِهِمُ الْخَيْرَ مِنْهَا شَرًّا وَالشَّرَّ خَيْرًا. وَأَكْبَرُ خَطَأٍ
 لَهُمْ تَرَاهُ خَوْفُهُمْ وَفَرَقُهُمْ مِنَ الْمَوْتِ الَّذِي هُوَ رَافِعُ
 الْأَسْقَامِ وَآخِرُ الْأَلَامِ، فَيَعُدُّونَهُ أَكْبَرَ الشُّرُورِ وَأَعْظَمَ
 الْخُطُوبِ، وَسَيَأْتِيكَ الْكَلَامُ عَمَّا يُمَاطِلُ ذَلِكَ مِنْ حَقَائِقِ
 الْأَشْيَاءِ.

(٤)

لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا إِلَّا وَهُوَ مُعَرَّضٌ لِلشَّكِّ،
 حَتَّى قَالَ بَعْضُ الْفَلَاسِفَةِ: «إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَقْبَلُ الشَّكَّ»،
 حَتَّى قَوْلِي هَذَا: «إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَقْبَلُ الشَّكَّ» وَمِنْ بَيْنِ
 الْفَلَاسِفَةِ طَائِفَةٌ يُعَرِّفُونَ بِأَهْلِ الشُّكُوكِ، يَشْكُونَ فِي كُلِّ
 شَيْءٍ حَتَّى فِي وُجُودِ ذَوَاتِهِمْ، وَيَعْتَبِرُونَ الْحَيَاةَ بِمَا فِيهَا
 كَرُوبًا فِي الْمَنَامِ.

وَلَكِنْ مَهْمَا وَقَعَ الشَّكُّ فِي أُمُورِ الْحَيَاةِ، فَإِنَّهُ يُوجَدُ
 أَمْرٌ وَقَعَ لَا دَخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ، وَهُوَ الْمَوْتُ. وَمِنْ عَجِيبِ
 أَمْرِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَبِرَ مَا يَرَاهُ مِنْ أَبَاطِيلِ الْحَيَاةِ كَالْحَقَائِقِ،
 وَيَعْتَقِدَ فِي مَا الشَّكُّ فِيهِ بَيِّنٌ وَاضِحٌ إِلَّا الْمَوْتَ، فَكَأَنَّهُ
 يَشْكُ فِيهِ.

[الكامل]

وَالْمَوْتُ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ

مِمَّنْ تَرَى وَكَأَنَّهُ يَخْفَى

وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَوَّلِ هِدَايَةِ الْأَنْبِيَاءِ لِلنَّاسِ تَذْكِيرُهُمْ
 بِالْمَوْتِ، وَكَانَ مِنْ هَمِّ الْفَلَاسِفَةِ كَذَلِكَ تَفْكِيرُهُمْ بِهِ وَبَسْطُ
 الْأَقْوَالِ فِي بُطْلَانِ الْحَيَاةِ؛ وَحَقِيقَةِ الْمَوْتِ، وَقَدْ أَخَذَ أَهْلُ
 الصُّينِ عَنْ فَلَاسِفَتِهِمْ قَاعِدَةً أَجْرَوْهَا بَيْنَهُمْ مَجْرَى الْعَادَةِ
 إِلَى الْيَوْمِ فِي وُجُوبِ تَذْكِيرِ الْمَوْتِ فِي كُلِّ حِينٍ، فَإِذَا وُلِدَ

الطُّفْلُ عِنْدَهُمْ صَنَعُوا لَهُ نَعْشًا وَوَضَعُوهُ بِجَانِبِ الْمَهْدِ،
يُجَدِّدُونَهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ عَلَى مِقْدَارِ النُّمُوِّ فِي جِسْمِ الطُّفْلِ،
وَلَا يَزَالُونَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا شَبَّ وَأَشْتَدَّ وَضَعُوا
النَّعْشَ بِجَانِبِ السَّرِيرِ إِلَى أَنْ يَتِمَّ نُمُو الْغُلَامِ، فَيَبْقَى
النَّعْشُ بِجَانِبِهِ حَتَّى يَحُلَّ يَوْمُ أَجَلِهِ، فَيَحْمِلُونَهُ عَلَيْهِ.
يُرْشِدُونَ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ يَوْمَ الْوِلَادَةِ وَيَوْمَ الْوَفَاةِ أَمْرَانِ
مُتَلَاصِقَانِ وَحَبْلَانِ مُتَوَاصِلَانِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَمْشِي فِي هَذِهِ
الدُّنْيَا وَكَأَنَّهُ عَابِرُ جَسِرٍ فِي طَرِيقٍ، عَنْ يَمِينِهِ فِيهَا الْمَوْتُ
وَعَنْ شِمَالِهِ الْحَيَاةُ، وَأَنَّهُ كَمَا يَدْبُ بِنُمُوِّهِ فِي الْحَيَاةِ يَدْبُ
بِأَنْفَاسِهِ نَحْوَ الْمَمَاتِ فِي آنٍ وَاحِدٍ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْعَاقِلِ أَنْ
يَحْضُرَهُ ذِكْرُ الْمَوْتِ كَمَا يَحْضُرُهُ ذِكْرُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْيَقِينَ
فِي أَغْوَادِ النَّعْشِ وَالشَّكِّ فِي أَسَاطِينِ الْقَضْرِ. فَمِنْ مُنْتَهَى
غِبَاوَةِ الْإِنْسَانِ وَجَهْلِهِ أَنْ يَتَّخِذَ فِي كُلِّ مَنْبِتِ شَعْرَةٍ مِنْ
جِسْمِهِ حَبْلًا مِنَ الْأَمْلِ يُعَلِّقُهُ بِالْبَقَاءِ فِي أَطْنَابِ الْبَيْتِ
وَيَمْحُو مِنْ ذَاكِرَتِهِ كُلَّ سَبَبٍ يَرْبِطُهُ بِصَفَائِحِ الْقَبْرِ.

وَالنَّاسُ يَنْقَسِمُونَ بِالنَّظَرِ إِلَى ذِكْرَى الْمَوْتِ ثَلَاثَةً
أَقْسَامَ: قِسْمٌ لَا يَتَذَكَّرُ الْمَوْتَ وَلَا يَأْتِي لَهُ عَلَى خَاطِرٍ، وَلَا
يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، كَأَنَّهُ قَدْ رَسَخَ فِي ذَهْنِهِ أَنْ لَا فَنَاءَ مَعَ الْبَقَاءِ،
وَلَا هَلَكَ مَعَ الْوُجُودِ. وَلَا يُحِسُّ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ أُمَّ الْحَقَائِقِ

فِي الدُّنْيَا إِلَّا عِنْدَ الْمُشَاهَدَةِ وَالْعِيَانِ، وَلَا يَذْكُرُ الْمَوْتَ إِلَّا رَيْثَمَا تَنْقُضِي عَنْهُ الْمُشَاهَدَةَ، كَأَن يَشْتَدُّ بِهِ مَرَضٌ فَيَتَذَكَّرُ الْمَوْتَ، فَإِذَا قَامَ مِنْ مَرَضِهِ قَامَ وَهُوَ لَا يَتَذَكَّرُ أَثَرًا لِتِلْكَ الْحَقِيقَةِ، وَإِذَا شَاهَدَ الْمَوْتَ فِي أَهْلِهِ وَجِيرَانِهِ لَمْ يَبْقَ ذِكْرُهُ إِلَّا رَيْثَمَا يَطْرَأُ عَلَيْهِ شُغْلٌ مِمَّا مِنْ مَشَاغِلِ الْحَيَاةِ، فَيَعُودُ إِلَى ذُهُولِهِ الْأَوَّلِ وَعَمَاهِ الْمُسْتَدِيمِ.

وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذَا الذُّهُولَ رَاحَةٌ مِنَ التَّفَكُّرِ فِي الْمَوْتِ الَّذِي هُوَ عِنْدَهُمْ شَرٌّ مِنَ الشُّرُورِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ فِي هَذِهِ الْمَسَافَاتِ الْوَجِيزَةِ الَّتِي يَتَذَكَّرُ الذَّاهِلُ فِيهَا الْمَوْتَ عِنْدَ أَشْتِدَادِ الْمَرَضِ عَلَيْهِ أَوْ عِنْدَ مَوْتِ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْجَزَعِ وَالْفَزَعِ مَا لَا تُقَاسُ آلَامُهُ بِآلَامِ الْحَيَاةِ كُلِّهَا، وَيَكُونُ هَذَا التَّذَكُّرُ لَدَيْهِ بِمَنْزِلَةِ زَلْزَلَةٍ تَهْدِمُ فِي لَحْظَةٍ جَمِيعَ مَا بَنَاهُ فِي رَأْسِهِ مِنَ الْأُمُورِ وَمَا زَخَرَفَهُ مِنَ الْأَمَانِيِّ أَوْ هُوَ نَفْخَةُ الصُّورِ تَذْهَبُ بِلَبِّهِ، وَرُبَّمَا أَثَّرَ ذَلِكَ فِي أَعْضَائِهِ وَجَوَارِحِهِ، فَجَعَلَهُ ثَانِي صَاحِبِهِ أَوْ قَرِيبِهِ فِي الْقَبْرِ، وَقَدْ سَمِعْنَا مِنْ هَذِهِ الْحَوَادِثِ شَيْئًا كَثِيرًا. وَمِنْ شِدَّةِ مَا يُصِيبُ أَهْلَ هَذَا الْقِسْمِ مِنَ الْفَزَعِ وَالْوَجَلِ تَرَاهُمْ أَكْثَرَ النَّاسِ حُزْنًا عِنْدَ فَقْدِ فَقِيدٍ لَهُمْ، لَا أَسْفًا عَلَيْهِ، وَلَكِنْ لِحُزْنِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِتَذَكُّرِ الْمَوْتِ

وَهَلَعَهُمْ مِنْ أَنْ يَسْرِيَ عَلَيْهِمْ مَا يَسْرِي عَلَى مَنْ بِجَانِبِهِمْ،
وَتَجِدُهُمْ أَشَدَّ النَّاسِ انْدِهَاشاً وَاسْتِغْرَاباً إِذَا قُلْتَ لَهُمْ مَاتَ
فُلَانٌ مِنْ أَصْحَابِكُمْ، كَأَنَّكَ أَخْبَرْتَهُمْ بِأَمْرِ لَيْسَ مِنَ الْعَادَةِ
وَقُوعُهُ، فَهُمْ يُبَادِرُونَكَ بِقَوْلِهِمْ: وَكَيْفَ مَاتَ؟ لَا يَسْتَفْهِمُونَ
بِذَلِكَ عَنْ سَبَبِ الْمَوْتِ، وَلَكِنْ عَنِ الْمَوْتِ نَفْسِهِ. وَلَوْ
قُلْتَ لَهُمْ: إِنَّ فُلَاناً طَارَ فِي الْجَوِّ لَمَا وَقَعُوا فِي
الاسْتِغْرَابِ وَقُوعَهُمْ فِيهِ عِنْدَ الْخَبَرِ بِمَوْتِهِ.

وَمِنْ رَأْيِهِمْ أَنَّهُمْ يَعْمَلُونَ كُلَّ مَا فِي الْوُسْعِ لِصَرْفِ
أَفْكَارِهِمْ عَنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَيَذَابُونَ فِي مَخْرِ الْمَذْكُرَاتِ بِهِ.
وَأَعْرِفُ صَاحِباً لِي كَانَ إِذَا قَرَأَ (بَانَتْ سَعَادُ) أَغْفَلَ
مِنْهَا قَوْلَ كَغِبَ فِيهَا:

[البسيط]

كُلُّ ابْنٍ أَنْشَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ

يَوْمًا عَلَى آلِهِ حَذَبَاءَ مَحْمُولُ

وَأَعْرِفُ آخَرَ لَا يَمْشِي فِي جَنَازَةٍ، وَلَا يَخْضُرُ مَأْتِماً،
وَلَا يَزُورُ مَقْبَرَةً، وَلَا يُبْصِرُ آلَةً مِنْ آلَاتِ الدَّفْنِ أَوْ الْكَفَنِ
إِلَّا وَيَهْرُبُ بِبَصَرِهِ عَنْهَا. وَيَسْتَعِيدُّ بِاللَّهِ مِنْهَا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْجُرُ بَيْتَهُ إِذَا مَاتَ فِيهِ مَيِّتٌ حَتَّى لَا
تُذَكَّرَهُ جُذْرَانُهُ بِخُرُوجِ الْمَيِّتِ مِنْهُ.

وَلَوْ أَنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلَى أَحَدِهِمْ صُورَةَ جُمُجُمَةٍ مِنْ
 ذَهَبٍ لَبَشَعَ مِنْهَا وَاسْتَنَكَرَهَا، وَلَا أَبَالِغُ فِي بَعْضِهِمْ، إِنْ
 قُلْتُ: إِنَّهُ يَنْبِذُهَا وَيَرْفُضُهَا، وَرُبَّمَا عَادَاكَ لِذَلِكَ وَسَخِطَ
 عَلَيْكَ لِإِعْتِقَادِهِ أَنَّكَ قَصَدْتَ بِهِ سُوءاً فِي تَذْكِيرِهِ بِهَذَا الشَّرِّ
 الْعَظِيمِ وَالْأَمْرِ الْفَظِيعِ. وَحَتَّى لَقَدْ صَارَتْ تِلْكَ الْجُمُجُمَةُ
 الَّتِي بَقِيَتْ فِي مُحَافِلِ الْمَاسُونِ مِنْ آثَارِ آبَائِهِمُ الْأَوَّلِينَ فِي
 وَجُوبِ تَذَكُّرِ الْمَوْتِ وَالتَّفَكُّرِ فِيهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمُ الْيَوْمَ آلَةً مِنْ
 آلَاتِ الْإِزْهَابِ وَالتَّخْوِيفِ، يَمْتَحِنُونَ عَلَيْهَا شَجَاعَةَ
 الْمُنْضَمِّينَ إِلَيْهِمْ. وَلَوْ بَحَثْتَ فِي رَأْسِ الْمَاسُونِيِّ الْجَدِيدِ
 عَنْ أَثَرِ مَا قَاسَاهُ فِي لَيْلَةِ دُخُولِهِ، مِنْ تَضَنُّعِهِمْ فِي التَّهْوِيلِ
 وَالتَّخْوِيفِ، لَمْ تَجِدْ بَاقِياً مِنْهُ فِي هَذِهِ الرَّأْسِ إِلَّا تِلْكَ
 الْجُمُجُمَةَ.

وَكَانَ فِي مِصْرَ رَجُلٌ عَالِمٌ مِنْ أَكْبَرَ الْعُلَمَاءِ، كَانَ
 يَجِيبُ مَنْ يَسْتَدْعِيهِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْكُبَرَاءِ لِيُغْسَلَ مَنْ يَعِزُّ
 عَلَيْهِمْ مَوْتُهُ تَبَرُّكاً بِهِ، فَكَانَ مَعَ سَعَةِ عِلْمِهِ وَدِمَائَةِ أَخْلَاقِهِ
 وَنِظَافَةِ ثِيَابِهِ وَرِقَّةِ شَمَائِلِهِ، إِذَا دَخَلَ مَجْلِساً مِنْ مَجَالِسِ
 الْعُظَمَاءِ انْقَبَضَ الْجَمِيعُ وَنَسَلَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ فِي إِثْرِ الْآخَرِ،
 وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ تَخَوُّفِهِمْ بِأَنْ يَتَذَكَّرُوا مَا كَانَ يُبَاشِرُهُ أَخِيَاناً
 مِنَ الْقِيَامِ بِغَسْلِ الْمَوْتَى.

وَأَمَامَنَا الْيَوْمَ كَبِيرٌ مِنَ الْكُبَرَاءِ قَدْ تَهَدَّمَتْ زَاوِيَةُ آبَائِهِ
وَأَجْدَادِهِ الَّذِينَ يَعِيشُ فِي كَنْفِ مَجْدِهِمْ وَشَرَفِ نَسَبَتِهِمْ،
وَيَرَى نَفْسَهُ فِي مُنْتَهَى السِّيَادَةِ وَالشَّرَفِ بِالِاتِّصَالِ بِحَبْلِ
تِلْكَ الرُّفَاتِ، فَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ يَفْزَعُ مِمَّنْ يُذَكِّرُهُ بِبِنَاءِ
الْمُنْهَدِمِ، وَيَسْتَهْوِلُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَزُورَ الْمَقْبَرَةَ يَوْمًا لِيَنْظُرَ
فِي وُجُوهِ تَرْمِيمِهَا.

وَلِضَرْبِ الْأَمْثَالِ فِي هَذَا الْبَابِ مَجَالٌ مُتَّسِعٌ لَا
تَسْتَوِعِبُهُ الرِّسَائِلُ وَالْكَتُبُ، وَيَكْفِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى
مَنْ حَوْلَهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ مِنْ كُلِّ يَوْمٍ، فَيَرَى الْغَرِيبَ
الْعَجِيبَ مِنَ الشَّكِّ فِي الْيَقِينِ وَالْإِتْيَابِ فِي الْوَاقِعِ.
وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ بَعْدُ عَنِ الْقِسْمَيْنِ الْآخَرَيْنِ.

(٥)

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ الْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ النَّاسِ بِالنُّسْبَةِ إِلَى
ذِكْرَى الْمَوْتِ هُمْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ تَرَاهُمْ يَخْشَوْنَهُ دَوَامًا
وَيَخَافُونَهُ أَبَدًا، وَيَتَوَلَّاهُمْ الرُّغْبُ مِنْهُ فِي كُلِّ حِينٍ،
وَيَتَرَقَّبُونَ وَقُوعَهُ فِي كُلِّ آنٍ، وَيَعْتَبِرُونَهُ هَادِمَ اللَّذَاتِ،
وَمُقَوِّضَ بِنَاءِ السَّعَادَةِ. وَأَشَدُّ مَا يَذْكُرُونَهُ إِذَا خَلَوْا مِنْ
أَشْغَالِهِمْ وَانْتَقَلُوا إِلَى أَوْقَاتِ فَرَاحِهِمْ وَصَفَائِهِمْ، فَيُكَدِّرُونَ
عَلَيْهِمْ تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الَّتِي يَخْتَلِسُونَهَا مِنْ أَيْدِي الْمَشَاغِلِ

اخْتِلَاسًا، وَيُسَوِّدُونَ بَيَاضَ عَيْنِيهِمْ بِالتَّخْوِيفِ الدَّائِمِ مِنْ
 انْتِقَالِهِ وَالتَّرَقُّبِ لِقُرْبِ زَوَالِهِ. وَمَا أَشَدَّ مَا يَكُونُ عَذَابُهُمْ
 مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ إِذَا أَرَدَفَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النُّعْمَةَ بَعْدَ النُّعْمَةِ
 مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَزِينَةِ الْحَيَاةِ وَكُلَّمَا آتَاهُمْ اللَّهُ فَضْلًا ذَهَلُوا
 عَنِ التَّمَتُّعِ بِهِ وَنَسُوا الشُّكْرَ عَلَيْهِ، فَلَا يُبْصِرُ أَحَدُهُمْ وَلَدَهُ
 إِلَّا وَتَغَلَّبَ عَلَى فِكْرِهِ التَّخَوُّفُ مِنْ فَقْدِهِ وَالْحَذَرُ مِنْ
 هَلَاكِهِ أَوْ التَّرَحُّلُ قَبْلَهُ وَلَا يَتَمَتَّعُ بِهِ. وَلَا يَنْظُرُ إِلَى مَا
 اكْتَنَزَهُ مِنْ مَالٍ وَاقْتَنَاهُ مِنْ زُخْرِفٍ إِلَّا نَظَرَ الْمَغْشِيَّ عَلَيْهِ
 مِنْ كَثْرَةِ مَا يَخْشَاهُ مِنْ حِرْمَانِهِ مِنْهُ بِالْانْصِرَافِ عَنْهُ وَمَا
 عَسَاهُ يَكُونُ مِنْ حَالِهِ بَعْدَ زَوَالِهِ وَانْتِقَالِهِ. لَا يَزَالُونَ هَكَذَا
 فِي حَالِ الْقَلَقِ وَالْاضْطِرَابِ وَالْجَزَعِ وَالْفَزَعِ وَالرُّغْبِ
 وَالْكَدَرِ، فَتَنْقَبِضُ مِنْهُمْ النُّفُوسُ وَتَطْرُقُ الرُّؤُوسُ وَتَسْقُطُ
 عَلَيْهِمُ الْهُمُومُ كِسْفًا مِنَ الْعَذَابِ يَتَمَلَّمُونَ مِنْهُ تَمَلُّلَ
 السَّلِيمِ وَيَثْنُونَ تَحْتَهُ أَيْنَ الْمُصَفِّدِ فِي الْقَيْدِ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ
 الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي
 ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ هُمْ بِكُمْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْدٍ
 مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُورٌ يَجْعَلُونَ اصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ
 حَذَرَ الْمَوْتِ ﴿١٩﴾ [سورة البقرة/ الآيات: ١٧ - ١٩].

(٦)

وَتَرَى أَهْلَ هَذَا الْقِسْمِ الثَّانِي الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الْمَوْتَ
وَيَخَافُونَهُ وَيَخْرِصُونَ عَلَى الْحَيَاةِ وَيُحِبُّونَهَا يَقْضُونَ أَوْقَاتَهُمْ
أَشْتِغَالًا بِالتَّوْقِي مِنَ الْأَخْطَارِ وَالتَّحَرُّزِ مِنْ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ،
وَلَا يَكْتَفُونَ فِي ذَلِكَ بِمَا يَدْخُلُ فِي طَوْقِهِمْ الْاِخْتِرَاسُ مِنْهُ،
بَلْ يَنْصَرِفُ هَمُّهُمْ إِلَى دَفْعِ مَا لَا دَافِعَ لَهُ مِنَ الْأَقْصِيَةِ
الْمُحْتَمَةِ وَالنَّوَازِلِ الطَّارِئَةِ وَالْبَلَايَا الْعَامَّةِ، كَالطَّوَاعِينِ
وَالْأَوْبِئَةِ وَأَمْرَاضِ الْعَدَوِيِّ، وَكَالزَّلَازِلِ وَالصَّوَاعِقِ
وَالْعَوَاصِفِ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَرْكَبُ الْبَحْرَ خَشْيَةَ الْغَرَقِ، وَلَا
يُسَافِرُ فِي الْبَرِّ خَوْفَ مُصَادَمَةِ الْقَطَرَاتِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُومُ مِنْ
مَنَامِهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَيَدُورُ فِي أَنْحَاءِ الْبَيْتِ، كَالْعَسَسِ يَتَفَقَّدُ
أَثَاثَ الْحُجُرَاتِ وَرِبَاشَهَا لِيَطْمَئِنَّ عَلَيْهَا أَنْ يَتَّصِلَ بِهَا شَيْءٌ
مِنْ أَسْبَابِ الْحَرِيقِ، فَإِذَا أَمِنَ الْمِسْكِينَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ،
وَأَسْتَغْرَقَ فِي نَوْمِهِ بُرْهَةً مِنْ لَيْلِهِ، وَرَأَى فِي الرُّؤْيَا أَنَّ أَحَدَ
الْأَمْوَاتِ مِنْ أَقَارِبِهِ وَأَصْحَابِهِ دَنَا مِنْهُ أَوْ سَلَّمَ عَلَيْهِ أَوْ رَحَّبَ
بِهِ أَوْ دَعَاهُ إِلَيْهِ قَامَ مِنْ مَنَامِهِ فِي أَشَدِّ آلامِ الْفَزَعِ كَالَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ لَا يَهْدَأُ لَهُ بَالٌ وَلَا يَسْتَقِرُّ بِهِ
قَرَارٌ أَيْنَمَا وَجَّهَ وَجْهَهُ تَرَقَّبَ وَقُوعَ الْمَوْتِ وَحُلُولَ الْأَجَلِ
وَتَضَدِيقِ الرُّؤْيَا. وَمِنْ غَرِيبِ الْمُتَنَاقِضَاتِ أَنَّهُ مَعَ هَذَا
التَّرَقُّبِ وَالتَّوَجُّسِ الَّذِي هُمْ فِيهِ إِذَا ذَكَرَتْ فِي مَجَالِسِهِمْ

أَسْمَ الْمَوْتِ، أَوْ تَلَوْتَ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [٣٩ سورة الزمر/ الآية: ٣٠] لَوْوَا أَعْنَاقَهُمْ، وَتَقَلَّصَتْ شِفَاهُهُمْ، وَكَادَتْ تَقِفُ حَرَكَاتُ قُلُوبِهِمْ مِنَ الْكَدْرِ وَالْغَيْظِ، وَنَقَمُوا عَلَيْكَ أَنَّكَ ذَكَّرْتَهُمْ بِمَا لَا يَغْفُلُونَ عَنْ ذِكْرِهِ لَيْلَهُمْ وَنَهَارَهُمْ. وَيَسْتَبْعِدُونَ الْمَوْتَ وَيُنْكِرُونَهُ عَلَيْكَ، فَلَا يَكَادُونَ يُصَدِّقُونَ بِمَوْتِ الْفَجَاءَةِ، فَإِذَا أَخْبَرْتَهُمْ بِحَادِثَةٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ أَخَذُوا يَتَعَلَّلُونَ لِذَلِكَ الْعِلَلِ وَيَتَمَحَّلُونَ الْأَسْبَابَ وَيَسْتَحِلُّونَ لِلْمَيِّتِ أَمْرًا كَامِنَةً وَأَذْوَاءَ مُزْمِنَةً لَمْ تَكُنْ بِهِ، وَإِذَا أَخْبَرْتَهُمْ بِمَوْتِ شَابٍّ فِي غَضَارَةِ عُمُرِهِ وَغَضَاضَةِ سِنِّهِ زَادُوهُ مَا شَاؤُوا مِنْ عَدَدِ السِّنِّينَ فِي عُمُرِهِ، كَمَا أَنَّهُمْ أَوَّلَعَ النَّاسَ بِإِخْفَاءِ حَقِيقَةِ أَعْمَارِهِمْ وَالْاجْتِهَادِ دَائِمًا فِي تَنْقِيصِ سِنِّيهِمْ لِيَغُشُّوا أَنْفُسَهُمْ وَيَطْرَحُوا مِنْ فِكْرِهِمْ إِمْكَانَ الْمُفَاجَأَةِ مِنْ هَذَا الْعَدُوِّ الْأَخْمَرِ فِي حِينِ الْغَرَّةِ وَفِي مُقْتَبِلِ الْعُمُرِ، وَلِيُظْمِئُوا عَلَى التُّرَاخِي فِي الْأَجَلِ.

أَمَّا سِيرَتُهُمْ وَخَطْبُهُمْ فِي التَّحَرُّزِ عَلَى أَجْسَامِهِمْ وَالْإِخْتِرَاسِ عَلَى أَبْدَانِهِمْ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ أَنْ يَغْتَرِبَهَا اغْتِيلًا أَوْ يُصِيبَهَا اخْتِلَالًا، فَهُمْ يَتَغَالَوْنَ فِي ذَلِكَ إِلَى حَدِّ يُورِثُهُمُ الْوَسْوَاسَ وَالْجُنُونَ، فَيُحَادِثُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ هُبُوبِ النَّسِيمِ وَحَرَارَةِ الضِّيَاءِ، وَيَحْرِمُونَ أَنْفُسَهُمْ لَذَّةَ

الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَيَتَوَهَّمُونَ فِي كُلِّ لُقْمَةٍ تُخَمَّةً، وَفِي كُلِّ جُرْعَةٍ غُصَّةً، وَيَتَخَيَّرُونَ لَهُمْ أَبْوَاباً خَاصَّةً مِنَ الْغِذَاءِ يَضْوَوْنَ بِهَا الْجِسْمَ، وَتُؤَثِّرُ شِدَّةُ الْهَوَاجِسِ وَالْوَسَاوِسِ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ فَتَنْتَهِي بِسُوءِ التَّأْثِيرِ عَلَى أَجْسَامِهِمْ فَتَضْعُفُ، وَحِينَئِذٍ يَأْخُذُونَ فِي أَسْتِعْمَالِ الْأَدْوِيَةِ الْمُخْتَلِفَةِ لِتَقْوِيَتِهَا فَتَزْدَادُ بِهَا ضَعْفًا. وَلَا يَزَالُونَ عَلَى هَذَا التَّخَوُّفِ وَالتَّحَرُّسِ وَالتَّوَهُّمِ وَطُولِ التَّدَاوِي لِغَيْرِ عِلَّةٍ حَتَّى يَنْتَقِلَ الْوَهْمُ إِلَى الْحَقِيقَةِ وَتَحُلَّ بِهِمُ الْأَمْرَاضُ الَّتِي أَعَدُّوا أَنْفُسَهُمْ لَهَا وَأَذْنَوْهَا نَحْوَهُمْ بِأَثَرِ التَّخَوُّفِ مِنْهَا وَالْمُدَاوِمَةِ عَلَى تَنَاوُلِ تِلْكَ الْأَدْوِيَةِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي تُنْهِكُ قُوَى الْجِسْمِ وَتُفْسِدُ الْمَعِدَةَ وَتُخِلُّ نِظَامَ التَّرْكِيبِ، فَيَسْتَلِمُهُمُ الطَّبِيبُ بِجَهْلِهِ وَطَمَعِهِ، فَإِذَا لَمْ تَنْتَهِ بِهِ بَرَاعَتُهُ إِلَى إِرَاحَتِهِمْ بِالْمَوْتِ عَاشُوا عَيْشَةً كُلُّهَا آلَامٌ وَأَوْصَابٌ إِلَى أَنْ يَقَعُوا فِي الْمَوْتِ مِنْ خَوْفِ الْمَوْتِ، وَيَذْهَبُوا إِلَى حَالِ سَبِيلِهِمْ، لَا هُمْ تَمَتَّعُوا بِالْحَيَاةِ وَلَا هُمْ نَجَوْا مِنَ الْمَوْتِ.

وَلَا تَسْتَبِعِدْ أَيُّهَا الْقَارِئُ أَنْ أَكْثَرَ هَذَا الْقِسْمِ يُخَدِّثُونَ الْأَمْرَاضَ لَأَنْفُسِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَيُعْجِلُونَ أَيَّامَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، فَإِنَّ لِلْوَهْمِ وَالْخَوْفِ سُلْطَانًا عَلَى النَّفْسِ وَالْجِسْمِ لَا يُوَازِيهِ سُلْطَانٌ فِي الْعَالَمِ، وَلَهُ أَعْظَمُ أَثَرٍ فِي فَسَادِ صِحَّةِ الْإِنْسَانِ،

فَيَخْتَلُ بِهِ نِظَامُ الْجِسْمِ، وَيُؤَدِّي بِهِ إِلَى الْهَلَاكِ، وَلِذَلِكَ لَا نَرَى بُدًّا مِنْ إِسْهَابِ الْقَوْلِ فِيهِ وَشَرْحِ أَثَرِهِ لِإِلْتِبَافِهِ إِلَى طَرَحِهِ وَإِضْعَافِ سُلْطَانِهِ، فَإِنَّ فِي الْإِقَامَةِ عَلَيْهِ وَالِاسْتِرْسَالِ فِيهِ شَقَاءَ الرُّوحِ وَسُقْمَ الْجِسْمِ، وَمِنْهُ تَسِيلُ يَنَابِيعِ الْأَخْزَانِ وَالْأَكْدَارِ، وَتَتَفَجَّرُ عُيُونُ الْغُومِ وَالْهُمُومِ.

(٧)

تَقَدَّمَ بِكَ الْقَوْلُ فِي شِدَّةِ تَأْثِيرِ الْخَوْفِ وَالْوَهْمِ وَسُوءِ فِعْلِهِ فِي النَّفْسِ وَالْجِسْمِ، وَأَنَّهُ إِذَا أَلْقَى الْإِنْسَانُ قِيَادَهُ إِلَيْهِ ذَهَبَ بِهِ فِي وَادِي الْعَذَابِ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَأَنَّهُ إِذَا تَمَلَّكَ النَّفْسَ نَسَبَتْ بِهِ فِي الْجِسْمِ مَخَالِبُ الْعِلَلِ وَالْأَسْقَامِ حَتَّى تُؤَدِّي بِهِ إِلَى الْهَلَاكِ وَالْفَنَاءِ. وَقَدْ أَجْمَعَ جِلَّةُ الْعُلَمَاءِ مِنْ أَطِبَّاءِ الْعَصْرِ الْحَاضِرِ بَعْدَ كَشْفِهِمْ وَبَحْثِهِمْ عَلَى أَنَّ مُجَرَّدَ التَّخَوُّفِ وَالتَّوَهُّمِ يُخْدِثُ أَمْرَاضًا فِي الْبَدَنِ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ سَبَبٍ سِوَاهُ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ. وَلَا مَحَلَّ هُنَا لِلشَّرْحِ وَالْبَيَانِ فِي أَبْحَاثِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ التَّشْرِيعِيَّةِ، وَإِنَّمَا نَذْكُرُ مِنْ ذَلِكَ مَا يَسْتَشْهِدُونَ بِهِ عَلَى قَوَاعِدِ الْعِلْمِ مِنْ بَرَاهِينِ الْحَوَادِثِ وَالْوَقَائِعِ الَّتِي شَاهَدُوهَا بِأَعْيُنِهِمْ وَمَارَسُوهَا بِأَنْفُسِهِمْ مِمَّا لَا يَقْبَلُ الشُّبْهَةَ وَلَا يُدَانِيهِ الرَّيْبُ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا نَذْكُرُهُ مِنْ مُشَاهَدَاتِهِمْ.

بِأَشَرِ أَحَدِ الْأَطِبَّاءِ تَشْرِيحَ مَيِّتٍ مَاتَ بِدَاءِ الْكَلْبِ،
 فَأَعْتَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ تَخَوُّفٌ شَدِيدٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ تَعَلُّقِ
 الْعَدَوِيِّ بِهِ وَانْتِقَالِ جَرَائِمِ الْمَرَضِ إِلَيْهِ، وَأَشْتَدَّ بِهِ تَوَهُُّمُهُ،
 فَأَخْلَ بِنِظَامِ جَسَدِهِ، فَتَوَلَّاهُ الْأَرْقُ وَفَقَدَ شَهْوَةَ الطَّعَامِ،
 وَانْقَبَضَتْ نَفْسُهُ عَنْ تَنَاوُلِ كُلِّ سَائِلٍ، وَعَافَ الشُّرْبَ. فَكَانَ
 إِذَا أَشْتَدَّ بِهِ الْعَطَشُ شَرِبَ الْمَاءَ قَسْرًا عَنْهُ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا
 يَكَادُ يُسَيِّغُهُ، ثُمَّ أَشْتَدَّ بِهِ الْحَالُ، فَهَامَ عَلَى وَجْهِهِ فِي
 الطَّرِيقِ ضَالًّا مُخْتَبِلًا مِنْ هَوْلٍ مَا هُوَ فِيهِ. وَأَذْرَكَ بَعْضُ
 أَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ صِنَاعَتِهِ حَقِيقَةَ حَالَتِهِ، وَأَنَّ بَلَاءَهُ هُوَ مِنْ
 أَثَرِ الْخَوْفِ وَالْوَهْمِ وَسُوءِ التَّصَوُّرِ، فَأَعْمَلُوا جُهْدَهُمْ فِي
 تَخْفِيفِ مَا بِهِ وَصَحْبُوهُ أَيَّامًا لَمْ يُفَارِقُوهُ فِيهَا، وَمَا زَالُوا بِهِ
 حَتَّى أَقْنَعُوهُ بِأَنَّهُ سَلِيمُ الْجِسْمِ مِنْ تِلْكَ الْعَدَوِيِّ، وَأَنَّ مَا بِهِ
 هُوَ مِنْ عَمَلِ التَّخَوُّفِ وَالتَّوَهُُّمِ، فَأَخَذَ يَنْسَى بِفَضْلِهِمْ تِلْكَ
 الْفِكْرَةَ الْقَائِمَةَ بِهِ، فَزَالَتْ عَنْهُ تِلْكَ الْحَالَةُ الْمُعْتَزِضَةُ،
 وَشَفِيَ مِنْهَا شِفَاءً تَامًا.

وَمِنْ الْأُمُورِ الْمُقَرَّرَةِ الَّتِي لَا يَكَادُ يَأْنَسُ لَهَا التَّصَوُّرُ
 أَنَّ مُجَرَّدَ الْخَوْفِ عَلَى مَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ أَقْوَالُ الْأَطِبَّاءِ
 يُولَدُ فِي الْجِسْمِ أَغْرَاضًا هِيَ أَغْرَاضُ دَاءِ الْكَلْبِ بِذَاتِهِ،
 حَتَّى أَعْتَقَدَ أَحَدُ مَشْهُورِيهِمْ أَنَّ الْخَوْفَ هُوَ سَبَبُ الْكَلْبِ

وَلَيْسَ سَبَبُهُ عُقْرُ الْكِلَابِ وَلُعَابُهَا. وَمِمَّا رَوَاهُ بَعْضُهُمْ أَنَّ
 كَلْبًا مِسْعَرًا عُقَرَ أَخَوَيْنِ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا عَلَى أَهْبَةِ السَّفَرِ
 فِي يَوْمِهِ إِلَى أَمْرِيكَةَ، فَسَافَرَ إِلَيْهَا وَغَابَ خَبْرُهُ عَنْ أَهْلِهِ
 مُدَّةً طَوِيلَةً، فَلَمَّا عَادَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ عِشْرِينَ سَنَةً غَفَلَ أَحَدُهُمْ
 فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ أَخَاهُ مَاتَ مِنْ إِثْرِ عَضِّ الْكَلْبِ، فَوَقَعَ تَأْثِيرُ
 ذَلِكَ عَلَيْهِ كَالصَّاعِقَةِ، وَرَقَدَ مَرِيضًا، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ أَغْرَاضُ
 دَاءِ الْكَلْبِ فِي أَقْصَى جِدَّتِهَا وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى مَاتَ.

وَكُتِبَ الْأَطِبَّاءُ مَشْحُونَةً بِكَثِيرٍ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ
 الْحَوَادِثِ، شَاهِدَةٌ بِأَنَّ الْجَانِبَ الْأَعْظَمَ مِمَّنْ يُصَابُونَ بِدَاءِ
 الْكَلْبِ لَمْ تَكُنْ إِصَابَتُهُمْ نَاشِئَةً إِلَّا مِنْ إِخْبَارٍ مَنْ أَخْبَرَهُمْ
 بِأَنَّ الْكَلْبَ الَّذِي عَضَّهُمْ كَانَ مِسْعَرًا، وَلَا يُمَكِّنُ لِلطَّبِيبِ
 أَنْ يُمَيِّزَ بَيْنَ الْإِصَابَةِ بِالْكََلْبِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْوَسْوَاسِ
 وَالْإِصَابَةِ النَّاشِئَةِ عَنْ عَذْوَى الدَّاءِ. وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ أَنْقَذَ
 الْأَطِبَّاءُ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ وَهُمْ عَلَى شِفَارِ الْمَوْتِ بِحُسْنِ
 مَهَارَتِهِمْ فِي تَسْلُطِ نَفُوسِهِمْ عَلَى نَفُوسِ الْمَرْضَى وَتَمَكُّنِهِمْ
 مِنْ إِقْنَاعِهِمْ وَإِزَاحَةِ غَمَّةِ الْوَسْوَاسَةِ وَالتَّخَوُّفِ مِنْ رُؤُوسِهِمْ.

وَقَدْ دُعِيَ أَحَدُ الْأَطِبَّاءِ لِمُعَالَجَةِ أَحَدِ الْمُصَابِينَ
 بِالْكََلْبِ بَعْدَ أَنْ يَتَّسَعَ مِنْ شِفَائِهِ جَمِيعُ رُفَقَائِهِ، فَأَخَذَ
 يَفْحَصُهُ فَخَصًّا دَقِيقًا، ثُمَّ مَالَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَثَمَ فَمَهُ

لِيُحَقِّقَ لَهُ خُلُوءَهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ، فَمَا لَبِثَ الْمَرِيضُ أَنْ
شَفِيَ مِنْ أَثَرِ تِلْكَ الْقُبْلَةِ الَّتِي اعْتَقَدَ بِهَا أَنَّ الطَّبِيبَ لَمْ
يَقْبُلْهُ إِلَّا بِأَهَا وَهُوَ آمِنٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ وُجُودِ ذَلِكَ
الْمَرَضِ وَاتِّصَالِ عَذَوَاهُ بِهِ^(١).

وَبِالْجُمْلَةِ، فَإِنَّ أَثَرَ التَّخَوُّفِ وَالْوَهْمِ عَلَى النَّفْسِ مِنْ
أَشَدِّ مَا يُقَاسِيهِ الْإِنْسَانُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَلَامِ فِي نَفْسِهِ. وَيُمْكِنُ
لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يُبْعِدَهُ عَنْهُ بِقَلِيلٍ مِنَ التَّثَبُّتِ وَسَلَامَةِ الْاِقْتِنَاعِ
وَالْتَّبَاعِدِ بِالْفِكْرِ عَنِ التَّدْرُجِ فِي الْهَوَاجِسِ وَتَحْكِيمِ سُلْطَانِ
الْخَيَالَاتِ الْبَاطِلَةِ عَلَيْهِ. وَمَنْ سَلَّمَ قِيَادَةَ فِكْرِهِ إِلَى الْأَوْهَامِ
وَالْخَيَالَاتِ فَسَدَتْ عَلَيْهِ عَيْشَتُهُ وَعَاشَ فِي مَا لَا يُوصَفُ
مِنَ الْأَلَامِ وَالْأَكْذَارِ، يَرَى الْمَوْتَ فِي كُلِّ لَفْتَةٍ، وَالْحَتْفَ
فِي كُلِّ لَحْظَةٍ.

تَمَّ الْجِزْءُ الْأَوَّلُ

[وهو الوحيد الذي صدر من هذا الكتاب]

(١) حَذَفْتُ هُنَا حِكَايَاتٍ لَا تَخْرُجُ فِي مَعْنَاهَا عَنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ.

الفهرس

٥ كلمة الناشر
٥ ترجمة المؤلف:
٨ ترجماته:
١١ مؤلفاته:
١٣ ترجمة الكاتب
١٣ نسبه:
١٦ أخلاقه:
١٩ سياسته:
٢١ أدبه:
٥١ من مصادر ترجمة المنفلوطي
٥٣ هذا الكتاب
٥٣ هذه الطبعة:
٥٥ هدية الكتاب
٥٧ مقدمة الكتاب

باب الفصاحة والبيان قسم المنظوم

- ٦٩ قُوَّةُ الْحُجَّةِ «لِأَعْرَابِي»
 ٧٠ تَهْذِيبُ الشُّعْرِ «لِعَدِي أَبْنِ الرَّقَاعِ»
 ٧١ وَصْفُ الْقَلَمِ «لِأَبِي تَمَامٍ»
 ٧٣ تَهْذِيبُ الشُّعْرِ «لِلْبُخْتَرِيِّ»
 ٧٤ سِخْرُ الْبَيَانِ «لِأَبِي تَمَامٍ»
 ٧٤ وَصْفُ قَصِيدَةِ «لَا بِنِ الرَّومِي»
 ٧٥ سَيَرُورَةُ الشُّعْرِ «لِلْمَتْنَبِيِّ»
 ٧٦ سَهْوَةُ الشُّعْرِ «لِإِسْمَاعِيلِ بْنِ بُرْدٍ»
 ٧٧ شِعْرُ فَيْكُتُورِ هِيغُو «لِحَافِظِ إِبْرَاهِيمَ»
 ٧٨ دِيْوَانُ الْفَرِيدِ دِي مُوسَى «لِخَلِيلِ مُطْرَانَ»

قسم المَثُورِ

- ٨٣ صِنَاعَةُ الْإِنْشَاءِ «لَا بِنِ الْمُعْتَمِرِ»
 ٨٦ الْإِرْتَاجُ «لَا حِدِ أَمْرَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ»
 ٨٧ فَصَاحَةُ رَسُولِ اللَّهِ «لِلْحَافِظِ»
 ٨٨ فَضْلُ الْبَيَانِ «لِلْحَافِظِ أَيْضاً»
 ٨٩ مَقَامَاتُ الْكَلَامِ «لِبَعْضِ الْكَتَّابِ الْمُتَقَدِّمِينَ»
 ٩٠ الْأَدِيبُ غَيْرُ الْكَاتِبِ «لِلْمُبَرِّدِ»

- ٩١ الفصاحة في الأسلوب «لأبي هلال العسكري»
- ٩٢ دعوى الأدب «للأمدي»
- مناظرة (بين صاحب أبي تمام وصاحب البخري) «للأمدي»
- ٩٨ أيضاً
- ١٠٦ فتنه القول «للجاحظ»
- ١٠٧ فصاحة جعفر بن يحيى «لبعض الكتاب المتقدمين»
- ١٠٨ حقيقة البيان «لبعض الكتاب المتقدمين»
- ١٠٩ فصاحة القرآن «للإقلاني»
- ١١٤ إعجاز القرآن «للقاضي عياض»
- ١١٧ الشعراء المحدثون
- ١١٩ نظرات المنفلوطي «لأحمد لطفي بك السيد»
- ١٢١ الشعر «لأحد الأدباء المعاصرين»
- ١٣٥ كلمة في التعريب «لحافظ أفندي إبراهيم»
- ١٤٣ الشعراء المعاصرون «لخليل مطران»
- ١٥٧ اللغة والعصر «للشيخ إبراهيم البارجي»
- ١٨٣ وصف شعر شكسبير «تعريب محمد السباعي»
- ١٨٥ الشعر «لمصطفى [صادق] الرافعي»
- ١٩٥ ماهية اللغة «لسعادة أحمد فتحي باشا زغلول»
- ٢٠٧ حقيقة الشعر «للأمير شبيب أرسلان»

- مُقَابَلَةٌ بَيْنَ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ وَالشُّعْرِ الْإِفْرَنْجِيِّ «للشيخ نجيب
الحدّاد» ٢١٣
- نَقْدُ دِيْوَانِ شَوْقِي «لمحمد بك المُوَيْلِحِي» ٢٣٨
- البيان «لأحد الأدباء المعاصرين» ٢٦٧
- المُوازَنَةُ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ «للشيخ محمد المَهْدِي» ٢٧٦
- ضُرُورَةُ التَّغْرِيبِ «للشيخ محمد الخَضْرِي» ٢٨٠
- أَدْوَارُ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ «لأحد الأدباء المُعاصِرِينَ» ٢٨٦
- وَصْفُ كِتَابِ النَّظَرَاتِ «لحافظ إبراهيم» [محمد حافظ بن
إبراهيم فهمي المهندس] ٢٨٩
- الإنشاء والعَصْرُ «لإبراهيم بك المُوَيْلِحِي» ٢٩٠
- نَقْدُ الدَّرَةِ الَّتِيْمَةِ «للشيخ إبراهيم [بن ناصيف] اليازجي» .. ٢٩٩
- جَوْهَرُ الشُّعْرِ «لإبراهيم بك [ابن عبد الخالق] المُوَيْلِحِي» . ٣٠٨
- وَصْفُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ «للشيخ محمد عَبْدُهُ» ٣١٤

باب الأدب والحكمة

قِسْمُ الْمَنْظُومِ

- الكَرَمُ «لحاتم الطائي» ٣٢١
- الإِيثَارُ «لحاتم الطائي أيضاً» ٣٢٢
- دُمُ الْغِيَةِ «لكنب بن زهير» ٣٢٣
- دُمُ الْغِيَةِ «لِبَعْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ» ٣٢٣

- ٣٢٤ فضل الأناة «للقطامي»
- ٣٢٦ السعادة «لبعض الشعراء المتقدمين»
- ٣٢٧ كرم الضيافة «لبعض الشعراء المتقدمين»
- ٣٢٧ التجلّد «لبعض الشعراء المتقدمين»
- ٣٢٨ القناعة «للعنابي»
- ٣٢٩ مكارم الأخلاق «لبعض الشعراء المتقدمين»
- ٣٣١ الصفح والإغضاء «للشريف الرضي»
- ٣٣٢ أدب الحديث «لأبي تمام»
- ٣٣٣ الرياء «لأبن الرومي»
- ٣٣٣ العفة «للإلي الأخيلية»
- ٣٣٤ القناعة «لأبن الرومي»
- ٣٣٥ القناعة «لبعض الشعراء المتقدمين» [وينسب لأبي العتاهية]
- ٣٣٦ حبّ البين «لبعض الشعراء المتقدمين»
- ٣٣٧ كتمان السرّ «للمسكين الدارمي»
- ٣٣٨ الشورى «لبشار بن برد»
- ٣٣٩ المغفرة «لأبي العتاهية»
- ٣٤٠ إكرام النفس «لأبن مطير»
- ٣٤١ السعادة النفسية «لبشار»
- ٣٤١ الحرّية «لأبي تمام»

- ٣٤٢ عاقبة الجهالة «لأبي نواس»
- ٣٤٢ الصداقة الكاذبة «لأبي تمام»
- ٣٤٣ الثقة «لبنعش الشعراء المحدثين»
- ٣٤٣ مكارم الأخلاق «للشريف الرضي»
- ٣٤٤ القناعة «لأبي تمام»
- ٣٤٥ الصديق «لأبي العتاهية»
- ٣٤٥ كلمات في الحكمة «للمعري»
- ٣٤٦ الملك أجير الرعية
- ٣٤٦ رياء الوعظ
- ٣٤٧ لا علاج لشور العالم
- ٣٤٧ سلطان العقل
- ٣٤٨ رياء العباد
- ٣٤٨ شور العالم
- ٣٤٩ الموت طهارة من الحياة
- ٣٤٩ قسمة الأرزاق
- ٣٤٩ دم البطالة
- ٣٥٠ الرفق بالحيوان

٣٥٠	أَيْنَ الْحَقِيقَةُ؟
٣٥١	حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ
٣٥١	خُرَافَاتُ النِّسَاءِ
٣٥١	رَاحَةُ الْمَوْتِ
٣٥٢	الْعِفَّةُ
٣٥٢	بَقَاءُ الْمَادَّةِ
٣٥٢	الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى
٣٥٣	الدِّينُ الْمُعَامَلَةُ
٣٥٣	تَأْوِيلُ الْفُقَهَاءِ
٣٥٣	تَعْلِيمُ الْمَرْأَةِ
٣٥٤	الرَّفَقُ بِالْعَمِيَّانِ
٣٥٤	مُسَاعَدَةُ الضُّعَفَاءِ
٣٥٥	حُكْمُ الْعَادَةِ
٣٥٥	الْجَرَائِمُ
٣٥٥	خُرَافَةُ الرَّمَالِينِ
٣٥٦	دَمُ الشَّرَابِ
٣٥٦	تَبْرِجُ النِّسَاءِ
٣٥٧	دَمُ النَّسْلِ
٣٥٧	حِكْمَةُ الزَّكَاةِ

- ٣٥٨ الحِلْمُ «لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ» [وَيُنْسَبُ لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ]
- ٣٥٨ أَلَمُ الْمَوْتِ «لِلْمُتَنَبِّيِّ»
- ٣٥٩ حُبُّ الْحَيَاةِ «لِلْمُتَنَبِّيِّ أَيْضاً»
- ٣٥٩ الشُّجَاعَةُ «لِلْمُتَنَبِّيِّ أَيْضاً»
- ٣٦٠ الْأَشْرَارُ حَزَبُ الْأَخْيَارِ «لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ»
- ٣٦٠ تَحْيِينُ الْفُرْصَةِ «لِلْأَبِي الْعَتَاهِيَةِ»
- ٣٦١ الْإِبَاءُ «لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُحْدِثِينَ»
- ٣٦١ الْحُبُّ الْمُعْتَدِلُ «لِلشَّرِيفِ الرَّضِيِّ»
- ٣٦٢ عِزَّةُ النَّفْسِ «لِبَغْضِ الشُّعْرَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ»
- ٣٦٢ كَلِمَاتُ «لِمَحْمُودِ بَاشَا سَامِي الْبَارُودِيِّ»
- ٣٦٢ دَخَائِلُ الْقُلُوبِ
- ٣٦٣ تَقَلُّبَاتُ الْأَيَّامِ
- ٣٦٤ جَرَيَانُ الْمَقَادِيرِ
- ٣٦٤ شُرُورُ الْعَالَمِ «لِأَخِي شَوْقِي بِكَ»
- ٣٦٦ كَلِمَاتُ «لِإِسْمَاعِيلِ بَاشَا صَبْرِي»
- ٣٦٦ الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ
- ٣٦٧ رَاحَةُ الْمَوْتِ
- ٣٦٧ الْوَفَاءُ
- ٣٦٧ سِجْنُ الْفَضِيلَةِ «لِحَافِظِ إِبْرَاهِيمَ»

قِسْمُ الْمَثُورِ

- ٣٧١ وَصَايَا حِكْمِيَّة «من أغرابيَّة لَوْلَدَهَا»
- ٣٧٢ أَدَبُ الزَّوْجَةِ «لِأَغْرَابِيَّة تُوصِي أَبْنَتَهَا لَيْلَةَ الْبِنَاءِ بِهَا»
- ٣٧٣ كَلِمَاتٌ فِي الْأَخْلَاقِ «لِعَلِيَّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ»
- ٣٧٣ عَلُوُّ الْهِمَّةِ
- ٣٧٤ حُسْنُ الْعِشْرَةِ
- ٣٧٤ الْاِغْتِدَالُ
- أَدَبُ الْحَاشِيَةِ «لِأَحَدِ الْأُمَرَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ» فِي وَصِيَّتِهِ إِلَى أَحَدِ
- ٣٧٥ رِجَالٍ خَاصَّتِهِ
- ٣٧٦ كَلِمَاتٌ فِي الْأَدَابِ «لِابْنِ الْمُقَفَّعِ»
- ٣٧٦ دَعْوَى الْعِلْمِ
- ٣٧٧ أَصُولُ الْأَخْلَاقِ
- ٣٧٨ شَرَفُ الْمُرُوءَةِ
- ٣٧٩ سِيَاسَةُ الْاِقْتِصَادِ
- ٣٧٩ الشُّورَى
- ٣٨٠ رِضَى النَّاسِ
- ٣٨٠ الصَّدَاقَةُ
- ٣٨٠ الصَّبْرُ
- ٣٨١ سُكْرُ الرِّضَى وَالْغَضَبِ
- ٣٨٢ الْاِخْتِمَالُ

٣٨٢	الرَّفْعَةُ فِي التَّوَاضُّعِ
٣٨٣	الْحَسَدُ
٣٨٣	الصُّدُقُ
٣٨٣	فُضُولُ النَّظَرِ
٣٨٤	الثَّقَّةُ بِالْأَصْدِقَاءِ
٣٨٥	غَرَائِزُ النَّاسِ
٣٨٥	آفَةُ الْفَقْرِ
٣٨٦	الْمَوَدَّةُ
٣٨٦	الْحَقْدُ
٣٨٦	الْحَزْمُ
٣٨٧	الْمَوَدَّةُ الْكَادِبَةُ
٣٨٧	أَدَبُ الْحَدِيثِ
٣٨٨	الْهَوَى
٣٨٨	الْكَمَالُ الْإِنْسَانِي
٣٨٩	الْأَقْسَامُ
٣٨٩	أَدَبُ الثَّرِيَّةِ «لِهَاوُونَ الرَّشِيدِ»
٣٩٠	الْاِقْتِصَادُ «لِلْبَدِيعِ الْهَمْدَانِيِّ»
٣٩٢	أَيُّهَا الْمَحْزُونُ «لِمُحَمَّدِ بْنِ الْمُؤَيْلِجِي»
٤٢١	الْفَهْرَسُ